

باحثات

كتاب متخصص يصدر عن تجمّع الباحثات اللبنانيات

هيئة التحرير:

فادية حطيّط
مارلين نصر
حُسن عبود
إلهام كلاب

الكتاب الثالث عشر: ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩

النساء والمال

الآراء الواردة في الأبحاث لا تعبر عن وجهة نظر
تجمّع الباحثات اللبنانيات، بل تعبر عن آراء كتّابها.

أنجز هذا الكتاب بدعم من

- جمعية مصارف لبنان
- المركز الدولي للتربية (مؤسسة فورد)
- شركة آرابيا للتأمين

السعر

لبنان	: 20.000 ليرة
سوريا	: 700 ليرة
المغرب	: 100 درهماً
مصر	: 50 جنياً
الأردن	: 10 دنانير
إ.ع.م	: 60 درهماً
السعودية	: 60 ريالاً
تونس	: 12 ديناراً
الكويت	: 5 دنانير
أوروبا وأميركا	: 15 دولاراً
أو ما يعادله	

تجمّع الباحثات اللبنانيات

لبنان - بيروت - الصنائع -
مركز توفيق طيارة الاجتماعي

ص.ب: 113 / 5375

تلفاكس: 961-1-739726

E-mail:

info@bahithat.org

موقع إلكتروني:

www.bahithat.org

طباعة وتوزيع:

المركز الثقافي العربي

ص.ب: 113 / 5158

بيروت - لبنان

المحتويات

المقدمة لجنة التنسيق ٦

دراسة محورية:

النساء المتعاملات مع المصارف في لبنان سوزان أبو رجيلي ١٥

السلوك المالي للنساء وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والنفسية

- ٤٠ فضاء للقوة أم فضاء للعيش: عالم النقود لدى المرأة المصرية العاملة . أحمد زايد
- ٧٧ نساء كاتبات وحقوق الملكية في لبنان مود أسطفان - هاشم
- ١٠٤ المال والنزاعات الزوجية عائشة حرب
- ١٣٤ علاقة النساء بالمال: قراءة نفس- تحليلية عدنان حب الله

الوضع الاقتصادي للنساء بين الهجرة والاستقرار

- ١٦٧ الوضع الاقتصادي لنساء مغربيات مهاجرات (بالفرنسية) محمد خشاني
- ١٦٨ ملكية الجدّات وانعكاساتها على سلوك النساء المالي عند الطوارق ... مريم بوزيد
- ١٨٤ العازبة المهاجرة والمال دلال البزري

نساء عربيات سيدات أعمال

- ٢٠٠ المرأة العربية سيدة الأعمال: قراءة سوسيولوجية عائشة التايب
- ٢٢٨ المرأة السودانية سيّدة أعمال في المشاريع الصغيرة وداود عبد الرحمن
- ٢٤٥ سيدات الأعمال السعوديات والاستثمار المالي حُسن عبود
- ٢٧٥ تجربة النجاح المهني والمالي لدى الشابات اللبنانيات نهى بيومي

نساء ومال في الفنون

- ٣٠٦ الحقيبة النسائية: تاريخ ودلالات إلهام كلاب
- ٣٣٧ الثراء وجسد المرأة ما بين الفن الاسلامي والفن الاستشراقي هند الصوفي

وجهات نظر وشهادات

- ٣٦٨ علاقة المرأة بالمال: مسألة تربية أم جينية؟ فدوى مردم بك منصور
- ٣٧٠ قرش على قرش جهاز؟ رشا الأمير
- ٣٧٥ المرأة تخط سترتها رية العيتاني
- ٣٧٨ الناس للناس سحر جلال الدين الجبيلي
- ٣٨٣ في تجربة مديرة مصرف ناريمان الساحلي
- ٣٨٥ اقترضت المرأة مالا فاغتنت، وتدافعت مشاريعها وطفى حمادة
- ٣٩٠ تجربة امرأة قي قيادة شركة عائلية سارة الجاسم
- ٣٩٤ المرأة والمال من منظور إسلامي: مداخل متعددة هبة رؤوف عزت

الملاحق

- ٣٩٨ ملحق رقم ١: نبذة عن الأبحاث
- ٤٠٥ ملحق رقم ٢: السيرة الذاتية
- ٤١٣ المحتويات باللغة الأجنبية

المقدمة

يشهد وضع المرأة اليوم تبديلاً جذرياً في العديد من المجالات. وبالرغم من حظوظ النساء المتفاوتة في الحصول على العلم أو في مزاولة العمل، فإن شريحة كبيرة من النساء اللبنانيات والعربيات تحتل اليوم مواقع متقدمة في المجالات الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والسياسية كافة.

ويلاحظ أن الشأن المالي يشكل اليوم مجالاً جذاباً للنساء سواء في اختيار الاختصاص الجامعي أو في اختيار المهن المصرفية والإدارية، حيث يتتالي بروز أسماء نسائية عديدة متألفة وناجحة في دنيا المال والأعمال. وعلى الرغم من ذلك ندرت الدراسات التي عالجت كيفية انعكاس تبدل الوضع المالي للنساء على شؤونهن الخاصة والعامة، داخل البيت وخارج البيت، وبالتحديد كيفية انعكاس هذا التغيير على سلوك النساء في هذا العصر، في كل مجالات الحياة. وتولد عن هذا الواقع العديد من الأسئلة: كيف تتجلى علاقة المرأة بالمال؟ كيف تتبدل؟ كيف تتطور؟ وما هي العوامل المؤثرة في تطورها؟ وهل تعتبر المرأة العاملة أكثر قدرة مالية من قبل؟ وكيف تنعكس ملكية المال على شعور التقدير للذات وعلى طبيعة الإنفاق والمشاركة في الحياة العامة؟

لجنة التنسيق

وبالأخص هل غير المال في الخصائص الشخصية التي عرفت بها النساء طويلاً، أي التضحية والاحتضان وبذل الذات والغيرية؟

هذه الأسئلة دفعتنا إلى تلمس الإجابة لدى باحثين في مجالات متنوعة، حاولنا فيها أن نغطي كافة جوانب الموضوع المطروح والأسئلة الناجمة. وبالطبع كما في كل كتب «باحثات» ما حصلنا عليه من دراسات وأبحاث لم يطل كل الجوانب التي رغبتنا بطرحها، ولكنها من جهة أخرى أضاعت على جوانب لم ننتبه إلى أهميتها. ثم ارتأينا ان نعقد حلقة دراسية حول المواضيع التي تضمنتها الدراسات المطروحة، شارك فيها إضافة إلى دارسيها، باحثون وباحثات ، متنوعو الاختصاصات، ناقشوا الأوراق المقدمة وتبادلوا الخبرات والأفكار المتنوعة مما أثرى الأوراق المقدمة، وأيضاً فتح المجال أمام طروحات جديدة لم تكن واردة في السابق.

إن القراءة التقاطعية لنتاج الأبحاث والدراسات التي كانت حصيلة الاستكتاب والمناقشة يمكنها أن تكشف عن الكثير من الأفكار الجديدة والمختلفة. ومن جهتنا نشير إلى الاستخلاصات التي رأينا أنها تنبئ عن توجهات أساسية حالياً في علاقة المرأة العربية بالمال نجملها في ما يأتي:

أولاً: يتبين ان السعي للحصول على المال أخذ يدخل في عداد طموحات النساء الشخصية. فالنساء سيدات الأعمال لم يعدن ظاهرة استثنائية بل يمثلن شريحة تتنامى باضطراد في كافة المجتمعات العربية. كما ان هذه الفئة لم تعد مقصورة على الشرائح الميسورة في المجتمع بل اخذت تظهر ايضاً وبأعداد ملحوظة في الشرائح الاجتماعية المتوسطة والفقيرة التي تحاول نساؤها جاهدة ان تؤسس مشاريعها الصغيرة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المساعي ليست آتية من فراغ، بل إنها تشكل، كما تشير بعض الأبحاث، إعادة إحياء لتراث قديم في ملكية المرأة للثروة وانصرافها للمبادرة في إنشاء المشاريع، والمتاجرة، وجني الأموال واستثمارها.

ثانياً: يمكن ايضاً الإستقراء من الدراسات المنشورة ارتباط سلوك المرأة العربية المالي بمفهوم الرأسمال الاجتماعي، اذ يبدو ان ميلهنّ التاريخي للتضحية والغيرية والعطاء، ما زال سائداً في سلوكهنّ المالي حتى لدى المستقلّات مادياً. ويظهر ايضاً أن مجال توظيف هذا الرأسمال الاجتماعي من قبل النساء ينصبّ بشكل خاص في مجالهنّ العائلي والأسري، وبصورة رئيسية لفائدة الأولاد. إلا أن بعض النتائج الواردة في الأبحاث التي تناولت الأجيال الشابة من الإناث، تدفعنا الى

التساؤل عما اذا كنا نشاهد حالياً في المجتمعات العربية، وبصورة خاصة لدى المهاجرات للعمل في الخارج، نوعاً من الازدواجية في السلوك المالي وثنائية بين دوافع شخصية للانطلاق المهني والكسب المالي وتحقيق الذات من جهة، ودوافع جماعية تصب في تنمية قدرات العائلة، او امتلاك منزل وتكوين أسرة من جهة أخرى؟

من هنا وفي السياق نفسه نطرح السؤال التالي: هل تؤدي القدرة المالية المتنامية لدى المرأة اللبنانية والعربية الى تحسين موقعها وتنمية قدرتها داخل الأسرة وفي المجتمع، ام انها تشكل فقط رافداً إضافياً تساهم من خلاله في تعزيز رفاهية أسرتها وتسديد حاجاتها؟.

ثالثاً: ظهر أيضاً من خلال المنظور الجندي (Gender Perspective) ان الفارق بين السلوك المالي للشبان والشابات، في مساهم/ن المهني وسعيهم/ن لكسب المال، أخذ يتقلص في الآونة الأخيرة. إذ أن المهنيات - العازبات خاصة - صرن يهاجرن مثلهن مثل الشبان، للحصول على مركز مهني أفضل أو لفتح مشروع استثماري. وفي بعض الحالات نلاحظ أن هدف بناء مركز وخبرة مهنية أخذ يسبق عندهن الأهداف الأخرى الملازمة تقليدياً للأنوثة. وكما لدى الذكور في الماضي والحاضر، أصبح هاجس الشابات في بناء عائلة يأتي من حيث الأولوية بعد هاجسهن لتحقيق تجربة مهنية ناجحة (Carrière).

رابعاً: وعلى عكس ما كنا نعتقد، تبين من بعض ما جاء في الأبحاث أن توظيفات المرأة في المجال المالي، لا تلاقي اعتراضاً من جانب الثقافة الدينية الإسلامية، بل إن التشريعات لا تميّز في تقديرها بين سعي النساء لجني المال وسعي الرجال له، شرط الا يتعارض ذلك مع واجبات النساء الأسريّة، التي تحتل المرتبة الاولى في نظر الدين، وبصورة خاصة ألا يعيق دورهن في إنجاب الاولاد وتربيتهم.

خامساً: تبين لنا إن حدسنا حول أهمية موضوع المال في علاقته بالنساء كان صائباً. إذ بينت الأبحاث ان المال هو عامل محوري ومركزي يلعب دور الكاشف للتفاعلات والتناقضات النفسية والاجتماعية، كما انه يساهم في تفجير المكبوت في العلاقة بين افراد الجنس الواحد كما في العلاقة بين الجنسين، لا سيما عندما تلعب المرأة دوراً فاعلاً في جنيهِ والتصرف به.

هذه بعض التوجهات التي يضمها كتابنا هذا «النساء والمال» الذي هو خلاصة جهد جماعي تجسّد في إسهامات باحثين وباحثات من لبنان والعالم العربي، تمحورت كلها حول تحليل علاقة المرأة اللبنانية والعربية بالمال والثروة، وتمثلات هذه العلاقة على الصعيد الفردي والاجتماعي والثقافي. ولقد سعينا إلى توسيع المجال الجغرافي للدراسات إلى أكبر قدر ممكن، فامتدّ من لبنان إلى مصر إلى السعودية إلى تونس إلى السودان إلى الجزائر إلى المغرب. كما جهدنا في تنوع المقاربات التي تراوحت ما بين الاقتصادية المالية إلى السوسولوجية والنفسانية دون أن نغفل المقاربات الذاتية الحرة.

أما عن تقسيم الكتاب فهو استهل بدراسة ميدانية محورية صمّمها مجموعة من الأخصائيين وأعدتها الدكتورة سوزان أبو رجيلي عن سلوك «النساء المتعاملات مع المصارف في لبنان» بهدف التعرف الى هذا السلوك وخصائصه، ودراسة العوامل المؤثرة فيه، والنتائج العلمية المترتبة عليه. وأتاح تبني جمعية المصارف في لبنان لهذا البحث وتأمين تمويله وتوزيعه الاستثمارات على فروع المصارف على امتداد الأراضي اللبنانية، الحصول على معلومات كثيفة وقيّمة. وأظهرت الدراسة الفروقات في هذا السلوك بين الرجال والنساء وبين المناطق والمهن، وتساعد نتائجها على تكوين صورة لخصائص النساء المتعاملات مع المصارف وإبراز اتجاهاتهن إزاء المال في علاقاتهن بأسرهن وبالنمط الاستهلاكي السائد.

ثم توزعت تالياً أقسام الكتاب على أربعة محاور أساسية تضمنت دراسات وقرءات لأوضاع النساء المالية من زوايا مختلفة، إضافة إلى محور وجهات نظر قدّمت فيه شهادات وتجارب شخصية أغنت الكتاب ببعدها الإنساني.

في المحور الأول: السلوك المالي للنساء: انعكاسات اجتماعية- نفسية

قدم الدكتور أحمد زايد ورقة تحت عنوان «المرأة وعالم النقود: فضاء للعيش أم فضاء للقوة» منطلقاً من فرضيته الأساسية وهي أن المرأة المصرية عندما تعمل وتكسب مالاً خاصاً فإنها لا تحقق بهذا المال قدراً من الاستقلال الذاتي ومن القدرة على اتخاذ القرارات فحسب، بل هي توجه هذه القدرة والاستقلالية للمحافظة على الأسرة وتأمين استقرارها، أي أنها تستخدم هذه القدرة لدعم الأسرة ودعم الجيرة وخلق فضاء للعيش وفضاء للحياة. لذا أجرى الباحث مقابلات ميدانية معمقة مع ثلاثين سيدة مصرية متزوجات ولديهن أولاد ويعملن في وظائف مختلفة، وتوصل

الى ثلاثة أنماط من السلوك المالي: النمط الاجتماعي، النمط الانسحابي، ونمط القوة. ويتفرع هذا الأخير الى النمط الحذر أو المرفه أو الشارد. وشدّد عل أن المال يمنح المرأة المصرية استقلالية وقدرة توظفهما في الحرص على الأبناء ورعايتهم والإسهام في رأس المال الاجتماعي.

الدراسة الثانية كانت للدكتورة مود اسطفان هاشم التي حملت العنوان التالي: «نساء كاتبات وحقوق الملكية في لبنان» تطرقت الى افتقار المهن الكتابية والفنية والإبداعية في لبنان والبلدان العربية الى قوانين تنظيمية وتأمينات اجتماعية، وركزت من خلال مقابلة ثلاثة روائيين وثلاث روائيات على علاقة المؤلف بالناشر والشعور بالاستغلال وفقدان الثقة والنظرة لسوق الكتاب ومعنى الشهرة. وتبين للباحثة أن المجتمع لا يزال ينظر الى كتابة الروائيات، كهواية أكثر من احتراف ولذا يكون رهان المرأة الكاتبة مزدوجاً، قيمة معنوية للمردود المادي مضافة الى قيمته الحقيقية، وكأن الكتابة اختراق للسائد.

أما الدراسة الثالثة فكانت للدكتورة عائشة حرب زريق حول «المال والنزاعات الزوجية». انطلقت الباحثة من تبيان أهمية المال في الحياة اليومية والحياة الزوجية خاصة، حيث يمكن أن يتحول إما الى وسيلة لتحسين الحياة أو نهج للنزاعات والمشاجرات والخلافات الحادة بين الزوجين. وفي استطلاع للرأي حول الموضوع أجرته على عينة من ألف سيدة، نصفهن عاملات، تبين أن الخلافات تزداد حدة بمعدل ثلاثة أضعاف عند النساء العاملات، وبسبب تنازع السلطة والإنفاق يصبح المال عاملاً مساهماً في إنهاء الحياة الزوجية بالفرقة أو الطلاق.

ولقد خصص القسم الأخير في المحور لدراسة الدكتور عدنان حب الله بعنوان: «علاقة المرأة بالمال: قراءة نفسية تحليلية»، من أجل تقديم قراءة نفسانية معمقة لأنماط العلاقة التي تقيمها النساء مع الجنس الآخر عبر وسيط المال. انطلق فيها من رؤية المدرسة التحليلية من فرويد الى لاكان، وتوصل إلى تبيان وظيفة المال في التعويض الذي تستشعره المرأة عن قدر الدونية الذي مُنيت به تاريخياً بسبب العنصرية التي قامت على التمييز ضد النساء. وأعطى بعض الشواهد في هذا التعويض من خلال التعبير بالهدايا، أو من خلال نماذج بائعات الهوى في مبادلتهم الجنس بالمال في نوع من الاحتقار الضمني للشريك انتقاماً لموقعهن الدوني، أو من خلال نماذج بيع الجمال بالمال، في مقابل رفض النساء التشييء .

المحور الثاني حمل عنوان «الوضع الاقتصادي للنساء بين الهجرة والاستقرار».

تضمن هذا المحور بحثاً للدكتور أحمد خشاني عن «الوضع الاقتصادي لنساء مغربيات مهاجرات». بدأ الباحث بعرض مدى توسع ظاهرة هجرة النساء في العالم التي توازي تقريباً نصف مجموع المهاجرين. ويشكل المغرب نموذجاً هاماً لهذه الظاهرة، حيث تهاجر النساء بسبب سوء الأوضاع المادية. ولكن موجات الهجرة المتواصلة أوجدت واقعاً متغيراً للمرأة المهاجرة التي اعتبرت هجرتها الأولى تحدياً لتماسك الجماعة، بينما ينظر إليها اليوم بوصفها اختياراً حراً لفرد مستقل يصنع مجريات حياته.

في البحث الثاني تطرقت الدكتورة مريم بو زيد الى النساء والملكية العقارية في بلاد الطوارق، تحت عنوان «ملكية الجدات وانعكاساتها على سلوكيات النساء المالية عند الطوارق». بدأت الباحثة بتعريف ملكية الجدات «الخبس» المتمثلة في جنان النخيل ومنابع المياه والمسكن التي انتقلت للنساء في زمن تاريخي سابق. وبما أن عمل النساء وأموالهن تعتبر ملكية خاصة لا يتدخل فيها الرجال، لذا يجري توارثها بين نساء العائلة. وبالرغم من سلوكيات العصر الاستهلاكية التي دخلت اليوم هذا المجتمع فإن هدف نساء الطوارق يبقى حلّ المعضلات الأسرية، وإصلاح ذات البين، ومؤازرة النساء في أوقات الشدة.

في البحث الثالث وهو بعنوان «العازبة المهاجرة والمال: التمرد، الرضا، الحرية والشريك الجديد» بدأت الباحثة الدكتورة دلال البزري بتقديم مؤشرات الهجرة النسائية في لبنان حالياً وهي هجرة شابات عازبات صاحبات مهارات وشهادات عليا ضاقت بهن سبل الكسب في لبنان. ثم انطلقاً من عينة من عشر شابات هاجرن الى بلدان الخليج والغرب في أعمار تتراوح بين ٢٥ سنة و٥٦ سنة ومن خلال إجاباتهن على استطلاع مفصل لأوضاعهن، تبين أن الشابات يترجحن في اختياراتهن بين قطبين: إما الاطمئنان والاستقرار المتجسد بامتلاك منزل في أرض الهجرة، وإما إرادة الحرية والانتقال والهجرة المتواصلة.

المحور الثالث: «نساء عربيات سيدات أعمال».

في البحث الأول عالجت دكتورة عائشة التايب موقع «المرأة العربية صاحبة

الأعمال قراءة سوسولوجية لإدارة المرأة والمال والأعمال» فعرفت بالشخص المقاول أو صاحب العمل رجلاً كان أم امرأة الذي يتحمل مسؤولية المؤسسة، وقدمت نماذج المرأة الوارثة أو سليلة العائلات، ونساء الصناعات المتوسطة، ونساء قطاع الخدمات، وصغار المنتجات في المجال الحرفي والصناعي والتاجر الحرفيات والمؤسسات الصغرى. ثم عالجت في القسم الثاني من الدراسة الحجم المتنامي لحضور المرأة العربية صاحبة الأعمال كواقع مؤثر في الواقع الاقتصادي العربي وزيادة تأثيره. هذا الواقع، دفع بالنساء الى تأسيس المنظمات والجمعيات الخاصة بصاحبات وسيدات الأعمال وإلى التنسيق فيما بينهن على الصعيد العربي بغية تنظيم أنشطتهن الاقتصادية.

البحث الثاني كان للدكتورة وداد عبد الرحمن عن «المرأة السودانية سيدة أعمال في المشاريع الصغيرة»، فقدت عرضاً لشريحة سيدات الأعمال للمشاريع الصغيرة في السودان والتي تشكل ٥٤٪ من السيدات الناشطات اقتصادياً وتعمل ١٥٪ منهن في بيع الأغذية . وبيّنت في دراستها ارتباط هذه الأعمال بسبب حدة الفقر. كما قدمت صورة واقعية لأوضاع المرأة العاملة في هذا القطاع الذي يستقطب العدد الأكبر من النساء، ويسهم في الاقتصاد القومي. ومن خلال دراسة تحليلية ارتكزت على مقابلات معمقة مع ٧٥ امرأة من السيدات العاملات، قامت الباحثة بعرض بعض الأنماط من الإنفاق وسبل التمكين وعلاقتها بالإيديولوجية الذكورية والنظريات السلوكية بين منفعة الفرد، ومنفعة الجماعة المؤدية إلى تطوير الرأسمال الاجتماعي.

أما البحث الثالث فكان للدكتورة حُسن عبّود بعنوان «سيدات الأعمال السعوديات» عرضت فيه لمجموعة من سيدات الأعمال السعوديات الناشطات في الشركات الاستشارية المالية والخدمات المصرفية والإنشاءات التجارية والصناعية. سجّلت خلفية هؤلاء السيدات العائلية والعلمية والعملية، ومن ثمّ مسارات عملهن وإداراتها، وتعريفهن للقيادة الناجحة. وتوقّفت عند حرية العمل المتاحة للمرأة في عالم مستقلّ عن عالم الرجل مما يخلق عالَمين منفصلين: عالم الرجال وعالم النساء. وهو وإن يفسح المجال للمرأة للعمل مع المرأة ورفع البطالة عنها، فهو يؤدّي الى مجتمع مجتزئ وشديد التمييز بين الجنسين، تجاهد المرأة فيه لإثبات نفسها في ظلّ أوضاع قانونية وأعراف اجتماعية صعبة.

الدراسة الرابعة في المحور خصصت للواقع اللبناني وقدمتها الدكتورة نهى البيومي عن «تجربة النجاح المهني و المالي لدى الشابات اللبنانيات» من خلال مقابلات مطوّلة مع مجموعة من الشابات الناجحات في مهنتهن. فعرّفت بأوضاعهن ومجالات تخصصهن وبانصرافهن التام والمطلق، عكس الجيل السابق من النساء، الى بناء موقعهن الإداري وملاحقة نجاحهن المهني. كما عمدت إلى مقارنة نتائج هذه المقابلات مع الجيل السابق من النساء متوقّفة عند تبدل وظيفة المال لدى الجيلين.

المحور الرابع: «نساء ومال في التراث والفنون».

في البحث الأول حللت الدكتورة الهام كلابّ علاقة المرأة بحقيبة اليد النسائية ومحتواها المادي والضمني تحت عنوان «الحقيبة النسائية تاريخ ودلالات». ارتكزت الدراسة على ملاحقة ظهور الحقيبة في اللقى الأثرية واللوحات الفنية والصور الفوتوغرافية، والنصوص الأدبية والأفلام وصور الشارع. فمن ناحية التاريخ، انتقلت الحقيبة من أيدي الرجال الى أيدي النساء، ومن جيب داخل الثوب الى خارجه، ومن أيدي العمال الى أيدي الموسرين. من ناحية الدلالات، بدت الحقيبة كامتداد عملي لذراع النساء وأجسادهن. أما لجهة المفاهيم، فلقد بينت الكاتبة، من خلال مقارنة ميدانية مع نساء من طبقات وأعمار مختلفة، أهمية العلاقة بين الحقيبة وأسرارها، وتبادل القيمة بين الحاوي والمحتوى، وأخلاقيات «كيس المال»، وتماهي المرأة بحقيبتها، واحتواء عالمها السري الحميم.

في البحث الثاني ، تطرقت الدكتورة هند الصوفي الى موضوع «في معاني الثراء والأبعاد الرمزية لتساوير المرأة والحلي»، فتوقفت عند الحلى والجواهر التي حملت طابعاً رمزياً وطابعاً اجتماعياً، في الحضارتين الأوروبية والإسلامية حيث قامت بتحليل لرسم الحلى في الفن الإسلامي مقارنة مع مثيلاتها في الفن الغربي. وتطرقت الى رسوم المنمنمات الإسلامية والى فن الاستشراق الذي صبغ الجسد الأنثوي الشرقي بالحلى والأحجار الكريمة وطبع المتخيل العام بتبذير نساء هذه المجتمعات وثرائهن.

المحور الخامس: وجهات نظر

يضم هذا المحور شهادات وتجارب شخصية وبعض المقاربات الفكرية

المباشرة للموضوع. حاولنا فيها أن نطال مناطق من الموضوع بشكل قريب ومباشر قد لا تستطيع الدراسات المنهجية المتوسعة النظر فيه واستكناه مدلولاته المعيشة. من هنا طرحت فدوى منصور بشكل وامن إشكالية علاقة المرأة بالمال متسائلة عن مدى تجذر الرغبة بالمال لدى بعض النساء. كما رسمت رشا الأمير في نص أدبي موضوع التدبير لدى المرأة. وقدمت ربا العيتاني شهادة عن واقع حالها كامرأة مستورة تحاول تدبير شؤون حياتها بما تيسر. وارتأت سحر الجبيلي ان تقدم نموذجاً حديثاً عن تجربة تطوع بعض النساء في عمل الخير وكيفية تحوله إلى مؤسسة ناشطة هي «جمعية أهلنا». أما ناريمان الساحلي فتعطينا شذرات من تجربتها كمديرة مصرف وعلاقة ذلك بتكوينها العلمي وبطموحها الشخصي. وتنظر وطفى حمادة في تجربتها الشخصية في إدارة منزلها المالية على ضوء بعض النظريات المستمدة من برامج التنمية. ثم تعطي سارة الجاسم لمحة عن تجربتها في مؤسسة ذات طابع عائلي وحجم الصعوبات التي واجهتها. أخيراً نختتم المحور مع هبة رؤوف عزة التي عرضت باقتضاب عدّة آراء فقهية متنوعة ومتعارضة حول علاقة المرأة بالمال ناشدة صياغة تصور إسلامي معاصر.

وختاماً، إن هذا الكتاب ما كان ليصدر لولا مساعدة العديد من الجهات الداعمة علمياً ومعنوياً ومادياً، وهي جمعية المصارف في لبنان، والمركز الوطني للبحوث العلمية في لبنان، والمركز الدولي للتربية المنبثق عن مؤسسة فورد، وشركة أرابيا للتأمين، الذين نقدر مساعدتهم ونشكرهم. كما نشكر كل الذين شاركوا وساهموا في إصدار هذا الكتاب الذي نعتز به ونأمل أن يفتح الباب أمام المزيد من الدراسات والأبحاث للتعمق في هذا الموضوع.

ونهدي كتابنا هذا إلى روح الباحث سليم نصر، الذي أعطى هذا الكتاب بعض حبه واهتمامه، مع رجائنا بأن نكون قد حققنا ما سعينا إليه.

النساء المتعاملات مع المصارف في لبنان:

خصائص السلوك المالي والمصرفي

في ربيع ٢٠٠٨ ساهمت مجموعة من الباحثين(*) في تصميم استقصاء ميداني بالعينة لدى المتعاملين مع المصارف في لبنان بهدف معرفة هويتهم (خصائصهم الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية) والسمات الرئيسية لسلوكهم على الصعيد المالي بشكل عام والصعيد المصرفي بشكل خاص، مع التركيز على سلوك النساء بينهم. وقد تبنت جمعية المصارف في لبنان مشكورة هذا البحث وأمنت تمويله وتمير الاستثمارات في عينة ممثلة من فروع المصارف على امتداد الأراضي اللبنانية، ما أتاح الحصول على معطيات من شأنها الإضاءة على الموضوع بشكل شامل.

١- الإشكالية:

من هنا، إنطلقت الدراسة من إشكالية رئيسية هي التالية:

«كيف يرتسم السلوك المصرفي للنساء في المجتمع اللبناني؟»

سوزان أبو رجيلي

(*) من اللجنة التنسيقية لهذا الكتاب «باحثات» ١٣: مارلين نصر وفاديا حطيط، من جمعية المصارف في لبنان: مكرم صادر وفدوى مردم بك منصور، وعلماء في الاجتماع والاقتصاد: سليم نصر وكمال حمدان وروجيه الحاج، وعالم الاقتصاد نجيب عيسى.

٢- بناء العينة:

نظراً لطبيعة ميدان البحث، أي المصارف، قررت جمعية المصارف اختيار فروع في مختلف المناطق اللبنانية بشكل ممثّل، بناءً على توزيعها الجغرافي وعلى حجمها، بحيث توزعت على المحافظات كافةً (أنظر خصائص الفروع المعنية بالدراسة في الملحق). وقد تم الاتفاق مع فريق البحث على إجراء الاستقصاء مع ٧ أشخاص ضمن كل فرع (٥ نساء ورجلين في كل فرع)، إذ أنه لم يكن بالإمكان الحصول على لوائح الزبائن الإسمية لبناء عينة على أساسها، احتراماً للسرية المصرفية. من هنا، اعتمدت تقنية العينة التوافقية Echantillon de convenance، أي أن المحققين كانوا يسألون الزبائن ما إذا كانوا يرغبون في الإجابة على أسئلة الاستمارة، ويقومون بتنفيذ الاستقصاء مع أول سبعة أشخاص متجاوبين. وعليه، تألفت العينة من ٥١٢ شخصاً: ٣٦٤ امرأة (٧١,١٪) و١٤٨ رجلاً (٢٨,٩٪).

٣- تطوير الاستمارة:

تم تطوير استمارة موجهة إلى أفراد العينة بحيث تضمنت عدة فقرات: البطاقة الشخصية، الوضع المهني، السلوك المصرفي العام، الوعي المصرفي، السلوك المالي خارج إطار المصرف، الإدخار والاستثمار، الشراكة المالية، التسليف، مجالات الإنفاق ببطاقة ائتمان، تقييم ذاتي للعلاقة بالمال، إنجازات ومشاكل مرتبطة بالمال. وقد تألفت من ٤٦ سؤالاً أكثريتها مغلقة، وبعضها نصف مفتوحة أو مفتوحة. وفيما يلي تحليل لأهم النتائج التي أسفر عنها العمل الميداني.

أولاً: خصائص المتعاملات مع المصارف:

١- التوزيع حسب الفئة العمرية:

يتبين من الجدول رقم ١-١ أن ٨١,٨٪ في المئة من النساء المتعاملات مع المصارف، تقل أعمارهن عن ٥٠ سنة وأن هؤلاء يتوزعون بنسب متفاوتة على الفئات العمرية الثلاث: ٢٠ - ٢٩ سنة و ٣٠ - ٣٩ سنة و ٤٠ - ٤٩ سنة. وبشكل عام يمكن القول بأن أكثر من نصف المتعاملات (٥٣,٥ في المئة) هن من الفئة العمرية الشابة (٢٠ - ٣٩ سنة).

جدول رقم ١- المتعاملات مع المصارف حسب الفئة العمرية

النسبة المئوية	العدد في العينة	الفئة العمرية
٩,٤	٣٤	٢٠ - ٢٤ سنة
١٧,٩	٦٥	٢٥ - ٢٩ سنة
٢٦,٢	٩٥	٣٠ - ٣٩ سنة
٢٨,٤	١٠٣	٤٠ - ٤٩ سنة
١٤,٣	٥٢	٥٠ - ٥٩ سنة
٣,٩	١٤	٦٠ سنة وأكثر
١٠٠	٣٦٣	المجموع

المصدر: نتائج الاستقصاء

٢- الوضع العائلي:

تبلغ نسبة المتزوجات ٦٣,٥٪ من مجموع النساء المتعاملات مع المصارف في حين تبلغ نسبة العازبات منهن ٢٩,٦٪ ونسبة المطلقات ٤,٩٪ ونسبة الأراامل ٢٪. وعندما نقارن هذه النسب مع مثيلاتها على الصعيد الوطني (أي نسبة كل من هذه الحالات من مجموع النساء اللواتي هن في سن الزواج على الصعيد الوطني في سنة ٢٠٠٤) والتي بلغت على التوالي ٥٢,٥٪ للمتزوجات و٣٦,٦٪ للعازبات و١٪ للمطلقات و٩,٣٪ للأراامل، نلاحظ أن النسبة العائدة للمتزوجات والمطلقات عند المتعاملات هي أعلى من مثيلاتها على الصعيد الوطني في حين أن النسبة العائدة للعازبات والأراامل هي أدنى بشكل واضح (الجدول رقم ٢-).

جدول رقم ٢- مقارنة الوضع العائلي للمتعاملات مع المصارف مع الوضع العائلي للنساء في سن الزواج على صعيد لبنان ككل (بالنسبة المئوية)

النساء في سن الزواج في لبنان (٢)	النساء المتعاملات مع المصارف (١)	الوضع العائلي
٥٢,٥	٦٣,٥	متزوجات
٣٦,٦	٢٩,٦	عازبات
١	٤,٩	مطلقات
٩,٣	٢	أرامل
١٠٠	١٠٠	المجموع

المصدر: (١) نتائج الاستقصاء

(٢) وزارة الشؤون الاجتماعية: الأوضاع المعيشية للأسر ٢٠٠٤.

٣- عدد الأولاد:

يتبين من الجدول رقم ٣- أن ٨٢,٥٪ من النساء المتزوجات المتعاملات مع المصارف واللواتي سبق لهن الزواج لا يزيد عدد أولاد الواحدة منهن عن الثلاثة. وبشكل عام يبلغ متوسط عدد الأولاد للمرأة المتعاملة الواحدة (المتزوجة والتي سبق لها الزواج) حوالي ٢,٥ ولد. وهذا الرقم هو قريب جداً من متوسط عدد الأولاد في الأسرة على الصعيد الوطني في العام ٢٠٠٤.

جدول رقم ٣- عدد الأولاد عند النساء المتعاملات مع المصارف،
المتزوجات واللواتي سبق لهن الزواج

عدد الأولاد	العدد في العينة	النسبة المئوية
١	٣٨	١٦,٧
٢	٨٥	٣٧,٣
٣	٦٥	٢٨,٥
٤	٢٧	١١,٨
٥	٩	٣,٩
٦	٣	١,٣
٧	--	--
٨	١	٠,٤
المجموع	٢٢٨	١٠٠

المصدر: نتائج الاستقصاء

٤- التوزيع الطائفي:

يزيد عدد المتعاملات مع المصارف المسيحيات عن عدد المتعاملات المسلمات. فنسبة المجموعة الأولى تبلغ ٥٥,٢٪ من مجموع المتعاملات مع المصارف مقابل ٤٤,٨٪ للمجموعة الثانية.

٥- التوزيع حسب مكان الإقامة:

تضم محافظة جبل لبنان أكثر من نصف عدد النساء المتعاملات مع المصارف في لبنان (٥٠,٢ في المئة). وإذا فصلنا ضواحي بيروت عن جبل لبنان تصبح حصة بيروت وضواحيها من مجموع المتعاملات هي الأكبر (٤٥,٨ في المئة). وتتوزع بقية المتعاملات على المحافظات الأخرى كالتالي: ١١,٩ في المئة لمحافظة الشمال و ١١ في المئة لمحافظة الجنوب والنبطية و ١٠,٥ في المئة لمحافظة البقاع. وهذا التوزيع للمتعاملات يقترب إلى حدٍ ما من توزيع القوى العاملة النسائية في لبنان على مختلف المناطق (الجدول رقم ٤-).

جدول رقم ٤- توزيع المتعاملات مع المصارف حسب مكان الإقامة مقارنة بتوزيع القوة العاملة النسائية (بالنسبة المئوية)

القوة العاملة النسائية في لبنان (٢)	المتعاملات مع المصارف في لبنان (١)	مكان الإقامة
٢٢,٦	١٦	بيروت
٤٧	٢٩,٨	ضواحي بيروت
	٢٠,٤	جبل لبنان دون ضواحي بيروت
١٠,٦	١١,٩	الشمال
١٣,١	١١	الجنوب والنبطية
٦,٨	١٠,٥	البقاع
--	٠,٣	في الخارج
١٠٠	١٠٠	المجموع

المصدر: (١) نتائج الاستقصاء

(٢) وزارة الشؤون الاجتماعية: الأوضاع المعيشية للأسر ٢٠٠٤.

٦- المستوى التعليمي:

يلفت نظرنا بشكل خاص المستوى التعليمي الرفيع للمتعاملات مع المصارف. فأكثر من ثلاثة أرباع المتعاملات (٧٧,٥ في المئة) وصلن إلى المستوى الجامعي. في حين أن المتعاملات من المستوى التعليمي الابتدائي وما دون لا يشكلن سوى ٥,٢ في المئة من مجموع المتعاملات والباقي (١٧ في المئة) يتوزع على المستويات التعليمية الوسطية. ويظهر المستوى التعليمي الرفيع للمتعاملات مع المصارف من مقارنة مستوياتهن التعليمية مع المستويات التعليمية لجميع الإناث اللواتي لا يتابعن الدراسة في لبنان. فقد بلغت نسبة الجامعيات من هؤلاء ١١,٦٪ فقط في سنة ٢٠٠٤، في حين بلغت نسبة ذوات المستوى التعليمي الابتدائي وما دون ٥٠,٢ في المئة (الجدول رقم ٥-).

جدول رقم ٥- توزيع المتعاملات مع المصارف حسب المستوى التعليمي مقارنة بتوزيع مجموع الإناث اللواتي لا يتابعن الدراسة (بالنسبة المئوية)

المستوى التعليمي	المتعاملات مع المصارف في لبنان (١)	مجموع الإناث اللواتي لا يتابعن الدراسة في لبنان (٢)
جامعي	٧٧,٤	١١,٦
ثانوي ومتوسط	١٦,٨	٣٨,١
إبتدائي وما دون	٥,٢	٥٠,٢
المجموع	١٠٠	١٠٠

المصدر: (١) نتائج الاستقصاء

(٢) وزارة الشؤون الاجتماعية: الأوضاع المعيشية للأسر ٢٠٠٤.

٧- الوضع المهني:

معظم النساء المتعاملات مع المصارف (٧٩ في المئة) صرحن أنهن ناشطات اقتصادياً (٧٦,٥ في المئة يمارسن أعمالاً و٢,٥ في المئة عاطلات عن العمل) مقابل ١٩,٦ في المئة ربات منزل و١,٤ في المئة متقاعدات. هذا في حين أن نسبة الناشطات اقتصادياً من مجموع النساء في لبنان اللواتي أنهين دراستهن لا تتجاوز ٢٥,٧ في المئة (٢١,٧ في المئة يعملن فعلاً و٤ في المئة عاطلات عن العمل) مقابل ٧٤ في المئة متفرغات للعمل المنزلي و٠,٣ في المئة متقاعدات (الجدول رقم ٦-).

جدول رقم ٦- الوضع المهني للمتعاملات مع المصارف مقارنةً بالوضع المهني لمجموع الإناث اللواتي أنهين دراستهن في لبنان (بالنسبة المئوية)

الوضع المهني	المتعاملات مع المصارف في لبنان (١)	مجموع الإناث اللواتي أنهين دراستهن في لبنان (٢)
تمارس عملاً	٧٦,٥	٢١,٧
عاطلة عن العمل	٢,٥	٤
متقاعدة	١,٤	٠,٣
ربة منزل	١٩,٦	٧٤
المجموع	١٠٠	١٠٠

المصدر: (١) نتائج الاستقصاء

(٢) وزارة الشؤون الاجتماعية: الأوضاع المعيشية للأسر.

هذا وتبلغ نسبة الموظفات من المتعاملات اللواتي يمارسن أعمالاً ٧٠,٥ في المئة وهي أدنى من نسبة الموظفات اللواتي يعملن بأجر من مجموع النساء العاملات في لبنان في سنة ٢٠٠٤ (٧٥,٨ في المئة) أما المتعاملات مع المصارف اللواتي يمارسن مهناً حرة فتبلغ نسبتهن ٢٢,٤ في المئة من مجموع المتعاملات وهي أعلى من مثلتها في مجموع النساء العاملات (أقل من ١٠,٢ في المئة). وفي حين أن ٧,٦ في المئة من المتعاملات صرّحن أنهن صاحبات مشاريع، فإن ١٪ واحد في المئة فقط من مجموع العاملات في لبنان كنّ في سنة ٢٠٠٤ ربات عمل (أنظر: الأوضاع المعيشية للأسر ٢٠٠٤).

٨- الأجر الشهري وقيمة الممتلكات:

يتبين من الجدول رقم ٧- أن أعداد المتعاملات مع المصارف واللواتي يمارسن عملاً تتركز بشكل رئيسي (٧٢,٨ في المئة من المتعاملات) في فئات الأجر التي تتراوح بين ٥٠٠ ألف ومليون ليرة شهرياً. علماً أن أكثر من نصف مجموع هؤلاء (٥٣,٤ في المئة) تتراوح أجورهن ما بين ٥٠٠ ألف ليرة ومليون ونصف مليون ليرة شهرياً. أما اللواتي يتدنن أجرهن عن ٥٠٠ ألف ليرة فتبلغ

نسبتهن ٢,٥ في المئة من المجموع، واللواتي يزيد أجرهن الشهري عن خمسة ملايين ليرة تبلغ نسبتهن ٤,٧ في المئة.

جدول رقم ٧- توزيع المتعاملات مع المصارف واللواتي يمارسن عملاً حسب فئات الأجر الشهري

النسبة المئوية في مجموع المتعاملات اللواتي يمارسن عملاً %	عدد المتعاملات اللواتي يمارسن عملاً في العينة	فئة الأجر الشهري
٢,٥	٧	دون ٥٠٠ ألف ل.ل.
٢٨,٣	٧٩	من ٥٠٠ ألف إلى مليون ل.ل.
٢٥,١	٧٠	من مليون ليرة إلى مليون ونصف ل.ل.
١٩,٤	٥٤	من مليون ونصف إلى مليوني ل.ل.
١٢,٢	٣٤	من مليوني ليرة إلى ثلاثة ملايين ل.ل.
٧,٩	٢٢	من ٣ ملايين ل.ل إلى خمسة ملايين ل.ل.
٤,٧	١٣	أكثر من خمسة ملايين ليرة
١٠٠	٢٧٩	المجموع

وبشكل عام يمكن تقدير متوسط الأجر الشهري للمرأة العاملة والمتعاملة مع المصارف بحوالي /١,٧٥٠,٠٠٠/ ل.ل. وهو يزيد عن متوسط دخل الأسرة الشهري الذي قدر بـ /١,٥٤٠,٠٠٠/ ل.ل. في العام ١٩٩٧ (أنظر: أحوال المعيشة للأسر ١٩٩٧).

هذا وقد صرح ٧٨,١ في المئة من النساء في المجموعة المذكورة عن ممتلكات للواحدة منهن تزيد عن /\$٥٠٠٠/ خمسة آلاف دولار أميركي. وتأتي «ملكية

سيارة» في المرتبة الأولى (بنسبة ٦٥,٣ في المئة من مجموع المتعاملات العاملات) و«ملكية منزل» في المرتبة الثانية (بنسبة ٤١ في المئة) وملكية أرض في المرتبة الثالثة (بنسبة ٢٠,٥ في المئة).

الخلاصة:

من مجمل الخصائص التي أتينا على ذكرها يمكن القول بأن المرأة المتعاملة مع المصارف في لبنان هي بشكل عام امرأة متوسطة العمر، تتقاضى أجراً يتماشى مع مردود الطبقة الوسطى، عاملة و(موظفة تحديداً) ومستواها التعليمي مرتفع.

ثانياً: السلوك المالي العام:

هناك عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية عديدة تتحكم بسلوك الإنسان على الصعيد المالي. ولكن أهم هذه العوامل هو حجم (كمية) الأموال التي يمكن أن يتصرف بها الفرد المعني والتي هي على علاقة وثيقة بطبيعة المصدر الذي تأتي منه هذه الأموال. وبهذا الخصوص سبق ورأينا أن معظم المتعاملات مع المصارف في لبنان هن منخرطات في سوق العمل وتحديداً من الموظفات وصاحبات المهن الحرة. وبالفعل يبين الجدول رقم ٨- أن مصدر الأموال عند ثلاثة أرباع المتعاملات هو العمل وعند ٣٠ في المئة منهن: أموال الأزواج. ويأتي «الأهل» في المرتبة الثالثة (عند ١٣,٧ في المئة من المتعاملات) ثم «الإرث» (عند ٩,٦ في المئة). هذا في حين أن كلاً من «الاستثمارات» و«الإيجارات» لا تشكل مصدراً للأموال إلا لـ ٣,٣ في المئة من المتعاملات.

جدول رقم ٨- مصادر أموال المتعاملات

النسبة المئوية (١)	العدد في العينة	مصدر الأموال
٧٤,٧	٢٧٢	العمل
٣٠,٥	١١١	الزوج
١٣,٧	٥٠	الأهل
٩,٦	٣٥	الإرث
٣,٣	١٢	الاستثمارات
٣,٣	١٣	الإيجارات
٠,٠	١	غيره

(١) ملاحظة: مجموع النسب المئوية أكثر من مئة لأن أموال المتعاملة يمكن أن تأتي من أكثر من مصدر.

المصدر: نتائج الاستقصاء

هذا الواقع بالنسبة لمصادر الأموال عند المتعاملات مع المصارف (مداخل محدودة بشكل عام) لا يمكن أن يتولد منه حجم كبير من الفائض (الادخار) ولأن الجزء الأكبر من الدخل سيذهب لتأمين الحاجات الاستهلاكية الأساسية. وهذا ما يظهر من حجم الحسابات الدائنة مجتمعة، للمتعاملات (الجدول رقم ٩-). فعند ٤٤,٨ في المئة من المتعاملات لا يتجاوز مجموع الحسابات الدائنة للواحدة منهن، العشرة ملايين ل.ل. (أي أقل من ستة أضعاف متوسط الأجر الشهري للمتعاملة). علماً أن أكثر من ربع المتعاملات ٢٥,٥ في المئة، يقل مجموع الحسابات الدائنة للواحدة منهن عن خمسة ملايين ل.ل. وبشكل عام يمكن أن نلاحظ أن مجموع الحسابات الدائنة عند ٧٠,٦ في المئة من المتعاملات يقل عن ٥٠ مليون ل.ل. في حين أن نسبة اللواتي يزيد حجم ودائع الواحدة منهن عن ٢٥٠ مليون ل.ل. لا تتعدى ١١,٣ في المئة من مجموع المتعاملات.

جدول رقم ٩- حجم الحسابات الدائنة للمتعاملات مع المصارف

النسبة المئوية	العدد في العينة	حجم الحسابات الدائنة مجتمعة
٢٥,٥	٩٠	أقل من ٥ ملايين ل.ل.
١٩,٣	٦٨	بين ٥ و ١٠ ملايين ل.ل.
٢٥,٨	٩١	بين ١٠ و ٥٠ مليون ل.ل.
١٨,١	٦٤	بين ٥٠ و ٢٥٠ مليون ل.ل.
٦,٥	٢٣	بين ٢٥٠ و ٧٥٠ مليون ل.ل.
٤,٨	١٧	أكثر من ٧٥٠ مليون ل.ل.
١٠٠	٣٥٣	المجموع

المصدر: نتائج الاستقصاء

إن طابع المحدودية الطاغي بشكل عام على مداخل المتعاملات مع المصارف يجعلهن يملن إلى مراكمة الادخارات بهدف تحسين أوضاعهن وأوضاع أسرهن المعيشية بالدرجة الأولى. وذلك باستعمال هذه الادخارات للحصول على السلع الاستهلاكية المعمرة (سيارة، منزل، الخ...) أو/ و للاستثمار في تعليم الأولاد بالإضافة إلى مواجهة الأحداث الطارئة... والابتعاد قدر الإمكان عن توظيفها في مجالات ترتدي طابع المخاطرة (أسهم، أعمال تجارية الخ...). كما ليس لديهن، في جميع الأحوال، لا الوقت ولا المؤهلات النفسية والمادية للقيام بها. وهذا ما يظهر بشكل واضح من نتائج الاستقصاء. فإذا كانت هنالك نسبة كبيرة جداً من المتعاملات (٨٣,٥ في المئة) اللواتي يخبذن ادخار أموالهن فإن ٦١,٢ في المئة صرحن أنهن يقمن بذلك تحسباً للطوارئ و٥٠,٣ في المئة من أجل تأمين مستقبلهن و٤٦,٧ في المئة من أجل تأمين مستقبل أولادهن و٧,٩ في المئة من أجل شراء منزل. أما نسب اللواتي يدخرن لأغراض أخرى، فتكاد لا تذكر (الجدول رقم ١٠-).

جدول رقم -١٠- أسباب الادخار عند المتعاملات مع المصارف

النسبة المئوية (١)	العدد في العينة	سبب الادخار
٦١,٢	١٨٦	تحسباً للطوارئ
٥٠,٣	١٥٣	تأمين مستقبل المتعاملة
٤٦,٧	١٤٢	تأمين مستقبل الأولاد
٧,٩	٢٤	شراء منزل
١,٣	٤	غيره

ملاحظة: مجموع النسب المئوية أكثر من مئة لأنه يمكن أن يكون للادخار أكثر من سبب.
المصدر: نتائج الاستقصاء.

وعند السؤال عن تحبيذ الاستثمار، فإن ٦,٨ في المئة فقط من المستجوبات أجبن بأنهن يحبذن استثمار أموالهن «مهما كانت الوسيلة»، مقابل ٥٨,٢ في المئة أجبن بأنهن يحبذن ذلك مع «حد أدنى من المخاطرة». هذا في حين ١٥,٩ في المئة من المتعاملات صرحن أنهن لا يحبذن استثمار أموالهن «خشية المخاطرة» و ١٩ في المئة لا يحبذنه بسبب انتفاء الحاجة إليه (الجدول رقم -١١-).

جدول رقم -١١- تحبيذ استثمار الأموال عند المتعاملات مع المصارف

النسبة المئوية	العدد في العينة	الجواب معللاً
٦,٨	٢٤	نعم، أياً كانت الوسيلة
٥٨,٢	٢٠٥	نعم، لكن بحد أدنى من المخاطرة
١٥,٩	٥٦	كلا، أخشى المخاطرة
١٩	٦٧	كلا، لا أحتاج لذلك
١٠٠	٣٥٢	المجموع

المصدر: نتائج الاستقصاء.

وفي هذا الإطار نلاحظ أيضاً أن ٥١,١ في المئة من المتعاملات مع المصارف ليس لديهن أية تجربة في مجال الاستثمار. أما اللواتي صرحن أن لديهن تجربة في

المجال المذكور، فقد اخترن مجالات يمكن القول بأنها من النوع الذي يتحمل الحد الأدنى من المخاطرة بدءاً ببوليصة التأمين وانتهاءً بشهادات الإيداع مروراً بالعقارات وسندات الخزينة.

وبشكل عام يمكن أن نلاحظ أن «الذهنية» الاقتصادية العامة للمتعاملات مع المصارف لا تخرج عن إطار «الذهنية الاقتصادية» السائدة في لبنان والتي ترى أن مجالات الاستثمار الأكثر ربحية هي العقارات والتجارة وسندات الخزينة. فعندما سئلن عن رأيهن بالوسائل غير المصرفية التي من شأنها أن تحسن مردود الأموال (السؤال يحتمل أكثر من جواب)، ذهب تفضيل المتعاملات بالدرجة الأولى إلى العقارات ثم المشاريع التجارية ثم الأسهم وبعدها سندات الخزينة.

ثالثاً: السلوك المصرفي:

ينعكس السلوك المالي (والسلوك الاقتصادي بشكل عام) للمتعاملات مع المصارف، بشكل واضح، على سلوكهن المصرفي. فتعاملهن مع المصارف، بأسبابه وأشكاله (دوافع التعامل، اختيار المصرف أو المصارف، أنواع الحسابات... الخ) يخضع بالدرجة الأولى للأولوية التي يعطينها «للحفاظ على الأموال» وتجنّبها المخاطرة، ثم للتسهيلات التي يمكن أن يحصلن عليها من هذا التعامل في مجال الاستخدام الأمثل لأموالهن لتأمين حاجاتهن الاستهلاكية وتحسين أوضاعهن وأوضاع أسرهن المعيشية، وذلك من ضمن الأنماط السلوكية الاقتصادية والاجتماعية السائدة في المجتمع اللبناني. من هنا فإن الوجه الغالب على تعامل النساء مع المصارف هو التعامل من موقع «الدائن». أي أن «زبونات» المصارف اللبنانية هن، بشكل رئيسي، مودعات (صاحبات حسابات دائنة) وليست مستلفات (صاحبات حسابات مدينة). فالمصرف بالنسبة لهن هو مكان الادخار الأنسب والأكثر أماناً، قياساً بالطرق التقليدية (الجوارب، خزائن الثياب...). أما «توظيف الأموال وتثميرها» فهي ليست من دوافع التعامل مع المصارف، إلا عند قلة قليلة من المتعاملات. وعندما يلجأن إلى خدمات التسليف من المصرف يبقى حجم الاستلاف متواضعاً بشكل عام وهدفه الرئيسي تمويل حاجات استهلاكية وليس توسيع أو إقامة مشاريع إنتاجية مباشرة. وضمن هذا الإطار العام يبدو أن السلوك المصرفي العملي للنساء (لناحية اختيار المصرف أو المصارف واختبار نوع الحساب الدائن...)

لا يخضع دائماً لمعايير موضوعية. بمعنى أن يكون بشكل رئيسي، مبنياً على معطيات علمية ومعلومات موثوقة. فالعلاقات الشخصية والعوامل الخارجة عن إرادة المتعاملة بالإضافة إلى الأنماط السلوكية السائدة هي التي تحدد في أحيان كثيرة خياراتها على الصعيد المصرفي. وفيما يلي أهم نتائج الاستقصاء المتعلقة بالسلوك المصرفي للنساء في لبنان:

١- أسباب التعامل مع المصارف:

يتبين من الجدول رقم -١٢- أن «المحافظة على الأموال» تأتي في مقدمة الأسباب التي تدفع النساء إلى التعامل مع المصارف (٥٩,٣ في المئة من المستجوبات).

جدول رقم -١٢- الأسباب التي تدفع النساء إلى التعامل مع المصارف

أسباب التعامل	العدد في العينة	النسبة المئوية (١)
المحافظة على الأموال	٢١٦	٥٩,٣
الحصول على بعض الخدمات المصرفية	١٩٣	٥٣
توطين المعاش	١٠٦	٢٩
الحصول على قرض	١٠٥	٢٨,٨
توظيف الأموال وتثميرها	٦٧	١٨,٤
غيره	--	--

(١) مجموع النسب المئوية أكثر من مئة لأنه يمكن أن يكون للتعامل أكثر من سبب.

المصدر: نتائج الاستقصاء.

يليها «الحصول على بعض الخدمات المصرفية» (٥٣ في المئة) وفي المرتبة الثالثة يأتي «توطين المعاش» (٢٩ في المئة) وبنسبة مساوية تقريباً (٢٨,٨ في المئة) يأتي سبب «الحصول على قرض» وأخيراً يأتي سبب «توظيف الأموال وتثميرها» بنسبة ١٨,٤ في المئة من مجموع المتعاملات.

والأرجح أن المقصود بـ «الحصول على بعض الخدمات المصرفية» هو

الخدمات التي تسهل تسديد الفواتير المتوجبة والنفقات الجارية على المتعاملة وفي مقدمة هذه الخدمات بطاقات الائتمان. وبهذا الخصوص نلاحظ أن حوالي نصف المتعاملات مع المصارف صرحن أنهن يملكن بطاقات مباشرة Debit و ٤٢ في المئة من المتعاملات صرحن أنهن يملكن بطاقات اعتماد Credit، في حين أن نسبة ٤٪ فقط صرحن أنهن يملكن بطاقات مدفوعة سلفاً Prepaid. أما استعمال البطاقة فيتوزع بين «سحب المال النقدي» و«شراء الحاجات في المتاجر» ومجالات الإنفاق بواسطتها تتوزع بين «شراء الحاجات الخاصة» و«الترفيه الشخصي» و«إعالة الأهل والأولاد».

وفيما يتعلق «بالحصول على قرض»، من الواضح أن هدفه الرئيسي ليس تمويل مشروع إنتاجي. فإذا كان هنالك عدد كبير نسبياً من المتعاملات (٤٤,٥ في المئة) اللواتي صرحن أنهن يستعنّ بخدمات التسليف المصرفي، فإن حجم الاستلاف يبقى متواضعاً نسبياً. فحجم السلفة عند ثلث المستلفات يقل عن خمسة ملايين ل.ل. ويتراوح بين ٥ ملايين و ٢٥ مليون ل.ل. عند ٤٧,٥ في المئة منهن، أما اللواتي يزيد حجم السلفة عندهن عن ١٠٠ مليون ل.ل. فنسبتهن لا تتعدى ٦,٢ في المئة (الجدول رقم -١٣-). وبالربط بين فئة الدخل وحجم الاستلاف، يتبين أن النسب الأعلى من المستلفات تتركز في فئة الدخل مليون-مليون ل.ل.

جدول رقم -١٣- حجم الاستلاف عند المتعاملات مع المصارف

النسبة المئوية	العدد في العينة	حجم السلفة
٣١,٩	٥١	أقل من ٥ ملايين ل.ل.
٤٧,٥	٧٦	٥ - ٢٥ مليون ل.ل.
١٤,٤	٢٣	٢٥ - ١٠٠ مليون ل.ل.
٥,٦	٩	١٠٠ - ٣٠٠ مليون ل.ل.
٠,٦	١	أكثر من ٣٠٠ مليون ل.ل.
١٠٠	١٦٠	المجموع

المصدر: نتائج الاستقصاء.

هذا ونلاحظ أن فقط ١٥,٤٪ في المئة من المستلفات صرحن أنهن يستخدمن

الأموال المستلفة لإقامة «مشروع تجاري» (نسب قليلة من الموظفين وصاحبات المهن الحرة)، في حين استخدمت ٥٦,٨ في المئة من المستلفات سلفهن «لشراء سيارة» (٨٧٪ منهن يعملن، أكثريتهن العظمى من الموظفات) و ١٧,٩ في المئة «لشراء عقار» (٩٣,١٪ منهن يعملن، أكثريتهن العظمى من الموظفات) و ١٢,٣ في المئة «للتسوق» (السؤال المطروح كان يحتمل أكثر من إجابة). ومن ناحية ثانية نلاحظ أن المتعاملات قلما يلجأن إلى مؤسسات مصرفية للحصول على المال (فقط ١٣,٧ في المئة من مجموع المتعاملات). علماً أن النسبة الأكبر من هؤلاء يلجأن إلى قروض دون فائدة من الأقارب والأصدقاء والجيران. أما نسبة المتعاملات اللواتي يقمن بإقراض الآخرين فهي أقل من ١١,٨ في المئة من مجموع المتعاملات.

٢- أسباب اختيار المصرف / المصارف:

تؤكد أجوبة المتعاملات على السؤال المتعلق بأسباب اختيار المصرف الذي يتعاملن معه، ما سبقت الإشارة إليه من أن هذه الأسباب لا تركز بشكل رئيسي إلى معايير موضوعية ترتبط بخصائص المصرف نفسه ونوعية الخدمات التي يقدمها. فنصف المتعاملات يخترن مصرفهن بسبب «معرفة أحد العاملين فيه» وتأتي «نوعية الخدمات» في المرتبة الثانية من الأسباب بنسبة ٤٨,٣ في المئة من المتعاملات. ويحتل «مكان تواجد المصرف» المرتبة الثانية بنسبة ٣٦,٥ في المئة من مجموع المتعاملات. وبعدها تأتي «الأسباب المرتبطة بالعمل» بنسبة ٢٤,٧ في المئة. وفي المراتب الأخيرة تأتي «المكانة المالية للمصرف» و«تنوع الخدمات» التي يقدمها (الجدول رقم -١٤-).

جدول رقم -١٤- أسباب اختيار المتعاملات للمصرف / المصارف

النسبة المئوية (١)	العدد في العينة	أسباب الاختيار
٥٠	١٨٢	معرفة أحد العاملين في المصرف
٤٨,٣	١٧٦	نوعية الخدمات
٣٦,٥	١٣٣	مكان تواجد المصرف
٢٤,٧	٩٠	أسباب مرتبطة بالعمل
٢٠,٣	٧٤	المكانة المالية في لبنان
١٩,٥	٧١	تنوع الخدمات
١,٩	٧	غيره

(١) مجموع النسبة المئوية أكثر من مئة لأنه يمكن أن يكون للاختيار أكثر من سبب واحد.

المصدر: نتائج الاستقصاء.

هذا وقد صرح أكثر من نصف المتعاملات مع المصارف (حوالي ٥١ في المئة) أنهن يتعاملن مع أكثر من مصرف واحد. وأكثر من ثلث هؤلاء (حوالي ٣٤ في المئة) صرحن أن تعاملهن مع أكثر من مصرف واحد يأتي «تحتسباً لأية أزمات في أحد هذه المصارف». أي أنهن يعتمدن استراتيجية توزيع المخاطر. في حين أن المصرف الإضافي «فُرض» على ٣٧,٣ في المئة منهن (توطين المعاش، رغبة الزوج، رغبة رب العمل، مكان تواجد المصرف، أسباب عائلية). أما «عدم توافر بعض الخدمات» فيأتي كسبب عند ١٢,٤ في المئة فقط من المتعاملات مع أكثر من مصرف. ومن الخدمات غير المتوافرة التي جاء ذكرها من قبل المتعاملات: السرعة في تلبية القرض، الانترنت، تحويل الأموال، البريد إلى المنزل، التأمين، البطاقات الائتمانية، نسبة الفوائد.

٣- الوعي المصرفي عند المتعاملات:

حوالي ٨٥ في المئة من المتعاملات مع المصارف صرحن أن المصارف التي تتعامل معهن تزودهن بشكلٍ كافٍ «بالإيضاحات والمعلومات حول كيفية تحسين إدارتهن لأموالهن». وعند سؤالهن عن مدى معرفتهن لأنواع الحسابات الدائنة

(الودائع) في المصارف، أجاب نحو ٨٠ في المئة منهن أنهن على معرفة «بالحساب الجاري» وحوالي ٧٠ في المئة على معرفة «بحساب التوفير المجمع» وحوالي ٥٢ في المئة على معرفة «بحساب التوفير الحر» وحوالي ٣١,٥ في المئة «بحساب الوديعة» (الجدول رقم -١٥-).

جدول رقم -١٥- معرفة المتعاملات بوجود أنواع الحسابات

المعرفة بأنواع الحسابات (١)	العدد في العينة	النسبة المئوية (٢)
الحساب الجاري	٢٩٠	٧٩,٧
حساب التوفير المجمع	٢٥٦	٧٠,٣
حساب التوفير الحر	١٩٠	٥٢,٢
حساب الوديعة	١١٥	٣١,٦
الحساب السري	٥٤	١٤,٨
غيره	٩	٢,٥

(١) حسب ما ذكرته المستجوبات

(٢) مجموع النسبة المئوية أكثر من مئة لأن المتعاملة يمكن أن تعرف أكثر من نوع واحد من الحسابات.

المصدر: نتائج الاستقصاء.

وتأتي أنواع الحسابات المعتمدة فعلاً من قبل المتعاملات متناسبة مع ما صرحن به عن معرفتهن بأنواع الحسابات فنلاحظ أن «الحساب الجاري» معتمد من قبل حوالي ٦٧ في المئة من مجموع المتعاملات و«حساب التوفير المجمع» معتمد من قبل حوالي النصف (٥٠ في المئة). في حين أن «حساب التوفير الحر» يحظى بنسبة ٢٧,٧ في المئة و«حساب الوديعة» يحظى بنسبة ٧,٣ في المئة و«الحساب المدين» يحظى بنسبة ١,٤ في المئة فقط من مجموع المتعاملات (الجدول رقم -١٦-).

جدول رقم ١٦- أنواع الحسابات المعتمدة من قبل المتعاملات

نوع الحساب	العدد في العينة	النسبة المئوية (١)
حساب جارٍ	٢٤٥	٦٧,٣
حساب توفير مجمد	١٨١	٤٩,٧
حساب توفير حر	١٠١	٢٧,٧
حساب وديعة	٣٤	٧,٣
حساب مدين	٥	١,٤
غيره	١٥	٤

(١) مجموع النسبة المئوية أكثر من مئة لأن المتعاملة يمكن أن تعتمد أكثر من نوع واحد من الحسابات.

المصدر: نتائج الاستقصاء.

وبخصوص الأسباب الدافعة إلى اختيار هذا النوع أو ذاك من الحسابات، نعود ونلاحظ أن السبب الرئيسي للاختيار عند النسبة الأكبر من المتعاملات (نحو ٦٦ في المئة) هو «المحافظة على الأموال» (نسب عالية من اللواتي يمتلكن حساباً جارياً أو حساب توفير مجمد) يليه من بعيد «طريقة عمل المصرف» بنسبة ٢١,٧ في المئة (أكثر من ثلث اللواتي يمتلكن حساباً جارياً أو حساب توفير مجمد)، في حين أن ١٦,٥ في المئة فقط من مجموع المتعاملات صرحن أن دوافعهن لاختيار نوع الحساب «توظيف الأموال وتثميرها». علماً أن نسبة لا بأس بها من المتعاملات (١٣,٢ في المئة) صرحن أن خيارهن جاء بناءً على «نصيحة أحدهم» (الجدول رقم ١٧).

جدول رقم ١٧- الأسباب الدافعة إلى اختيار نوع الحساب

النسبة المئوية (١)	العدد في العينة	سبب اختيار نوع الحساب
٦٥,٩	٢٤٠	المحافظة على الأموال
٢١,٧	٧٩	طريقة عمل المصرف
١٦,٥	٦٠	توظيف الأموال وتثميرها
١٣,٢	٤٨	نصيحة أحدهم
٣,٥	١٣	غيره

(١) مجموع النسبة المئوية أكثر من مئة لأن المتعاملة يمكن أن يكون هنالك أكثر من سبب للاختيار.

المصدر: نتائج الاستقصاء.

خلاصة:

تقودنا إذاً مقارنة هذه المعطيات من زوايا إجتماعية واقتصادية وتربوية إلى الخلاصات التالية:

*** اكتساب اللبنانيات بشتى فئاتهن وخصائصهن عادة التعامل مع المصارف:** بالفعل، فإن اللبنانيات من كافة الطوائف والمناطق والفئات المهنية ينزعن إلى فتح حسابات مصرفية وإلى الاستفادة من الخدمات المتاحة. ويمكن أن يعزى ذلك إلى ارتفاع المستوى التعليمي في البلاد من جهة، وإلى تمهن المصارف اللبنانية وجودة خدماتها بحيث ازداد تعامل المؤسسات الاقتصادية بشكل عام معها في السنوات العشر الأخيرة.

*** الرضا العام للعمليات إزاء الخدمات ونوعيتها:** تعتبر العمليات إجمالاً أن مصارفهن تقدم لهن خدمات جيدة ومعلومات كافية حول كيفية تحسين إدارة أموالهم الخاصة، وهن راضيات بشكل عام عن أدائها في هذا المجال.

*** الاستعانة بخدمات مصرفية معينة أكثر من سواها:** تتوق العمليات إلى استعمال خدمات الحسابات الجارية والادخار، وكلّ منهنّ تلجأ إلى الاقتراض أكثر منه إلى خدمات الاستثمار والتأمين، والتي يبدو أنهنّ يلجأن إلى وسائل غير مصرفية لتأمينها. يمكن الاستنتاج أن اللبنانية تنظر إلى المصرف على أنه قبل كل شيء مكان لتخزين الأموال والمحافظة عليها ولإقراضها مبالغ إضافية عند الحاجة،

أما في مجال استثمار الأموال وتوفير خدمات التأمين فإن وسائل ومؤسسات أخرى أكثر جدوى ومردوداً.

*** مبادرة عدد من العميلات إلى فتح وإدارة المؤسسات الخاصة:** تلجأ بعض النساء من عميلات المصارف إلى إنشاء وإدارة مؤسساتهن الخاصة بشكل فردي أو ضمن شراكة، وذلك في عدة ميادين أهمها الخدمات، إلا أن الاستعانة بخدمات المصارف تبقى ذات طابع فردي أكثر منه مؤسساتي مهني، ما يدعو المصارف إلى إعادة النظر في السياسة المالية التي تتبعها مع صاحبات المؤسسات.

*** التقارب بين خصائص العميلات والتركيبية الاجتماعية في كل منطقة:** تختلف خصائص العميلات إلى حدٍ ما وفقاً للمنطقة، بحيث تتلاقى مع التركيبة الاجتماعية العامة في المنطقة. فعلى سبيل المثال، تزيد نسبة ربات العمل في جبل لبنان دون الضواحي وفي الجنوب والشمال والبقاع بينما تزيد نسبة النساء العاملات في بيروت وضواحيها. وعليه، من المهم أن تتكيف الخدمات المصرفية في الفروع المناطقية مع حاجات وخصائص بيئتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ما يندرج ضمن آلية الإنماء المتوازن.

*** إرتباط بعض جوانب السلوك المصرفي بمهنة العميلة:** تختلف بعض مظاهر السلوك المصرفي وفقاً لمهنة الشخص، ففي حين تهتم الموظفات أكثر بالخدمات المصرفية (توطين المعاش، المحافظة على الأموال) ويتعاملن مع عدد محدود من المصارف (دون ٤)، تركز صاحبات المهن الحرة والمشاريع أكثر على النواحي الاستثمارية والتوظيفية لأموالهن وينوعن المصارف التي يتعاملن معها (لغاية ٩ أحياناً).

تضيء هذه الدراسة على جوانب متعددة من اتجاهات وتصرفات اللبنانيات إزاء المصارف. يبقى أن يوظف المعنيون من مؤسسات حكومية ومصرفية وأهلية نتائجها في إطار تطوير الاستراتيجيات المالية والمصرفية وتمكين المرأة في المجال الاجتماعي-الاقتصادي في لبنان.

ملحق رقم ١: خصائص الفروع المعنية بالدراسة

* **حجم الفرع:** ٤٤,٥٪ من فروع المصارف التي شاركت في الدراسة يعود لمصارف كبيرة الحجم، ٣٢,٦٪ منها لمصارف متوسطة الحجم، ١٧,٦٪ لمصارف صغيرة و ٥,٣٪ لمصارف صغيرة جداً.

* **توزع الفروع على المحافظات:** يتواجد ٢٨,٣٪ من الفروع المعنية بالدراسة في منطقة بيروت، و ٢١,١٪ في ضواحي بيروت دون جبل لبنان، و ١٥٪ في جبل لبنان من دون الضواحي، و ١٣,٧٪ في الشمال، و ١٠,٩٪ في الجنوب والنبطية و ١٠,٩٪ في البقاع.

* **توزع الفروع على المدن والبلدات:** يبرز الجدول التالي التوزع الجغرافي للفروع على البلدات والمدن، وهو يعكس الانتشار الواسع للمصارف في مختلف أنحاء البلاد، ما يمكن اعتباره مؤشراً تنموياً مهماً:

جدول رقم ٣ : محلة الفرع

النسبة المئوية	المحلة
٤,١	أشرفية، مدور
٥,٥	المرفأ، الرميّة، الصيفي
١,٤	عين المريسة، ميناء الحصن
٩,٤	المصيطبة، المزرعة
٨	وسط البلد، راس بيروت
٤,١	البوشرية، سن الفيل، الدكوانة، الفنار، الجديدة، المكلس
٢,٧	انطلياس، ضبيه، جل ديب، زلقا
٤,١	دورة، برج حمود
٢,٧	بعبداء، حازمية، الحدث
٥,٣	برج البراجنة، الغبيري، حارة حريك، المريجه، الرويس، الشياح
٢,١	عرمون، الشويفات، الجناح، خلدة

١,٤	عاليه، بحدون، حمانا، قبر شامون
١,٤	بيت مري، برمانا، زهور الشوير، المنصورية، رأس المتن
٢,٧	بيت شباب، غزير، غدير، قرنة شهوان، اليسار، بكفيا، الرابية، القلعة
٤,١	حارة صخر، جونية، كسليك، كفرحباب، صربا، أدما، أدونيس
١,٤	دميت، كفرحيم، دير القمر، الدامور، بقعاتا، بعقلين، شحيم
١,٤	عمشيت، جبيل، العقبية
٢,٧	جعيتا، عجلتون، ذوق مصبح، ذوق مكاييل، ريفون
٢,٧	أميون، البترون، بشمزين، كفرعقا، كفرسرون، كوسبا، شكا
١,٤	حلبا، العبدية، القبيات
٨,٢	طرابلس، القلمون، البحصاص، مرياطا
١,٤	زغرتا، بشري
٢,٧	البص، العباسية، صور، الناقورة
٤,١	عبرا، صيدا، الغازية، الهالالية، جزين
١,٤	جويا، قانا، بنت جبيل، تبنين، ميس الجبل
١,٤	مرجعيون، حاصبيا، راشيا
١,٤	النبطية
١,٤	بعلبك، بدنايل، الهرمل، اللبوة
٤,٣	شتورة، بر الياس، جديتا
١,٢	مشغرة، جب جنين
٤,١	زحلة، رياق، الفرزل
١٠٠	المجموع

المحور الأول

السلوك المالي للنساء وانعكاساته
الاجتماعية والاقتصادية والنفسية

فضاء للعيش أم فضاء للقوة: عالم النقود لدى المرأة المصرية العاملة

أولاً : المشكلة

ثمة نظرة تقليدية لعلاقة المرأة بالنقود، ترتبط بنظام تقسيم العمل فى الأسرة الذى يقوم فيه الرجل بالأعمال الخارجية، والتي تتعلق بشكل أكبر بتدبير الموارد المالية للأسرة وإدارتها، وتقوم المرأة بالأدوار المنزلية التى لا ترتبط بالضرورة بتدبير الموارد المالية أو إدارتها، ومن هنا تطورت النظرة إلى الرجل بوصفه المسيطر على الموارد المالية والمتحكم فيها، وإلى المرأة بوصفها المستقبلية للموارد المالية والمتصرفة فيها. ثمة عالمان هنا، عالم الإنتاج الذى يرعاه الرجل ويتحكم فيه، وعالم الاستهلاك الذى ترعاه المرأة وتتحكم فيه، بتوجيه من الرجل طبعاً، ومن هنا نبعت كل الثنائيات التى شكلت النظرة إلى المرأة : الداخلى والخارج؛ البيت والعمل؛ الأعمال الإنتاجية والأعمال المنزلية؛ الأدوار المنزلية والأدوار الإنتاجية. ولكن هذه النظرة التقليدية للمرأة بعامة وعلاقتها بالنقود خاصة ما لبثت أن تغيرت على أثر مكتشفات ميدانية ونظرية منها:

(١) إن المرأة فى المجتمعات التقليدية كانت لديها قدرة على إدارة النقود، وعلى تدبير الموارد، بل على استثمار النقود وادخارها. فثمة

أحمد زايد

دراسات عديدة أجريت فى إطار مجتمعات تقليدية - كالمجتمع الإسلامى فى زمن الإمبراطورية العثمانية - أكدت أن بعض النساء كان لديهن القدرة على إدارة موارد مالية كبيرة، بل وتشغيل الرجال وإدارة أمورهم. حقيقة أن هذه الدراسات قد أكدت على أن الرجال يتفوقون على النساء فى مقدار الثروة أو الملكية، وأن النساء حرمن من حيازة أنواع معينة من الملكية شأن الأرض أو الملكيات التجارية. ولكن هذا لم يمنع من وجود مساحة تستطيع فيها النساء استخدام ما لديهن من موارد (اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية) فى اكتساب بعض السيطرة على حياتهن والمواقف المحيطة بهن. ومن هنا ظهرت بعض النساء «... كصاحبات أدوار فى الحياة الاقتصادية؛ إذ اشترين الأملاك وبعنها، وورثن الثروة وأوصين بها، وأسسن «الوقفات»، واقترضن مالا وأقرضنه، بل وفى بعض الأحيان كن حائزات لك «تيمار» ولحقوق الانتفاع بأرض «الميرى» واستأجرن المزارع ودخلن شريكات فى أعمال التجارة... ونشأ بلوغهن الثروة من خلال الميراث والصدقات وحقوق المستفيدات من الهبات الدينية، وكثيرات منهن اضطلعن بدور فعال فى إدارة الثروة واستثمارها بعد أن حُزن الملكية، وفضلا عن ذلك ظهرت فاعليتهن فى تأهبهن للمطالبة بحقوقهن فى الملكية وللاحتجاج على أى انتهاك لتلك الحقوق»^(١).

(٢) ومن جانب آخر، أكدت البحوث الحديثة أن مشاركة المرأة فى تقسيم العمل المنزلى لا يجب بالضرورة أن تنعكس فى شكل نقدى. فثمة أعمال كثيرة تقوم بها المرأة، وهى تعكس قيمة مادية، ويمكن حسابها نقديا، ولكنها لا تتقاضى عليها أجراً. من هذه الأعمال صنوف كثيرة من الأعمال المنزلية، وصنوف كثيرة من الأعمال خارج المنزل، كالعمل فى الحقل، والذهاب إلى الأسواق، وتسويق المنتجات، وشراء السلع. وتعكس هذه الأنشطة مشاركة اقتصادية حقيقية من جانب المرأة فى الأسرة، وقد تكسبها بعضا من المكانة والقوة، كما تتبدى فى مشاركتها فى صناعة القرار داخل الأسرة، ومشاركتها فى إدارة الميزانية الأسرية، وتصريف الأمور المادية اليومية^(٢). والفكرة المحورية التى يمكن أن تشتق من مثل هذه الدراسات هى

(١) جوديث تاكر ومارجريت مريوزر، النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث، ترجمة أحمد على بدوى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٣.

(٢) انظر الدراسات التى وردت فى الكتاب الذى حرره ريتشارد انكر والذى نشر بالعربية بعنوان: «المرأة والمشكلة السكانية فى العالم الثالث»، ترجمة علياء شكرى وآخرين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.

أن قوة المرأة لا يجب بالضرورة أن ترتبط بالنقود، أو السيطرة عليها، خاصة عند مستويات دخل معينة. ففي الأسر التي تحتاج إلى هذه الصور من الأعمال غير المأجورة للمرأة، والتي لا يمكن للأسرة أن تستغنى عنها، تكتسب المرأة قدراً لا بأس به من القوة والمكانة. ولقد تدعمت هذه النتيجة من خلال دراسات أخرى حول إدارة المرأة للأسرة في حالة غياب زوجها بالمرض أو الهجرة أو الموت، ففي هذه الحالات تمتد قوة المرأة من داخل الأسرة إلى خارجها، وتصبح حركتها داخل المجتمع المحلي، وعبر النطاق المحلي، أكثر كثافة وعمقاً^(٣).

في ضوء هذه النتائج، لم تعد هذه القسمة بين العالم الخارجي الذكوري، والعالم الداخلي الأنثوي قسمة مقبولة، كما أصبحت علاقة المرأة بعالم المال والأعمال الاقتصادية علاقة أكثر تعقيداً من أن ينظر إليها في ضوء الأجر العائد من العمل المباشر للمرأة. ولقد ساهمت الدراسات المعاصرة في بلورة هذه النتيجة وأحكامها؛ فالعلاقة بين المرأة وعالم المال، تستغرق عدداً كبيراً من المتغيرات، وهي ليست بالضرورة علاقة مباشرة. ومن ثم فقد يكون مفيداً أن نعرض لنتائج بعض البحوث المعاصرة التي تلقي الضوء على عدد من المتغيرات الفاعلة في هذه العلاقة:

فمن ناحية تؤكد البحوث النابعة من «نظرية التبادل» أن النقود تعد مصدراً أساسياً لقوة المرأة ومكانتها داخل الأسرة. وتتأسس هذه البحوث على فكرة مؤداها أن العلاقة بين الزوجين تقوم على استراتيجيات تفاعلية يستخدم فيها كل طرف ما لديه من موارد. وتتعاظم منافع الفرد كلما كان قادراً على استخدام ما لديه من موارد استخداماً أمثل. تلك الموارد التي تنقسم إلى قسمين: موارد خارجية (ذرائعية) كالحالة الاقتصادية (بما فيها ملكية النقود)، والمهنة، والمكانة الاجتماعية؛ والموارد الداخلية (أو غير الذرائعية) والتي ترتبط بالخصال الشخصية، والقدرة على الحب والعاطفة والجاذبية، والقدرة على التوافق مع الأدوار المتوقعة. وبالرغم من أن

(٣) أنظر حول تأنيث الأسرة أو تأنيث الفقر Feminization of Poverty:

- إيمان سليم، تأنيث الفقر، بحث منشور، المؤتمر الثاني بكلية التجارة «بنات» بجامعة الأزهر، ١٩٩٨.

- نهى فاطرجي، الأوضاع السيئة للمرأة في العالم، متاحة على الموقع الإلكتروني:

http://www.amanjordan.org/anon_studies/wmview.php?Arsto:957.

- Wittekind, J. & Wilke, S. Feminization of Poverty in the Labor Force:1980-1998, Journal of the Alabama Academy of Science, vol.1, October 2000.

بحوث نظرية التبادل تبرز أهمية الجوانب الشخصية والإنسانية كموارد في عملية التفاعل، إلا أنها تنظر إلى الموارد الاقتصادية باعتبارها مصدراً أساسياً للقوة والمكانة في علاقة الرجل بالمرأة^(٤).

ومن ثم تقدم نظرية التبادل نموذجاً عقلانياً، يطرح العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها تتأسس على تبادل المصالح، وهي علاقة غالباً ما تقوم على المحاسبة والاختيار الحر والفعل الرشيد. وهي علاقة هدفها تحقيق أعلى درجة من الفائدة وأقل درجة من الخسارة، فبالرغم من أن الرجل والمرأة داخل الأسرة يدركان المنفعة ويسعيان إليها، إلا أن كلا منهما يدرك أهمية وجود الآخر ويتصرف تجاهه في ضوء المعايير العامة. فهي علاقة لا تخلو من تبادل المنافع وحساب التكلفة والعائد، ومقارنة البدائل المتاحة التي تدفع كل طرف في التفاعل (الزوج والزوجة) إلى اختيار نمط السلوك الذي يسير عليه. وفي هذه الحالة - التي تبدو كنموذج مثالي - يكون للنقود دور هام في تحديد نمط التفاعل داخل هذه العلاقة؛ فالنقود كوسيط تبادلي تمنح من يسيطر عليها - إدارة أو ملكية - مساحة أكبر من القوة والقدرة على التأثير وعلى تملك أدوات للقهر أو المنح أو المنع أو التسلط أو التحكم أو التأثير، ومن هنا تحرص نظرية التبادل على تأكيد فكرة أن أطراف التفاعل يتنافسون تنافساً شديداً في تملك الموارد أو السيطرة عليها، وأن التفاعل التبادلي - في صورته المثالية - قد لا يسمح لأحد بالسيطرة على الأطراف الآخرين.

ومع ذلك يبقى هذا النموذج العقلاني في التفاعل نمطاً مفارقاً للواقع، يستمد قيمته من قيمة المنهجية وليس من تراثه النظري. فهو يمكننا من أن ننظر في الواقع لنرى إلى أي مدى يقدم هذا الواقع أمثلة للاختلاف أو الاتفاق. كما يستمد هذا النموذج العقلاني أهميته أيضاً من قيمته التطبيقية؛ فالفكرة التي تقوم عليها نظرية تمكين المرأة - الفقيرة اقتصادياً والضعيفة ثقافياً - تعتمد على تنمية القدرات التي تجعل المرأة مستقلة. ومن أهم هذه القدرات: قدرتها على التحكم في مواردها، والتحكم فيما تحصل عليه من دخل، وقدرتها على إيجاد وسائل لحماية استقلالها

(٤) انظر حول نظرية التبادل :

- Russell Cropanzano, "Social Exchange Theory", *Journal of Management*, vol.31, No.6, pp.874-900 (2005).

- Peter Michael, "Exchange and Power in Social Life", New Brunswick : Transaction Books, 1986.

وتحكمها فى الأمور التى تتعلق بذاتها. وتفترض نظريات التمكين أن هذا الاستقلال الاقتصادى، والقوة الاقتصادية للمرأة، يُمكنانها من الاستفادة بشكل أكبر من خدمات الصحة والتعليم ومن القدرة على المشاركة الاجتماعية. ولقد أكد تقرير التنمية الإنسانية العربية «نحو نهوض المرأة فى الوطن العربى» هذه الفرضية عندما قرر «إن اكتساب النساء للقدرة البشرية شرط لازم لتوظيف القدرات فى إنتاج مقومات الرفاه الإنسانى، ولكنه بالتأكيد غير كاف. فهناك أدلة على بقاء قدرات النساء معطلة نتيجة للعديد من العوامل الثقافية والاجتماعية. ولعل إفساح المجال للنساء المساهمة فى النشاط الاقتصادى خارج نطاق الأسرة يكون أحد الحلول الأساسية لتمكين المرأة»^(٥).

وإذا سلمنا بهذا النموذج النظرى لقلنا مباشرة إن تملك المرأة للنقود من مصدر دخل خاص يترتب عليه مباشرة منحها فضاءً للقوة والاستقلال. وتلك قضية نحاول فى هذا البحث أن نطورها من خلال القول بأن فضاء القوة هذا ليس هدفاً فى حد ذاته، وإنما هو وسيلة لخلق فضاء آخر للعيش ولاستمرار حياة الأسرة. بل إن فضاء العيش قد يسبق فضاء القوة فى ضوء الظروف الثقافية والاقتصادية التى تعيش فيها المرأة، خاصة تلك التى تعيش فى كنف صور الحداثة الطرفية التى ما تزال تتعايش فيها أنماط وقوالب ثقافية جامدة حول مكانة المرأة، والتى ما تزال تتعايش صوراً من الاقتصاد المعيشى الذى يفرض على المرأة صوراً من العمل الشاق، والتى يختنق فيها النمو الاقتصادى والاجتماعى فيفرض ضغوطاً متنامية من الفقر والتهميش وصوراً مختلفة من الحرمان.

فى هذا الطرف قد تختلف علاقة المرأة بالمال عن هذا النموذج المثالى. قد تكون النقود وسيلة لاستمرار الحياة والتخفيف من عبء الحرمان، ومواجهة الظروف الاقتصادية الصعبة، وفى هذه الحالة يصبح تفسير العلاقة بين القوة وبين الاستقلال وبين تملك المرأة للنقود محل مراجعة، أو قل محل تطوير. وقد أكدت البحوث التى أجريت على المستويين العالمى والمحلى شرعية هذه المراجعة.

(٥) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٥ «نحو نهوض المرأة فى الوطن العربى»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى، برنامج الخليج العربى لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية، ص ٢١٥.

١- فعلى المستوى العام ظهرت فروض حول طبيعة القوة التي يمكن أن تتولد من خلال حيازة النقود أو إدارتها، وارتبطت هذه الفروض بالدراسات المتعلقة بميزانية الأسرة والتحكم فى الإنفاق. ومن أهم الأفكار فى هذا الصدد ما طرح حول نسبية القوة أو إطلاقها. فالقوة داخل الأسرة ليست كما يتم احتكاره، بل يمكن التفرقة بين مستويات منها. من ذلك - على سبيل المثال - التفرقة بين القوة التنسيقية *Orchestration power* والقوة التنفيذية *Implementation power* على اعتبار أن النمط الأول يرتبط بالقوة الإشرافية والإدارية، التى تؤثر تأثيراً كبيراً فى تحديد مسار الأسرة وأسلوب حياتها وخصائصها ومسار القرارات داخلها، ويعد هذا نمطاً من القوة يرتبط بتنظيم حياة الآخرين. أما النمط الثانى فإنه يرتبط بالقوة المتعلقة بتنفيذ القرارات، وغالباً ما تمنح هذه القوة لأصحابها قدرًا من الحركة ومن التأثير فى مجريات الأمور داخل الأسرة. ويتوزع نمط القوة على هذا النحو لا وفقاً للتحكم فى الموارد فقط، ولكن وفقاً لطبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة، ونظام تقسيم العمل داخل الأسرة، وغالباً ما يقوم توزيع الأدوار عبر هذا النمط داخل الأسرة على ضرب من الاتفاق، وليس على ضرب من الصراع^(٦). وثمة فروض أخرى ترتبط بالفصل بين كسب النقود وإدارتها داخل الأسرة. فالظروف التى تهيئ لعضو فى الأسرة الفرصة لإدارة النقود قد ترتبط بخصائص أبعد من حيازته لها، كالسن والخبرة الشخصية، بجانب دوره فى توليد هذه النقود بطبيعة الحال. وفى ضوء ذلك تفرق البحوث بين أنماط مختلفة لإدارة النقود؛ قد يسيطر فيها الرجل أو المرأة، وقد لا يسيطر فيها أى منهما عبر نمط ثالث يُعرف بالإدارة الجماعية لميزانية الأسرة، وهو النمط الأكثر شيوعاً فى الأسر العاملة^(٧). على أن هذه الإدارة الجماعية لا تمنع كل طرف من توجيه ما تحت يده من نقود إلى الاهتمامات الخاصة به: وتطور البحوث هنا فرضية هامة مفادها أن اهتمامات المرأة فى إنفاق ما تحت يديها من

(٦) Safilios Rothschild, "A Macro and Micro-Examination of Family Power and Love", *Journal of Marriage and the Family*, vol.37, pp.355- 362, 1976

(٧) - Fronces Woolly & Marshall Judith, "Measuring Inequality within the Household" *Review of Income and Wealth*, 40 (4), 415-431, 1994.

- Frances, Woolley, "Control Over Money in Marriage", *Journal of Socio-Economics*, vol.37 (2), 592-611, April 2008.

- Woolley, "Why pay child benefits to mothers?", *Canadian Public Policy*, 30 (1), 47-90, 2004.

نقود يتجه إلى الأطفال، وإلى تحسين الخدمات التي تحصل عليها الأسرة. فجل اهتمام المرأة ينصب - فى حالة ما إذا زاد دخلها أو دخل الأسرة - على الأطفال، فى حين ينصب جل اهتمام الرجل على أموره الشخصية مثل التدخين والملابس^(٨). ففضاء للعيش إذن، ولا استمرار الحياة كنتيجة لحيازة النقود من قبل المرأة.

٢- وعلى المستوى المحلى تركز الدراسات العربية على استمرار السياق الثقافى الذى يحدد للمرأة صورة خاصة ووضعاً خاصاً، رغم التغيرات التى طرأت على المجتمع، والتى جعلت المرأة أكثر استقلالاً وأكثر سيطرة على الموارد الاقتصادية. فثمة تأكيد على أن المرأة أصبحت شريكة فى حياة الرجل الاقتصادية، وهى تساهم مساهمة فعالة فى مساعدة الزوج مادياً وفى تقديم العون للعائلة. ومع ذلك فإن المرأة - خاصة العاملات فى مهن متوسطة وهامشية - تعيش واقعاً قد لا يمنحها استقلالاً اقتصادياً؛ فما تزال السلطة الذكورية بمفهومها التقليدى عائقاً أمام تحقيق الأوساط المتوسطة من التعليم والأوساط الأمية، لاستقلالها الاقتصادى، هذا فضلاً عن تعذر تكوين أسر نووية مستقلة اقتصادياً، حيث تضطر نسبة كبيرة من الأسر (المغربية) لمساعدة المرأة لعائلتها الأبوية^(٩). وحتى إذا ما حققت المرأة قدراً من الاستقلال المادى، وإرادة التحكم فى دخلها، فإن ذلك يجب أن يحاط بإطار ثقافى لا يقلل من شأن الرجل أو أن يحط من مكانته وقد أكدت البحوث المصرية هذه الفرضية حيث أكدت دراسة أجريت فى الثمانينات على أن الدخل الذى يرد إلى المرأة من عمل ثابت تؤديه، خاصة الوظيفة الحكومية، يخضع لإرادتها، وثمة تأكيد على أن المرأة العاملة تتحكم فى العائد من دخلها كما تشاء، وهى تنفقه على الأسرة إذا أرادت ذلك. كما كشفت الدراسة فى الوقت نفسه عن نتيجة هامة فيما يتصل بعلاقة المرأة بالنقود مفادها أن ثمة ازدواجية فى الخطاب حول النقود والسيطرة عليها وإدارتها داخل الأسرة، فالزوجة تعلن دائماً أن زوجها هو صاحب الإنفاق الرئيسى، وهو واجهة الأسرة وربها، ولكن الواقع الفعلى يكشف عن تفاصيل تؤشر

(٨) - Duncan Thomas, "Intrahousehold Resource Allocation : An Inferential Approach", *Journal of Human Resources*, 25 (4), 635-668, 1990.

(٩) فاطمة الزهراء ازرويل، المرأة بين الواقع والتصور : الوضع النسائى فى المغرب نموذجاً، فى : دلال البرزى وفاطمة الزهراء ازرويل (محررا)، المرأة بين الواقع والتصور، القاهرة : دارالمرأة العربية للنشر، ١٩٩٥، ص ص ٢٠-٢١.

على دور غير ظاهر للمرأة فى إدارة نقود الأسرة، وأن هذا الأمر ينسحب فى بعض الأحيان على إدارة دخل المرأة^(١٠).

وأكدت دراسة أحدث النتيجة نفسها، فقد أشارت إلى أن دخل المرأة يمنحها قدرة على الحركة والفاعلية داخل الأسرة، ولكن هذه المشاركة لا تسمح للمرأة أبداً أن تتباهى بها أو أن تمنّ بها على زوجها، أو أن تُذكره بها على نحو علنى (قد يحدث ذلك فى حالات قليلة طبعاً). ومثل المرأة فى ذلك وكما وصفت إحدى حالات الدراسة «مثل زوجة أيوب التى باعت شعرها عليها وهى راضية»^(١١). وتصبح المرأة بهذا السلوك هى التى تساهم فى تكريس الثقافة التى تتصادم مع مصالحها، أو تكريس ثقافة التفوق الذكورى، والاستبداد الأبوى. وتلك قضية أخرى على أية حال.

وبناء على هذه النتائج يحق لنا أن نطرح مشكلة علاقة المرأة بالنقود والقوة أو النفوذ على نحو مغاير؛ صحيح أن القوة قد تكون مطمحاً وهدفاً، وتحقق النقود هذا المطمح وذلك الهدف بقدر معين، ولكن العيش فى الأسرة، واستمرار حياتها تكون هدفاً أكبر. ثمّة مجالان أو فضاءان يمكن أن نتحدث عنهما عند التعرض للمرأة داخل الأسرة: فضاء القوة من ناحية وفضاء العيش من ناحية أخرى. تجلب النقود للمرأة (فى شكل دخل أو ميراث) فضاء القوة والاستقلال، فتدخل إليه ولكنها تصادف واقعاً مختلفاً، أكدته الدراسات التى عرضنا لبعضها ونحن نحاول الاقتراب من مشكلة هذا البحث. تصادف واقعاً أسرياً لا يقوم بالضرورة على حساب الأرباح والخسائر، تتفاعل فيه هذه المرأة مع زوج وأطفال، ومع إطار قرابى أوسع. ألا تكون قوتها واستقلالها وسيلة للحفاظ على رواج هذا الواقع واستمراره؟ كما تواجه - كما هو الحال فى مجتمعاتنا - واقعاً ثقافياً غليظاً يضع الرجال فى الصدارة، وهم «عنوان الحياة وتاجها»، هكذا تصنفهم قوالب الثقافة الجامدة. فماذا هى صانعة باستقلالها وقوتها؟ هنا يظهر فضاء العيش بقوة، وتصبح له متطلبات قد تتناقض مع متطلبات فضاء القوة. وهنا ربما تكون المساومة هى أفضل الحلول. ومن هنا يطرح السؤال المحورى فى هذه الدراسة: ما علاقة المرأة المصرية العاملة بالنقود؟

(١٠) علياء شكرى، وحسن الخولى وأحمد زايد، المرأة فى الريف والحضر: دراسة لحياتها فى العمل والأسرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٥٣-٣٥٦.

(١١) علياء شكرى، قضايا المرأة المعاصرة بين التراث والواقع، منشورات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ٣٨٥ وما بعدها.

هل تمنحها النقود (الدخل فى هذه الحالة) مساحة من القوة والاستقلال، أم أن النقود - وربما القوة المصاحبة لها - تتحول - مع مشاق الحياة وغلظ ثقافتها - إلى وسيلة لخلق فضاء من العيش المشترك؟

ثانياً: المنهج :

لتحقيق أهداف هذه الدراسة كان علينا أن نتوجه إلى جمع مادة ميدانية من نساء مصريات عاملات من مستويات تعليمية مختلفة، ووظائف مختلفة، ومن ثم ذوات مستويات اجتماعية اقتصادية مختلفة. وفى ضوء ذلك اتجهنا نحو مقابلة عشرين امرأة تتوافر فيهن الشروط التالية :

- ١- يعملن فى وظائف (أنشطة) اقتصادية ثابتة تدر دخلاً شهرياً ثابتاً،
- ٢- تزوجن أو سبق لهن الزواج.
- ٣- لديهن أولاد.
- ٤- يتنوعن فى السن وفى المستويات التعليمية.

وقد استخدمنا فى جمع المادة أسلوباً كفيماً يعتمد على المقابلات المفتوحة التى تحكى المرأة فيها علاقتها بالنقود على نحو تفصيلي. ولتوجيه المقابلة نحو تحقيق أهداف البحث، تم استخدام دليل للمقابلة يتضمن عدداً من الأسئلة المفتوحة حول دخل المرأة ومصادره، وحول طريقة تنظيم ميزانية الأسرة، وبنود الإنفاق، والسلوك الإذخارى للمرأة، وبنود الإنفاق الخاصة بها وبكل عضو فى الأسرة، والطريقة التى يتم بها تنظيم هذا الإنفاق، وأشكال الترويح عن النفس فى الأسرة، وقضاء وقت الفراغ، والطموحات المادية والاستهلاكية للمرأة . ولم يكن الدليل يستخدم أثناء جمع المادة، فلقد كانت المقابلة مفتوحة، ولكن الباحث يوجه المقابلة دائماً نحو موضوعها الأساسى. وقد تم تدوين المقابلات فى صفحات عديدة (تراوحت المقابلة الواحدة فيما بين ٧ و ١٠ صفحات).

وقد قمت بقراءة كل المقابلات، وأعدت صياغة كل منها فى لوحة بانورامية تلخص المضمون الأساسى للبيانات التى تضمنتها المقابلة . ولقد كتبت هذه اللوحات بلغة مختلفة عن لغة السيدة التى تمت مقابلتها، ولكن كلماتها وعباراتها المميزة والدالة جاءت بين السطور لتعطى الإحساس بروح المقابلة وسياقها وتم اختيار عنوان لكل لوحة من كلمات صاحبته. ويمكن أن نعتبر أن تلخيص المقابلات

فى لوحات بانورامية كان القراءة الأولى لهذه المقابلات، وكان لابد أن تخضع هذه اللوحات لقراءة تأويلية ثانية، وهى القراءة التى مكنتنا فى النهاية من أن نستخلص عدداً من النتائج، وأن نطور عدداً من الفروض يجدها القارئ فى القسم الأخير من هذا البحث ، وبعد أن يفرغ من قراءة اللوحات.

ثالثاً : عشرون لوحة من عشرين أسرة

(١) «ربنا يبارك لى فى القرش»

نرمين تبلغ من العمر أربعين عاماً، تعمل مديرة للشئون القانونية فى أحد معامل التحليل الطبى. تزوجت من مهندس سيارات، وأنجبت طفلين. تتقاضى نرمين من وظيفتها حوالى ١٠٠٠ جنيه شهرياً، ويكسب زوجها ضعف مرتبها شهرياً، بجانب إيجار محل ورثه الزوج من أبيه، وإيجار الشقة القديمة التى كانت تسكن فيها الأسرة. تعتقد نرمين أن دخل زوجها هو الذى يجعل الأسرة لا تحتاج إلى شئ . دخل الأسرة يكفيها شهرياً، تعتقد نرمين أن أسرتها تنفق كثيراً فهى وزوجها والأولاد لديهم قدر من الإسراف، ومن ثم فلا طريق إلى التوفير. هى لا تحاول أن تدخر شيئاً، كما أنها لا تشتري ذهباً، ولكنها تحتفظ بحليها التى أهداها لها زوجها عند الزواج، ولم تضيف عليها إلا القليل.

تسير الأسرة فى حياتها على نظام لتقسيم العمل فيما يتصل بالإنفاق، فكل حاجات المنزل والأولاد يتكفل بها الزوج، ويترك لها زوجها مرتبها تتصرف فيه كما تشاء. هى تساهم فى دفع فاتورة الكهرباء، والمياه، والغاز، وأجر البواب، ثم تنفق باقى مرتبها على نفسها.

تلعب الزوجة دوراً كبيراً فى إدارة حياة الأسرة، فهى التى تشتري كل شئ، حتى ملابس زوجها، وهى التى تدير شئون الأولاد، وتتابعهم فى المدرسة. تحرص نرمين على أن تبدو فى مظهر لائق، وتحرص على انتقاء ملابسها والاكسسورات اللازمة لها، وهى تشتريها من نقودها، وأحياناً من نقود زوجها (خاصة فى عيد ميلادها) تعتقد نرمين أنها تختلف قليلاً عن الأخريات، فهى لا تحاول أن توفر من مصروف البيت ولا تبخل على أطفالها بشئ، فهى «ضميرها صاحى يعنى عمرى ما فكرت أعمل زى باقى الستات وأوفر من فلوس البيت حاجة ليه، عشان كده تلاقى ربنا مبارك ليه فى القرش».

تقضى نرمن بعض الفراغ فى زيارة الأهل، وتخرج أحياناً مع أولادها إلى الملاهى أو حديقة الحيوان، وتحرص على الذهاب إلى المصيف كل عام، وتتمنى أن يكون لها سيارة خاصة.

(٢) «اللى فى جيبك أحسن من اللى فى جيب غيرك»

تعمل مدام حورية (٣٢ سنة) اخوائية اجتماعية بمدرسة اعدادى. متزوجة من مدرس كيمياء، وتسكن هى وزوجها وأطفالها الثلاثة فى شقة من ثلاث غرف، مزودة بتليفون ومعظم الأجهزة الكهربائية. وتملك الأسرة سيارة ، فضلاً عن ثلاثة تليفونات نقالة. تعتقد حورية أن دخل الأسرة يكفيها، خاصة وأن زوجها يعطى دروساً لمجموعات من الطلاب. تملك حورية شهادات استثمار فى البنك، وكان لديها دفتر توفير واضطرت إلى سحب ما فيه. كما أن لديها حليها الذى تزوجت به وازافت إليه بعد ذلك، وتتمنى أن تحافظ عليه ولا تضطر إلى بيعه فى يوم من الأيام.

تهتم حورية بأن تعيش عيشة مستورة، لا يهملها أن تدخر نقوداً، وهى لم تعد قادرة على الادخار الآن بعد أن تنوعت مطالب الأولاد فى التعليم. تعودت الأسرة أن تجمع مرتب الزوج والزوجة، ويأخذ كل منهما مصروفه الشهرى وينفق المتبقى على المنزل : الطعام والشراب والإيجار والكهرباء وفواتير الموبايل والتليفون وبنزين السيارة وكتب وكراسات الأولاد، ودروسهم الخصوصية.

تعيش الأسرة على مبدأ صارم فى تقسيم النقود، فلو اشترى الشخص شيئاً يخصه هو يكون من مصروفه الشهرى؛ أما إذا كان دواءً فيكون من مصروف البيت. وحورية هى التى وضعت هذا المبدأ، وهى التى تطبقه، لأن كل النقود الخاصة بالأسرة (المكونة من جمع المرتبين كل أول شهر) تكون تحت تصرفها لأن «الرجل معندوش دماغ للكلام ده». وهى تدبر الأمر عندما تقرر شراء لوازم الأسرة - خاصة الملابس والأحذية ومستلزمات المدارس - من المحلات الأقل سعراً.

تخرج حورية فى رحلات مع المدرسة وتأخذ أولادها معها أحياناً، وتحرص على السفر إلى المصيف كل عام، وتقضى جزءاً من فراغها مع زوجها وأولادها فى المنزل وقد تخرج أحياناً لتناول الطعام خارج المنزل، ولا تستنكف من شراء طعام من خارج المنزل كنوع من التغيير .

تعتقد حورية أنها حققت كل ما تريده، وهي لا تريد شيئاً إلا أن ينجح الأولاد وتستطيع أن تحج وتعتنم وأن تبني بيتاً للأولاد، وربما تستطيع أن تحقق ذلك بعد أن يتم الأولاد تعليمهم.

ولذلك فهي تحرص على أن تضع كل قرش في موضعه الصحيح، فلو امتلكت نقوداً كثيرة فسوف تتجه نحو بناء البيت والحج والعمرة، «فإن تبقى الفلوس في جيبها أفضل من أن تبقى في جيب غيرها».

(٣) «لو أبني عايز خلاص بلاش أنا»

تلخص هذه العبارة علاقة سعاد بالنقود، لا تفكر في نفسها قدر تفكيرها في أسرتها وابنها وهي في بداية مشوار الحياة الزوجية. تبلغ من العمر ٢٢ عاماً ، عاملة في مصنع نسيج، وتتقاضى أجراً في حدود ٣٥٠ جنيهاً شهرياً، تزوجت حديثاً من زميل لها في نفس المصنع يتقاضى نفس أجرها تقريباً. كل ما تملكه هو هذا الدخل الشهري وما ورثته عن أبيها أنفقتة على زواجها. لا تدخر شيئاً من دخلها، فهو يكفي بالكاد مع دخل زوجها، وتحمد الله أنها لا تمد يدها للاقتراض من الآخرين. وتتمنى أن يكون لها وليس عليها، اضطرت لبيع حليها بعد الزواج مباشرة لكي تستطيع أن تشتري جهاز تلفزيون. في أول كل شهر تعطي راتبها لزوجها، وهي تبرر ذلك على النحو التالي «عشان يكون هو المسئول وهو الرجل برضه» وهو يقوم بإعطائها المصروف الأسبوعي الذي يغطي حاجات المنزل، وحاجة الطفل الوليد من اللبن، ويعطيها كل يوم فلوس المواصلات ومصروف الجيب. ويدفع هو الإيجار الشهري للشقة وتكاليف الكهرباء ، وقليلاً من النقود لابنه ويغطي تكاليف السجائر. ويغطي مرتب الزوج والزوجة هذه البنود بالكاد.

ولا تستطيع سعاد أن تشتري كل ما تحتاجه، أو كل ما في نفسها أن تشتريه، وتؤكد أن «فيه حاجة أهم من حاجة، يعنى لو ابني عايز خلاص بلاش أنا». لا تشتري سعاد لنفسها أو لزوجها أشياء تذكر، زوجها لا يريد إلا سجائره، وفي حالة الضرورة تشتري الملابس من الأسواق الرخيصة في الجيزة أو الموسيقى أو العتبة. تحلم بأن يكون لديها شقة أوسع لوحدها مش مع أهل جوزها. وجهاز أفضل وأجهزة كهربائية أفضل، وتحلم بشراء ذهب مثل أى امرأة، ولكن هذا الحلم يظل بعيد المنال طالما أنها «تحسب كل حاجة بالورقة والقلم». لا تجمل سعاد خارج

المنزل لأن زوجها محرم عليها «الكلام ده» فى الشارع، ولكنها تتجمل أحيانا فى المنزل بأشياء تشتريها من محلات ٢,٥ جنيهه(*) .

كانت سعاد تذهب إلى رحلات قبل الزواج مع زملاء العمل، ولكنها لا تستطيع الآن، وهى تقضى وقت فراغها فى المنزل وتكتفى بزيارة والديها وحماتها وأهل زوجها، لم تخرج لقضاء أى وقت خارج المنزل إلا مرة واحدة بعد الزواج مباشرة حيث تناولت طعام الغداء مع زوجها فى أحد المطاعم، تتمنى لو أن لها نقوداً مستقلة تنفق منها على نفسها، وتتمنى أيضا لو أدخرت منها شيئا، ولكنها لا تستطيع.

(٤) «فلوس كثيرة قوى أنا اللي أحركها مش هى اللي تحركنى»

سيدة : تبلغ سيدة من العمر ثلاثين عاماً، حاصلة على دبلوم تجارة، تعمل بائعة فى محل ملابس جاهزة تعمل فيه منذ عشر سنوات، متزوجة من عامل نقاش، ولديها ولدان. يبلغ دخل سيدة الشهرى ستمائة جنيه، أما دخل زوجها فغير منتظم «يكثر فى الصيف ويقل فى الشتاء»، ويتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جنيه شهريا فى وقت ذروة العمل. لا تعرف سيدة طريق البنك، أو البريد، ولا تقتنى ذهباً إلا خاتم اشترته لها اختها. تدير سيدة أمور بيتها شهراً بشهر، وتدخر من جمعية إذا ما احتاجت إلى شراء شئ أكثر تكلفة. والمرتب يكفى الشهر بالكاد، ولا يعطيها زوجها نقوداً مما يكسب إلا إذا سألته لشراء أشياء له أو للأولاد(**). وهى تأخذ معظم حاجاتها من المحل الذى تعمل فيه بتخفيض كبير. تشتري هى أغراضها الشخصية من نقودها الخاصة. «أنا بصرف على قد الفلوس اللي معايا، الفلوس هى اللي بتحركنى مش أنا اللي بحركها، لما يكون معايا فلوس كثيرة قوى أنا اللي احركها مش هى اللي تحركنى، الفلوس هى اللي تقولى اشترى ايه وما اشترى ايه». ليس هناك وقت كثير للترويح لدى سيدة، فهى تخرج إلى زيارة أهلها، وفى بعض الأحيان تذهب مع زوجها وأولادها إلى حديقة الحيوان أو السينما. لا تدخر سيدة شيئا للأزمات، وتؤكد أن الحياة كلها أزمة «يعنى الواحد لما يعدى عليه يوم كويس يقول الحمد لله عقبال اللي بعده». وتتمنى لو أنها تملك أموالا كثيرة تحركها هى بنفسها، ساعتها سوف تبني عمارة وتفتح مشروعاً خاصاً (محل ملابس).

(*) المحلات التى تباع كل شئ بجنيهان ونصف.

(**) وهو يدفع اجار الشقة ٣٠٠ جنيه فى الشهر.

(٥) «قرشك هو حياتك»

الحاجة سناء : تبلغ الحاجة سناء من العمر أربعين عاماً، تزوجت من أستاذ جامعي وأنجبت منه ثلاثة أبناء وبنت، لم يستمر الزواج لأنها تطلقت، واستقالت من مهنتها (مدرسة لغة عربية) لتدير حضانة للأطفال تملكها. تتصرف فيما يعود عليها من مشروعها الخاص باستقلال تام فتنفق جزءاً منه في المنزل لأن ما يدفعه الأب شهرياً لا يكفي الا مصروف الأولاد ومدارسهم وتدخر الباقي في البنك. أسست مشروعها من نقود وفرتها من إعارة سابقة إلى الخليج، وهي تدخر كل ما يفيض عن حاجتها. تحرص دائماً على تزويد رصيدها في البنك، وتفتح حساب توفير لكل أولادها وبناتها. تملك مجوهرات كثيرة، وهي تزيدها ما بين حين وآخر، وتعود ابنتها على أن يكون لها مجوهراتها الخاصة.

تعتقد الحاجة سناء أنه في الوقت الذي نعيش فيه يكون «قرشك هو صاحبك والإنسان من غير فلوس ملوش لازمة، وأنا لو مش عامله حسابي كان زماننا مدينا ايدينا لابوهم ومكنش هيدينا لأنه عنده بيت تاني وعيال ثانية، والحمد لله ربنا رزقني بصيرة وعرفت اتصرف»

تشعر الحاجة سناء أنها تنفق النقود كالبحر، والبحر دائماً يحب الزيادة. هي لا تدفع أيجاراً للشقة لأنها تملك وكذلك الحضانة، ولكنها تحرص على ألا ينقص البيت اى شئ كما تغطي كل حاجات الأولاد في المدارس، وتدفع لهم للرحلات وتستقبل أهلها كضيوف في منزلها، وتدير الحضانة فتدفع للموظفات والعاملات أجورهن، وتحصل مصاريف الحضانة من أولياء الأمور بنفسها. تشعر دائماً أن ثمة علاقة بين إدارتها للحضانة وأداتها للمنزل، «فعين هنا وعين هناك» إدارة شئون الأولاد وتلبية حاجاتهم كلها غير منقوصة، وإدارة شئون الحضانة.

وهي تشتري لنفسها كل ما ترغب فيه، وتؤكد على أن المرأة لو «عندها دخل خاص بيها أكيد تعرف تشتري كل اللي في نفسها، إنما لو ست بيت هتنتظر الحسنة من جوزها أو أنه يمنّ عليها أنها تشتري حاجة ... أنا لو نفسى في حاجة اجيبها حتى لو ثمنها ايه»

ليس للحاجة سناء أمنيات شخصية فقد حققت الكثير، وهي تكتفى بأن تلبس عبايات وطُرح ولا تسرف كثيراً في شراء أدوات التجميل، وأن اشترت فالذهب فقط. هي لا تمتلك وقتاً للترويح عن النفس، ولا تخرج إلا إذا كان عيد أو عيد الميلاد

للأولاد (تحرص أحياناً على عمله في المنزل أو في محل ماكدونالدز أو في رحلات الحضانة التي تحرص أن تأخذ أولادها معها ولكنها لا تنسى أن تتمنى أن يكون لديها أتوبيس خاص تستطيع أن تشغله لنقل الأطفال إلى الحضانة فتأتي بدخل آخر للأسرة. فالأمنية الأكبر للحاجة سناء أن يكون عندها «أساس مادي قوى ويكون كل شويه في زيادة وعمري ما اخذ منه».

(٦) «لو جوزي ماتطلعش جدد معايا»

صباح : تبلغ صباح من العمر ٤٥ عاماً، تقرأ وتكتب، متزوجة من صاحب محل سباكة، ولديها ثلاثة أولاد وبناتان . تسكن صباح في مسكن أسرة الزوج (في أسرة شبه ممتدة) وتعمل عاملة بمركز طبي حكومي. التحقت صباح بهذا العمل منذ أربعة سنوات فقط وهي تتقاضى منه مبلغاً يصل إلى ٣٠٠ جنيه شهرياً بجانب بعض البقشيش الذي تحصل عليه من الأطباء أو المرضى. كما أن زوجها أصبح يملك هذا المحل بعد سنوات طويلة من العمل في السباكة وهي تقول: «أنه بيكسب شهرياً ما بين ٥٠٠ إلى ٧٠٠ جنيه. لم ترث صباح من أهلها شيئاً، كما لم يرث زوجها أيضاً فلم يترك لهما أهلها غير «السيرة الطيبة». يعمل ابنها الكبير في الأجازة الصيفية لكي يدبر مصاريف دراسته، وهو يخفف عن الأسرة بعض الشيء من تكاليف الحياة. تنفق صباح نقودها الشهرية في المنزل، وهي تنظم ميزانية المنزل مع زوجها الذي يتولى إدارتها فهو يأخذ كل النقود منها وهي تبرر ذلك بالقول «هو اللي عايز كده.. مقدرش أقوله لا» وهو يعطيها مصروفها الشهري، ويعطيها مبلغاً من المال كل أسبوع لتقضى منه لوازم المنزل من الطعام والشراب.. الخ.

تقول صباح «ربنا وحده هو اللي يبسهلها من عنده، أحنا ما بنشترش حاجات زيادة إلا العيش أو أى حاجة هناكها في الفطار أو الغداء، ومصاريف النظافة ، لو هانروح نزور حد يكون في ايدينا شوية فاكهة أو طبق حلويات وبندفع الكهرباء وفلوس الزبالة، ولو في حاجة انكسرت في البيت، وعايزة تتصلح، ولاني مشغولة جدا في الشغل كل واحد من العيال هو اللي بيروح يشتري حاجاته من الموسكى أو الوكالة أو السيدة زينب، وأنا لا اشترى لنفسى أى شىء. العيال هم اللي بيشتروا في العيد (طبعا عيد الأم) جلباية أو عباية، الست اللي ربنا فاتح عليها وعلى جوزها هي اللي بتعرف تشتري كل حاجة، إنما اللي زينا مش كل اللي نفسها فيه تقدر تشتريه،

والحمد لله ربنا بيارك لنا فى الرزق. الواحد بيلاقيها كده وسعت من مفيش وساعات بتضيق أوى لكن هأعمل ايه الواحد لازم يحاول يمشى أمور عيشته»

لا تتمنى صباح من الحياة إلا أن يكون لها منزل مستقل. ولن تحقق من عملها الذى التحقت به منذ أربع سنوات أحلاما كثيرة إلا بعض المساعدة فى حياة الأسرة وشراء مرواحة للعيال كان نفسها تشتريها من زمان. ولم تفكر فى حياتها إن تشتري ذهباً، وكل أملها فى المستقبل أن تساعد أولادها على الزواج، خاصة البنات منهم، كما أنها لا تفكر أبداً فى التزين بل إنها تعتبر التزين فى هذه السن من العيوب الكبيرة «لأن العيال كبرت». لا تخرج صباح كثيراً للفسحة فهى لا تمتلك وقتاً لذلك ولم تذهب إلى المصيف إلا مرة واحدة فى حياتها ورغم ذلك فإن صباح على وعى بأن يكون لها نقود خاصة بها «قرش بتصرف منه»، وتعرف أهمية ذلك جيداً فى حالة حدوث مكروه للزوج او فى حالة أن الزوج «مطلعش جدد معها». فهى تستطيع فى الحالة ده أن تعيش مع عيالها من غير ما تضطر أنها تتجاوز تانى.

(٧) «رضاي من رضا ولادى»

أم مريان: أم مريان تبلغ من العمر ٤٥ عاماً، حاصلة على دبلوم تجارة، صاحبة محل كوافير سيدات، متزوجة من سائق سيارة تاكسى، ولها ولدان وبنتان. تعلمت مهنة تصفيف شعر النساء منذ نعومة أظافرها حيث كانت تعمل مع والدها الذى كان يمتن المهنة نفسها، وتقول إن زوجها فتح لها محلاً، ثم استطاعت هى أن تفتح محلاً آخر، أصبح لها الآن محلان تدير أحدهما هى وابنتها، وتشرف على الآخر عن بعد. تقول إنها تكسب حوالى ١٠٠٠ جنيه شهرياً، وأن دخلها أكبر من دخل زوجها حيث لا يزيد دخل زوجها عن ٥٠٠ جنيه شهرياً.

تعتنى أم مريان بأولادها، وتدّخر من أجلهم، فهى تحرص على أن يكون لكل من أولادها دفتر توفير. هى بالفعل نفذت ذلك لابنها الأكبر وابنتها الكبرى التى تساعدها فى عمل الكوافير، كما تحرص على أن تشتري لبناتها ذهباً كلما اتاحت الفرصة.

لا تمتلك أم مريان وقتاً كثيراً تنفقه فى شراء الاشياء، هى التى تدير كل شئ، لا تأخذ من زوجها نقوداً، وهو ينفق ما يكسبه على السجائر أو الملابس ومصروف الجيب. أما انفاق الأسرة برمته فيؤخذ من إيراد المحل، ولأنها لا تملك وقتاً فإنها

تعتمد كثيراً على ابنتها الكبرى التي تدرس في السنة الأخيرة في دبلوم التجارة، فهي تساعدنا في المحل، وتتكفل بشراء حاجات اخوتها، فضلاً عن المساعدة في شراء حاجات المنزل من الطعام، وتضيف أم مريان «أنا أهم حاجة عندي عيالي، والست اللي عندها عيال تقول دائماً هم احق مني، ولازم تحط كل همها في عيالها، يعني رضاها من رضا عيالها، وإن كل حاجة يحتاجوها يلاقوها وما يحتاجوش لحد».

ورغم ذلك فإن أم مريان لا تملك وقتاً كثيراً للفسح أو الزيارات الخاصة وإن كانت تهتم بالذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد. تحرص على أن يكون لها نقودها الخاصة، هي تعودت ذلك منذ الصغر، وهي تحرص على أن يكون لها راتب شهري، وتدخر منه جزءاً لأولادها ولنفسها، وهي تعتقد أن الفلوس «سند في الزمن ده ولازم الواحد يتحوط بها»، وهي تمكّن المرأة من أن تبني نفسها، «وما تجعّش الناس يضحكوا عليها».

(٨) «صبر نفسي على ولا صبر الجزار»

أم عبده : تبلغ أم عبده من العمر ٤٤ عاماً، وتعمل مساعدة مشرفة في حضانة خاصة، وهي متزوجة من زوج على المعاش ولديها أربع بنات (ومن هنا أخذت هذه الكنية لأنها لم تنجب ذكورا) تحصل أم عبده على ٣٠٠ جنيه مرتباً شهرياً ويحصل زوجها على ٦٠٠ جنيه من معاشه، ولا تملك الأسرة أي دخل آخر غير هذا الدخل. تنفق أم عبده جزءاً كبيراً من نقودها على الأسرة وهي تقدر مصاريف الشهر بـ ٣٠٠ جنيه تنفق على الإيجار والغاز والطعام والمواصلات، ومصاريف المدارس، وعلاج ابنتها الكبرى.

وتؤكد أم عبده أن زوجها ليس له أي طلبات سوى سجائره، وقطعة من القماش من حين إلى آخر. وتترك أم عبده بناتها يشتري احتياجاتهن لأنفسهن من مصروفهن أو من نقود يأخذنها من أبيهن ويلاحظ في هذه الأسرة أن الانفاق الشهري قليل لأن الأسرة تحضر من القرية كل شهر بعض المواد كالخبز والبيض والجبن والخضروات الطازجة والجافة، فثمة دعم للأسرة من أقاربهم في القرية. وتنشغل أم عبده كثيراً بالمستقبل، فقد سعت إلى العمل لضمان دخل لنفسها مستقل عن دخل زوجها، وعندما توفر لها دخل فتحت لنفسها حساب توفير (دفتر توفير) تضع فيه ما تستطيع أن تدخره شهرياً من مرتبها خاصة الاكراميات التي تقدم لها

من أولياء الأمور. تقول أم عبده «كل حاجة تفيض منى أروح على طول أشلها... أصل مفيش حاجة مضمونه اليومين دول، أنا دلوقتي فى صحة يا عالم بعدين ها قدر والللا لا، وبعدين علاج البنت الكبيرة بتأخذ حقنة كل سنة ولازم تاخذها علشان معندهاش مناعة، وساعات بدخل جمعيات وأنا اللي بامسكها وبنعملها فى الحضانة مع المدرسات والستات العاملات، وده كله علشان تبقى معايا فلوس اعرف اعيش واحوش منها، ولما اعوزها الاقيها مفيش حد اليومين دول بيدى لحد جنبه حاجة يعنى اطلعي دلوقتي وقولى أنى مزنوقة واللله ما حدش يعطيكى جنيه، ولو ادالك هايكون مستنى تردها امتى، الواحد أحسن يصبر على نفسه «صبر نفسى على ولا صبر الجزار» ورغم ذلك فإن أم عبده ترى أن لا فرق بين نقودها ونقود زوجها «فالجيب واحد» ولا تستنكف أبداً أن تنفق مدخرتها على زوجها، كما حدث من قبل حين باعت الأسورة الوحيدة التى تمتلكها عندما كان فى أزمة.

تشتري أم عبده كل حاجتها الشخصية من نقودها وهى أشياء بسيطة تنحصر ما بين الجلابية والشبشب والشال والطرحه. وهى تنظر إلى النقود على أنها مثل المياه «سبحان الله ما تعرفش تمسكها نهائى». ومن أمنياتها أن يكون لها قطعة أرض فى البلد (القرية) وأن تسكن فى مكان واسع، وأن تغير مواسير الحمام والمطبخ لأن الجيران فى شكوى دائمة من هذا الأمر وهى لا تستطيع القيام بإصلاحها. ولا تطلب أم عبده من الدنيا إلا الستر «الستر الواحد مش عايز غيره.. أن يفضل مستور وربنا ما يحوجنا لحد أبداً وطول ما الواحد ما بابى مقفول على أكل أنا والعيال بملح المهم ما حدش يطلببنى بحاجة على»

لم تذهب أم عبده إلى أى مكان أبعد من قريتها التى تزورها من حين إلى آخر، وهى تستغرب عندما نسألها عن الخروج إلى أى صورة من صور الترويح عن النفس من سينما أو مطاعم أو مصاريف.. الخ. فكل إطلالها على العالم الخارجى رحلة إلى القرية فى كل أول شهر لاحضار متطلبات المنزل.

(٩) «نفسى فى حاجات كثيرة بس مش طايلة»

أم سيد : أم سيد سيدة أرملة تبلغ من العمر ٥٥ سنة ، وتعمل عاملة فى إحدى المؤسسات الحكومية، وتتقاضى راتباً مقداره ٥٠٠ جنيه شهرياً. تزوجت من عامل معمارى توفى وترك لها ابناً، يعمل الآن موظفاً بالحكومة وابنة ما تزال فى كنفها ،

وتتحكم ام سيد فى كل النقود التى تحصل عليها من عملها، وهى تنفقها على نفسها، وما يتبقى منها تنفقه لتساعد ابنها المتزوج الذى لا يكفيه دخله للانفاق على أسرته وعلى ابنه المريض. وتجهز ابنتها للزواج كما تساعدها أيضاً فى التعليم حتى حصلت هذه الأبنة على الشهادة المتوسطة وتكمل دراستها الجامعية بالتعليم المفتوح.

تعانى أم سيد من بعض الأمراض وتضطر إلى عمل علاج طبيعى كما أجرت عمليتين جراحيتين من قبل، ولذلك فهى تشعر أن عليها عبئاً مالياً كبيراً فهى تحمل هم ابنها المتزوج ذى الدخل الصغير، كما تحمل هم ابنتها التى تستعد للزواج وتكمل تعليمها، إلى جانب هم مشكلاتها الصحية. تحاول أم سيد جاهدة أن تدبر أمور حياتها عبر كل هذه المسؤوليات فهى تقسم دخلها على الطعام الذى قد يشارك فيه الأولاد والأحفاد أيضاً، وعلى شراء الدواء، ومساعدة الأولاد.

تدير أم سيد كل شئونها بنفسها، لا يساعدها أحد بل أنها تدير شئون أولادها أيضاً فهى لا تعتبر أن ما تحصل عليه من دخل يجب أن يكون لها وحدها بل هو دخل مشاع لكل أفراد الأسرة، وهى تقوم بدورها بدرجة تعكس قدراً كبيراً من الحب والكرم (يتضح ذلك من حديثها عن نوعية الأطعمة التى تعدها لأولادها واحفادها عندما يزورونها هم وزوجاتهم) .

فى ضوء هذه المسؤوليات تشعر أم سيد شعوراً عميقاً بالحرمان وهذه كلماتها: «نفسى فى حاجات كثيرة بس مش طايله وأنا عندى أراضى بنتى اليتيمة عنى وعن أى حاجة تانية، حتى ابنى اللى متجوز لو نفسه فى حاجة اجيبهله، ولو نفسى اجيب حاجة مبقدرش اجبها... نفسى فى كيلو زبده.. نفسى أكل كنافه.. والحاجة غالية، أحنا فى رمضان مدخلش الكنافه ولا القطايف وباشترى عرق سوس افطر بيه، احنا ما نقدرش على الفشخرة الفاضية»

وتعكس كلمات ام سيد أمانيتها أيضاً «نفسى أجيب أوضة نوم حلوه بدل الدولاب المكسر بقى له ٢٠ سنة... نفسى أجيب دولاب دلفتين، كل ما اروح أسأل عليه يقولى ب ٧٠٠ جنيه .. نفسى اشترى غسالة حلوة.. الغسالة رجليها انكسرت وباغسل عليها بالعافية، يمكن ربنا يقدرنى اجيبهم بالتقسيط زى ما جبت بوتجاز أربع عيون دفعت له ٢٥٠ مقدم وكل شهر ٦٠ جنيه... ونفسى كمان اجيب حلق ذهب لبنتى»

ولذلك فإن ام سيد لا تعرف طعاماً ولا لوناً للترويح عن النفس الا كما تقول كلماتها: «اقعد اصلى وأسبح ولو فى مسلسل فى التلفزيون حلو اقعد اشوفه».

(١٠) «اللى بيدهولى جوزى بأصرف بيه نفسى»

حمدية : تبلغ حمدية من العمر ٥٦ سنة، وتعمل فى أشغال الأبرة والتطريز وهى تؤدى هذه الأعمال لأحد المحلات المتخصصة فى تطريز العبايات والجلباب. وهى تؤدى عملها إما فى المنزل أو فى المحل. حمدية لا تقرأ ولا تكتب (امية) متزوجة من ميكانيكي سيارات على المعاش ومنجبة لأربعة أبناء (٣ بنات وولد)، حصل أولادها على دبلومات متوسطة كما زوجت حمدية إحدى بناتها .

تكسب حمدية من عملها حوالى ٢٠٠ جنيه شهريا وتقول إنها «تدبر بها حالها وبتصرف بها أمورها»... مواصلات - مجاملات - تسديد ديون» وتدخر ما تبقى من هذه النقود تحسبا لأى ظروف. أما المسئول عن ميزانية الأسرة فهو الزوج وهو يعطى زوجته مصروف المنزل يوما بيوم وهى لا تناقشه فيما يعطيه لها فمرة يعطيها ٥٠ جنيهًا ومرة أخرى ٢٠ جنيهًا ومرة ثالثة لا يعطيها شيئاً، ويساعد الأبناء فى بعض المصروفات كأن يحضر أحدهما وجبة جاهزة لعشاء الأسرة، أو تدخل الأبنه التى تعمل فى جمعية لشراء أحد الأجهزة الكهربائية للأسرة، أو أن تشتري الأبنه الأخرى شيئاً بالتقسيط وتقوم بسداده من دخلها. ويساهم البناتان فى ميزانية الأسرة أكثر من الابن حيث تقول الأم «الابن يحتاج اللى يساعده علشان عايز يتجوز»، كما تؤكد أن الابنة الصغرى التى تعمل فى أحد محلات تصفيف الشعر هى التى تأتي إليهم بالأكل الجاهز أو تسدد أقساطاً، بل أن البنات قد تساعدان اخاهم، وتقوم حمدية بشراء جميع متطلبات الأسرة بمساعدة البنات، كما تقوم بشراء احتياجات الزوج وهو الذى يقوم بدفع ثمن هذه الحاجات.

وتشتري الزوجة حاجاتها الشخصية من دخلها الخاص، أو بمساعدة إحدى بناتها، ورغم أنها تقول إنها تشتري كل ما فى نفسها وأنها تدخر جزءاً من دخلها إلا أنها تمنى لو غيرت شقتها لتسكن فى مكان بعيد عن هذه المنطقة الشعبية، كما تمنى لو أنها غيرت حجرة نومها. وهى تفضل أن تدخر بعض النقود لتشتري بها بعض الحلى أو تضعها فى دفتر التوفير مثلاً، وليس لحمدية أى ميزانية لقضاء وقت الفراغ فى الترفية. فكل وقتها تقضيه مع جيرانها وهى تذكر أنها طوال حياتها لم

تسافر الا فى رحلتين من خلال جمعية خيرية بالمنطقة احدهما إلى الفيوم والاخرى إلى أسوان.

ولا تقتصر أحلام حمدية المستقبلية على تغيير شقتها فقط إنما تمتد إلى آمنيات خاصة بزواج ابنائها، فهي تربط آمياتها حول تغيير الشقة بزواج الابن الذى يمكن أن يسكن معهم فى الشقة نفسها لو كانت أوسع.

(١١) «أنا بحاول ما أحرمش نفسى من حاجة»

أمينة : تبلغ أمينة من العمر ٣٥ سنة، وحاصلة على مؤهل متوسط، وتعمل أمينة مشرفة على معمل كومبيوتر باحدى المدارس الحكومية وتتقاضى عن هذا العمل مرتباً شهرياً مقداره ٣٠٠ جنيه. وأمينة متزوجة من موظف ذى مؤهل متوسط ويعمل بالشئون الإدارية باحدى المستشفيات الحكومية، كما يحاول زوجها لزيادة دخل الأسرة العمل بإحدى العيادات الخاصة فى الفترة المسائية كمشرف على هذه العيادة. ولأمينة من الأبناء ثلاثة (ولد وابنتان) . الولد هو أكبر الأبناء وهو طالب فى التعليم الثانوى العام اما الابنتان فما زالتا فى المراحل المبكرة من التعليم.

تنفق أمينة مرتبها كله على حاجاتها الشخصية وعلى بعض احتياجات الأسرة حيث تقول «مرتبى كله بيتصرف فى حاجات خاصة بى وبالأولاد، يعنى بدفع منه جمعيات وأقساط وباشترى منه لبس ولو عجزت معايا قوى ممكن أكمل من جوزى علشان أنا باصرف كل مرتبى فى البيت بس مش على الأكل والشرب»

وتؤكد أمينة أن زوجها هو المسئول الأول عن الانفاق على الأسرة فهو الذى يقوم بشراء احتياجات المنزل من الأكل والشرب يومياً، وممكن أن يعطينى نقود يوم بيوم لشراء متطلبات المنزل. وتعد مصاريف الأكل والشرب أهم حاجة بتتصرف فيها الفلوس ويليهام مصاريف الدروس الخصوصية. وترى أمينة أن أكثر مشكلة تعانى منها هى مصاريف الدروس الخصوصية حيث تقول «مصاريف الدروس الخصوصية هى مشكلتى الكبيرة علشان كده باحاول أدبرها طول الشهر لأنى ما اقدرش أطلبها من جوزى مرة واحدة فباخذ منه لما يكون معاه فلوس يعنى عشرة جنيه فى عشرين جنيه واشيلهم على جنب للدروس». وإلى جانب مشكلة الدروس الخصوصية هناك مشكلة أخرى لدى أمينة وهى حب الشراء والتسوق الزائد عن الحد فتقول: «أنا باحب الشوبنج حتى لو فى الاكل وده بيورطنى فى ديون كثيرة،

يعنى ممكن أكون فى محل ويعجبني حاجة وأنا معايش فلوس استلف من صحابى واشترتها، وابقى اسدد بعدين، ممكن ده يبقى فى حاجات مهمة ومحتاجها وساعات بيبقى فى حاجات هايفة زى الاكسسورات أو المكياج - وأنا باعتبار نفسى باشتري كل اللى نفسي فيه ، فانا باحاول محرمش نفسى ولا ولادى من حاجة عشان كده مش ممكن أقدر احوش».

وعلى الرغم من ضيق ذات اليد إلا أن أمينة تحاول باستمرار الترفيه عن نفسها وعن أبنائها حيث تأخذ الأبناء إلى النادى أو فى فسحة، وأحياناً تذهب بهم إلى مطاعم الأكل الجاهز القريبة من المنزل.

تدبر أمينة حياتها من خلال الاستلاف من الأصدقاء والأقارب، ومن خلال الأقساط والجمعيات الشهرية، وتؤكد أن أهم انجاز حققته فى حياتها هو شراء الشقة التمليك (من نقود زوجها والباقي تم استلافه) وليس لديها أى طموحات مادية فى المستقبل سوى أن يكون لديها فلوس من أجل تجهيز الشقة بطريقة أفضل، فتقول «أهم حاجة يبقى معايا فلوس علشان اوضب شقتى..أعمل سقف معلق، وأرضية خشب، وأجيب انتريه جديد... وبعدين أبقى أجوز أبنى.. فانا نفسى فى حاجات كثيرة بس مش قادرة... وأنا عايشه يومى كده يوم بيوم مبفكرش فى حاجة».

١٢) «أعيش مستورة وأموت مستورة»

أم عبدالله : أم عبد الله عاملة فى مصلحة حكومة، متزوجة من عامل فى المكان نفسه، تبلغ من العمر ٤٥ عاماً، ولها من زوجها ثلاثة أولاد فى مراحل التعليم المختلفة ومن زوج سابق ابنة أكملت الشهادة المتوسطة. تتقاضى أم عبدالله من عملها حوالى ٤٠٠ جنية، ومثلها لزوجها، وهى تؤكد أنها هى التى تمسك كل الأمور المادية فى المنزل «مرتبى ومرتب جوزى بحطهم على بعض ونعيش منهم».

تحاول أم عبد الله أن تتعامل مع ما تملكه من نقود بحرص شديد، فالنقود تكفى مصاريف البيت بالكاد، وهى لا تستطيع أن تشتري من الطعام كل ما تريد، لأنها تحاول أن تدخر شيئاً لتجهيز ابنتها (التي تنهى دبلوم التجارة والتي تمت خطبتها هذا العام). تشتري أم عبدالله حاجات ابنتها بأقساط شهرية، بحيث لا يتعدى القسط عشرين جنيهاً، تحكى أم عبدالله عن كفاحها فى تحقيق استقامة حياة

الأسرة. «كان معايا ذهب بعته علشان أدفع للشقة اللي احنا ساكنين فيها ٥٠٠٠ جنيه، ما بقاش معايا إلا حلق ٥ جرام عشان لما أموت يدفنوني منه... المرتب يدوب بيكفى أدى للعيال مصروفهم أول الشهر، والراجل يأخذ ثمن سجايره، والباقي اتصرف فيه حسب الظروف... فيه حاجات نفسى فيها كثيرة مقدرش أجيبها. الفاكهة الغالية زى المانجه مقدرش اشتريها... عمرى ما اتفسحت ولا خرجت الا احيانا نروح جنيئة الحيوانات... الخروج اللي زى دى بتكلف ٤٠ جنيه على الأقل...»

لا تدخر أم عبدالله أية نقود لنفسها، ولكنها تفر أنها «تشيل حوالى ٢٠ جنيه أو ٣٠ جنيه لنفسها. أقدر أعمل بيها واجب مع واحدة موجبانى (لها عندى واجب) فى حالة ولاده أو مرض». أهم شئ فى حياة أم عبدالله أن «الأمر تمشى وتقدر تعيش مستورة من غير ما تستدين من مخلوق... وتعيش وتموت مستورة... عشان كده شايلة الخاتم الخمسة جرام يكفونى بيه».

١٣ «الست لو مستورة هيكون لها وضعها»

ريم مدرسة لغة إنجليزية تبلغ من العمر ٤٥ عاماً، متزوجة من رجل لديه مشروع صناعة موبيليا صغير (فى ورشة صغيرة)، تعيش مع زوجها وأولادها (ولدين) فى شقة تملكه أسرة الزوج. علاقة ريم بالنقود لا تعود إلى أيام العمل والزواج، بل تعودت أن تدخر وهى صغيرة حيث كان والدها يعطيها بعض الأموال (وإن كانت قليلة) لكى تدخرها لنفسها فى صندوق توفير، استنفذته فى زواجها.

يبلغ دخل ريم الشهرى حوالى ١٠٠٠ جنيه من مرتبها ومن الدروس الخصوصية التى تعطيها للطلبة فى المنزل، ويبلغ دخل زوجها أكثر من ٢٠٠٠ جنيه (من عمله فى المدرسة، بجانب عائد إيجار شقة تركها الوالد)، المشكلة الرئيسية فى حياة ريم أنها زوجة ثانية، فزوجها له أولاد من زوجة سابقة يأخذون جزءاً من دخله الشهرى.

لا تسأل ريم زوجها على أى شئ، فهو يعطيها «ما يخرج من ذمته» كل شهر، وغالباً ما يكون قليلاً، فى حدود ٣٠٠ جنيه، وهى التى تتكفل بكافة متطلبات الأسرة، وكذلك الإنفاق على الأولاد فى المدارس، وهى تشعر أن ذلك أمر طبيعى «فيه ستات كتير قوى زى كده فاتحه بيوت من دخلها الخاص يعنى أعرف ناس كتيرة كده

ويمكن يكون زوجها موجود بس مش شغال أو شغله مش مستمر فيه على طول أو بيصرف على عيال ثانية من زوجه ثانية..»

تنفق ريم على أسرتها من سعة، فالانفاق الذى تتحدث عنه قد يفوق دخلها (ربما لأنها لم تذكر دخلها من الدروس الخصوصية بشكل كامل)، فالأولاد فى مدارس خاصة، وهى تشتري للمنزل كل ما يحتاجه، وهم يذهبون إلى المصيف كل عام وقد تخرج الأسرة لبعض الترويح، تحتفظ بذهبها الذى اشتراه لها زوجها أيام الزواج، والدها قبل الزواج. كما تحرص أيضاً على أن يكون لها مدّخرات ، تعمل على زيادتها لا على إنقاصها لأن المدّخرات تعنى «أزمات الواحد يتحط فيها ووقتها يقدر يصرف على نفسه وما يحتجش لحد أبداً»

ورغم ذلك فإن ريم لها أمنية واحدة أن تستقل بشقة بعيداً عن حماها ومنزل عائلة زوجها، «لأن راحة الواحد فى بيته مش فى حاجة ثانية». وتؤكد ريم أنها سوف تسعى إلى ذلك، وهى تعي أن الإمكانيات المادية للمرأة تجعلها قوية إزاء زوجها «فالست لو مستورة هايكون لها وضعها مع جوزها وتقدر تتكلم معاه فى اللى ليها لأنها مش محتاجة ليه يصرف عليها».

١٤ «النهاردة معاكى فلوس هتجيبى لحمه بكرة معايش تجيبى عدس»

رقية تبلغ من العمر ٥٠ عاماً، حاصلة على دبلوم تجارة، وتعمل فى مكتبة، متزوجة من زوج يعمل مديراً عاماً بأحد المحاكم، لها منه ثلاثة أولاد وبنت. يعمل اثنان من الأولاد فى وظائف (أمين شرطة + أعمال كتابية) بينما ما يزال الابن الأصغر والبنت الصغرى فى التعليم. تؤكد رقية أنها لا تعرف حدوداً لنقودها أو نقود زوجها، فلا أحد يقسم، «والأمور تسير بالبركة». يبلغ دخل الأسرة الشهرى أكثر من ١٠٠٠ جنيه، والزوجة هى التى تدير أمور الميزانية الأسرية، يأخذ الزوج ما يحتاجه من مرتبه ثم يعطيها الباقي فتنفق منه على طعام الأسرة، وتعليم الأولاد وتتكفل بشراء ملابس الأولاد والبنات، لا تتركهم يشترى بأنفسهم لأنهم يشترى من محلات غالية الأسعار مما يرهق ميزانية الأسرة.

تسير رقية حياة الأسرة وفقاً للظروف فإذا توفرت نقود كثيرة تنفق بسخاء، وأن ضاقت تغل يدها، ومن هنا تجعل الحياة تسير، ومن هنا كان قولها «الشعب المصرى بيمشى بالبركة، محدش بيعش كده، النهاردة معاكى فلوس هتجيبى لحمه،

بكره معاكيش تجيبى عدس». وبين العدس واللحمة تسير الحياة سيرتها دون مشكلات.

تهتم رقية اهتماماً شديداً بتجهيز ابنتها، وهى تشتري لها أغراضاً تحتاجها فى زواجها، رغم أنها لم تخطب بعد، ومعظم هذه الأغراض تشتري بنظام الأقساط الشهرية، وهى كلما سددت ثمن شئ تبدأ فى آخر، وتضع لذلك ميزانية شهرية لا تزيد بحال من الأحوال عن ٥٠ جنيهاً، لا تهتم رقية بشراء أشياء لنفسها، ولكنها تفكر بشكل دائم فى مستقبل أبنائها، تشاجرت مع الزوج كثيراً لأنها كانت تحته على شراء قطعة أرض لبناء منزل للأولاد عليها، ونجحت أخيراً فى هذا الصراع، واشترت الأرض بالتقسيط، ودفعت هى فيها حتى أنها سددت القسط الأخير وكان فى حدود ٢٠ ألف جنيه من بيع مصاغها ومن نقود اقترضتها من أختها. الأمل فى الحياة لدى رقية أن تبني لكل من أولادها وبناتها شقة على هذه الأرض. «وتهون الدنيا كلها فى مقابل هذا الهدف»، لا ترويح، ولا طعام وفير، ولا سعة من العيش، وكل شئ بيد الله هو الذى يسير الأمور «كل حاجة بتاعة ربنا ... والأعمار بتاعت ربنا.. وأنا أهم شئ ولادى... على الأقل يقولوا الله يرحمها عملت لنا حاجة».

«البحر ييحب الزيادة» (١٥)

مايسة : تبلغ مايسة من العمر ٣١ سنة، وتعمل مدرسة بإحدى المدارس الابتدائية الحكومية، وهى متزوجة من محاسب بإحدى الشركات الخاصة، ولديها ابنة لم تدخل المدرسة بعد. تتقاضى مايسة مرتباً شهرياً حوالى ٤٠٠ جنيه بالإضافة إلى الحوافز والبدلات ومجموعات التقوية التى تقدمها بالمدرسة. ومكافأة الامتحانات التى تتقاضاها سنوياً. تضع مايسة جزءاً كبيراً من مرتبها وأى نقود أخرى تحصل عليها فى دفتر توفير فى البوستة إلى جانب رصيد فى البنك بثلاثة الاف جنيه والعائد منها تضعه على الأساس. أما مرتب زوجها فهو يصرف منه على البيت وبيحوش منه فى حسابه الخاص بالبنك بجانب دفتر توفير اقترحته عليه مايسة ليضع فيه لابنتها بعض النقود شهرياً.

تحب مايسة شيئين هما اقتناء الذهب «لأن الذهب كل ما يقعد يغلى»، والادخار بالبنك «لأن البنك بيحفظ الفلوس ويزودها علشان لما احتاج الفلوس الاقيها، والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود». وقد تعودت مايسة على الادخار من سن مبكرة

حيث وجدت أمها تقوم بهذا السلوك حيث تقول: «اللى عودتنى على كده أمى لأن طلعنا من غير أب فى وسطنا وكانت هى السند لينا من اللى كانت بتحوشه من مرتبها ومن مكافأة نهاية الخدمة فطلعنا كلنا على نفس المنوال عندنا بكره أهم بكثير من النهاردة لأنه مجهول والست لما يكون لها حساب كويس فى البنك هيكون عندها اللى يسترها من الأيام، واللى تلاقيه وقت ما تحتاجه».

تترك مايسة لزوجها حرية إدارة المنزل فميزانية المنزل هى فى الأساس مرتب زوجها بجانب جزء صغير من مرتبها تدفعه إذا احتاج البيت إليه، أما فى أغلب الأحوال فالزوج هو الذى ينفق على متطلبات المنزل وهذا بالاتفاق بينهما حيث تقول: «أنا وجوزى متفقين هو عليه مصاريف الأكل وخدمات البيت ومصاريف العلاج، وأنا عليّ مصاريف البنت من ناحية لبسها فى الصيف والشتاء أو فى المناسبات فكل حاجة خاصة ببنتى أنا اللى بدفع ثمنها من فلوسى الخاصة وكمان باجيب الحاجات الخاصة بيه زى اللبس أو البرفانات وكريمات الشعر كل الحاجات ده باجيبها من مرتبى ومش بأقدر أقول لجوزى عليها لأنى عارفه امكانياته وردة طبعاً هيقولى ما انتى بتشتغلي كفى نفسك بقى».

تصرف مايسة كل أمورها بمنتهى العقل، وتحاول أن تزن الأمور حتى لا تقع فى أى ورطة مادية، كما أنها لا تضع نقودها إلا فى الأشياء المفيدة من وجهة نظرها يعنى دفعت منها أول ما نزل حجز «ابنى بيتك» لأن ده مصلحة مشتركة بينا احنا الاثنين ولأولادنا طبعاً، أو فى شراء محل تملك أو شقة «لأن الحاجات ده كل يوم فى الطالع» وتؤكد مايسة على ضرورة أن يكون لدى المرأة رصيد وتحاول أن تنميه دائماً «لان البحر بيحب الزيادة»

١٦ «ربنا ما يحوج اليمين للشمال»

تعمل سعاد (تبلغ من العمر ثلاثين عاماً) ممرضة فى مركز طبى خاص، تزوجت من عامل فى القطاع الخاص وطلقت منه وهى تعيش الآن مع ابنتها الصغيرة. لا تملك سعاد إلا العائد من عملها، وهى تحاول أن تنظمه بأي شكل إلى درجة أنها تقوم بأدوار مختلفة فى المركز الطبى الذى تعمل فيه (المساعدة فى النظافة - أخذ ورديات ليلية - إعطاء حقن للزبائن .. الخ). تنفق سعاد كل ما تكسبه من نقود على طعامها وطعام ابنتها ودوائهما، يبلغ دخلها الشهرى حوالى ٥٠٠

جنيه، تقول إنها تكفيها بالكاد، بل أنها أحيانا تضطر إلى أخذ بعض الأغراض من منزل والدها، وقد يتكرر هذا السلوك شهريا.

لا تريد سعاد من الحياة شيئا إلا أن تحمى نفسها من الاستدانة . ولهذا فقد جاهدت لكي تعمل من بعد أن طلقها زوجها، ولكي تستطيع أن تسد حاجاتها بنفسها، ولا تمد يدها للغير حتى وإن كان والدها ، «ربنا ما يحوج اليمين للشمال». لذلك هي ترفض دعوة والدها لكي تترك شقتها وتأتى للإقامة معه. تترك سعاد أهمية العمل بالنسبة لها «لولا الشغل كان زمانى فى حوسه هو اللى مخلى معايا قرش أصرف منه على نفسى وعلى بنتى.. ابو البنت لا يدفع لها أى شئ الا عيديه يمكن على العيد وياه حاجة.. إنما غير كده أنا اللى قايمه بكل حاجة... ولولا الشغل كنت حُست». لا طموحات لدى سعاد، ولكنها تود لو أنها «تحتكم» على فلوس أكثر وفى هذه الحالة كانت «تقدر تشتري اللى نفسها فيه ويكون عندها شقة تمليك.. وتصرف براحتها.. مش بالمسطرة زى ما هى ماشية دلوقتى»..

(١٧) «على قد لحافك مد رجليك»

سميرة : تبلغ سميرة من العمر ٤٥ سنة ، متزوجة من مدرس لغة عربية بإحدى المدارس الثانوية، ولديها طفلة وحيدة رضية، تعمل سميرة مدرسة كمبيوتر بمدرسة ثانوية.

تمتلك سميرة قدرات جيدة فى إدارة وتنظيم شئون أسرتها حيث يعطيها زوجها كل مرتبه (بعد أن يأخذ منه مصروفه الشهرى)، كما يدفع لها فلوساً أخرى تأتى إليه من خلال الدروس الخصوصية. وتقوم سميرة بتدبير شئون أسرتها من خلال دخل زوجها وراتبها الخاص «بيديني كل الفلوس اللى بتدخل له، مالهوش دعوه بعد كده بأى حاجة، يعنى مش مسئول لو الفلوس خلصت، أنا اللى باتصرف». تنفق سميرة معظم النقود على الأكل والشرب، وإيجار البيت، وفاتورة التلفون، والدكتور والعلاج، وتُدخر سميرة الجزء الباقى من خلال جمعيات تحرص دائماً على الدخول فيها «بازنق نفسى فى جمعية علشان غير كده مياقدرش احوش»، «والجمعيات ده بتكون عشان لو الواحد وقع فى زنقه وعلشان ادفع قسط الشقة التمليك اللى اشتريناها». كما تؤكد على أنها هى اللى تشتري كل شئ لها ولزوجها ولابنتها الصغيرة «أنا المسئولة عن كل حاجة، وأنا اللى بادفع كل حاجة».

وسميرة حريصة جدا فى إنفاق النقود فهى لا تشتري إلا الأشياء الضرورية والمهمة التى تحتاج إليها بشدة لدرجة أنها أصبحت لا تشتري شيئاً لنفسها على الإطلاق «مبقاش أجيب لنفسى حاجة خالص بأقول البيت أولى، وفى حاجات كتيرة ممكن تتأجل، والواحد لازم يمشى على قدمه «على قد لحافك مد رجلك». لا تتمنى سميرة من الحياة سوى شراء سيارة حتى ولو مستعملة «بس ده طبعا حلم مش حاسه أنه ها يتحقق» وتؤكد على أن أهم حاجة كانت تتمناها هى الإنجاب حيث تقول «بنتى هى أهم أمنية كانت عندى، ودى أكثر شئ صرفت عليه، والحمد لله ربنا رزقنى بيها، دى صرفت عليها كل اللى وراى واللى قدامى واستلفت كمان لحد ما جبتها عن طريق أطفال الأنايب»

١٨ «ولادى هما حياتى»

ولاء : تبلغ ولاء من العمر ٤١ سنة، وتعمل مدرسة بإحدى الجامعات الحكومية، وهى متزوجة من مهندس يعمل فى مشروع خاص به، لدى ولاء بنتان أحدهما فى الصف الأول بالجامعة والأخرى ما تزال فى المرحلة الابتدائية.

تتحمل ولاء معظم أعباء الانفاق على الأسرة بداية من الأكل والشرب حتى الانفاق على التعليم الخاص والدروس الخصوصية، ومرتب الشغالة، وفواتير التليفون، وتكاليف الفسح والأكل خارج المنزل، ولبس الأبناء، والمواصلات... الخ. تقضى ولاء معظم وقتها فى العمل فهى تعمل فى شغل خاص «باشتغل فى بحوث كثيرة علشان أقدر أوفر فلوس كويسة أصرف منها على عيالى، لأن عيالى هما حياتى ولازم اخليهم يعيشوا كويس قوى». تزوجت ولاء منذ ١٨ عاما من شاب أدنى منها فى التعليم وذلك على حد قولها «قسمة ونصيب». ولكنها وقفت إلى جانبه حتى أنهى تعليمه الجامعى، كما أنها قدمت إليه كل ما تملكه من مدخرات ذهبية حتى يبيعه ويبدأ بها مشروعاً صغيراً يكون بداية لحياته المهنية، ولم تأخذ منه أى ورقة بهذا المبلغ وقد لامتها أمها على هذا التصرف لأن «الرجاله ملهمش أمان، وإلا فى إيدك أقرب من اللى فى جيبك واللى فى جيبك أقرب من اللى فى جيب الناس».

تنفق ولاء على المنزل مبلغاً كبيراً شهرياً حوالى ٣٠٠٠ جنيه تقريباً يدفع لها زوجها منها ٥٠٠ جنيه زاداها منذ عام إلى ٧٠٠ جنيه شهرياً. ولا تعرف ولاء الاذخار فهى تصرف بسخاء على الأشياء المهمة وغير المهمة «أنا باحب أجيب كل

حاجة ولادى عايزنها علشان ما يحسوش أنهم أقل من أى حد، وعلشان أنا مش هأعيش لهم على طول، ولو على أبوهم هياكلهم زلط». تتعرض ولاء إلى النقد الدائم من المحيطين بها (أمها وأخواتها) وذلك لطبيعة انفاقها للنقود فهم يرون أنها مسرفة جداً ودائماً ما يقولون لها «وحده غيرك فى المركز ده كان زمانها بقى عندها عربية أو شقة فى منطقة كويسة غير المنطقة الزبالة اللي انتى عايشه فيها، أو حتى شويه ذهب تتسندى عليهم فى الزمن ده». ولا ترى ولاء فى نفسها أنها مسرفة ولكنها تحب أن تعيش حياتها بشكل طبيعى وتجب كل اللي هى عايزه. وترى أن الادخار ممكن أن يكون مفيداً لو كان هناك سعة من العيش. لا يوجد لدى ولاء أمنيات كثيرة غير أن يبارك لها الله فى بناتها وتحصل على «اللى نفسها فيه». وتشتري عربية وتنتقل إلى شقة فى منطقة أفضل، وسوف تعمل بجد لتحقيق هذه الأمنيات.

«الجيب واحد» (١٩)

عبير : تبلغ عبير من العمر ٤٥ سنة، متزوجة من شيف حلوانى يعمل صباحا فى أندية القوات المسلحة، ومساءً فى أحد محلات الحلويات، ولدى عبير ولدان ما زالا فى المراحل المبكرة من التعليم. تعمل عبير اخصائية نفسية باحدى المدارس الحكومية وأصبحت الآن تعمل فى مجال التوجيه النفسى بالوزارة.

تنفق عبير على المنزل من دخلها الذى يقدر بحوالى ٧٠٠ جنيه ودخل زوجها حوالى ١٠٠٠ جنيه شهرياً، وتدبر عبير احتياجات المنزل بمهارة شديدة إلى جانب دخولها فى جمعيات لتسد منها النفقات السنوية مثل المصيف، ومصاريف المدارس. وتنفق عبير كل دخلها على المنزل برضا تام «أنا ليه بالفعل أموالى الخاصة فدخلى الشهرى لا ينازعى فيه أحد ولكن معظمه بيتصرف على البيت والأولاد بكامل ارادتى وبدون أن يفرض على زوجى كده، فسعادة البيت هى أهم حاجة فى حياتى، وكمان الجيب واحد». لدى عبير مدخرات قديمة قد وضعتها لها والدتها قبل الوفاة فى دفتر توفير بالبنك وتحرص عبير على الاحتفاظ بها «لأنها من العريزة الغالية»، وتحاول أن تنساها تماماً؛ وعلى الرغم من أهمية هذه المدخرات بالنسبة لها إلا أنها لم تتوان لحظة فى سحبها عندما احتاج إليها زوجها فتقول «احتاج زوجى فى مرة لفلوس علشان يعمل مشروع ومكنش معاه مبلغ يكفى فسحبت معظم أموالى

الخاصة علشان يكمل الفلوس، ومرة كان تعبان واحتاج عملية فورا فسحبت من الفلوس اللي كنت شيلها على جنب لوقت زنقة».

ليس لدى عبير طموحات مادية «ليس لى أى طموحات مادية كل ما اتمناه أن لا يكون هناك أى حرمان خاصة للأولاد فكل طموحاتى أن أوفر لهم احتياجاتهم وطلباتهم والحمد لله ده اتحقق، وأن كنت باتمنى أن أدخر لهم مبلغ بسيط للمستقبل يكون سند لهم، وده طبعا صعب جدا فى ظل الظروف الراهنة والغلا اللي احنا فيه فيادوب أحنا بنوفر حاجاتهم الأساسية بالعافية ومش عايزين نحسسهم أنهم ناقصهم شئ أو أنهم أقل من أى حد»

٢٠ «الضمير أساس البركة فى الفلوس»

حفصة : تبلغ من العمر ٤٠ سنة، متزوجة من طبيب أسنان يعمل فى أحد المستشفيات الحكومية، ولديه عيادة خاصة فى إحدى المناطق الشعبية، لدى حفصة من الأبناء أربعة ذكور ما زالوا فى مراحل التعليم المبكرة (مدارس خاصة). وتعمل حفصة طبيبة أسنان فى أحد المستشفيات العامة.

تنفق حفصة على الأسرة من دخلها ودخل زوجها «فلوسه وفلوسى واحدة، أنا بحط الفلوس كلها معايا، ولما بنحتاج حاجة بناخد من الفلوس دى ولكن طبعا فى أولويات». وتحدد حفصة أولويات الإنفاق فى الطعام والشراب ومصاريف المدارس الخاصة، وقسط الشقة التمليك والمصروفات اليومية المعتادة، وتؤكد على أن حاجات كثيرة جداً لا تستطيع أن تشتريها لنفسها «تقريبا مفيش حاجة بشترتها لنفسى إلا إذا كنت محتاجها قوى، وده لأن الفلوس مش بتكفى حتى ولادى دلوقتى بمقدرش أجيب لهم كل حاجاتهم، يعنى مثلا ابنى الكبير السنة دى مجبتش له لبس مدرسة ولبسته لبس السنة اللي فاتت، وولادى السنة دى كلهم مجبتش لهم لبس عيد، هأعمل أيه».

تؤكد حفصة عدم حرصها على أن تكون لديها أموال خاصة بها فتقول «مفيش حاجة عندى اسمها أموالى الخاصة أنا شغلى كله للبيت وللأولاد، وفى مرة حاولت أن احتفظ بمرتبى، وقعدت كام شهر حوشته ووصل لمبلغ كويس، لكن معرفتش أحتفظ به، أول ما واجه جوزى مشكلة عند تجديد العربية واحتاجه فاخذه». وترى حفصة أن الرضا والبركة هى أساس السعادة داخل الأسرة «البركة أساس لازم

تكون موجودة، ورضا النفس والتعامل مع ربنا وتحكيم الضمير هو أساس وجود البركة فى الفلوس والصحة والأبناء».

تقضى حفصة وقت فراغها فى المنزل وأحياناً فى المسجد، ولا تمنى من الحياة شيئاً سوى أن يكون هناك فلوس لمستقبل الأولاد، «وأجيب لولادى حته أرض علشان بينوها، وأوفر لهم شقق وده لأنهم ولاد ولازم يكون عندهم شقق، ولو ربنا أراد نعمل حجة أو عمره».

رابعاً : استخلاصات عامة

تقدم لنا اللوحات العشرى التى عرضناها فيما سبق صوراً مختلفة لعلاقة المرأة المصرية العاملة بالنقود، وقد عرضناها إزاء فرضية «فضاء القوة فى مقابل فضاء العيش». ونحاول الآن أن نقرأ هذه اللوحات لتجميع الخطوط المتفرقة فى إطار واحد، وفى ضوء المقدمات النظرية التى انطلقنا منها :

١. يمنح العمل المرأة فرصة للحصول على دخل خاص بها. ولاشك أن هذا الدخل يمنحها قدراً من القوة. وتتبدى هذه القوة فى المساهمة التى تقدمها المرأة فى ميزانية الأسرة. فجميع اللوحات التى عرضناها تشهد بأن المرأة تعمل من أجل أسرتها وأن النقود التى تكسبها تتوجه إلى الأسرة، إلا فى بعض الحالات القليلة التى تحرص فيها المرأة على أن تستقل بدخلها، وتوجهه وجهة مغايرة بعيداً عن ميزانية الأسرة. ولا تبدو القوة فى المساهمة فى ميزانية الأسرة فحسب، بل تظهر أيضاً فى الدور الذى تلعبه المرأة فى ترتيب هذه الميزانية، وفى توجيه بنودها وفى شراء متطلبات المنزل، والأولاد، والزوج. ثمة قدرة إدارية لبنود ميزانية الأسرة وتوجيهها لدى معظم الحالات التى سردنا لوحات عنها. ففى معظم الحالات تحفظ نقود الأسرة (من الزوج والزوجة) فى «محفظة» الزوجة وهى التى تديرها وفقاً لبنود يتفق عليها بين الزوجين. ويحدث فى الحالات المتطرفة أن يحصل الزوج (والزوجة أيضاً) على مصروف شهرى أو يومية مثلهما مثل الأولاد. وحتى فى الحالات القليلة التى يسيطر فيها الزوج على استحواد نقود الأسرة فى «محفظته» فإن النقود تنتهى مرة أخرى إلى الزوجة بشكل يومية لكى تدبر شئون المنزل. يبدو عالم البيت هنا وكأنه ملك للمرأة، تدير شئونه المادية كيفما شاءت، نقصد أمور تدبير شئون المنزل. تؤكد هذه النماذج على نحو غير مباشر إعادة إنتاج أنماط

ثقافية جامدة، كالقول بأن عالم الأسرة هو عالم المرأة، وأن عالم الرجل أوسع من عالم الأسرة؛ وكالقول بأن الرجل أعلى وأكبر من الأمور التافهة المتعلقة بشراء لوازم المنزل، أو توجيه ميزانية الأسرة أو الأمور المتعلقة «بالبيت» بشكل عام.

٢. تكشف المادة التي عرضناها عن ثلاثة أنماط رئيسية لعلاقة المرأة المصرية

العاملة بعالم النقود :

- النمط الأول : وهو الأكثر شيوعاً، وهو الذى يمكن أن نطلق عليه «النمط الاجتماعي» حيث تدمج الزوجة نقودها مع نقود زوجها، وتكون إدارة النقود فى يد الزوجة، مع ترك هامش من الاستقلال فى جزء بسيط من دخل كل فرد يتصرف به كيفما يشاء (غالباً ما يستمده الزوج فى شراء السجائر أو الملابس، وغالباً ما تستمده الزوجة فى مجاملات أصدقائها أو شراء ملابس لها أو لأولادها، أو تدخره إن شاءت).

- والنمط الثانى : يمكن أن يسمى **بالنمط الانسحابى** (أو التابع)، حيث تنسحب الزوجة من مسئولية حفظ النقود وإدارتها، وهى تستسلم كلياً لإرادة الزوج، وتعطيه نصيبها فى ميزانية الأسرة ليكون فى «محفظته» وهو يقوم بدوره بإعطائها مصروف المنزل كل يوم أو كل أسبوع. ويلاحظ بشكل عام أن هذا النمط ليس نمطاً متكرراً، (فلم يظهر إلا فى ثلاث حالات فقط من بين عشرين حالة). ويلاحظ أيضاً أن هذا النمط يسود فى المستويات التعليمية الدنيا، ومن ثم فى مستويات الدخل المنخفضة . ولقد عبرت النساء عن السبب فى هذا الخضوع للرجل بعبارات تدل على سيطرة الرجل، وعلى سيادة القيم الذكورية «عشان يكون هو المسئول، وعشان هو الرجل برضه»، «هو اللى عايز كده، وأنا مقدرش أقوله لا» فى حالة نقص الموارد المالية للأسرة ؛ كما تدل عبارات الزوجات أيضاً على أن الزوجة لا تريد أن تتحمل المسئولية فى حالة انخفاض الدخل ، وقد تريد أن تجعل الزوج شاهداً على بنود الانفاق التى تقوم بها كل يوم.

- والنمط الثالث : هو نمط «**المرأة القوية**»، التى تستقل بنقودها كلياً أو بجزء منها على الأقل ولا تسمح لزوجها بمسها من قريب أو بعيد. وهذا النمط قد يكون متكرراً، حيث ظهر فى (سبع لوحات) من بين عشرين حالة. ويظهر داخل هذا النمط أربعة أنماط فرعية:

(١) نمط «**المرأة الحذرة**» التى تقطع جزءاً من دخلها لنفسها تدخره أو تدخل

به جمعيات ادّخارية، لكى تضمن لنفسها رصيماً مادياً فى حالة بعد الزوج عنها.

(٢) نمط «المرأة المرفهة» التي لا يريد زوجها منها شيئاً، ويترك لها نقودها تفعل بها ما تشاء.

(٣) نمط «المرأة الوحيدة» (كالمرأة المطلقة أو الأرملة) التي تريد أن تثبت للعالم أنها قادرة على الاستمرار في الحياة رغم كل المصاعب، وأنها قادرة على أن تربي أولادها دون أن تلجأ كثيراً إلى زوجها السابق أو إلى الأسرة، أو حتى إلى الاستدانة.

(٤) نمط «المرأة الشاردة» التي تأخذ من زوجها ما يوجد به - قل أو أكثر - وتنفق هي بقدر من السخاء على أولادها، مع تأجيل الحاجات الطويلة المدى.

٣. ورغم أن دخل المرأة المستقل يمنحها قدراً من القوة، التي تتبدى في أحسن مظاهرها في إدارة ميزانية الأسرة، إلا أن معظم النساء العاملات يحرصن على أن تكون مساحة العيش أوسع من مساحة القوة. وربما يكون هذا الحرص قد نشأ من قبل الزواج. فالأسر هنا تكونت عبر التقاء أفراد يعملون أو يسعون إلى العمل. ولقد كان واضحاً في معظم الأسر قبل أن يتم الزواج أن تكاليف العيش في الأسرة مسئولية مشتركة، وكثير من النساء أخذت هذا الاتجاه عن أمهاتهن اللاتي كن يسهمن أيضاً في حياة الأسرة، وحتى إذا لم يكن موروثاً عن الأم، فقد حتمته ظروف العيش الشاقة، أقصد الموازنة بين مدخلات الأسرة ومخرجاتها، أو بين متطلباتها ومواردها، في هذا الظرف يصبح الرضوخ للعيش المشترك أمراً حتمياً. ويبدو الحرص على العيش المستمر المستقر في الأسرة في مظاهر عديدة اتضحت من الدراسة الميدانية :

* الحرص على تأكيد فكرة الستر في الحياة، وأن الستر يعد هدفاً في حد ذاته بالنسبة للمرأة.

* وتتوارى أمام تأكيد فكرة الستر أهداف أخرى منها الإدخار وكنز النقود. فثمة اندماج وتماهي بين الستر الذي يظل المرأة، والستر الذي يظل الأسرة، فالمرأة قد تعتبر أن «انكشاف» حالة الأسرة المادية هو «انكشاف» لها، وأن «ستر» الأسرة هو «ستر» لها. فالستر «المالي طبعاً» هو مؤشر نجاح المرأة، بل أنه يمنحها وجوداً اجتماعياً خاصاً.

* تأكيد عدم الرغبة في الاقتراض من الآخرين حتى وإن اضطرت المرأة في بعض الأحيان إلى بيع حليها.

* عدم رغبة الزوجة فى شراء أشياء خاصة كثيرة.

* تحمل الحرمان فى معظم الأحيان وتأكيد فكرة الصبر فى علاقته بالحرمان، فالمرأة لا يجب أن تقترض من الغير، ويجب أن تؤجل حاجاتها الشخصية من أجل الأسرة، وقد يصل الحرمان إلى مداه فى الأسر الفقيرة، إلى حد الحرمان من بعض الأكلات أو الحاجات البسيطة للأسرة.

* قدرة المرأة على المواءمة الدائمة، والتكيف الدائم مع الظروف المتغيرة، والظروف الصعبة. ومن الآليات التى تستخدمها المرأة للتكيف مع الظروف الصعبة شراء سلع رخيصة، شراء سلع بديلة، تأجيل شراء سلع معينة، شراء سلع بالتقسيط (خاصة السلع المعمرة كالأدوات الكهربائية) الدخول فى الجمعيات الشهرية.

٤. وقد يكون مفيداً أن ننظر بعمق أكبر إلى الحالات التى تسيطر فيها المرأة سيطرة كاملة على عالم النقود، وتظهر هذه الحالات فى الظروف التى لا تظهر فيها مشاركة حقيقية من الرجل، وأنا لا أفكر هنا فى الحالات التى يترك فيها الزوج لزوجته حرية التصرف فى مالها الخاص تشتري منه ما تشاء، فهذا الظرف يعد ظرفاً خاصاً جداً، وقد يرتبط بظروف العلاقة بين الزوج والزوجة، أو بتوجهات خاصة لدى الزوج، أو بظروف الرفاه الاقتصادى للأسرة. ولدينا بين اللوحات العشرين لوحة تدل على هذا النمط حيث تؤكد الزوجة أن زوجها لا يطالبها بأى شئ، وأنها تضع مرتبها فى دفتر توفير أو تشتري منه ذهباً. هذه المرأة لا تشعر بالمسئولية المالية تجاه الأسرة، وتضع أموالها تحت تصرفها الشخصى، فهى قد تشارك بشراء هدايا لأبنائها أو زوجها فحسب. أقول أننى لا أفكر فى هذه الحالة قدر تفكيرى فى الحالات التى تظهر فيها مسئولية اجتماعية كبيرة للزوجة تجاه أسرتها، وتجاه تحمل كل الأعباء المادية أو معظمها. وتدلنا اللوحات التى عرضناها آنفاً، أن هذا السلوك يظهر فى حالتين :

- الحالة الأولى : حالات الطلاق التى ينصرف فيها الزوج السابق كلياً عن زوجته وأولاده، ولا يتجه إليهم بأى دعم مالى. حيث تكشف المادة الميدانية هنا عن أن المرأة فى هذا الظرف قد لا تلجأ إلى الحصول على حقوقها وحقوق أولادها عبر القنوات القانونية أو حتى العرفية (هذا اللجوء يحدث فى حالات كثيرة) ولكنها تتجه وجهة أخرى تقوم على التحدى من ناحية وتحمل المسئولية الاجتماعية من ناحية

أخرى، وذلك من أجل أن تحتفظ بالأولاد، ومن أجل ألا تعرضهم لظروف اجتماعية ونفسية صعبة. لذا تحرص المطلقة - كما فى اللوحة رقم (٥) - على أن تراكم النقود، فتستقيل من عملها الحكومى، وتخرط فى إدارة مشروع خاص من خلال قناعة تقول بأن «قرشك هو صاحبك» «والإنسان من غير فلوس ملوش لازمة» وهى لا ترغب فى مد يدها إلى زوجها، لأنه لن يعطيها شيئاً. فى هذا الظرف تبني الزوجة صرحاً من صنعها وليس صنع الرجل، وتفخر بذلك أيما فخر.

- الحالة الثانية : حالات التباين بين الزوج والزوجة فى المستوى التعليمى لصالح الزوجة، والتباين أيضاً فى التوجهات نحو النقود، فى هذه الحالة ، تصبح الزوجة قائدة الأسرة، وهى التى توجه كل شئ فيها، حتى الزوج نفسه الذى يقل فى المستوى التعليمى، هنا يظهر - وكما تعكس اللوحة رقم ١٨- نوع آخر من المسئولية الاجتماعية، المشوبة بالتحدى أيضاً. ثمة تحدٍ هنا للظروف، وهو تحدٍ يتجلى فى الإصرار على الزواج من زوجها رغم اختلاف المستوى التعليمى، ثم مواصلة التحدي بالإصرار على أن يكمل تعليمه، ومواصلته أيضاً بالإصرار على بيع الذهب الخاص بها من أجل مشروع للزوج. وفى مقابل شح الزوج تثبت الزوجة شعوراً قوياً بالمسئولية، فتعمل كثيراً، وتكسب كثيراً، وتعطى أولادها كل ما يحتاجونه، وتقدم فى سبيل ذلك تضحيات خاصة بحرمانها من رموز المكانة.

٥- ولا يمكن فهم علاقة المرأة العاملة بالنقود دون فهم علاقتها بالأبناء. قد نتذكر هنا ما أشارت إليه البحوث من أن المرأة عندما يزيد دخلها توجهه للإنفاق على الأبناء، وتبدو هذه النتيجة متحققة هنا على نحو كبير، وقد تضيف اللوحات التى عرضناها دوراً آخر لهذه العلاقة؛ فثمة متغيرات يمكن أن تفسر هذه العلاقة بين الأم والأبناء، أو ذلك الحرص الشديد من جانب الأم على توفير حاجات أبنائها دون تردد، وربط استقرار أسرتها واستمرارها باستقرار أوضاع أبنائها ورضاهم. ولقد عبرت اللوحات التى عرضناها عن هذا الواقع بطرق عديدة يمكن حصرها فيما يلى :

- الرغبة فى بناء بيت مستقل للأولاد، وهذه إحدى الأمنيات التى تكررت كثيراً.
- التوحيد بين حياة الأولاد وحياة الأم، فالأولاد هم كل شئ فى الدنيا ، وهم الحياة، وهم الهدف منها.

- تقديم الأبن أو البنت على النفس . فله (أو لها) الأولوية المطلقة، ولو الابن «عايز خلاص بلاش أنا».

- الحرص على أن يكون للأولاد مَدخرات مستقلة، وتبرر ذلك أحياناً بالقول بأن رضا الأم هو من رضا أولادها، والرضا هنا قد يعنى إشباع حاجات الأولاد وضمن مستقبلهم.

- العمل على تجهيز البنات للزواج منذ الصغر، إما بتوفير نقود لهم، أو شراء بعض مستلزمات الزواج خاصة الأدوات الكهربائية والأدوات المنزلية.

٦- وتشي البيانات بنتيجة هامة هي أنه بالرغم من حرص المرأة العاملة على استقرار واستمرار حياتها، وعلى ضمان مستقبل أبنائها، فإن ثمة قلقاً يراودها بشكل دائم نحو استمرار هذا الاستقرار. ويظهر ذلك في الحالات التي تحرص على الإدخار، أو التي تحرص على إدخار مبالغ بسيطة لنفسها من مصروف المنزل. ونصادف هنا مواقف ثلاثة تشكل أبعاد هذا القلق :

أ- الأول يظهر بشكل ظاهر لا مواربة فيه، حرص شديد على اقتناء الذهب، وعلى الإدخار، وإعلان ذلك صراحة من خلال التأكيد على اعتبار أن «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود» وقد تحرص الأسر على تنشئة بناتها على هذه القيمة، وأن تحصن نفسها ضد الزمن وقسوته- بما فيه قسوة الزوج- وتدفعها إلى الإدخار في سن مبكرة ويظل ذلك ملازماً لها عندما تكبر وتصبح زوجة.

ب- وقد يظهر هذا السلوك في شكل خوف ظاهر أو مستتر من الزوج، وعدم ضمان استمراره في العلاقة الزوجية. وقد تكون الزوجة في هذه الحالة في حالة مستقرة من العيش، ولكن يراودها خوف من أن زوجها لا يكون «جدة» معها، أى أن يطلقها وقتما يشاء.

ج- وفي بعض الحالات في الأسر الأكثر حرماناً لا يكون للزوجة من وسيلة للإدخار البسيط الا عبر توفير مبلغ بسيط جداً من المصروف اليومي لكي تصرف منه على أمورها الخاصة، خاصة مجاملاتها مع صديقاتها في المناسبات. تتحول هذه النقود البسيطة في هذا الظرف إلى رأس مال اجتماعي للمرأة يجعل لها وجهاً مقبولاً في حيز الجيرة وبين الأقارب والأصدقاء. وتحتاج قضية تحويل النقود الخاصة بالمرأة إلى رأس مال اجتماعي إلى بحث خاص. فيبدو أن الأمر كله يتعلق بهذا الموضوع، فالحرص على الاستقرار الأسري، وعلى مستقبل الأبناء، وعلى أداء الواجبات الاجتماعية، كلها أمور تتعلق برأس مال اجتماعي تحاول المرأة أن تحققه من كمية النقود البسيطة التي تمتلكها.

٧- وأخيراً فإن للمرأة طموحات مادية مثلها مثل الرجل. والمتأمل للطموحات المادية التي ظهرت في اللوحات التي اعتمدنا عليها يكتشف أنها: أولاً: تتدرج وفقاً للمستوى الاقتصادي الاجتماعي، حيث تتدرج من الأمل في شراء «صينية كنافة» إلى الأمل في شراء منزل أو بناء منزل أو شراء سيارة. وثانياً: أنها تعكس حياة المرأة وسيرتها، فإذا كان الطموح المادي لديها كبيراً، وإذا كانت قد حققت جزءاً كبيراً من طموحاتها، فإن الطموح المادي يصبح هدفاً معلناً ومبرراً بشكل واضح. وأخيراً: فإن معظم الطموحات المادية تنعكس في قضية تأمين المستقبل للأسرة وللأبناء وللزوجة نفسها في بعض الأحيان.

خاتمة :

حاولنا في هذا البحث أن نتلمس علاقة المرأة المصرية العاملة بعالم المال. وانطلقنا من فرضية مفادها «أن النقود بالنسبة للمرأة العاملة ليست وسيلة لخلق فضاء للقوة والاستقلال فحسب، بل هي وسيلة لخلق فضاء من العيش المستقر». ولقد أكدت المادة الكيفية التي اعتمدنا عليها، والتي قدمناها في عشرين لوحة مختصرة، إمكانية صدق هذه الفرضية مع تعديل أو قل تطوير فيها؛ ما يؤكد أن النقود ليست وسيلة لخلق فضاء للعيش مستقر فقط، بل هي وسيلة لتأمين المستقبل، ولضمان حياة كريمة للأطفال، ولخلق رصيد من رأس المال الاجتماعي الذي يمكن المرأة من أن تحقق استقراراً اجتماعياً ونفسياً، وتوازن بين الأهداف المتعددة والمتعارضة أحياناً، كما توازن أيضاً بين الأهداف الخاصة بها والأهداف الخاصة بالأسرة والأبناء.

وتقودنا هذه النتيجة إلى أن نؤكد في النهاية على أن العلاقة بين المرأة والمال هي علاقة معقدة تتداخل فيها متغيرات متعددة، ويحتاج فهمها بعمق إلى دراسات تفصيلية حول موضوعات قد لا تبدو قريبة من الموضوع الأصلي، مثل علاقة المرأة بالنقود في عالم الطفولة، والتنشئة المالية للمرأة، والتاريخ الزوجي لها، وخبرة الزواج وشروطه، وطبيعة العلاقات المالية للمرأة فيما قبل الزواج وبعده. إننا هنا بصدد علاقة أكثر تعقيداً من الطرح المبسط المرتبط بالعلاقة بين تملك المرأة للنقود وتملكها للقوة، وإن مراجعة هذه العلاقة في السياق العربي تحتاج إلى بحوث عديدة.

نساء كاتبات وحقوق الملكية في لبنان

تعتبر حقوق التأليف من مصادر الدخل المتصاعدة في هذا العصر مع تعاظم مكانة الصناعات الثقافية في الاقتصاد العالمي. فهي ساهمت في إجمالي الناتج القومي بمعدل ٧٪ لعام ٢٠٠٤^(١) وبنسبة ٢,٥٣٪ من الناتج القومي في لبنان في العام ٢٠٠٥^(٢). ويبقى قطاع الكتاب والمطبوعات القطاع الأهم فيها حيث شكل ما يقارب الثلث منها في لبنان.

ترتكز هذه الصناعات على الإبداع أو الابتكار، فالمؤلف أو المخترع أو الفنان هو العنصر الأساسي والمركزي في الإنتاج. بذلك، يكتسب النموذج الأول الذي يؤلفه (المخطوطة أو اللوحة مثلا، أو العمل المسرحي مثلا) القيمة الأكبر نظرا لصعوبة التأليف والابتكار اللذين يتطلبان قدرات ذهنية وفنية نادرة، أما عملية نسخ العمل فسهلة وسريعة إذ تركز على تقنيات متوافرة (مهارات الطباعة مثلا). والمفارقة أن المؤلف لا يجني من عمله إلا القليل رغم دوره المحوري في الإنتاج، وهو يتقاسم أرباح المنتج الفني مع عدد من الفاعلين

مود اسطفان- هاشم

(١) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٤.

(٢) Melki, Roger, The Economic Contribution of Copyright-based Industries in Lebanon. July 2007.

الضروريين كالناشر والمطبعة وبائع الكتب، كما أن حقوق المؤلف التي وضعت لتحمي حقه في الاستفادة من عمله، تنتهك بشكل يومي، فتنسخ أعماله وتباع بالعلن، دون أي عاقبة تذكر.

تتميز الصناعات الثقافية - ومنها الكتاب - في ازدواجية قيمتها، فهي من جهة تحمل قيمة مالية وتخضع لقوانين التبادل التجاري، وتحمل من جهة أخرى رؤية فرد وقيمة رمزية لا تقدر مادياً ولا يمكن إخضاعها لقوانين السوق. ورغم الاحترام الكامل تجاه الكتاب، لا ينظر في بلادنا إلى عملهم كمهنة ويضطرون في غالب الأحيان إلى كسب لقمة عيشهم من أعمال أخرى. كما تفتقر المهن الفنية في عدد من البلدان العربية ومنها لبنان إلى قوانين تنظيمية وتأمينات اجتماعية، رغم مطالبة الفنانين والأدباء بها تكراراً. ورغم أن السلطات في بلدان الخليج العربي باتت منذ مدة تكرم المؤلفين وتمنحهم الجوائز الكريمة، إنما تبقى المبادرة فعل الأمير وخاضعة لسلطته واهتماماته الخاصة.

يطمح هذا المقال إلى إلقاء الضوء على علاقة الأدباء بمهنة التأليف وموقفهم من حقوقهم المادية والمعنوية في محيط لا يزال التفرغ فيه للتأليف نادراً جداً. ويميل البعض إلى اعتبار التأليف أقرب إلى الهواية منه إلى الاحتراف وينعكس هذا الموقف في غياب الصناعات الثقافية عامة عن القطاعات الاقتصادية المتعارف عليها رسمياً^[١].

وإن كان المؤلفون الرجال يجهدون لإثبات أنفسهم كمحترفين يمارسون مهنة ذات حقوق محترمة ولها تنظيمها المستقل، فكيف بالحري المؤلفات اللواتي يمتهن كتابة الرواية بشكل خاص وعلاقتهن بتلك المهنة وبالأخص ما يجنين من مقدرات مادية وسلطة معنوية.

الرواية هي النوع الأدبي الأكثر رواجاً في سوق الكتاب، ومن بين أنواع الكتب التي تتصدر أفضل المبيعات في معارض الكتب، وقد دخلتها النساء بشكل مطرد خلال العقد المنصرم. نأمل أن يلقي هذا المقال الضوء على نماذج من المواقف المتباينة أو المتشابهة بين الروائيين والروائيات تجاه الدفاع عن حقوقهم ونظرتهم إلى مهنة الكتابة وتصرفهم تجاه أرباح مبيعات الكتب. الرهان مزدوج بالنسبة للنساء: فهن - مثل كل النساء العاملات - يكتسبن استقلاليتهن من خلال عملهن

[١] والدليل على ذلك أنها لا تدرج بعد ضمن الإحصاءات الرسمية للقطاعات الاقتصادية

واستقلالهن المادي، وهن كمؤلفات، أسوة بالمؤلفين، يُفترض أن يكتسبن الاعتراف المهني والاستقلالية الفكرية من خلال ما يعود إليهن من أرباح بيع مؤلفاتهن. فللأدبية مصلحة مزدوجة في الحصول على حقوقها المادية. والسؤال هو: هل تدافع الأدبيات عن حقوقهن بشراسة أكبر من الأدباء؟ أم بالعكس تراها مستضعفة في عالم النشر الذي يطغى عليه الطابع الذكوري؟ أم أن الدفاع عن حقهن في التعبير يشكل الأولوية بالنسبة لهن فيتغاضين عن حقوقهن المادية؟

لقد اخترنا الروائيين الذين ترجمت أعمالهم الى لغات غربية (فرنسية، انكليزية، المانية، ألخ) لمقارنة علاقتهم بالناشرين اللبنانيين والناشرين الأجانب، وكذلك علاقة المؤلف بسوق الكتاب. إذ يبدو من الأسهل أن تعطي نتائج المبيعات في الغرب صورة واضحة عنها، بينما تبقى غامضة مخفية على المؤلف في السوق العربية نظرا للتزوير وغياب الشفافية وضعف القراءة في العالم العربي.

لقد قمنا بمقابلة ثلاثة روائيين هم إلياس خوري وحسن داوود ورشيد الضعيف، وثلاث روائيات هن إيمان حميدان يونس واحلام مستغانمي وعلوية الصبح. وركّزت المقابلات على دراسة علاقة المؤلفين بالناشرين اللبنانيين والأجانب متناولة الأرباح التي يجنيها المؤلفون من بيع رواياتهم، ونظرتهم لسوق الكتاب بشكل عام ومعنى الشهرة والنجاح بالنسبة لهم. كما حاولنا من خلال المقابلات إلقاء الضوء على مصير علاقة المؤلفين بكتبهم بعد أن تُطرح في الأسواق وبعد أن تتحوّل إلى منتجات يساهم في صنعها عدد من الأفرقاء كالرسامين والمترجمين والناشرين.

١. تطور مفهوم حقوق المؤلف:

كلمة مؤلف *auteur, author* وفي اللاتيني *auctor* ومن فعل *augendo* « *augmentant* » فالمؤلف هو من يزيد ويضيف (على الرواية أو الخبر) . وهو ليس بعيدا عن المعنى الذي فسّر به الياس خوري كلمة مؤلف بأنها تأتي من فعل التوليف^(٣).

ولكن في كلمتي *auctor* و *auctoritas* معنى أقوى من التوليف أو الزيادة، فهي تحمل معنى المسؤولية والسلطة، وهو المعنى الذي اكتسبته الكلمة في القرون الوسطى، فالمؤلف غير الكاتب، المؤلف هو صاحب الكلمة الصحيحة والمسؤولة.

(٣) الياس خوري. مقابلة بتاريخ ٢٧/١١/٢٠٠٨

يحمل رسالة إلهية augur (في القرون الوسطى) ، قبل أن يصير هو الأصل والأساس (في عصر التنوير) . فللمؤلف مسؤولية وسلطة على عمله، هو من يقرّر نشر عمله وهو من يعاقب عليه أو يكافأ عليه ويحق له أن ينتفع منه.

لم يكتسب المؤلف شخصيته القانونية قبل القرن السابع عشر في أوروبا عندما كان الملك يعطي ترخيصاً للمؤلف كي يطبع عمله ويبيعه وللمخترع كي يستفيد من تصنيع مبتكره وبيعه. ولم يتحرّر المؤلف من سلطة الملك ويكتسب الحق في التعبير المستقل الا بعد أن ثار على السلطة الملكية في فرنسا (١٧٨٩) وفي الولايات المتحدة (الاستقلال من الملكية البريطانية ١٧٨٩). وعرف هذا القرن أيضاً انتشاراً لنظام براءات الاختراع في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وكان للثورة الصناعية التأثير الأكبر في الاعتراف بحق المخترع باستثمار مبتكراته، وترسيخ فكرة الملكية الفكرية وكان الهدف منها تشجيع الإبداع العلمي .

مع انتشار القراءة والطلب على الكتاب، صار التأليف مجالاً للكسب المادي فعرف القرنان الثامن عشر والتاسع عشر أولى التشريعات الوطنية لحقوق المؤلف. طبّقت تلك المقرّرات على الاختراعات الصناعية وعلى الأعمال الأدبية خاصة مع توسّع سوق الكتاب بين الدول الأوروبية المختلفة. كما ناضل الأدباء لتكريس هذا الحق وتعميم تطبيقه في أرجاء أوروبا، وكان في قيادتهم فكتور هوغو Victor Hugo الذي نادى بتحرير المؤلف من الترخيص الملكي واعتباره مالكاً لكتابه:

« L'écrivain propriétaire, c'est l'écrivain libre. »

وقد أدّت جهود الأدباء الأوروبيين بقيادة هوغو Hugo إلى عقد اتفاقية برن عام ١٨٨٦ التي تحمي حقوق المؤلف على الصعيد الدولي.^(٤)

(٤) «يتمتع المبدع الأصلي للمصنف المحمي بموجب حق المؤلف وورثته ببعض الحقوق الأساسية إذ لهم الحق الاستثنائي في الانتفاع بالمصنف أو التصريح للآخرين بالانتفاع به بشروط متفق عليها. ويميّز القانون الفرنسي بين الحقوق المعنوية والحقوق المادية، تحمي الحقوق المعنوية شخصية المؤلف واحترام اسمه، فللمؤلف الحق في أن يقرّر نشر عمله، والحق بأن ينسب العمل اليه (حق الأبوة) ، والحق بأن يعترض على أي تعديل لعمله أو تحريف أو تشويه سمعته ، وأن تحترم الأعمال المشتقة روحية عمله الأصلي؛ وللمؤلف أيضاً الحق بسحب عمله من التداول (مثلاً إذا اعتبر أن عمله لم يعد يعبر عن أفكاره ومواقفه الحالية). والحقوق المعنوية لا تنتفي مع مرور الزمن. أما الحقوق المادية فتتعلق باستثمار العمل الفكري والاستفادة بمروده المادي. وهي محدودة زمنياً (بعد وفاة المؤلف بخمسين سنة في الإجمال، وقد مددت هذه المهلة عام ١٩٩٧ في أوروبا إلى سبعين سنة

كان لتطور فكرة الملكية الفكرية عوامل عديدة، منها توسّع سوق الكتاب بفضل انتشار التعليم في أوروبا، وتنظيم جديد لصناعة الكتاب، حيث بدأت تتشكل دور نشر مستقلة عن المطابع، وتنمو من مهنة عائلية صغيرة الى مؤسسات رأسمالية كبيرة. وكان نتيجة ذلك تغيير في موازين القوى بين الفاعلين في قطاع الكتاب، رافقه تغيير في توزيع الأدوار بين المؤلف والناشر والمطبعة وبائع الكتب، وكيفية اقتسام الأرباح بينهم.

توسع المفهوم فيما بعد ليشمل الإنتاج الفني على أنواعه، وبدا الصراع حاداً على الحقوق المتعلقة بالانتاج الموسيقي والسمعي البصري بشكل خاص بعد أن طغى على الصناعات الثقافية الأخرى من حيث حجم الأسواق. ولا شك أن تحوّل الاقتصاد العالمي إلى اقتصاد معلومات دفع معركة حقوق المؤلف الى صدارة القضايا التي تثار في العالم. فعملت الدول الغربية على تشديد العقوبات (انتشرت عبارة «قرصنة» لوصف انتهاك حق المؤلف واعتباره جريمة) وإطالة مدّة حماية الحقوق المادية للمؤلف.

ومع عولمة التبادلات التجارية صار من الضروري توسيع تطبيق قوانين حماية الملكية الفكرية إلى جميع البلدان التي تعقد الدول الصناعية الغربية معها اتفاقيات تبادل تجاري، فأضيفت حقوق الملكية الفكرية في نظام التجارة العالمية عام ١٩٩٤. والملفت أن الولايات المتحدة التي تحاول اليوم جهدها لتطبيق صارم لأحكام الملكية الفكرية على منتوجاتها الثقافية والمعلوماتية بشكل خاص لم تبرم الاتفاقية الدولية الا عام ١٩٨٩.

من المعروف أن قطاع النشر الأميركي لم يزدهر في بداياته خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر إلا بفضل نسخ - أي قرصنة بالمعنى الحالي - الأعمال البريطانية دون دفع حقوق لمؤلفيها. وكان عدد من النوّاب يعترض على كل محاولة لعقد اتفاقيات بهذا الصدد بين الولايات المتحدة الأميركية والمملكة البريطانية، متذرعين بأن هذا الإجراء سوف يرفع من ثمن الكتب ويحد من حجم أعمال الناشرين. فلم تعقد اتفاقية ثنائية بين البلدين إلا عام ١٨٩١، بعدما اشتهر عدد من

لتوحيد القوانين بين البلدان الأوروبية) ويصبح العمل بعد هذه المدة في الحق العام أي أن يستطيع أي كان إعادة طبعه والانتفاع من بيع هذه الطبعة. ويمكن للمؤلف أن يتنازل عن حقوقه المادية، بينما لا يمكن التنازل عن الحقوق المعنوية.

المؤلفين الأميركيين في بريطانيا وانتشر نسخ بعض الروايات المشهورة مثل كوخ العم توم *Uncle Tom's Cabin* فاهتمت الولايات المتحدة حينها بحماية مؤلفيها.^(٥)

٢. النساء ومهنة التأليف

هكذا فمفهوم المؤلف كوظيفة يحميها القانون وكشخصية قانونية لها مسؤوليتها في التعبير وحقوقها المادية والمعنوية، هذا المفهوم وليد تطور اجتماعي، وقد طبّق على الرجال من الأدباء والفنانين ولم يطبّق على النساء في أوروبا إلا بتأخير دام قرنين. من هنا يمكن القول إن فكرة الملكية الأدبية تخضع لتبدلات اجتماعية وثقافية وللنساء في هذا المجال تاريخ يختلف عن تاريخ الرجال.

تعتبر *La Princesse de Clèves* أول رواية فرنسية، وهي صدرت عام ١٦٧٨ وكانت مجهولة المؤلف ولم تنسب إلى مؤلفتها *Madame de Lafayette* إلا عام ١٧٨٠ أي بعد ما يزيد عن مئة عام! وكانت النساء يكتبن بأسماء مستعارة أو ينشرن أعمالهن على أنها ترجمات.^(٦) بقيت الكتابة مهنة غير مقبولة للنساء في فرنسا حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر مما اضطر جورج ساند *George Sand* إلى التزيّف باسم رجل وثياب الرجال.

يبدو أن دخول النساء الإنكليزيات والأميركيات إلى حقل التأليف كان من أهدافه الكسب المالي، خاصة حين كان من غير المحبذ أن يخرجن إلى المجال العام. سارة فيلدنج *Sarah Fielding* (١٧١٠-١٧٦٨) من أولى الروائيات الإنكليزيات التي اعتاشت من كتاباتها، لكنها كانت توقّعها باسم أخيها هنري، أو تصدر أعمالها مجهولة المؤلف!

وفي إنكلترا في القرن ١٩ عندما غدا شائعاً أن تنعم نساء الطبقات الوسطى بمساعدة منزلية، بدأت العائلات تتقبّل فكرة التأليف كعمل مربح للنساء، خاصة أنه يقع على الحدود بين الفضاء الخاص (المنزل كمكان للكتابة) والفضاء العام (انتشار الكتاب في الأسواق). وكان من الممكن لعائلة أن تعتاش من مردود الكتابة فصار

(٥) Roberto Verzola. *Towards a Political Economy of Information*. Quezon city, Philippines, Foundation for Nationalist Studies, 2004. p21-24.

(٦) Paule Constant. *Qu'est-ce qu'une femme qui écrit?* www.pauleconstant.com/docs/UFQE.pdf

التأليف نشاطاً معترفاً به للأرامل.^(٧) في الولايات المتحدة الأميركية، اعتبر التأليف مهنة تصلح للمرأة، بالأخص إذا كتبت ما يعمّم خبرتها كأُم ومربية.^(٨)

لقد بيّنت الأبحاث حول تاريخ النشر وتاريخ الأدب في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، أن النساء الكاتبات كن يعانين من صعوبة التفاوض مع الناشر، لعدّة أسباب يعود أولها إلى أن قانون الأحوال الشخصية الفرنسي كان يمنع المرأة المتزوجة من عقد الاتفاقات التجارية، مما اضطر جورج ساند مثلاً لاستخدام إسم زوجها للتفاوض مع الناشر^(٩). والحال نفسه في الولايات المتحدة حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث كان القانون يمنع النساء المتزوجات من امتلاك أي نوع من أنواع الملكية، فكانت المؤلفات تضطر لتوكيل أقربائها الذكور بحقوق تأليف أعمالهن.^(١٠)

ومن الأسباب أيضاً أن النوع الأدبي الذي تخصصت به البعض منهن كان يعتبر في مرتبة أدنى من غيره من الأنواع. هذه حالة أدب الأطفال حيث شكّلت النساء الغالبية بين المؤلفين، ولم تلق فيه التعامل الذي يليق المؤلف (أو المؤلفة) في الأنواع الأدبية المعترف بها. مما دفع بالكونتس دو سيغور La Comtesse de Ségur لبيع حقوقها كاملة دفعة واحدة لهاشيت الذي استفاد من المبيعات الهائلة التي حققتها مؤلفاتها فيما بعد، ولم يستفد منها وارثوها.

والحال نفسها بالنسبة للروايات المسلسلة التي كانت تنشر في الصحف والتي كانت تعتبر أدنى مرتبة من الأدب، واضطرت المؤلفات اللواتي كن تخصصن بهذا النوع إلى بيع حقوقهن بأسعار متدنية والتخلّي عن حقوقهن في نشر الرواية في كتاب بحجة أنهن قبضن حقوقاً على المسلسل^(١١).

ومن بين الكاتبات من اضطرن للنضال بشراسة ضد أزواجهن ودفاعاً عن

D. F. Laurenson. "A Sociological Study of Authorship". In: *The British Journal of Sociology*, Vol. 20, No. 3 (Sep., 1969), pp. 311-325 (٧)

Sarah Robbins. "Distributed Authorship: A Feminist Case-Study Framework for Studying Intellectual Property". *College English*, Vol. 66, No. 2 (Nov., 2003), pp. 155-171 (٨)

Jean-Yves Mollier. "Les femmes auteurs et leurs éditeurs au xixe siècle : un long combat pour la reconnaissance de leurs droits d'écrivains". *Revue historique* N° 638 2006/2 (٩)

Melissa J. Homestead. *American Women Authors and Literary Property, 1822-1869*, (١٠) published by Cambridge University Press, 2005

Jean-Yves Mollier. Op.cit (١١)

حقهن في ملكيتهن الأدبية، ورغم صعوبة تحصيل هذه الحقوق، لا بل غيابها التام أحياناً، استمررن في الكتابة والتأليف. نذكر على سبيل المثال تجربة هاريت ستو مؤلفة «كوخ العم توم» التي كتبت مطالبة بالعدالة الاجتماعية وبإلغاء التمييز العنصري، وهي التي لم تستطع أن تنشر دون تغطية إسم زوجها! ولم تسع وراء الكسب المادي، رغم أن مؤلفاتها كانت من أكثر الكتب مبيعاً.^(١٢)

٣. الروائيات العربيات

شهد أواخر القرن التاسع عشر بداية الرواية العربية الحديثة، بعد أن كان الشعر النوع الأدبي الطاغي، نتيجة للاحتكاك بالغرب وتعبيراً عن تطلعات جيل المثقفين الى الحداثة. ورافقت الرواية انتشار الصحافة التي احتضنتها أحياناً كحال روايات جرجي زيدان. كما اعتمدت الرواية أحياناً على تعريب روايات أجنبية كروايات المنفلوطي.

ويبدو أن النساء سبقن الرجال في هذا النوع الأدبي، مع رواية «يعقوب وابنته مريم» لفريدة وهبة عام ١٨٧٣، ثم «صائبة» لاليس بطرس البستاني عام ١٨٩١، و «حسن العواقب» لزينب فواز عام ١٨٩٩، و«قلب الرجل» للبيبة هاشم عام ١٩٠٤ و«بديعة وفؤاد» لعفيفة كرم عام ١٩٠٦، فهذه سبقت رواية جبران «الاجنحة المتكسرة» عام ١٩١٢ و«زينب» لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٤.^(١٣) ويذكر أن الأخير، وكان صحفياً مشهوراً، لم يرغب أن يوقع روايته باسمه، نظراً للمكانة الدونية لهذا النوع الأدبي، فصدرت تحت إسم «فلاح مصري».^(١٤) ولم تكن كتابة الروايات سبب شهرة المؤلفين أو المؤلفات، ولا مجال نشاطهم الأساسي. فعرفت زينب فواز بمقالاتها الصحفية الداعية لتعليم المرأة وبكتابتها عن النساء العربيات^(١٥) قبل رواياتها. وعرفت لبيبة هاشم بتحريرها مجلة «فتاة الشرق» في مصر. كما لم تكن الرواية مصدر رزق للمؤلفات على غرار ما كانت عليه في أوروبا، فبعض الأدبيات اللبنانيات ترعرعن في عائلات ميسورة كانت ترسل بناتها إلى المدارس

(١٢) Melissa J. Homestead. Op.cit

(١٣) نازك سبابا يارد و نهى بيومي. الكاتبات اللبنانيات . بيبوغرافيا ١٨٥٠-١٩٥٠. بيروت : دار الساقي، ٢٠٠٠.

(١٤) Hassan, Kadhim Jihad. Le roman arabe. Arles : Actes Sud, 2006.

(١٥) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، القاهرة : مطبعة بولاق، ١٨٩٤

الخاصة^(١٦). ومنهن من صرفت من مالها الخاص لنشر أعمالها. فعفيفة كرم مثلاً بدأت حياتها الأدبية في المهجر وكانت متزوجة من رجل أعمال واسع الحال. وكتبت إلى رفائيل بطّي رسالة تقول فيها: «خسرت [بسبب ولعي بالقلم] ثروة طائلة بجذل وسرور لأن الكتابة أصبحت قسماً من حياتي أحياناً وأموت بها ولها. وإذا كان لا بد من ذكر الحقيقة للتاريخ فأقول إن فضل زوجي كان جزيلاً فهو الذي جرّاني وساعدني وبذل المال في سبيل مشروعاتي الأدبية»^(١٧).

وتتأكد زيادة النساء للرواية العربية إذا نظرنا إلى تطور الرواية العربية، «فمنذ خمسينات القرن الماضي... بدأت النواة تتسع، والرواية النسوية تتشكل ملامحها... ليأتي بعدهن في الستينات روايات أكثر جذرية. والدائرة تتسع لعشرات الأسماء من الروائيات العربيات اللواتي يصعب اليوم إحصاؤهن، وقد أضيفت إليهن أسماء جديدة من الجزيرة العربية، والمغرب العربي، والسودان. فمن المغرب إلى السعودية، ثمة عشرات الأسماء المؤنثة، التي أحدثت ما يشبه الزلزال في مسار السرد العربي»^(١٨).

هذا ولقد أتت نسبة الروايات التي ألفتها نساء والمنشورة بين ٢٠٠٠-٢٠٠٨ ٣٨٪ على موقع ادب وفن. والجدير بالذكر أن روايات النساء باتت تنافس روايات الرجال من حيث الرواج في الأسواق العربية، فلقد حققت رواية «بنات الرياض» لرجاء الصانع، أفضل المبيعات عند دار الساقى (٦٠ الف نسخة). وحققت ثلاثية أحلام مستغانمي أرقاماً قياسية في المبيعات: «اخترت من قبل مجلة *Forbes* الشهيرة كالكاتبة العربية الأكثر مقروئية لتجاوز عدد قرائي مليونين و٣٠٠ الف قارئ»^(١٩). صدر لها حوالي ٤٠٠٠٠٠ نسخة عند دار الأداب.

٤. حقوق المؤلف في البلدان العربية

والحقيقة أن حقوق المؤلف لا تحترم في البلدان العربية، فيشتكي الناشر

(١٦) لم تكن زينب فواز من هؤلاء فهي تعلمت في بيت الاسعد حيث كانت تعمل قبل هجرتها الى مصر
١٧ رفائيل بطي. عفيفة كرم: ترجمتها وآثارها. <http://www.alkatiba.com/articles/article1561.htm>.

تمت الزيارة في ٢٠٠٨/١٢/١٨

(١٨) ناظم مهنا. كيف غيرت حفيدات شهرزاد وجه الرواية العربية؟ في: الشرق الأوسط، ١٩ يوليو ٢٠٠٦. <http://www.asharqalawsat.com>. الزيارة في ١٩ كانون الاول ٢٠٠٨.

(١٩) أحلام مستغانمي. المقابلة بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

جميعاً من تزوير الأعمال التي تثبت رواجها في الأسابيع الأولى لصدورها. تقول أحلام مستغانمي: «تصوري! أنا من بين أقوى ١٠٠ شخصية، وأنا الأضعف أمام اللصوص!» تشعر أحلام انها تعمل لصالح المزورين، أنهم بانتظار كتابها الجديد ليزوروه. فيقول أحدهم الى صاحبة دار النشر: «يلاً متى سيصدر الكتاب الجديد، بدنا نشغل...». الكاتبة والناشرة، إمرأتان تجابهان وقاحة اللصوص: "أنا ورناء ادريس تعبنا جداً. مزور معروف جداً في لبنان، يدخل السجن ويخرج ويزور «المنهل» بألاف النسخ ويبيعه ويزور «ناكرة الجسد» عينك عينه. اللص صار وقحاً، يأتي إلى معرض الكتاب، يأخذ نسخة ويقول «غيرتموه، طلعت طبعة جديدة، نروح نشترى نسخة لنبدل نحن أيضاً...» هذا وقد حاولت أن تنشر كتبها على نفقتها، لتحارب المزورين عن طريق خفض الأسعار.

كثيرون في الأسواق العربية يتجاهلون الملكية الفكرية رغم توقيع الدول العربية الاتفاقات الدولية المتعلقة وإصدار التشريعات الوطنية المناسبة. وإن كانت فكرة الملكية الفكرية دخلت حديثاً إلى بعض الدول العربية (الخليج خاصة) تحت ضغط عولمة التبادلات التجارية، فهناك دول عربية أخرى أبرمت منذ عقود متعددة إتفاقية برن، وهي الدول التي كانت تحت الانتداب أو الاستعمار (تونس ١٨٨٧ ثم المغرب ١٩١٧، ثم لبنان ١٩٤٧ ومصر ١٩٧٧) واستوحت هذه الدول قوانينها من نصوص الدولة المنتدبة.

ولم تأت التشريعات الوطنية لتستجيب لحاجة مجتمعية ملحة، ولم تبرم الاتفاقات العالمية إلا تحت ضغط متطلبات التجارة العالمية^(٢٠). فكان الأديب العربي تاريخياً يسترزق في كثير من الأحيان من كرم الحاكم، وربما بقي على هذه الحالة لتاريخ ليس ببعيد، مما يظهر لنا من خلال استمرار عادة المدح وإلقاء القصائد في المناسبات السياسية والاجتماعية. وفي أواخر القرن التاسع عشر، ارتبط المثقف إما بجهاز الدولة (في التعليم أو في الإدارات العامة) أو بالصحافة، أي بعلاقة اقتصادية بالسلطة السياسية. وحتى أيامنا هذه، غالباً ما يعمل المؤلف في مجالات الصحافة أو التعليم، وإن كان غير مرتبط بالسلطة السياسية، فهو غير مستقل مادياً. أما الجوائز الأدبية التي من المفترض أن تحفز المؤلفين على المزيد من التأليف، فهي أعطية

(٢٠) كان لربط التبادل التجاري العالمي بحقوق الملكية الفكرية (اتفاقية الجات و TRIPS) التأثير الأهم الذي جعل باقي الدول العربية تبرم اتفاقية برن وتعديل في قوانينها الوطنية لحقوق المؤلف.

تأتي من مال الأمير في دول الخليج وعادة ما لا تتناسب قيمتها المادية مع الأرباح التي يمكن أن يجلبها بيع الكتاب في الأسواق.

لا زالت اليوم القضايا التي تثار حول حقوق المؤلفين المحليين قليلة. على صعيد المحاكم اللبنانية، لم تثر القضايا المتعلقة بحقوق المؤلف قبل عام ١٩٩٧، ومنذ هذا التاريخ حتى ٢٠٠٥ لم تتعد اجتهادات القضاء اللبناني المتعلقة بالحقوق على المطبوعات التسعة، في مقابل ١٨ اجتهادا للأفلام والموسيقى والبرامج التلفزيونية.^(٢١) تركّز الجهود على حماية الماركات العالمية والبرامج المعلوماتية للشركات الأجنبية، ونادرة هي الحالات التي يتم فيها ملاحقة مزوّري الكتب.

فتؤكد أحلام مستغانمي: «يدافع عن حقوق الشركات الاميركية، عن شركة ميكروسوفت، فهي ترغم الدول ان تحمي حقوقها؛ سوف يحجزون الاشرطة (المواد المعلوماتية) ولن يحجزوا كتبك! انت ما عندك حقوق! أميركا على بعد ٣ قارات لها حقوق ولكنك انت في نفس الوطن لا تملكين حق، وستدافعين عن حقلك وحق ناشر كتبك». وتستشهد بيوسف شاهين: « يقضي المبدع العربي ٢٠٪ من وقته في الابداع و٨٠٪ من هذا الوقت دفاعا عن ابداعه».

وإن كان من دفاع فعلي عن حقوق الملكية الفكرية فعلى الأنواع الاكثر رواجاً كالأغاني مثلا، أما الكتاب فأرباحه ضئيلة وسوقه ضعيف، على الرغم من اتساع رقعته، بسبب استمرار الأمية وغياب عادة المطالعة.

٥. سوق الكتاب

لا يمكن مقارنة واقع صناعة الكتاب وسوقه العربية مع صناعة الكتاب وسوقه في الغرب. فيشهد قطاع صناعة الكتاب في أوروبا وفي الولايات المتحدة تمركزاً هائلاً للمؤسسات الناشرة، وهو تمركز أفقي (شراء دار نشر كبير لعدد من الدور الصغيرة) وعمودي (تمركز جميع حلقات انتاج وتوزيع الكتاب في يد شركة واحدة) حتى صارت ست مجموعات اقتصادية تسيطر على سوق الكتاب في العالم^(٢٢). والحصّة الأكبر في سوق الكتاب الفرنسية تعود لشركة هاشيت (Hachette) التي

(٢١) انظر نصوص الاجتهادات وتواريخها في: راني صادر- المرجع في اجتهادات الملكية الفكرية، ٢٠٠٦.

(٢٢) Jean Yves Mollier. Où va le livre? Edition 2007-2008. Paris : La Dispute, 2007, p 65

توسّع سيطرتها أيضاً على الأسواق العالمية الأخرى. ويعود صمود دور النشر المتوسطة المستقلة الى سياسة ثقافية واضحة تضع بعض الحدود للاحتكار وأيضاً بفضل تقاسم الأدوار بين المؤسسات المختلفة. فالدور الصغيرة المستقلة تجازف بنشر المؤلفين الجدد، بينما تتوجه المؤسسات الكبيرة نحو التركيز على عناوين مؤكدة النجاح، على حساب الأعمال الصعبة أو الرائدة أدبياً. والسوق الغربية كلها تنتظم لتحتمل بالكتب الناجحة وتزيد من مبيعاتها، بمختلف الأساليب، كالجوائز الأدبية التي باتت تكافئ الكتب الناجحة تجارياً ومن خلال البرامج التلفزيونية والدعايات. لذلك يشهد عالم الكتاب ظاهرة الكتب الأكثر مبيعاً والتي تكمل مسيرتها من خلال الصناعات الثقافية والترفيهية الأخرى، كالافلام والملابس والألعاب المستوحاة من شخصيات الرواية. لا شك إذن أن الرهانات كبيرة والحوافز قوية للدفاع عن حقوق المؤلف! ومن الملفت للنظر التنسيق بين الفاعلين في سوق الكتاب ودعم الدولة لهذا القطاع الاقتصادي باعتمادها سياسات تشجيعية وحماية التنوع في الإنتاج وحماية المؤلفين بشكل خاص.

فيما يخص الكتاب العربي، فرغم وحدة اللغة من المحيط الى الخليج، تبقى حظوظه في المبيع محدودة، لذلك لا يجازف الناشر بعدد النسخ للطبعة الواحدة ولا بعناوين غير مضمونة النجاح. يركز كل جهوده التسويقية على الأسابيع الأولى لصدور الكتاب لأنه على يقين أن الكتاب الذي يحظى بإقبال الجمهور عليه سوف يزور سريعاً. وما زالت دور النشر في غالبيتها مؤسسات صغيرة، عائلية في كثير من الحالات،^(٢٣) هذا مع العلم ان بعض الشركات القليلة تتخذ منحىً جديداً من ناحية التمركز والتوسع وتنوع النشاطات^(٢٤). بصفة عامة، القطاع مشرذم ولم ينجح الناشرون حتى الآن بتحويل اتحاداتهم النقابية إلى مؤسسات تنظم المهنة وتنسق الجهود من أجل تحسين شروط ممارسة المهنة ومكافحة التزوير.

تشكو صناعة الكتاب في العالم العربي من غياب المؤسسات الكبيرة المتخصصة بالتوزيع، وغياب فهارس مشتركة للإصدارات الجديدة، وضعف شبكات التوزيع من خلال مكتبات البيع. هذه كانت لتخفف على الناشر متاعب توزيع الكتاب

Franck Mermier. Le livre et la ville. Arles : Actes Sud, 2005. p169 (٢٣)

Idem. p 172 (٢٤)

في أرجاء العالم العربي. فما زال الناشر العربي يقوم بتوزيع منشوراته بنفسه، يدور من بلد إلى بلد ومن معرض إلى آخر، ليعرض إنتاجه على قراء العواصم العربية بصيغة موسمية فقط ودون أن يطال الأرياف والقرى. هذا إذا سمحت سلطات الرقابة للكتاب أن يدخل هذا البلد العربي أو ذاك؛ والرقابة متعددة ومتنوعة المقاييس، فلكل بلد معايير وقائمة ممنوعات خاصة به. «المعوقات الفعلية هي الحدود والرقابة وصعوبة التحويلات المالية» حسب ما يؤكد الياس خوري. يصدر عن كتاب واحد لألياس خوري ٥ طبعات خلال عشر سنوات، وهي لا تتعدى ١٥٠٠٠ نسخة، بينما يوزع في فرنسا وحدها ٢٥٠٠٠ نسخة. وتكمن المشكلة الأهم في ضعف الطلب على الكتاب وغياب سياسات لتشجيع المطالعة.

ويشعر المؤلف أنه غير محمي في العالم العربي، فلا دولة تدافع عن حقوقه وتلاحق المزورين ولا دولة تدعم الكتاب: «مشكلتي في غياب أي سياسة لدعم الكتاب... الكتاب يقف وحده، على الكتاب ان يجد طريقه، وقراءه. وهو يجدهم، ولكن المرارة انك تشعر انك وحيد، المجتمع ليس معك، انت على هامش الهامش» (الياس خوري).

أمام هذا الواقع كيف يمكن أن تكون علاقة المؤلف بالناشر وهل يدافع عن حقوقه ويطالب بها؟ ولقد لفتتنا ظاهرة قيام مؤلفين واسعي الانتشار بانشاء دور نشر خاصة بهم أمثال نزار قباني وغادة السمان وأحلام مستغانمي. أما هذه الأخيرة فلقد عادت بعد فترة لتنتشر عند دار الأداب بعد أن اختبرت صعوبة التوزيع.

٦. العلاقة مع الناشر

يتأرجح موقف المؤلفين من الناشرين بين عدم الثقة والشعور بالاستغلال أحيانا، خاصة عندما يشتهر المؤلف وتشهد كتبه رواجاً في الاسواق العربية، وبين تكاليف وثقة وعدم رغبة بالتدقيق في الحسابات أحياناً أخرى.

إذا كان الناشر يعانون من انتشار التزوير وصعوبة التوزيع وضعف الطلب على الكتاب، فالمؤلف هو الضحية الأولى، إذ سيحاول بعض الناشرين تقليص ما يدفعون للمؤلف من حقوق. يشتكي المؤلف العربي عادة من تدني الحقوق التي تدفع له (حوالي ١٠٪). هذا مع العلم أنه من الصعب عليه الحصول على معطيات دقيقة حول حجم مبيعات كتبه، إذ يتذرّع الناشر أحياناً بمشكلة التزوير لتبرير قلة الأرباح

رغم رواج الكتاب في الأسواق، كما أنه يعيد طبع الكتاب دون إعلام كاتبه. فالعلاقة غير شفافة أحياناً وغير موثقة نظراً لطغيان النمط الحرفي على أساليب العمل وضعف التنظيم. يشتكي حسن داوود من إخفاء المعلومات حول المبيعات. فهو نشر في عدة دور ويطلب دائماً بمعطيات دقيقة حول مبيعات كتبه وأماكن توزيعها ولم يتلق جواباً. يقول: «أريد أن أعرف أين يقرأ كتابي». ويقول أنه «لم يقبض من الطبعات العربية إلا الدفعة الأولى فقط». المشكلة ليست مادية بقدر ما هي شعور بالضعف والوحدة أمام نظام السوق، خاصة بغياب الشفافية.

تتسم العلاقة مع الناشر اللبناني بأنها شخصية، لا وسيط كمدير مبيعات أو مدير تحرير بينهما، ويمكن لهذه العلاقة أن تكون أحياناً حميمة وصادقة، خاصة عندما يساهم الواحد (الناشر والمؤلف) بسمعة الآخر ومكانته في المجال الأدبي. فالناشر يقوى بالأسماء اللامعة التي ينشرها، والمؤلف يقوى من سمعة دار النشر في الوسط الأدبي ومن الأسماء البارزة في قائمة منشوراتها. وتؤكد علوية الصبح: «دار النشر مثل عائلتي». كما يعتبر الياس خوري أن علاقته مع دار النشر جيدة وخالية عن التعقيد، ولا يشتكي رشيد الضعيف من أية مشكلة مع صاحب الدار. أما أحلام مستغانمي فهي تعتبر نفسها في خانة واحدة مع صاحبة دار النشر في مواجهة المزورين.

وقد لا تشجع العلاقات الشخصية المؤلفين على التدقيق في الحسابات. والحقيقة أن المؤلفين لا ينتظرون الكثير من الأرباح إذ يفضلون أن يحافظ المثقف على صورته المترفعة عن الأرباح، طالما أنها في جميع الحالات لن تساوي الوقت والجهد المبذولين. «كتاب يتطلب ثلاث سنوات من العمل، تجني منه \$3000» (الياس خوري). كما أن الجميع يتوقع من المؤلفين والفنانين أن يترفّعوا عن الاهتمام بالكسب المادي وبتنتائج لمبيعات.

تشعر أحلام مستغانمي أنها محرّجة وعليها أن لا تسأل عن حقوقها. «قدر المبدع العربي أن يصنع ثراء غيره لأن كل شيء مبرمج لنهبه، ولجعله يستحي من مطالبة حقه». «عيب! ليش انت تلاحقينا بحقوقك؟ خلص! عيب... أنت بحكم أنك كاتبة عليك أن تترفعي عن المطالبة بأي شيء مادي». وتضيف: «إذا لم تكن علاقة الكاتب بالمال علاقة كرامة، تكون علاقة إهانة». أما حسن داوود فيقول: «أنا لا أطلب لأنني سأبدو كمن اخترق محرّم».

«التجرّد هو ما يميّز موقف الفنان بعلاقته بمحيط الممارسة أو بالأعمال»^(٢٥). هذه الصورة وليدة تطور للعلاقات بين الفنانين والطبقة البرجوازية منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر في المجتمعات الصناعية^(٢٦)، وربما استمرت في العقليات حتى أيامنا كرواسب من الفترة السابقة. ويخص هذا الموقف المجال الأدبي الضيق الذي يسعى للاستقلال عن الانتاج الجماهيري، هذا بحسب بورديو.^(٢٧) أما في محيطنا الحالي، اللبناني والعربي عامة، فيرتبط بالمكانة الدونية للأدب في دورة الانتاج، فلا يعترف المجتمع بالتأليف الأدبي كمهنة مستقلة.

واستكمالاً لموقف الترفّع هذا، من غير المنتظر أن يعرف المؤلف كيف يدير أعماله وكيف يتفاوض مع الناشر ليحصل على حقوقه. يقول الياس خوري إنه لم يجد دخلاً فعلياً عن ترجمات كتبه إلا بعد أن سلّم إدارة حقوقه لوكيل يتفاوض على حقوق الترجمات ويلاحق الناشرين. ويعترف حسن داوود: «هناك كتّاب يتابعون مبيعاتهم أفضل منّي، أنا مش شاطر».

تمثّل أحلام مستغانمي الصورة النموذجية الصارخة لأدبية وامرأة في وسط عالم جشع (ذكوري): تقول إنها لا تعرف كيف تدبّر أعمالها، تمضي العقود دون أن تقرأها، وهي لا تتفاوض على حقوقها: «أنا لا أفأوض، أنا أوقّع» وهي تقع دائماً في الأخطاء ولا تلجأ إلى محام إلا بعد وقوعها فيها. وتذكر عدداً من الحالات حيث تخلّت عن حقوقها بسبب ثقفتها المفرطة بأن العلاقة مع الفنّانين لا بد أن تكون صادقة.

ولكن الموقف الإيديولوجي هذا للفنان الصادق والمتجرّد لم يعد يناسب عصرًا باتت الثقافة فيه صناعة مربحة. شكّل الاعتراف بحقوق الملكية الفكرية في الغرب نقطة انعطاف بالنسبة للأدباء إذ رسّخ حريتهم واستقلاليتهم عن السلطات السياسية والدينية. وبتنا نشاهد المنظمات الدولية تشن الحملات الإعلامية للتشديد على احترام الملكية الفكرية، ونرى الشركات الكبرى تلاحق منتهكي حقوقها في أرجاء

« Le désintéressement serait le trait qui caractérise le plus généralement et le plus profondément la posture de l'artiste dans sa relation avec l'environnement de la pratique ou des affaires ». Chateau, Dominique. Qu'est-ce qu'un artiste. Rennes : Presses Universitaires de Rennes, 2008, p27.

J P Sartre. Qu'est-ce que la littérature ? . Paris : Gallimard, 1948. (٢٦)

Pierre Bourdieu. Le point de vue de l'auteur. In : Les règles de l'art. Paris : Seuil, 1992. (٢٧)

العالم. بالمقابل، يخجل المؤلفون اللبنانيون من المطالبة بحقوقهم، ولا يكفحون في سبيل المزيد منها لأنها لن تؤمن لهم الاستقلال المادي.

وحدها أحلام مستغانمي تثور على التعدي على حقوقها فكتبتها لاقت رواجاً جماهيرياً. فشكلت بذلك حالة استثنائية حيث خرجت أعمالها من الدائرة الضيقة للأدب المثقف لتشتهر وتطال الجمهور الواسع، فباتت خسائرها الناتجة عن استغلال أعمالها وانتهاك حقوقها كبيرة. وتذكر مستغانمي أمثلة عن مختلف أنواع الاستغلال والاستخفاف بالحقوق: إحدى المؤسسات أخذت منها حقوق الترجمات بمقابل جائزة أدبية منحها إيها، وتصدر الطبعة تلو الطبعة مقابل مبلغ زهيد جداً للمؤلفة، كما أن محطة تلفزيون أخذت حقوقها لفيلم ولمسلسل ولم تنفذ الاتفاق فذهبت الجهود هدراً.

أما بالنسبة للمؤلفين الآخرين، فلا تشكل كتابة الروايات مجال عمل أساسي يمكن أن يتفرغوا له ويبقى مدخولها هامشياً بالنسبة لمعاشهم المنتظم. وهم على يقين أنه من النادر جداً أن يعتاش المؤلف من كتاباته. وهذا إذا دلّ على شيء فيدل على مكانة الكتاب في مجتمعنا. وليست هذه حالة الكتاب وحده في العالم العربي. فالممارسات الثقافية كلها، من قراءة ومشاهدة أفلام السينما والمسرح (الأنواع التي تحتاج إلى اكتساب بعض المرجعيات والمقاييس الجمالية والتي تتطلب ارتياد الفضاءات المخصصة كالمكتبات ودور السينما والمسارح) لا تزال محصورة في دائرة إلى حد ما نخبوية ولم تنجح في أن تتحول إلى ثقافة جماهيرية. وبالفعل، بقي نجيب محفوظ يعمل إلى جانب التأليف رغم أن معظم رواياته تحولت أفلاماً. أما رشيد الضعيف، وهو من أكثر الروائيين اللبنانيين رواجاً بحسب ناشره رياض الريس وتحول عدد من رواياته إلى أعمال سينمائية، فيتعجب ممن يفكر أن يكسب عيشه من الكتابة الأدبية.

لهذه الأسباب، لا يعتبر قطاع الكتاب قطاعاً اقتصادياً هاماً يحتاج إلى تنظيم وتحترم قوانينه، كما لا يكثرث الفاعلون في مجال الكتاب لحقوق المؤلف رغم مركزيتها في الإنتاج: المؤلفون أنفسهم يفضلون ألا يطالبوا بحقوقهم المادية حفاظاً على صورتهم، والناشرون يتناسون أحياناً إمداد المؤلفين بالبيانات التفصيلية حول إعادة الطبع ونتائج المبيعات، أما المزورون فيستسهلون النسخ ولا يكثرثون لأصحاب الحقوق في ظل غياب عام لتقدير جهود المؤلف وعدم اعتبار التأليف مهنة يمكن التفرغ لها.

٧. الروائيات والمال

يبدو أننا في البلدان العربية في طور ما زال المجتمع فيه ينظر إلى الكتابة كهواية أكثر من احتراف. وهي تحتاج إلى وقت ونضج لينظر إليها كمهنة. وما ينطبق على المجتمع ينطبق على المؤلفين أنفسهم من حيث تطور الموقف: كان هم البوح والإبداع الدافع الوحيد لإيمان يونس حين كتبت روايتها الأولى، أما فيما بعد: «الاحتراف يجعلك تنظرين الى ابداعك كمصدر انتاج، حينها لا تكتفين بالكتابة فقط، تبدأين بالنضوج.»

يدرك المؤلفون استحالة العيش من مردود رواياتهم فقط. ورغم هذا تعبر النساء الكاتبات عن حلم يرواد أذهانهن ولو بقي خيالاً. فتقول إيمان يونس: «حلمي ان أكرّس وقتي للكتابة، حلمي أن أكل من رواياتي». ولكنها واقعية وهي تعلم أن «هذا غير ممكن، لا أريد أن أتهم عالمنا العربي فحتى في فرنسا لا وجود لذلك، لم أسمع بأناس يعيشون من كتاباتهم إلا إذا نالوا جوائز كبرى». لماذا تحلم إذن بما لا يمكن تحقيقه؟ يشكل التفرغ للكتابة رمزاً لاستقلال المرأة ولحريتها بعد أن كانت لأجيال في وضع التبعية المادية والمعنوية. تقول علوية الصبح: «أتمنى أن يصبح مدخولي الوحيد من كتبي لأتفرغ للكتابة. هل من شيء أجمل من أن أعيش من كتبي، أصير ملكة... حرية! متعة غير طبيعية أن تعيشي من كتبك. أتمنى أن لا أضطر لمصدر ثانٍ، أن أصير حرة». وتقول أحلام مستغانمي: «أن يكون لك إمكانيات مادية يعني أن تكوني امرأة حرة، كاتبة حرة.»

رهان المرأة مزدوج إذن، أن تكسب معيشتها وحريتها بالتعبير في أن. ألم تصف سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir الأدبية الفرنسية كولينت Colette بأنها امرأة مكافحة عرفت كيف تؤمن قوتها اليومي من قلمها؟^(٢٨) وتتابع كريستافا: «واجهت كولينت بشجاعة ضرورة ان تكسب معيشتها، وكانت طامعة بالربح بقدر ما كانت تفرط بالصرف، واستطاعت ان تكتسب استقلالها الاقتصادي مدركة بالفطرة ان هذا الاستقلال هو الشرط المسبق للانواع الاخرى من الحرية»^(٢٩).

Julia Kristeva. Le Génie féminin, vol 3 Colette. Paris : Gallimard, 2004 (Folio), p98 (٢٨)
«Affrontant avec courage la nécessité de gagner sa vie, âpre au gain autant que (٢٩) dépensière, Colette parvient à conquérir son indépendance économique, sachant d'instinct que celle-ci pré-conditionne toute autre forme de liberté.» Kristeva op.cit. p 24.

ومثل كولييت، تسعد الروائيات بهذا المال الذي سوف يصرف بسرعة. تقول علوية: «طبعاً أتمنى أن ينتج كتابي مليون أصرّفها بأسبوع، أحب أن أجنبي ثروات لأصرّفها، لا أكذب على نفسي». وتقول أيضاً: «يهمني البيع، الجانب المادي. هذا تعبني. هذه مهنة، لم لا أعتاش منها».

ويفرح الجميع بالمبالغ ولو زهيدة، إذ تأتي بأوقات غير منتظمة. ولكن الروائيات أكثر تعبيراً عن سعادتهن بسبب قيمتها الرمزية وهي لا تقاس بقيمتها الحقيقية. وتشرح علوية الصبح: «الغريب أنه بالرغم أن علاقتي بالمال سيئة، ما عندي علاقة عاطفية بالمال... رغم ذلك، الغريب أنك، وقت تتقاضين دولاراً عن كتاب، تشعرين بسعادة. أسأل نفسي لماذا؟ \$٢٠٠ أكثر سعادة من آلاف الدولارات كمعاش. عمك تتعيبين به أيضاً وكله يصرف. ولكن تشعرين بالسعادة، هذا كتابك، مكان تحقيق نفسك، فيه متعة لا أستطيع أن أفسرها. أتذكر أول مرة قبضت عن كتاب كان شعوراً مشابهاً لأول معاش، عندما قبضته بكلية التربية كتلميذة، رغم أنه أحياناً رمزي. كأن ابنك حصل لك شيئاً».

أما إيمان يونس فتفسر: «الأموال التي أقبضها من فرنسا ومن ألمانيا ومن الولايات المتحدة مبالغ رمزية لكن علاقتي بها مختلفة عن العلاقة مع الشيك الذي يتم تحويله إلى حسابي في المصرف كل آخر شهر. فلأول معنى مختلف، لأنه نتيجة عمل قمت به من الألف إلى الياء، في حين الثاني هو نتاج علاقة مهنية منفصلة عن ذاتك...» وتزيد: «أشعر بنفسي حرّة، هناك الكثير من المشاعر المتناقضة، هذه الشيكات تجعلني أحس أنني أبني شيئاً غير مادي، معنوي، يوماً ما سأتوصل لبنائه رواية وراء أخرى... علاقتي بأموال الكتابة لها نكهة مختلفة، بالرغم من أنها تصب في حساب واحد، أحس بنفسي أقوى، حين تصلني أموال الكتابة أحس بنفسي أقوى، أنني خلقة».

تفرح المؤلفة بالمال العائد مباشرة من بيع كتبها، لأنه يرمز إلى انتشارها بين الجمهور القارئ. أما مال السلطة السياسية أو الإعلامية، فهو مكروه لأنه لم يأت نتيجة علاقة متساوية وشفافة بين المؤلف والمنتج في إطار تبادل مهني سليم. وترفضه أحلام مستغانمي: «علاقتي بالمال هذا هي علاقة كرامة بالدرجة الأولى. لأن المال أحياناً عليك ان تهينيه حتى لا يهينك... المبلغ الذي عرضته عليّ [محطة التلفزيون، تعويضاً عن مسلسل لم ينجح حسب العقد بينهما] كان كبيراً بالنسبة

لدخلي، ولكنه كان صغيراً بالنسبة لكرامتي. كان صغيراً بالنسبة لأربع سنوات وأنا أكتب وأصحح ١٥٠٠ صفحة، مرتين، للسيناريو الذي كنا نحضره لذاكرة الجسد. تشعرين ان المبلغ يعادل بالضبط ٣ إعلانات. فهل هذا ثمن كاتبة في هذا الزمن؟ ولهذا عليك أن تدوسي على المال، لأنه إن داسك انتهيت» .

قد يحمل المال معه طلب ولاء أو تبعية : «رفضت جوائز عربية كبيرة لأنني شعرت بالإهانة، تخليت عن جوائز، كانت بمناسبة سنة ثقافية وتحمل اسماء شخصيات، ملوك وحكام، لا أشعر أنني أكبر بأسمائهم. لأنني أختار الجائزة الادبية، الجائزة لا تختارني. المكسب المادي غير مهم. أي مكسب مادي على حساب تاريخي هو خسارة. ١٢٠٠٠٠ \$ لم أنحن لأخذها. وهذا وحدي أدري به. هذه وقود فرحتي، وقود كرامتي، عندما اذكرها مع نفسي أكبر . من هو هذا السلطان الذي يكرمني؟ ما هو هذا المبلغ بالنسبة لي؟ ومن هي هذه المؤسسة التلفزيونية التي تعطيني مبلغاً هو نصف ما تدفعه لمغنية في ليلة؟ هل هي تقيّم جهدي؟ بأي حق تقيّم جهدي؟ من أدرها كم دفعت؟ كم أحرقت من أعصابي؟ من مادتي الرمادية؟ علاقة الكاتب مع المال إذا لم تكن علاقة كرامة فهي علاقة إهانة.»

٨. لماذا يكتبون إذن؟

تعبّر أرباح المبيعات، مهما كان حجمها، عن نجاح الرواية عند قرائها. على قلته، يعكس اكتساب المال للمؤلفة استطاعتها إخراج كلامها إلى العلن وإيصاله للناس. القضية قضية تحرّر عن الكلام السائد. وبالفعل تعيش النساء ممارسة الكتابة كأنها اختراق للسائد. تخترق المرأة الحيز المحدود المتاح للتعبير عن الذات، في إطار ثقافة تقدّس الكتاب والكلمة الرصينة والهادفة.

«اتذكر أنه حين وددت النشر للمرة الاولى أحسست انني اخلع ملابسي، لأنني آتية من مجتمع محافظ، لا بد من أن تحمل الكتابة رسالة، والا فلماذا نكتب. بالنسبة لوالدي الكتابة كانت تحكي عن الوطن والكرامة.» (إيمان يونس)

«تكلّم يعني إفعال» والعبارة لسارتر^(٣٠). تلتزم النساء قضية التعبير عن لغة

(٣٠) "Parler c'est agir" . JP Sartre. Qu'est ce que la littérature ? . Paris : Gallimard, 1948. p.29.

المرأة. تقول علوية الصبح: «هاجسي أن أذهب إلى مجالات فعلاً مسكوت عنها، بأسئلتها وبمعالجتها وإضاعتها، بحفرها. الرجل كتب يحكي عن المرأة، وأتصور أنه حكى استيهاماته حول المرأة وليس حقيقتها. هي موضوع جنسي له. صادر كلامها ولغتها ومشاعرها. وهي تتعاطى مع حالها وجسمها ومعه مثل ما علمها هو. هو سيدها. وعبرت عن حالها بلغته، ورأت جسدها مثل ما يريد هو... عندما تبحثين عن لغتك الخاصة. تذهبين إلى المكان الأصعب، مكان عار يجب البحث عنه، وهو صعب، لأننا تماهينا باللغة التي علمنا إياها الرجل. أحاول أن أنكش لغتي».

تقول أيضا: «ليش المرأة لا تنطق، لذلك كتبت بالعامية، أريد أن تنطق المرأة. أن تحكي بشكل حقيقي وصادم، بدنا نحكي هيك، حتى لو اننا بشعين وصغار... لازم المرأة تحكي وتبحث عن لغتها، ليس ان تكرر كلاماً موجوداً في أدب الرجال».

وإن بحثنا عن فرق بين الجنسين، نجده في اندفاع الروائيات المعلن نحو التعبير كفعل تحرر. «فالكتابة خرق للسائد، وهي بالنسبة للنساء خرق مزدوج».^(٣١)

وكما الكتابة اختراق للسائد وفعل تحرر، فالقراءة أيضاً اختراق وتحرر في محيط يخضع للرقابة ويطغى عليه القمع. لذلك تفرح علوية الصبح: «يسعدني أن تنسخ كتبي في العراق، بسبب الأزمة الاقتصادية وكذلك في عدد من الدول العربية، اليمن، الأردن، حيث كتبي ممنوعة، أو في فلسطين، يتداول الناس نسخاً مسحوبة على آلة استنساخ ليقروها. وهذا ما يسعدني».

لا فرق على هذا الصعيد بين الروائي والروائية. إذ يفرح الياس خوري حين تنسخ كتبه في فلسطين، أو تستوحى المسرحيات من نصوصه. فالأولوية بالنسبة للمؤلف أن ينتشر الكتاب ويلاقي قراءه، ولو على حساب حقوقه المادية. ويستمر المؤلفون في الكتابة مع أنهم على يقين أن حقوقهم المادية سوف تنتهك. «سأكتب وأنا واثقة بأنني سأنهب» تؤكد أحلام مستغانمي. الأجل بالنسبة لهم أن يلتمسوا وقع الشخصيات التي ابتكروها على الجمهور، وان يكتشفوا البعد الإنساني العام في كتاباتهم من خلال ردود فعل الجمهور الأجنبي.

وتشكل ردود الفعل في الوسط المثقف الأجنبي وكذلك إقبال القراء عامة،

"L'écriture est toujours une transgression et pour une femme l'écriture est une double transgression". Paule Constant. Op.cit

تتويجاً لمكانتهم في المجال الأدبي، يكتسب من خلالها المؤلفون «رأسماً رمزياً» لا يقاس بمردود مادي مباشر، وإنما يكون داعماً لاستمرارهم في الكتابة. تقول ايمان يونس: «حين تتم ترجمة الكتاب ويذهب الى قارئ لا تعرفينه ولم تربه يوماً، وحين يتصل بك عبر البريد الالكتروني ويسألك أين يجده، حينها تكونين تبين شيئاً غير منظور الا أنه شديد الأهمية، أن يقرأك شخص لم يرَ وجهك يوماً ويقوم بردة فعل، هذه هي الثروة ليس بالارقام ولا بحساب المصرف.»

وتقضي المكانة الأدبية للعمل أن يستقل تماماً عن أي اعتبارات خارجة عنه، وبالأخص الجمهور ومتطلباته. فيميّز بالتالي بين الأعمال الأدبية التي تكوّن جمهورها والأعمال التي تستجيب لجمهورها.^(٣٢) لذلك يؤكد المؤلف أن لا سلطة لديه على مصير كتابه. يقول الياس خوري: «العمل الأدبي ملك القراء، القراءة متنوّعة والقارئ حرّ». وللكتاب حياته الخاصة وعليه أن يلقي طريقه وحده. «الكتاب عندما ينشر يستقل عني. إحساسي أن لا علاقة لي فيه، لا علاقة لي بصناعته، بخلقه. كنت مسيطرة عليه، كان تحت سلطتي، خلص، صار بيني وبينه مسافة، هو بدوّ يلاقي طريقه، هو بدوّ يعيش، بدوّ يموت... ما عاد فيني أعمل له شيئ. بعد النقطة الاخيرة ما بقدر أعمل شي. لذلك أخاف كثيراً من النقطة الاخيرة. هي التي تعمل مسافة. ليس المسافة، بل الترحال... تتساءلين هل هو قادر على الدفاع عن نفسه، أن يعيش؟ أو يموت؟ لأن إحساسي أن كل قارئ يعطيه حياة إذا أحبّه. يأخذ حيوات كثيرة من القراء إذا أحبوه.» الكلمات لعلوية الصبح، وكأنها تتكلم عن ابن لها.

٩. الاستقلال عن سوق الكتاب

يجد المؤلف نفسه مشدوداً بين طرفين متناقضين: أن ينال النجاح في الجمهور وأن يكون - كأديب - مستقلاً تماماً عن متطلبات سوق الكتاب. يستخدم الناشر عبارة «سوق الكتاب»، إذ يدخل السوق في استراتيجيتهم ويكون الهدف النهائي من صناعته، ولا يتكلم المؤلفون إلا عن «الجمهور» ويستبعدون أي رضوخ لضرورات السوق. فعلاقة المؤلف بسوق الكتاب علاقة ملتبسة، إذ: «تحول الأدب الى مكان شرح عميق حول القيمة المزدوجة للمنتج الأدبي، القيمة الرمزية والقيمة

Pierre Bourdieu. Le point de vue de l'auteur. In : Les règles de l'art. Paris : Seuil, 1992. (٣٢) p302-303

التجارية»^(٣٣). ويتجسد الشرخ في وجود دائرتين مستقلتين: دائرة الإنتاج الضيق، التي تحاكي المثقفين، ودائرة الانتاج الواسع حيث يسيطر القانون الاقتصادي استجابة لطلبات الجمهور، كما يميّزها بورديو.^(٣٤)

ويهدف الأدب (من الدائرة الضيقة) إلى الاستقلال عن الإنتاج الجماهيري. فيسعى المؤلف إلى اعتراف النقاد وهم زملاؤه في الوسط المثقف (ses pairs)، وإلى تقييم عمله بحسب المعايير الجمالية. «لا علاقة بين النص الجيد وبيعه» بحسب إيمان يونس.

ورغم أنه من الطبيعي أن يطمح الروائي الى اكتساب جمهور واسع من القراء، يخشى من تأثير قوانين السوق على المحتوى فيتجنّب الرضوخ لاعتباراتها، ويصب اهتمامه على أسلوب التعبير. لذلك يقول حسن داوود: «الشهرة مرتبطة بماذا نكتب وليس كيف». تواجه كلمتي شهرة ونجاحاً بحذر وشكوك، فقد توحى أن المؤلف استجاب لمتطلبات الجمهور العريض. هذا يظهر من خلال ما يقوله رشيد الضعيف: «لا أحب كلمة نجاح، يهمني حسن استقبال القارئ، ليس الكم». ويتابع «الكتابة مهنة والشهرة مهنة، أنا لا أمتهن الشهرة، لا يمكن أن تكوني شديدة الشهرة دون أن تمتهني صناعة الشهرة».

وامتهان الشهرة أن يعالج الكاتب المواضيع الرائجة، المطلوبة من الجمهور. الياس خوري: «إنذا فكّرت بالجمهور تتنازل». ولما كانت السوق الغربية، أي سوق الترجمات، تأتي بمردود أفضل من مردود المبيعات في السوق العربية، نرى المؤلف يحذر من الجمهور الغربي ويمتنع عن التفكير به: «يريد منا الأجنبي أشياء محددة وهي مسائل متخيلة عن مجتمعاتنا. يرحّب بالكتاب الذي يدلّ على غرابة مجتمعا». (حسن داوود). «الاهم أن لا تقعي بالصور النمطية التي يريدونها» (علوية الصبح).

تحوّل الشهرة اسم المؤلف إلى «رأسمال رمزي» وهو لا شك أهم من الرأسمال المالي الذي يمكن للمؤلف، مهما اشتهر، أن يكونه! يُستغل الاسم كما

«La littérature devient le lieu d'un clivage profond autour de la double valeur du produit littéraire, marchande et symbolique ». Jacques Dubois. L'institution de la littérature. Bruxelles : Labor, 1983.

Pierre Bourdieu. Le marché des biens symboliques. In : Les règles de l'art. Paris : Seuil, (٣٤) 1992, p202.

تستغل الأعمال نفسها والأذى أكبر لأنه يتعدى عملاً واحداً أو كتاباً واحداً نسخه المزورون وباعوه في الأسواق. إنه استغلال سمعة وشخصية المؤلف ويطال حياته ومستقبله.

« يعمل المرء ليكون له اسم ثم سيعمل اسمه لأجله. أنا الآن أعيش من اسمي، لا أعيش من كتاباتي. يستباح اسمي». تشعر أحلام مستغانمي أن النجاح لن يجر عليها إلا المزيد من الاستغلال. فهذا الصحفي يأخذ منها مقابلة، ثم يبيعها الى ثلاث مجالات مختلفة. وبعد سرقة حقوقها المادية من خلال قرصنة أعمالها، تتعرض حقوقها المعنوية، المرتبطة باسمها وسمعتها وصورتها، إلى تعدد متكرر. هكذا فالنجاح والشهرة يتحولان الى لعنة: «يكرّمك وهو يسرقك... يستباح اسمي. تباع مقابلات باسمي وأنا لم أعملها... تشعرين أنك ملك مشاع». وتزيد في معرض الحديث عن نزار قباني ومحمود درويش: «الكاتب حتى حياته تنهب... هل رأيت أمة لا تدافع عن حياتك الخاصة؟ بأي حق يأتي واحد ويكتب قصتك، ويستعملها هو ويكتبها حسب مزاجه هو. هل من عملية نصب أكبر من هذه؟ أن تُسرق حياتك بعد أن سُرق منك جهدك ومالك عندما كنت حية. أنا وصلت إلى قناعة أن هناك لعنة نجاح. إنها لعنة أن تنجحي في العالم العربي!»

خاتمة

يبقى الإنتاج الروائي العربي خارج الدائرة الواسعة للاستهلاك الثقافي حتى حين يستغل الإنتاج الجماهيري أسماء الأدباء. تُطرح للاستهلاك الجماهيري المسلسلات التلفزيونية عن حياة شاعر والمقالات الصحفية عن الروائية المشهورة، دون تأثير يذكر على انتشار الإنتاج الأدبي نفسه لهذا الشاعر أو لهذه الروائية. فلا المسلسل يزيد مبيعات ديوان الشاعر بشكل ملحوظ ولا المقال الصحفي يزيد الطلب على الرواية نفسها! وعلى كل حال لا يستفيد صاحب الشأن (الشاعر والروائية) من أرباح المسلسل ومن عائدات المجلة. كما لا تُدفع لهم الحقوق المادية من جراء استخدام اسمهم ولا تحترم حقوقهم المعنوية. وتعني هذه حق المؤلف أن يقرّر متى وأين وكيف تنشر أقواله، وحقه في صدق الكلام الذي ينسب إليه وحقه في الحفاظ على سمعته وصورته عند القراء. وهي كلها تنتهك بشكل يومي. فهل السبب أنها مفاهيم جديدة على ثقافتنا؟ لقد ظهرت فكرة الملكية الفكرية في الغرب وتطورت مع

تغيير اجتماعي أعطى للفرد شخصية قانونية وسياسية مستقلة. فهل ما زلنا في بلادنا بعيدين عن هذا الطور؟ أم أنها حالة خاصة بالإنتاج الأدبي وحده كونه محصوراً في إطار الإنتاج الضيق، طالما الجمهور القارئ لم يشكل سوقاً مهمة، والناس بعيدة عن القراءة؟

لقد تبين لنا من خلال المقابلات أن الروائيين جميعهم مستعدون للتغاضي عن حقوقهم المادية في سبيل إقبال القراء على أعمالهم ولو بنسخ مزوّرة. يهتمون بالجمهور القارئ ولا يسألون عن سوق الكتاب. اسم المؤلف وسمعته وتقدير الجمهور المثقف له يشكلون رأسماله الرمزي الذي لا يقاس بمردود مادي مباشر، والذي له أولوية في تأسيس حياة أدبية طويلة الأمد. وعلى كل فهذا قانون المنتجات الثقافية حيث القيمة المعنوية لا تقاس بالقيمة التجارية المباشرة. ولا فرق على هذا الصعيد بين رجل وامرأة. تجمعهم المعاناة في الأسواق العربية من تزوير وغياب الشفافية وصعوبة التوزيع والحواجز الجغرافية والسياسية والاجتماعية التي تعيق وصول الكتب إلى من يستطيع أن يقرأها.

ولكن صناعة الكتاب صارت عالمية مثل الصناعات الثقافية الأخرى، بفضل الترجمات التي تتخطى حدود اللغة. فإن كانت الأسواق العربية تعاني من كل هذه العقبات، يمكن للكاتب أن يلقي النجاح في الأسواق العالمية، حيث نتائج المبيعات أفضل من تلك التي تتحقق في الأسواق العربية. ولا شك أن الرواج في الأسواق الغربية يشكل تحدياً للمؤلف، لما يعنيه من نجاح للكاتب في محاكاة اهتمامات غريبة عنه وثقافات مختلفة. وكلي لا يكون الرواج رضوخاً لمتطلبات السوق وللذوق الغربي، عليه أن يبني على القيمة الأدبية العالية القادرة على منافسة الأدب العالمي، وأن يتخطى الرقابة الذاتية التي اعتاد عليها في البلاد العربية، وأن يركز على البعد الإنساني الشامل لمضمون الكتابة. وهذا ما استطاع المؤلفون اللبنانيون أن يحققوه، وهو ما ساعدهم على الاستمرار في عمل لا شك فيه الكثير من المعاناة في المحيط العربي.

وإن بحثنا عن فارق بين الجنسين، التمسنا عند النساء تعبيراً لمعاني الكتابة كفعل تحرر واستقلالية وإثبات الذات لم يعبر الرجال عنه بهذا القدر من الحماس. وكأن المرأة تكتشف عالماً أبعدها عنه الرجل طويلاً. تتكلم النساء كأنهن يخترقن السائد ويخرجن شخصياتهن إلى العلن. فكما أقصين عن السلطة والمال والتملك،

أقصد عن التعبير وسلبين الكلام. تثبت الروائيات وجودهن في حقل الإبداع وقدرتهن على التعبير المستقل، وحقهن في التمتع بمردوده المادي والمعنوي معاً. وتحاول أحلام أن تدافع عن حقوقها وعن اسمها من المستغلين والمسيطرين على سوق الكتاب، وتؤكد إيمان على أهمية أن تقول المرأة كيف تعيش في محيطها الذكوري وتبحث علوية عن لغة المرأة الخاصة فتستخدم في الكلام عن كتبها تعابير الأمومة نفسها، وتفرح بالمال الذي يأتي به «مثل ما تفرح من هدية ابنها» حين يتلقى أول معاش في حياته المهنية! وأخيراً:

«أول ما أنتهي أشعر بالوحشة، بفراغ فظيع، لا أعرف لماذا أصير أغني أو أقول شعراً، بعد النقطة الأخيرة... مثل واحد فاضي، حزين وبالوقت نفسه فرحان، وبالوقت نفسه وحيد. مشاعر متناقضة، لا اعرف إذا شيء يشبه اكتباب ما بعد الولادة.» (٣٥)

قائمة المصادر

- Bourdieu, Pierre. L'invention de la vie d'artiste. In : Actes de la recherche en sciences sociales, 1975, vol. 1, n 1-2, pp 66-76.
- Bourdieu, Pierre. Le marché des biens symboliques. In : Les règles de l'art : Genèse et structure du champ littéraire. Paris : Seuil, 1992. p201-244
- Bourdieu, Pierre. Le point de vue de l'auteur. In : Les règles de l'art. Paris : Seuil, 1992. p298-389
- Chateau, Dominique. Qu'est-ce qu'un artiste. Rennes : Presses universitaires de Rennes, 2008.
- Constant, Paule. Qu'est-ce qu'une femme qui écrit ? www.pauleconstant.com/docs/UFQE.pdf
- Dubois, Jacques. L'institution de la littérature. Bruxelles : Labor, 1983.
- Hassan, Kadhim Jihad. Le roman arabe. Arles : Actes Sud, 2006.
- Kristeva, Julia. Le génie féminin, vol. 3 Colette. Paris : Gallimard, 2004. (Folio).
- Laurenson, D. F. A Sociological Study of Authorship. In : The British Journal of Sociology, Vol. 20, No. 3 (Sep., 1969).
- Franck Mermier. Le livre et la ville.- Arles : Actes Sud, 2005.
- Mollier, Jean-Yves. Les femmes auteurs et leurs éditeurs au XIXe siècle : un long combat pour la reconnaissance de leurs droits d'écrivains. Revue historique n 638 2006/2.
- Jean Yves Mollier. Où va le livre? Edition 2007-2008. Paris : La Dispute, 2007.
- Reflections on a topos of modern auctoriality. In : Revue de synthèse, 2007, vol. 128, no 1-2 , pp. 51-70.
- Robbins, Sarah. Distributed Authorship : A Feminist Case-Study Framework for Studying Intellectual Property. *College English*, Vol. 66, No. 2 (2003) pp. 155-171.
- Sartre, Jean Paul.- Qu'est-ce que la littérature ? Paris : Gallimard, c.1948, 1972.
- Sell, S. E. and May, C. "Forgetting History is not an Option! Intellectual Property, Public Policy and Economic Development in Context". Paper presented at the annual meeting of the International Studies Association, Town & Country Resort and Convention Center, San Diego, Cal., 2006. http://www.allacademic.com/meta/p99750_index.html
- Turnovsky, Geoffrey. « Vivre de sa plume » réflexions sur un topos de l'auctorialité moderne: «To live by one's pen ». Revue de synthèse, 2007, vol. 128, no 1-2 (273 p.) pp. 51-70

Verzola, Roberto. Towards a political economy of information. Quezon city, Philippines, Foundation for Nationalist Studies, 2004.

Yavuz, Perin Ernel. Présentation du livre « Profession : créatrice. La place des femmes dans le champ artistique » / sous la direction de Stéphanie Lachat, Agnese Fidecaro. In : Cahiers du Genre, n43, 2007.

صادر، راني. المرجع في اجتهادات الملكية الفكرية. - بيروت : صادر، ٢٠٠٦.

المال والنزاعات الزوجية

تمهيد:

إزاء المال كل منّا له ميوله وأهدافه
وتوجّهاته،
إزاء المال كلّ منّا له دوافعه وتصرفاته
وسلوكاته،
إزاء المال كل منّا له معتقداته وتوقّعاته،
وعليه فالبعض يعتبره هدفاً بحدّ ذاته والبعض
الآخر يعتبره وسيلة.

مشكلة الدراسة:

كون المال عصب الحياة وشريانها فهو
عامل مؤثّر وفاعل في الحياة الزوجية.
فما هو إذن أثر المال في العلاقة الزوجية؟
هل المال يحسّن العلاقة الزوجية أو إنه
يوتّرها؟
هل لاستقلال المرأة المالي اثر في
النزاعات المالية بين الزوجين؟
وهل للمستوى التعليمي _ الاقتصادي
للزوجة العاملة وغير العاملة أثر مباشر في
النزاعات المالية بين الزوجين؟
هل التحضير المالي قبل الزواج يخفف
من حدة النزاعات المالية بين الزوجين؟

عائشة حرب

فرضيات الدراسة:

المال سلاح ذو حدين: إيجابي وسلبي، وهذا مرهون بمستعمله لجهة كيفية الاستفادة منه أو سوء التعاطي به!

من جهة، المال نعمة من نِعَم الحياة، نسعى جميعاً جاهدين للحصول عليه كي نؤمن به طلباتنا ونلبّي رغباتنا، ونقضي حاجتنا. ومن جهة ثانية يدخل المال عاملاً مشرذماً للعلاقة الزوجية التي تصاب بالتوتر والنكد والكدر والنزاعات والشجار المتكرّر الذي ينهي أحياناً الحياة الزوجية بالطلاق. ما يهمنا هو تسليط الضوء على الوجة السلبية كي نتقصى العوامل الفاعلة في النزاعات المالية بين الزوجين.

- تشتد النزاعات المالية بين الزوجين عندما تزاوّل الزوجة عملاً تكسب منه.
- ترتفع حدة النزاعات المالية بين الزوجين كلما انخفض مستوى الدخل الاسري وتراجع كلما ارتفع مستوى الدخل الاسري.
- تحدثم الخلافات المالية بين الزوجين في السنوات الاولى من الزواج.
- تخرق النزاعات المالية بين الزوجين كل الحدود حتى المستويات التعليمية العليا.

- ترتفع وتيرة المشاجرات المالية بين الزوجين لدى الفئات التي بحثت في موضوع المال ومسائله وقضاياها في فترة ما قبل الزواج بشكل عابر.

الدراسات السابقة^(١):

قبل التحقق من صحة هذه الفرضيات لا بدّ من التوقّف عند بعض الدراسات الأجنبية التي تدور في فلك المال والزواج مع الإشارة إلى أن المكتبة العربية تفتقر إلى دراسات مماثلة.

«المال والزواج»:

موضوع دراسة أجريت في مدينة «لوس أنجلوس» الأميركية في العام ١٩٩٩ تؤكّد على ضرورة البحث في موضوع المال قبل القبول بالزواج فجاء شعارها «تحدثوا تحدثوا عن المال قبل أن تقولوا نعم قبلت الزواج». وهي دراسة موجهة إلى كل ثنائي مقبل على الزواج.

«أثر المال على الزواج»:

موضوع دراسة أجريت في «مركز الزواج والعائلة» في جامعة كرينغتون في أميركا طُبِّقت على عيّنة من / ٢٠٠٠ / مستجوب ومستجوبة (رجل وامرأة) خلص فيها خبراء العلاقات الزوجية والخبراء الماليون إلى أنه: على «طرفي الزواج» مناقشة المسائل المالية قبل الزواج إذ أن عدم الإتفاق على هذه المسائل كثيراً ما يؤدي إلى الطلاق فيما بعد.

«الزواج والمصرف»:

موضوع دراسة أجريت من قبل جمعية «بريدال Bridall» للاستشارات الزوجية، أظهرت أن ٦٧٪ من الأزواج يؤمنون أن أكثر المشاكل الحادة التي يواجهونها خلال السنة الأولى للزواج هي «المصرف».

كما أظهرت أن معظم المشاكل تنجم عن:

- الزوجين غير المنسجمين مالياً، بمعنى أن أحد الطرفين مسرف والآخر مقتّر.
- كون أحد الطرفين يريد التحكّم بكل المال.
- كون الأمور المالية تبقى سرّية.
- المداخل تبقى منفصلة عن بعضها البعض لدرجة أنك تحسبهم زملاء في بيت واحد وليسوا أزواجاً.

منهجية الدراسة:

بالعودة إلى الفرضية وللتحقّق من صحتها ومصداقيتها فقد أجريت دراسة^(٢) حول «العلاقة المالية بين الزوجين» أظهرت بوضوح أثر المال في الحياة الزوجية وخاصة في الجانب السلبي منه الذي تجسّد في النزاعات الزوجية من جهة وبالطلاق من جهة ثانية.

طبّقت الدراسة الميدانية من خلال استطلاع للرأي على عيّنة ضمت / ١٠٠٠ / زوجة، ٥٠٠ منها زوجة عاملة مقابل ٥٠٠ زوجة غيرعاملة (أي ربّة منزل). توزّعت العيّنة على كافة مناطق بيروت الكبرى بمعدّل الثلث شرقاً وغرباً والثلث

(٢) حرب، عائشة، «العلاقة المالية بين الزوجين». بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧.

الثاني من ضاحيها الجنوبية والثلث الأخير من منطقة الممتن. وقد شملت العيّنة مختلف الطوائف والشرائح العمرية الزوجية والمستويات التعليمية الثقافية والاقتصادية والمهنية.

وما المقارنة بين المرأة العاملة وغير العاملة في مواقفهما، وتصوراتهما، واتجاهاتهما وسلوكياتهما وممارساتهما المالية إلا لإظهار موقع المرأة العاملة من المال والقضايا المالية أي لإبراز أثر الاستقلالية المالية للمرأة على العلاقة الزوجية.

أما عن الأداة البحثية التي اعتمدت فهي الاستمارة التي شملت / ٤٥ سؤالاً/ توزعت في محاور تلقي الضوء على المال وأثره في الحياة الزوجية كاشفة عن إيجابياته وسلبياته بغية تعزيز العلاقة الطيبة وترميم العلاقة المتوترة وتصويبها.

أهم محدّدات العيّنة: دراسة مقارنة بين الزوجة العاملة وغير العاملة:

تتناول هذه الدراسة الاحصائية هوية افراد العينة (النساء العاملات وغير العاملات) التعليمية والاقتصادية وعمر الزواج لديهن لما لهذه العوامل من تأثير مباشر في الحياة المالية بين الزوجين مع الاشارة الى ان الدراسة المقارنة ستتناول أكثر من جانب (السلوك المالي: وظيفة المال، التحضير المالي قبل الزواج)

اقتصرت الدراسة اذن على تحديد العوامل التالية:

عدد سنوات الزواج.

المستوى التعليمي للزوجة.

المستوى الاقتصادي.

اكدت الدراسات الاجنبية التي بحثت في موضوع «المال والزواج» ان السنوات الاولى للزواج تكون مشحونة بالخلافات على كل انواعها وخاصة المالية منها؛ ومرد ذلك تفاعل الطرفين ببعضهما من هنا جاءت أهميته كعامل متغير في الحياة الزوجية.

ما هو عمر الزواج لنساء العينة العاملات وغير العاملات؟

جدول رقم (١) توزيع أفراد العينة تبعاً لعدد سنوات الزواج

الزوجة غير العاملة ٥٠٠		الزوجة العاملة ٥٠٠		الفئات العمرية للزواج
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	عدد سنوات الزواج
٪٤	٢٠	٪١٧	٨٥	٥ - ١
٪٥	٢٥	٪١٠	٥٠	١٠ - ٦
٪١٣	٦٥	٪١٢	٦٠	١٥ - ١١
٪٩	٤٥	٪٢١	١٠٥	٢٠ - ١٦
٪١٤	٧٠	٪١٨	٩٠	٢٥ - ٢١
٪١٥	٧٥	٪١٣	٦٥	٣٠ - ٢٦
٪١٨	٩٠	٪٤	٢٠	٣٥ - ٣١
٪٢٢	١١٠	٪٥	٢٥	٤٠ - ٣٦
٪١٠٠	٥٠٠	٪١٠٠	٥٠٠	المجموع

يتبين من هذا الجدول أن نسبة الزوجات الشابات العاملات أعلى من نسبة الزوجات الشابات غير العاملات، وهذا يعني إقبال الرجال على الزواج من الفتاة العاملة أكثر مما هو عليه من غير العاملة. وهذا يصور لنا مدى اقتناع الرجل بعمل المرأة.

كذلك يظهر لنا كيف أن النسب في جدول الزوجة العاملة تصاعدي وفي جدول الزوجة غير العاملة تنازلية أي التوجه العام نحو مزاوله المرأة لعمل ما، وتعزيز إنتاجيتها واستقلاليتها المالية. أما عن اتخاذ عدد سنوات الزواج كمييار للحكم على مدى صوابية العلاقة المالية بين الزوجين أو توترها في بدايات الحياة الزوجية ولإظهار مدى تأثير سنوات الزواج في التكيف مع السلوكات المالية المتبادلة من قبل الطرفين فسنبيئه لاحقاً ضمن الدراسة الإحصائية الترابطية.

ماذا عن المستوى التعليمي لأفراد العينة؟

جدول رقم (٢) توزيع أفراد العينة تبعاً للمستوى التعليمي

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		المستوى التعليمي
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	
٪٢١	١٠٥	٪٢	٨٠	الابتدائي
٪٢٧	١٣٥	٪٦	٣٠	المتوسط
٪٣٥	١٧٥	٪١٢	٦٠	الثانوي
٪٣٥	٧٥	٪٤٥	٢٢٥	الجامعي
٪٢	١٠	٪٢٥	١٢٥	الدراسات العليا
صفر٪	—	٪١٠	٥٠	الدكتوراه
٪١٠٠	٥٠٠	٪١٠٠	٥٠٠	المجموع

يظهر الجدول مقارنة بين المستوى التعليمي للزوجة العاملة و المستوى التعليمي لدى الزوجة ربّة المنزل.

يظهر لنا الجدول انه كلما ارتفعنا في المستوى التعليمي ارتفعت معه نسبة النساء العاملات (٪٤٥) جامعي مقابل (٣٥ ٪) في فئة النساء غير العاملات كذلك الامر في مستوى الدراسات العليا الذي يشكل في فئة الزوجات العاملات ١٠ أضعاف مما هي عليه لدى النساء ربّات البيوت اما حملة الدكتوراه فتقتصر على فئة الزوجة العاملة .

باختصار يظهر الجدول الخط التصاعدي للمستوى التعليمي للزوجة العاملة بينما الخط تنازلي للزوجة ربّة المنزل.

ماذا عن الوضع الاقتصادي لعينة البحث؟

ماذا عن الراتب أو المدخول الشهري للثنائي العامل ولزوج ربّة المنزل؟

جدول رقم (٣) توزيع أفراد عينة البحث حسب المداخل الشهرية

زوج ربّة المنزل		الزوج		الزوجة العاملة		المستوى	فئات المدخول الشهري
%	العدد الفعلي	%	العدد الفعلي	%	العدد الفعلي		
٪٢	١٠	٪٥	٢٥	٪٨	٤٠	متدني	٥٠٠٠٠٠٠
٪٨	٤٠	٪١٢	٦٥	٪٢٧	١٣٥	تحت الوسط	-٥٠٠٠٠٠١ ١٠٠٠٠٠٠٠
٪٢١	١٠٥	٪٢٢	١١٠	٪٣٤	١٧٠	وسط	-١٠٠٠٠٠٠١ ١٥٠٠٠٠٠٠
٪٣٢	١٦٠	٪٣٥	١٧٥	٪١٦	٨٠	فوق الوسط	-١٥٠٠٠٠٠١ ٢٠٠٠٠٠٠٠
٪٢٠	١٠٠	٪١٢	٦٠	٪٩	٤٥	مريح	-٢٠٠٠٠٠٠١ ٢٥٠٠٠٠٠٠
٪٧	٣٥	٪٦	٣٠	٪٣	١٥	مرتفع	-٢٥٠٠٠٠٠١ ٣٠٠٠٠٠٠٠
٪١٠	٥٠	٪٧	٣٥	٪٣	١٥	مرتفع جداً	٣٠٠٠٠٠٠٠
١٠٠	٥٠٠	١٠٠	٥٠٠	١٠٠	٥٠٠		المجموع

يظهر الجدول ما يلي:

١. أعلى نسبة في فئة المدخول المتدني تعود إلى الزوجة العاملة أي ٪٨ بالمقارنة مع ٪٥ التي تعود للزوج و ٪٢ لزوج ربّة المنزل.

٢. تشكّل نسبة ٪٢٧ التي تعود لفئة المدخول تحت الوسط لدى الزوجة

العاملة ضعفي تقريباً ما هي عليه أي ١٣٪ لدى زوج الزوجة العاملة و ٣ أضعاف ٨٪ لدى زوج ربّة المنزل.

٣. أما نسبة فئة المدخول فوق الوسط ١٦٪ التي تعود للزوجة العاملة فتشكّل حوالي نصف ما هي عليه لدى زوج الزوجة العاملة (٣٥٪) وما هي عليه لدى زوج ربّة المنزل (٣٢٪).

وهذا ما يؤكّد أن غالبية الأزواج الذكور تتقاضى رواتب أعلى من رواتب النساء.

٤. ما هو ملفت أن أعلى نسبة في فئة الدخل الشهري المريح ٢٠٪ تعود إلى زوج ربّة المنزل، وإن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أن ذوي الدخل الشهري المريح يحولون دون مزاوله المرأة لعمل ما تكسب منه على اعتبار أن العمل بذهنية البعض هو للكسب المادي دون النظر إلى المكاسب الفكرية والنفسية والاجتماعية التي يمكن أن تحصّلها المرأة من مزاوله عمل خارج المنزل.

وأشير في هذا المضمار أن نسبة لا يُستهان بها أي ١٢٪ من نساء العينة ككل يجهلن «بدقة» ما يدخله الزوج من راتب أو مدخول حرّ أو من مكافأة أو غيره. أما ما صرّحن به فكان على الوجه التقريبي. وتوزّعت هذه النسبة على (٤٪) لدى الزوجات العاملات و (٨٪) لدى الزوجات غير العاملات.

وفي محل آخر أخبرت بعضهن أنهن يتعاملن مع أزواجهن إزاء المداخل «بالتداين» أي من احتاج استدان من الآخر، ودفع له فائدة في حال تأخير الاستحقاق كما هو الحال تماماً في المصرف.

وظيفة المال في العلاقة الزوجية

من المفيد ان نسلط الضوء على رؤية الزوجة العاملة وغير العاملة لوظيفة المال ودوره في العلاقة الزوجية وتصورها لفعاليتها المباشرة الايجابية منها والسلبية

هذا ما يظهره الجدول التالي:

جدول رقم (٦) توزيع أفراد العينة تبعاً لوظيفة المال في العلاقة الزوجية

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		وظيفة المال
%	العدد الفعلي	%	العدد الفعلي	
٪ ٣٥	١٧٥	٪ ٢١	١٠٥	مقياس للحكم على المشاركة الفعلية بينهما
٪ ١٢	٦٠	٪ ١٧	٨٥	مقياس التعاطف أو التودد
٪ ٢٥	١٢٥	٪ ١٢	٦٠	مقياس للحكم على الأنانية
٪ ٢٠	١٠٠	٪ ٣٥	١٧٥	سبب من أسباب النزاعات الزوجية
٪ ٨	٤٠	٪ ١٥	٧٥	سبب من أسباب الطلاق
-		-		أمر ثانوي في آخر الأولويات
٪ ١٠٠	٥٠٠	٪ ١٠٠	٥٠٠	الجموع

ماذا يظهره الجدول ؟

- من المستحيل (لدى الفئتين) ان تعتبر وظيفة المال أمراً ثانوياً في العلاقة الزوجية
- تتعدد وظائف المال وتتنوع بين ايجابية وسلبية .
- تتسموظيفتان الأوليان بالاجابية وقد جاءت بمعدل ٪٢٨ لدى الزوجة العاملة مقابل ٪٤٧ لدى الزوجة غير العاملة.
- وتتسم الوظائف الثلاث الباقيات بالسلبية وجاءت بنسبة ٪٦٢ لدى الزوجة العاملة مقابل ٪٥٣ لدى الزوجة غير العاملة.
- ما هو ملفت ان النظرة السلبية لوظيفة المال في الحياة الزوجية هي أكثر طغياناً لدى الزوجة العاملة مما هي عليه لدى الزوجة غير العاملة بدليل ان المال (سبب من اسباب النزاعات والطلاق) جاء بمعدل ٪٥٠ لدى الزوجة العاملة مقابل

٢٨٪ لدى الزوجة ربة المنزل (الاولى ضعف الثانية) فالى اي مدى يتسبب المال بالنزاعات الزوجية؟ وما هي اسبابها؟

المال والنزاعات الزوجية

يعتبر روث غراهام «المال اساس نجاح الحياة الزوجية او فشلها» اذ انه يشبه المال بحقل الغام كبير بين الزوجين .

ويشدد غراهام على ضرورة تحصيل العلاقة المالية من خلال قوله (ان السياج الجيد يزيد المحبة بين الجيران).

يقول خبراء الزواج في اميركا:

- ان اكثر من نصف المتزوجين في اميركا يتشاجرون بسبب المال.

- صنف المشاكل المالية بين الزوجين من اهم الاسباب الداعية الى عدم الوفاق بين الزوجين وتؤدي في اكثر الاحيان الى الطلاق(تكلموا عن المال قبل الزواج) دراسة جامعة فلوريدا .

ما هو وضع نساء العينة العاملات وغير العاملات ازاء النزاعات المالية؟ كمّاً ومدى؟ هذا ما سيبينّه لنا الجدول التالي:

جدول رقم (٧) توزيع أفراد العينة تبعاً لتكرار النزاعات الزوجية

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		النزاعات الزوجية بسبب المال
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	
١٣٪	٦٥	٣٨٪	١٩٠	كثيراً كثيراً
٥٩٪	٢٩٥	٤٧٪	٢٣٥	أحياناً
٣٨٪	١٤٠	١٥٪	٧٥	أبداً
١٠٠٪	٥٠٠	١٠٠٪	٥٠٠	المجموع

يظهر الجدول حجم الخلافات الزوجية التي يتسبب بها المال والمسائل المالية لدى الفئتين بشكل عام بمعدل ٨٥٪ لدى الزوجة العاملة مقابل ٧٢٪ لدى الزوجة غير العاملة .

يهمنا من هذا الجدول أن نظهر أن نسبة النساء العاملات اللواتي يتشاجرن كثيراً كثيراً مع أزواجهن (٣٨٪) تمثل ٣ أضعاف نسبة النساء غير العاملات (١٣٪). وهذا ما يؤكد أن وتيرة النزاعات المالية بين الزوجين تشتد وتحتدم أكثر عندما تزاول الزوجة عملاً تكسب منه . فما هي الدوافع ؟

أخيراً يجب أن تشير إلى أن غياب النزاعات المالية بين الزوجين لدى الزوجة ربة المنزل هو بمعدل ضعفين ونصف (٣٨٪) مما هو عليه لدى الزوجة العاملة (١٥٪) وهذا ما يؤكد صحة الفرضية الأولى .

أسباب النزاعات المالية:

١. يُعزى النساء العاملات هذه النزاعات المتكررة إلى سلوك الرجل أو سلوك المرأة المالي المتطرف (التقتير أو الإسراف).

جدول رقم (٨) توزيع أفراد العينة تبعاً لتوصيفها لسلوكها وسلوك الزوج المالي

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		سلوك الزوج المالي
العدد الفعلي	%	العدد الفعلي	%	
٣٤٠	٦٨٪	٢٦٥	٥٣٪	معتدل
٨٥	١٧٪	١٢٥	٢٥٪	مقتّر
٧٥	١٥٪	٦٥	١٣٪	مسرف
-	-	٤٥	٩٪	لا جواب
٥٠٠	١٠٠٪	٥٠٠	١٠٠٪	مجموع

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		سلوك الزوجة المالي
العدد الفعلي	%	العدد الفعلي	%	
٣٠٥	٦١٪	٣٨٠	٧٦٪	معتدلة
٦٠	١٢٪	٣٥	٧٪	مقتّرة
٨٥	١٧٪	٤٠	٨٪	مسرفة
٥٠	١٠٪	٤٥	٩٪	لا جواب
٥٠٠	١٠٠٪	٥٠٠	١٠٠٪	المجموع

في اي مجال السلوك المتطرف مكروه ومنبوذ، فكيف بالحري في مجال المال فلا الاسراف مقبول ولا التقتير مقبول وفي الحالتين حيد عن الخط الطبيعي في التصرف والسلوك.

وما يلفت في الجدول هو ان نسبة الزوجات المسرفات في فئة ربات البيوت (١٧٪) يساوي ضعف (٨٪) ما هي عليه لدى فئة الزوجات العاملات، وهذا ما ينبئ باعتراف الزوجة العاملة لقيمة المال وبالتالي قيمة الجهد الذي تبذله لكسبه.

٢. تُرد النزاعات المالية بين الزوجين في فئة النساء العاملات إلى الآلية المتبعة في التصرف بالمدخول كما يظهر الجدول التالي: (حصراً بالزوجة العاملة)
يعتبر خبراء العلاقات الزوجية في اميركا ان آلية التصرف بالمدخول هي عماد العلاقة الزوجية.

جدول رقم (٩) توزيع أفراد عينة الزوجات العاملة تبعاً لآلية التصرف بالراتب

الزوجة العاملة		آلية التصرف بالمدخول
%	العدد الفعلي	
٨٪	٤٠	* لي مطلق الحرية للتصرف براتبتي
١٢٪	٦٠	* أضعه وراتب زوجي ويصعب عليّ أن آخذ جزءاً منه كي لا يغضب
١٥٪	٧٥	* مجبرة أنا. أعطي مدخولي لزوجي مجبرة على ذلك كي يتصرف به كما يحلو له وإلا.....
٤٢٪	٢١٠	* بعد تأمين ما يلزم نضع جزءاً منه في حسابنا المشترك
١٤٪	٧٠	* نحدّد الأولويات ثم نتفق على وضع جزء منه في حسابنا الخاص المنفصل
٩٪	٤٥	* أخفي جزءاً منه دون علم زوجي
١٠٠٪	٥٠٠	المجموع

يظهر الجدول آلية التصرف براتب الزوجة العاملة وموقفها منها ومدى اقتناعها بها.

تتباين الآلية بين المشاركة الايجابية المالية الحقيقية والمتفق عليها من قبل الزوجين سواء أكانت الحسابات المشتركة (٤٢ ٪) ام منفصلة (١٤ ٪) .

أما الموقف السلبي للزوجات العاملات وموقفهن من آلية التصرف بالراتب والذي يتمثل بالمشاركة السلبية فجاء بمعدل ٣٦ ٪ (مجبرة انا. أخفي. أضعه وراتب زوجي) نسبة تنبئ بتحكم الزوج براتب الزوجة عدا اكره الزوج زوجته على التصرف الخاطئ (اخفاء جزء من راتبي). الى جانب ما يتبع هذا السلوك من خوف وقلق وارتباك خشية ان يدرك الزوج فعلتها ويفقد الثقة بها.
الا يجسد هذا الواقع المؤلم ذلك العنف المالي الممارس على المرأة؟

٢. ما هي مواقف النساء العاملات من مساهمتهن في نفقات المعيشة؟ الجواب في الجدول التالي:

جدول رقم (١٠) توزيع أفراد العينة تبعاً لمساهمة الزوجة العاملة في نفقات المعيشة (أكثر من اجابة)

الزوجة العاملة		الإجابات
٪	العدد الفعلي	المساهمة في نفقات المصروف
٪١٥	٧٥	* أمر مجبرة عليه
٪٣	٤٥	* من حقي أن لا أساهم
٪٢٨	١٤٠	* أمر يلحق بالمرأة الغبن
٪٢٦	١٣٠	* بدافع مني
٪٣٢	١٦٠	* أقوم بواجبي
٪٨	٤٠	* أمر متفق عليه

ملاحظة: المجموع يتخطى ال ١٠٠٪.

يطلعنا هذا الجدول على الشعور الايجابي والسلبي الذي يمكن ان يصاحب الزوجة العاملة اثناء مساهمتها في نفقات المعيشة اليومية والاسبوعية والفصلية والسنوية

يتمثل الشعور الايجابي بالاقتناع والرضا والدافعية والحماس في العمل الذي تعيشه نسبة ٦٦٪ من عينة النساء العاملات
ويتمثل الشعور السلبي بالإكراه على القيام بالعمل والظلم والجور واغتصاب الحقوق الذي تعيشه نسبة ٤٦٪ من العينة
هذا الجدول ان دل على شيء فانما يدل على :

التفاعل النفسي الذي تعيشه الزوجة العاملة ازاء مشاركتها في نفقات المعيشة بين الاقبال والرفض، بين التحرر والتبعية الخ. هذه الاحاسيس والمشاعر والمواقف جميعها تشكل الارضية التي تنبثق عنها الاجواء المالية التي تخيم على الحياة الزوجية.

لا بد ان نطلع على هذه النسب المئوية كي نتحقق من «غلغلة» النزاعات الزوجية بسبب المال وتوتر العلاقة المالية بين الزوجين من خلال ممارسات حياتية بعيدة في بعض الأحيان كل البعد عن الاقتناع بها.

٤. ومن الأسباب الداعية إلى النزاعات المالية بين الزوجين موقف الزوج المُسيء للزوجة العاملة لجهة عدم تقدير جهودها والمتمثل بتسجيل بعض المشتريات الكبرى كالشقة أو السيارة حصراً بإسمه ومنفرداً. وفي هذا الإطار نعرض الجدول التالي:

جدول رقم (١١) توزيع أفراد العينة تبعاً لتسجيل المشتريات الكبرى

الزوجة غير العاملة				الزوجة العاملة				المشتريات الكبرى
لا	الإثنان	الزوجة	الزوج	لا	الإثنان	الزوجة	الزوج	
جواب				جواب				
٪١٠	٪١٣	٪١٢	٪٦٥	٪١٣	٪٦٥	٪٧	٪١٥	شقة سكنية
٪١٢	٪٥	٪٥	٪٧٨	٪١١	٪٢٥	٪٩	٪٥٥	سيارة

يظهر الجدول ان تسجيل الشقة السكنية او السيارة باسم الزوجين تتواجد بنسبة أعلى بكثير لدى الفئة العاملة مما هي عليه لدى الفئة ربة المنزل (تقريبا ٥ أضعاف)

انه لاعتراف بالجهود التي تبذلها الزوجة أن تسجل الشقة او السيارة باسمها لدى الفئتين. إنه تقدير لها من قبل الزوج.

لكن أن تسجل هذه المشتريات الكبرى باسم الزوج فقط لدى فئة ربة المنزل يمكن لاعتبار ذلك حقاً مكتسباً له. اما ان تسجل باسم الزوج فقط لدى الفئة العاملة دون ان يشرك زوجته في جزء، فهذا هو العنف بعينه، هذا هو الظلم والاجحاف في حق الزوجة العاملة.

من الجدير ذكره هو أن الزوجة ربة المنزل هي أيضاً سيدة منتجة وليست مستهلكة بدليل أنه لو كانت تتقاضى الزوجة عن الاعمال المنزلية أجراً لتقاظت عنها مبلغاً يساوي أو يفوق ما يتقاضاه الرجل عن عمله.

واكدت الدراسة « القيمة المالية للزوجة » ان مجموع ما تتقاضاه اسبوعياً عن أعمالها المنزلية يبلغ تقريبا ٤٣١ دولارا اميركياً اي ما يعادل ١٨٧٠ دولاراً شهرياً. وهي دراسة اجريت في اميركا انتهت الى ان هذا المبلغ يتوجب على الرجل دفعه لزوجته.

انطلاقاً مما تقدم يمكن الجزم بان الزوجة العاملة تتقاضى راتباً أعلى من راتب الزوج لأنها تعمل في الداخل والخارج (توفير في الداخل وكسب من العمل)

الدراسة الترابطية وأثر المتغيرات في النزاعات:

صحيح أن الخلافات المالية بين الزوجين تطال كافة الفئات والأسر لكن بنسب متفاوتة. من هنا جاءت أهمية الدراسة الترابطية التي تلقي الضوء مباشرة على فعالية بعض العوامل المؤثرة في ظاهرة النزاعات المالية بين الزوجين وهي متنوعة ومتعددة لكن على سبيل المثال لا الحصر:

عمر الزواج.

المستوى التعليمي.

المستوى الاقتصادي الأسري.

التحضير المالي قبل الزواج.

ملاحظة: أذكر أن عينة النساء العاملات اللواتي يعشن شجاراً محتتماً ومتمكراً هن بمعدل ١٩٠ زوجة عاملة مقابل ٦٥ زوجة ربة منزل.

- هل لعدد سنوات الزواج تأثير مباشر في النزاعات المالية بين الزوجين؟
الجواب في الجدول التالي:

جدول رقم (١٢) دراسة تأثير عدد سنوات الزواج في النزاعات المالية بين الزوجين

الزوجة غير العاملة ١٣٪ = ٦٥ امرأة		الزوجة العاملة ٣٨٪ = ١٩٠ امرأة		فئات عمر الزواج عدد سنوات الزواج
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	
١٩٪	١٢	٣٩٪	٧٥	١ - ٥
٢٣٪	١٥	١٨٪	٣٥	٦ - ١٠
١٣٪	٨	١٣٪	٢٤	١١ - ١٥
١٧٪	١١	١٤٪	٢٧	١٦ - ٢٠
٧٪	٥	٠٧٪	١٤	٢١ - ٢٥
١٤٪	٩	٠٢٪	٤	٢٦ - ٣٠
٥٪	٣	٠٢٪	٤	٣١ - ٣٥
-	٢	لا جواب	٧	لا جواب
١٠٠٪	٦٥	١٠٠٪	١٩٠	المجموع

نلاحظ من هذا الجدول أن الشريحة العمرية الزوجية (١-٥ سنوات) تأتي في طليعة الشرائح العمرية الزوجية، التي تستأثر بالشجار المالي بمعنى أن الأزواج الجدد يتعرّضون إلى سلوكيات ومواقف وممارسات مالية متوتّرة. وربما يعود السبب إلى عدم التكيّف الكافي فيما بينهما مع الأمور والمسائل المالية وربما إلى عدم مناقشة المواضيع المالية والتفاهم والتوافق عليها بين الثنائي في فترة الخطبة. تستحضرني هنا دراسة (الزواج والمصرف) التي أظهرت أن ٦٧٪ من الأزواج يؤمنون أن أكثر المشاكل الحادة التي يواجهونها خلال السنة الأولى للزواج هي المصرف.

١- ما هو أثر الوضع الاقتصادي على النزاعات والمشاحنات المالية بين الزوجين؟ الجواب في الجدول التالي:

جدول رقم (١٣) أثر الوضع الاقتصادي في المشاجرات المالية بين الزوجين

نسبة الشجار المتكّرر الزوجة غير العاملة		نسبة الشجار المتكّرر الزوجة العاملة		المستوى الاقتصادي الأسري
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	
٤,٦٪	٣	٨,٤٪	١٦	متدنٍ
١٢,٣٪	٨	٢٧,٨٪	٥٣	تحت الوسط
٢٦,١٪	١٧	٣٧,٨٪	٧٢	وسط
٣٦,٩٪	٢٤	١٦,٣٪	٣١	فوق الوسط
١٦,٩٪	١١	٦,٣٪	١٢	مرتاح
١,٥٪	١	٢,٦٪	٥	مرتفع
١,٥٪	١	٠,٥٪	١	مرتفع جداً
١٠٠٪	٦٥	١٠٠٪	١٩٠	المجموع

في فئة الزوجة العاملة نلاحظ أن الطبقة ذات المدخول الوسط تتعرض للمشاحنات أكثر من غيرها من الطبقات (٢٧,٨٪) كما نلاحظ أنه كلما ارتفع المستوى الاقتصادي خفّت المشاجرات بين الثنائي.

يلي طبقة المدخول الوسط، طبقة تحت الوسط حيث النسبة ٢٧,٨٪ ممن يتشاجرن كثيراً مع أزواجهن بسبب المال والسلوكات المالية مما يُسيء إلى العلاقة المالية بينهما.

أما في فئة ربّات البيوت، فإن أكثر احتداماً للتشاجر والصدام، يكمن في الفئة فوق الوسط ٢٦,١٪ يليها الوسط (٢٦,١٪).

ما هو ملفت أن نسبة المتشاجرات في فئة الزوجة العاملة في المستوى المتدني تساوي ضعف تلك الموجودة في الفئة غير العاملة (٤,٦٪ - ٨,٤٪).

كذلك الأمر بالنسبة لطبقة تحت الوسط فإن نسبة المتشاجرات مع أزواجهن

بسبب المال هي أقلّ في مجموعة ربات المنزل مما هي عليه في مجموعة العاملات. بعد هذا التفصيل يمكن استنتاج ما يلي :

تشدد النزاعات وتحتدم بين الزوجين في الاسر ذوات المستويات الاقتصادية الوسط وما دون (نزولا) لدى فئة الزوجة العاملة (٧٦٪) مقابل (٤٢٪) الاولى تضاعف الثانية

تخف النزاعات المالية وتراجع بين الزوجين في الاسر ذوات المستويات الاقتصادية (فوق الوسط والمرتاح والمرتفع) لدى فئة الزوجة العاملة (٢٤٪) ومقابل (٥٨٪) لدى الزوجة ربة المنزل وتشكل النسبة الاولى نصف الثانية.

يمكن ربط هذه النتائج بنتائج جدول رقم (٨) الذي يظهر أن نسبة المسرفات ١٧٪ هن في فئة ربة المنزل وشكلت ضعف ما هي عليه في فئة الزوجة العاملة (٨٪).

في كل الاحوال إن النزاعات المالية بين الزوجين في فئة النساء العاملات هي أخطر على الحياة الزوجية مما هي عليه في فئة النساء غير العاملات.

هل من ترابط بين المستوى التعليمي والمشاجرات المالية المتكررة بين الزوجين؟

جدول رقم (١٤) أثر الوضع التعليمي في النزاعات الزوجية المالية

الزوجة غير العاملة		الزوجة العاملة		المستوى التعليمي
النسبة المئوية	العدد الفعلي	النسبة المئوية	العدد الفعلي	
٥٪	٣	٤٪	٧	الإبتدائي
٨٪	٥	٥٪	٩	المتوسط
٥٧٪	٣٧	٧٪	١٤	الثانوي
٢١٪	١٤	٥٥٪	١٠٤	الجامعي
٩٪	٦	٢٤٪	٤٦	الدراسات العليا
-	-	٥٪	١٠	الدكتوراه
١٠٠	٦٥	١٠٠	١٩٠	المجموع

إن المشاجرات بين الزوجين بسبب الأمور المالية تتواجد في كل الشرائح التعليمية.

تكمن أعلى نسبة للمتشاجرات مالياً في المستوى الجامعي ٥٥٪ لدى الزوجة العاملة و٥٧٪ في المستوى الثانوي لدى الزوجة غير العاملة.

كلنا يعتقد ان ارتفاع المستوى التعليمي يردع الخلافات الزوجية وخاصة المالية منها وتحديداً لدى الزوجة العاملة لكن الجدول اظهر نتائج غير متوقعة.

وما هو ملفت هو ان المشادات والمشاجرات المالية لم توفر فئة من الفئات بل طالتها كلها وخرقتها بما في ذلك مستوى الدراسات العليا وحملة الدكتوراه بنسب لا يستهان بها ويجب التوقف عندها.

ما هو أثر التحضير المالي قبل الزواج في النزاعات المالية بين الزوجين؟

جدول رقم (١٥) أثر التحضير المالي قبل الزواج في المنازعات المالية بين الزوجين

الزوجة غير العاملة				الزوجة العاملة				نسبة الشجار المتكرر				البحث في مواضع المال والتوافق حولها
عابر		وسط		كاف		عابر		وسط		كاف		
ربة منزل	عاملة	ربة منزل	عاملة	ربة منزل	عاملة	ربة منزل	عاملة	ربة منزل	عاملة	ربة منزل	عاملة	
النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	
٤٦٪	٣٠	٤٨,٢٪	٩٢	٢٥٪	٢٣	٣٥,٢٪	٦٧	١٨,٤٪	١٢	١٦,٣٪	٣١	المدخول والمصرف
٧٢٪	٤٧	٤٨,٩٪	٩٣	٢٣,٢٪	١٥	٤٢,٦٪	٨١	٤,٦٪	٣	٨,٤٪	١٦	تحديد الأولويات
-		٥٠,٥٪	٩٦	-		٣٧,٨٪	٧٢	-		١١,٥	٢٢	تولي مسؤوليات دفع النفقات المتوجبة

توضيح: الجدول هذا يدرس نسبة المتشاجرات مالياً في كل عينة، العاملة وغير العاملة، وفي كل مجموعة من كل عينة أي مجموعة من تحضر بشكل كافٍ ووسط وعابر.

وأذكر بأن نسبة اللواتي يتشاجرن كثيراً في عينة الزوجات العاملات هي (٣٨٪) ما يساوي (١٩٠) امرأة. ونسبتهن في عينة ربات المنزل (١٣٪) ما يساوي (٦٥) امرأة.

ما يظهره الجدول هو أن نسبة المتشاجرات في مجموعة الزوجات العاملات اللواتي سبق لهن أن بحثن بشكل جدي وكاف في القضايا المالية هي أقل بكثير من المجموعات الأخرى (مجموعة وسط) و(مجموعة عابر) وهي تساوي: مجموعة وسط ١٦,٣٪ مقابل ٣٥,٢٪ وتساوي مجموعة عابر ١٦,٣٪ مقابل ٤٨,٢٪. هذا ما تؤكده الفرضية المعنية.

ماذا الآن عن أثر المال ودوره في الطلاق؟

دراسات عدّة تناولت الطلاق لجهة أسبابه ومفاعيله ومعالجتهما لكنها لم تتطرق يوماً وبشكل مباشر للبحث في أثر المال ودوره في الطلاق، لذا عمدت إلى إجراء دراسة ميدانية وسريعة تظهر «فعل المال في الطلاق» ضمت عينة من السيدات المطلقات العاملات وعددهن (١٧ سيدة) والسيدات المطلقات ربات المنزل وعددهن (٧ سيدات) التقيتهن مجموعات وفرادى معتمدة في المجموعات «أسلوب المجموعة البورية» (مقابلات جماعية) ومعتمدة في الفرادى مقابلات فردية. تضمّنت المقابلة (وهي شبه موجهة) عدداً من النقاط: العمر الزمني، عمر الزواج، المستوى التعليمي، الاقتصادي، عدد الأولاد، أسباب الطلاق، موقع المال من الطلاق، أوضاع المطلقات الحالية.

أ. بناء المجموعة الأولى:

١. إن موضوع «الطلاق» يأخذ حيزاً كبيراً من اهتماماتنا وهو، كما نلاحظ، يتفشى في الأسر اللبنانية حتى أصبحت متألّفة معه رغم كل مساوئه. والحديث عن الطلاق يتلازم دائماً مع الحديث عن أسبابه حتى بتنا نقول: (تطلقا بسبب كذا وكذا) وهذا ما كنّا نتناقش حوله في سهرة عائلية، ويا لهول ما سمعت! ٧ سيدات معلّقات مطلقات يدرسن في مدرسة واحدة يسكن بعد طلاقهن مع أهاليهن وجميعهن يربّين أولادهن على نفقاتهن.

وسرعان ما تمّ الاتصال بالسيدات المطلقات طالبة اللقاء بهن للبحث في

موضوع الساعة متقصية السبب المباشر في الطلاق. وهكذا طبقت معهن أسلوب «المجموعة البؤرية»^(٣) لما لديهن من تجانس وثيق في العديد من الخصائص المتشابهة.

٢. توصيف أفراد المجموعة الأولى:

العمر يتراوح ما بين ٢٧-٣٥ سنة.

المستوى التعليمي هو الثانوي.

المستوى الاقتصادي يتراوح الراتب ما بين ٧٠٠٠٠٠٠ ل.ل. - ٨٠٠٠٠٠٠ ل.ل. شهرياً.

عمر الزواج يتراوح ما بين ٤ و ٧ سنوات.

عدد الأولاد من ولد إلى ٣ أولاد.

٣. الجلسة:

إمتدت الجلسة زهاء ثلاث ساعات أفرغت فيها السيدات معاناتهن المالية مع أزواجهن متمنين «أن تصل صرختهن إلى المجتمع الذي يفتقر إلى العدل والإنصاف وخاصة لجهة حقوق المرأة المالية».

٤. أسباب الطلاق لدى أفراد المجموعة الأولى حسب تصريحاتهن:

السيدة (أ) تقول: «كان على الحديد» أي فقيراً عندما تعرّفت عليه صاحب مهنة حرّة. اقترض مبلغاً من البنك على إسمي ما زلت أسدّد سندات حتى بعد الطلاق. عندما تمكّن مالياً غدر بي وتزوّج ثانية».

السيدة (ب) تقول: «إن عدم التكافؤ الاقتصادي بين عائلتي وعائلة زوجي دفع بأهلي لمساندتنا مالياً إذ أنه يعجز عن تأمين حتى الحاجات الأساسية. لكنه إزاء هذه المساعدة كان يفجر الوضع حتى أصبح لا يُطاق (عنف وتعنيف بكل أشكاله) إلى أن تمّ الطلاق. وعدت لمتابعة دراستي حتى تمكّنت من الحصول على عمل كمدرّسة في مدرسة وها أنا عدت لبيت أهلي أنا وطفلي».

السيدة (ج) تقول: «كان زوجي موظفاً في بنك المدينة حتى إعلان إفلاسه.

(٣) حسنين، محمد حسين (٢٠٠٢) «أسلوب المجموعة البؤرية». دار فابس، عمان.

فأصبح عاطلاً عن العمل ومقامراً في آن واحد وترك المسؤولية بكاملها على عاتقي.»
السيدة (د): «عندما تزوّجت لم أكن أزاول عملاً وكان الوضع المالي دون الوسط فصمّمت على البحث عن عمل لمساندته إلى أن قُبلت للتعليم في المدرسة. ومن حينها أتكلّ عليّ وعلى راتبي لتأمين كافة المسؤوليات المالية وأخذ هو يهتمّ بنفسه دون أن يلتفت إلى الأسرة أو الأولاد أو البيت (هروب من المسؤولية المالية)».

السيدة (هـ): «سانده والدي مالياً حتى حصل على الدكتوراه وعندها تحوّل إلى رجل مغرور مصرّحاً أن لا تكافؤ بيني وبينه ثقافياً مما حوّل البيت إلى جحيم.»
السيدتان (و-ز): زوجي يعمل في الخارج للحصول على المال الذي دمرّ به أسرتنا، بحيث أحسّ بالغربة تجاهي وتجاه الأولاد، مما دفعه إلى الاتكال المطلق على مدخولي في تدبير كافة المسؤوليات وإذ به يرسل إليّ وثيقة الطلاق. أما هو فقد تزوّج وبقي في الخارج.

٥. موقع المال من الطلاق:

تؤكد السيدات السبع أن هروب الزوج من تحمّل المسؤولية المالية تجاه أسرته، واعتماده على مدخول الزوجة والتلكؤ والتباطؤ في تحسين الوضع المالي للأسرة من قبله. جميع هذه العوامل تشكّل مؤشرات جوهرية في احتدام النزاعات التي تنهي الحياة الزوجية بالطلاق.

٦. أوضاعهن بعد الطلاق:

السكن مع الأهل.

يربّين أطفالهن.

الطلاق يتهرّب من دفع النفقة وإلاّ يهدّد طليقته بعدم رؤية طفلها.

ب. بناء المجموعة الثانية:

١. أربع سيدات مطلقات عاملات في وظائف الدولة ينتمين إلى عيّنة استطلاع الرأي (٣٨٪) حيث الشجار المتكرّر بل والمحتدم مع أزواجهن بسبب المدخول والمصرف.

٢. توصيف أفراد المجموعة الثانية:

العمر يتراوح ما بين ٢٣ - ٣٠ عاماً.

المستوى التعليمي جامعي.

المستوى الاقتصادي مقبول (١٤٠٠٠٠٠٠ ل.ل. - ١٧٠٠٠٠٠٠ ل.ل.).

عمر الزواج يتراوح بين (٣ - ٥) سنوات.

عدد الأولاد ولد واحد.

٣. الجلسة: إتصال هاتفي:

اثناء تعبئة الاستمارة كانت السيدات الاربع في ذروة النزاعات المالية

وصرحن:

سيدة أ: «لا اتحمل مطلق سؤال يوجهه لي زوجي يتعلق بالمدخول والمصروف. سرعان ما انفعل. أشعر أنه يحاسبني وينفعل هو أيضاً فنتشاجر وصولاً للتعنيف اللفظي ويتبعه الجسدي وهو أيضاً يغضب كثيراً لحد لا يحتمل عندما يعرف أنني صرفت مبلغاً ولو زهيداً علي او على طفلي او حتى عليه».

سيدة ب: «حساسيتي وحساسيته مفرطة تجاه المال والمساهمة بالنفقات وكان قد وعدني بان لا أساهم في مصاريف البيت لكنه أدخل بوعده»

سيدة ج: «يحلل الصرف على نفسه ويحرّمه علي وهكذا كانت الصرخة تتكرر حتى تحول البيت الى جحيم»

سيدة د: «انه بخيل بل مقتر وأنا أحياناً كي اغيظه أكثر من الصرف لأنتقم إذ إن ما أصرفه هو من تعبي وليس من تعبه».

٤. موقع المال من الطلاق:

حسب تصريحاتهن فإن المال والعلاقة المالية السيئة الناتجة عن سلوكات مالية متطرفة من قبل الطرفين تعدّ من الأسباب الجوهرية في إنهاء الحياة الزوجية رغم أنهن ناديات على فعلتهن.

٥. أوضاعهن بعد الطلاق:

السكن مع الأهل.

لا نفقة.

يقمن بتربية أبنائهن.

ج. بناء المجموعة الثالثة:

١. في مقابلة جماعية واعتماداً على أسلوب «المجموعة البؤرية» استطعت وباسم الزمالة والصدقة أن ألتقي على فنجان قهوة ٦ سيدات مطلقات موظفات في القطاعين العام والخاص ويشغلن مناصب عالية، للوقوف على جوهر الأسباب الداعية إلى إنهاء حياتهن الزوجية مع أزواجهن ولتحديد دور المال في هذه النتيجة المؤلمة.

٢. توصيف أفراد المجموعة الثالثة:

تتعدّى أعمارهن العقد الخامس والسادس.

المستوى التعليمي يتخطى الدراسات العالية حتى الدكتوراه عند بعضهن.

المستوى الإقتصادي: المدخول مرتاح ومرتفع.

عمر الزواج يتخطى الـ ٣٠ سنة.

عدد الأولاد بين ولدين وثلاثة أولاد.

٣. الجلسة:

كانت الجلسة جلسة نقاش منفتح وراقٍ وكانت جلسة حارة جداً امتدت على أربع ساعات تخلل النقاش مواقف متباينة بين الذاتية والموضوعية بين العاطفية والعقلانية اتسم اللقاء بالتعبير الحر والجرأة والصراحة :

- سيدة أ: «دفعت مبلغاً كبيراً لزوجي كي اتحرّر من القيود المادية والمعنوية التي كانت تُمارس عليّ من قبل زوجي. إذن المال ساهم في طلاقني» .

- سيدة (ب _ ج _ د): « نحن مطلقان نخضع ونطبق ما يسمى بالطلاق الخفي او اللا معطن او المستتر حفاظاً على مشاعر أفراد العائلة وحفاظاً على سمعتنا في المجتمع وحفاظاً على استقرار أبنائنا».

«نحن ثنائي يعيش في المنزل نفسه كالغرباء وكُنّا قد عشنا أجواءً صعبة جداً من الخلافات المرة . تشاركنا سابقاً بشراء شقة سكنية من الصعب أن يتفرد بها أحدها ومن الصعب أن يستأجر مسكناً غيره لعدم توفر المال لشراء مسكن آخر».

- سيدة (هـ و): « لم يتحمل زوجي أن يصبح مدخولي أعلى من مدخوله مما قلب الجوَّ إلى جحيم. واخذ يكثر من المشتريات كي يثقل كاهلي »
«كفانا نكدًا وكدرًا»
«كفانا عنفاً بمختلف ألوانه واشكاله وخاصة العنف المالي منه»
«عانينا كثيراً من التضيق والتدقيق و«الخنقة» المستمرة على أعناقنا، صبرنا لأجل الأولاد. ولم نعد نحتمل هذا الوضع. نريد أن نعيش، أن نتمتع باستقلاليتنا المالية التي حصلنا عليها. »

٦. موقع المال من الطلاق:

إذن المال يلعب دوراً كبيراً وملحوظاً في هذه الفئة العمرية. ربما أن الإنسان يستنفد قواه وقدرته على التحمّل بعدما قطع تقريباً ربع قرن من المعاناة وبعد اعتماد كل سبل المعالجات التي تبوء بالفشل وتعجز عن تصحيح العلاقة أو الوضع الزوجي المشحون بالخلافات والمشاحنات.

د. بناء المجموعة الرابعة:

١. في مجموعة بؤرية أخيرة أي عن طريق المقابلة الجماعية التقيتهن وعددهن ٧ سبع سيدات مطلقات غير عاملات حتى نهاية الحياة الزوجية أي إلى حين الطلاق.
٣ سيدات منهن ينتمين إلى عينة استطلاع الرأي وكن آنذاك على خلاف قاسٍ وشرس.

٢. توصيف أفراد المجموعة الرابعة:

أعمارهن تتراوح ما بين ٢٨ - ٤٥ سنة.
مستواهن التعليمي ما بين الثانوي والجامعي.
من مختلف الطبقات الاقتصادية.
عمر الزواج ما بين ٣ و ١٥ سنة.
عدد الأولاد ما بين ولد و٤ أولاد.

٣. الجلسة:

تحدّثنا، تناقشنا، تحاورنا حول أوضاع كل منهن بهدف تحديد الأسباب الداعية

للطلاق، فكانت جلسة تتسم بالصراحة والصدق والمصادقية. إنهن بحاجة لأن يتكلمن مع أحد يصغي لهن ولمعاناتهن، ولمشاكلهن التي لم تحلّ حتى بالطلاق. كم لمست منهن المعاناة وكم سمعت منهن الآهات وكم لحظت في عيونهن الدموع. دموع الحزن والأسى على الوقت الضائع وعلى فوات الأوان.

٤. أسباب الطلاق وموقع المال فيها:

فرغم معاناة وشكاوى بعضهن من سلوك الزوج المالي المتطرف أحياناً والمتمثّل بالإسراف أو بالتقتير إلا أن مثل هذه السلوكات لا تعنيهن كثيراً ولا يعتبرنّها من الأسباب الجوهرية التي تؤدّي إلى الطلاق. فقد صرحن أن مثل هذه السلوكات يصبرن عليها ويتحملنها رغم تصنيفها في إطار العنف الاقتصادي لكن ما هو أهمّ هو العنف المُمارس عليهن من قبل الزوج أو أهله. هذا العنف المادي (عنف جسدي أو معنوي، جرح نفسي) المتمثّل بالخيانة الزوجية: معاشرة امرأة أخرى أو الزواج بامرأة ثانية.

إذن لم يكن المال في حالة أي منهن هو السبب الفصل للحياة الزوجية وإنهائها بالطلاق.

٥. أوضاعهن بعد الطلاق:

السيدات جميعهن توجهن بعد الطلاق إما لمتابعة الدراسة أو لاكتساب مهنة أو حرفة يزاولنها ليعشن منها باستقلالية مالية دون الحاجة إلى مساعدة الآخرين مثل الخياطة، فن الطبخ، الأعمال اليدوية، مربية لأطفال أو لمسنين. بعضهن مستقلات بسكنهن وبعضهن يسكن مع أبنائهن.

جدول الأسباب المالية الداعية للطلاق:

غير العوامل	السيدات المطلقات العاملات			الأسباب الداعية للطلاق ودور المال فيها
	المجموعة الثالثة	المجموعة الثانية	المجموعة الأولى	
المجموعة الرابعة		X		* السلوك المالي المتطرف: التقتير والإسراف
		X		* الحساسية المفرطة إزاء موضوع المال عند التثائي
	X		X	* حب الاستئثار والتحكم عند الرجل بمال المرأة
			X	* الطمع عند الرجل براتب المرأة
	X	X		* رغبة المرأة بعدم المشاركة في النفقات والاستئثار بمدخولها
		X		* حب المال دفع بالزوج إلى الخارج/أصبح غريباً. الاهتمام بمظهره وتأمين حاجاته على حساب الأسرة
			X	* الاتكالية من قبل الزوج على مدخول الزوجة
X				* التضييق والتدقيق على المرأة
X				* التضييق والتدقيق على الرجل

X				* إستغلال المرأة مالياً
			X	* العنف المالي/التسلط
			X	* عدم التكافؤ الاقتصادي بين الزوجين
			X	* الهروب من المسؤولية المالية
		X		* الإكثار من المشتريات ليثقل كاهل المرأة
	X			* شراء الشقة والسيارة وتسجيلهما باسم الزوج
X X				* العنف الجسدي والمالي
	X			* الزوجة تدفع المال للزوج لتحرر من قيود التبعية المالية
			X	* البطالة والتلكؤ والتباطؤ في تأمين عمل

خاتمة:

نستنتج من هذه الدراسة الميدانية المتعددة الأدوات البحثية (استطلاع رأي ومقابلات) ان للمال عدة وظائف منها الايجابية ومنها السلبية:
 الايجابية كأن تقرب الزوجين وتوطد علاقتهما، والسلبية كأن توترها بالخلافات والنزاعات.

إن المال يدخل عاملاً موفقاً مهماً في حياة بعض الأزواج وإسعادهم وذلك بفضل التفاهم والبحث في موضوع المال قبل الزواج أو بعده وضرورة الإتفاق والتوافق على جزئيات الموضوع وحيثياته بأدق تفاصيله بشكل جدّي رصين مثل المدخول والمصروف وتحديد الأولويات وتحديد آليات الإنفاق وآلية الادخار ضمن حسابين أو حساب واحد مشترك، وهذا ما يوطد اللحمة الزوجية ويجعل الثنائي يعيش تودداً وحميمية أكبر.

ومن جهة ثانية المال يدخل عاملاً مؤثراً للحياة الزوجية ومفككاً لها في بعض الأحيان لما يشهده الثنائي من حساسية مفرطة إزاء موضوع المال أو لاستئثار واحدهما بالمال، والتحكم به دون الأخذ بعين الاعتبار من قبل الزوج لجهود المرأة المبذولة لتحسين مستوى المعيشة.

إذا « يكون المال هنا سبباً» في خلق الخلاف والشجار بين الزوجين وأكثر ما تتفعل ظاهرة النزاعات المالية بين الشريكين هو لدى فئة الزوجات العاملات لحساسية الموضوع والتكتم عليه لاعتباره من المحظورات والممنوعات من قبل الطرفين

كما تتفعل النزاعات المالية في الطبقات الاقتصادية الفقيرة والوسط بعكس الطبقات الاقتصادية المرتاحة حيث تهدأ وتخف النزاعات المالية بين الزوجين.

واكثر ما يزيد من حدة النزاعات المالية هو السلوك المالي المتطرف لدى أحد الطرفين يلي ذلك آلية التصرف بالمدخول وخاصة مدخول الزوجة حيث يظهر ميل الزوج ورغبته في التسلط والتحكم بالمدخول وحرمان الزوجة من التمتع نوعاً ما باستقلاليتها المالية، والتي ضحت كثيراً للحصول عليها.

بالنسبة للنزاعات المالية بين الزوجين أكدت دراسة (الزواج والطلاق) التي أجريت في ولاية نيو جيرسي في العام ٢٠٠٠ على أهمية التوقف عند آلية التصرف بالمدخول عن طريق عرض ثلاث طرائق لإدارة الشؤون المالية بين الزوجين:

- جمع ما لكما في حساب واحد.

- كل واحد منكما له حساب وتقسيم المصروف بينكما.

- كل واحد له حساب ولكن ايضاً يوجد حساب مشترك.

إذا كنتما تريدان ان تصبحا شريكين زوجين يجب ان تصبحا شريكين ماليين.

وتضيف الدراسة : ان الحفاظ على حسابين منفصلين معناه خطوة اولى لكم الاسرار عن بعضكما، هناك أمثلة كثيرة عن زوجين كانا غير صريحين بشأن حسابهما وإبقاء حساب كل واحد منهما بمعزل عن الآخر مما سحب التكتم والتعظيم على مواضيع أخرى.

فمن استطلاع الرأي والمقابلات مجتمعة نخلص إلى أن استقلالية المرأة المالية تُوظّف عند البعض بشكل خاطئ، ويُساء فهمها من قبل بعض النساء والرجال. وتستثمر في غير محلها حيث يجب أن تكون إسعاد الأسرة. من هنا يجب إعادة النظر في استقلالية المرأة المالية من قبل المرأة والرجل على حدّ سواء كاشفين عن الحقوق والواجبات، المهمات والآليات، السلوكات والتوجهات. «شيء ثمين يجب أن نحافظ عليه».

«المال حقل ألغام» يجب الانتباه إليه قبل أن ينفجر.

أهم ما يجب تقديمه للمرأة هو تحصين اوضاعها بـ «حفنة» من القوانين تحفظ لها حقوقها وتضمن لها كرامتها ومستقبلها.

علاقة النساء بالمال:

قراءة نفس تحليلية

في الدراسات التحليلية التي انكبت على نفسانية المرأة، انطلاقاً من فرويد وانتهاءً بجاك لكان بدت المرأة أشبه باللغز الذي يعصى حله. فبالنسبة إلى الأول هي مستنقع أسود يصعب تحديد غوره، وبالنسبة للثاني فقد طرح السؤال «ماذا تريد المرأة؟» دون أن يجد جواباً نهائياً سوى قوله الذي يختزل معضلتها: «أطلب منك أن ترفض ما أطلبه منك، لأن ما تعطيني إياه ليس موضوع طلبي»، طلب موجه إلى الرجل، لكي يضعه أمام تعجيز وفي حيرة من أمره في كيفية التعاطي مع المرأة. فهي تفتش عن رجل سيد لكي تسود عليه. وموضوع السيادة يأخذ ثلاثة أشكال: السلطة الاجتماعية بما فيها السياسية والسلطة الفكرية وسلطة المال. فهذه المسائل الثلاث تدخل في تركيبة هوام المرأة لكي تشكل جاذباً وإغراء لا يخلو من الإثارة الشبقية.

أحصر كلامي بالمال وأترك الموضوعين الأخيرين لأنهما يتطلبان بحثاً آخر على انفراد. المال بمدلوله له أوجه عديدة ابتداءً من تأمين الحاجات الحياتية صعوداً إلى الثروة التي تحتل موضوع الرغبة وتصبح وعداً بالسعادة عبر تحقيق الهوامات.

في الماضي كانت المرأة مرهونة بكل

عدنان حب الله

حاجاتها الحياتية للرجل مقابل الإذعان لطاعته والاهتمام بالمنزل وتربية الأطفال. ولا يتعدى دورها الاجتماعي هذه الحدود ما عدا بعض الاستثناءات. ولكن شهدنا منذ أواسط القرن الماضي حركة تحرر نسائية تطالب بالمساواة مع الرجل ورفض هذا الإذعان المشروط لسيادته.

ويكمن وراء هذه الجرأة تغيير في الظروف الاجتماعية والثقافية والمعيشية. فخرجت المرأة من هذا الدور المتوارث إلى حقل الرجل وأبدت حضوراً متميزاً في كل المجالات أجبرت الرجل أن يعترف بكفاءتها لا سيما في البلدان الأوروبية ويقبل بمنافستها ولو كان ذلك على حساب الفحولة التي تعطيه حق الأفضلية.

بدأت هذه المعادلة منذ أن دخلت المرأة حقل العمل، وأصبحت منتجة مالياً على غرار الرجل، والعائلة أصبحت تقوم على دخلين بدلاً من دخل واحد كما في السابق. فهذا التحرر المالي ألغى حكماً سطوة الرجل وإذعان المرأة له، سيما بعد أن أصبحت قادرة على أن تكفي نفسها بنفسها عبر إنتاجها المالي وحتى تربية الأطفال في حال غياب الرجل. وكان نتيجة لتغير هذا المورد المالي تداعيات كثيرة على الصعيد العائلي والاجتماعي.

نلاحظ حسب الإحصاءات أن الخلافات الزوجية قد ازدادت وأضحت نسبة الطلاق خمسة أضعاف عما كانت عليه في السابق. أضف إلى ذلك أن سلطة الرجل على ضوء الواقع الجديد فقدت مبرراتها مما جعله يتشبث بالموروث عسى أن يستعيد بعض ما فقده. ولكن القوانين الجديدة التي سنت في أوروبا، أتت كلها في صالح المرأة حتى بالنسبة لرعاية الأطفال. كثير من النساء في مجتمعنا يخضعن على مضض لحياة زوجية فاشلة فقط كي لا يفقدن رعاية أطفالهن. فعلاقة المرأة مع أولادها علاقة عضوية خلافاً للرجل فالعلاقة رمزية مرهونة باسم الأب الذي يمنح الابن مكانته في السلالة العائلية.

لكن نلاحظ أن هذا الدخيل المالي في البنية العائلية خلق تموضعاً جديداً للمرأة جعلها أكثر حضوراً وأكثر فاعلية مما اضطر الرجل أن يتأقلم مرغماً ولو كان على حساب الفحولة الموروثة. فضعفت سلطة الأب بل أصبحت في بعض الأحيان أضعف من سلطة الأم. فالارتهان المادي الوجودي في علاقتها مع زوج لم يعد ذا فاعلية كما كان في السابق مما فتح الباب واسعاً لعودة المكبوت بشكل انتفاضة تتحكم بالعلاقة الزوجية وتحررها من دونية تجبرها على الطاعة، إلى ند لند لا

تخضع للموروث. ومن جراء ذلك تزعزعت سلطة الأب وتسطح نفوذه وأصبح مطلوباً منه أن يتعامل مع الزوجة بالتساوي متخلياً عن أنانيته السابقة وعن حقوق مكتسبة فقط لكونه رجلاً. مما لا شك فيه أن كثيرين من الرجال لا يستطيعون أن يتأقلموا مع هذا الواقع المستحدث مما يؤدي إلى نزاعات وصراعات وجودية تنتهي بالانفصال. وهنا نستطيع الاستنتاج أن دخول عامل المال كمورد إضافي كان له تأثير على صعيدين:

أولاً: مكن المرأة من إلغاء الدونية التي نشأت عليها ومكّنها من التحرر من الطاعة التي كانت ملزمة بها منذ الطفولة (عندما كان يميز ما بين الأخ والأخت) وأضحت الآن تتمتع بحضور وشخصية جديدة يتوجب على الرجل أخذها بعين الاعتبار وإلغاء الدونية التي كانت تتحكم بنظرته إليها.

ثانياً: على صعيد الرجل، الحد من سلطته الفالوسية (أي القضيبية) التي كان يبني عليها امتيازات وحقوقاً موروثاً لا يناقش بها.

المال موضوع رغبة

عندما يخرج المال من حقل تحقيق الحاجات الحياتية يدخل في إطار الطلب لتحقيق رغبات تخضع لجميع أنواع الهوامات من سلطة وجاه ورفاهية وموقع اجتماعي وتحقيق نزوات كانت إلى حد الآن في حكم المكبوت.

لذلك نرى أن جاذبية الرجل متاخمة للمال الذي يكتسبه أو للثروة التي يملكها مسبقاً. وهنا يصبح المال موضوع رغبة عند المرأة يدخل في إطار تكوينها النفسي بشكل مغاير لما هو عند الرجل.

فحاجتها إلى المال تدخل في إطار اقتصادي، يعوض عن دونية تلازمها مهما حاولت التحرر منها لأن المجتمع سواء كان شرقياً أو غربياً قائم على أساس النظام البطريركي والخلاف هو درجات وليس في المبدأ. لذلك رغم تحررها تبقى تحت حكم النظام البطريركي إلى أن يحصل انقلاب ويحل محله النظام الماطريكي. فهي في آن واحد جسد موضوع (objet) وذات أو شخصية (sujet) تتميز بالأنوثة على غرار الرجولة. فهي تتأرجح دائماً ما بين الشخصيتين لأن الفصل بينهما يؤدي إلى تشويه صورتها.

فالإغراء الجسدي هو مدخل إلى أنوثتها ولا يمكن اختزاله وإلا أضحت

موضوعاً استهلاكياً كما نراه في الإعلانات وصناعة أفلام البورنو. فالإغراء الجسدي مدخل إلى الأنوثة وليس نهاية لها. من هنا نفهم حاجة المرأة إلى من يصرف عليها بسخاء لكي يعزز أنوثتها دون أن يشيئها، لأن المال إن دخل من باب موضوع رغبة أي نقصان لوجود كما يحده لا كان لا بد أن يأخذ مفهوم تعويض عن ضرر لحق بها سابقاً ولبسماً لجرح حصل لها بحكم قدريتها الجسدية. فحاجتها إلى الهدايا واللبس والتزين والتبرج هي من طبيعة أنوثتها وليس من باب التمتظهر كما يتصور البعض ويحاولون تجريدها منها. وخير دليل على ذلك أهمية التعاطي بالمال مع المرأة، إن كثر أو قل فالنتيجة واحدة. وعلى سبيل المثال إذا وقعت امرأة على زوج مصاب بأفة البخل نرى أن النفور يحصل مهما كان موقع هذا الرجل الاجتماعي وفي أكثر الحالات يكون سبباً في الطلاق.

لماذا لا تتحمل المرأة الرجل البخيل؟ المرأة لا تكتفي بالعلاقات الجنسية لكي تعزز أنوثتها فالعطاء الجنسي رغم أنه يعوض عن نقصانها لفترة قصيرة من الزمن إلا أنه إذا اختزلت العلاقة بهذا المجال فقط فإنه يولد عندها إحباطاً ويثير جرح النقصان بعد أن كان خامداً ويؤدي إلى حالات عنف ونزاعات مع الزوج إذا لم يصاحبه مسلك مؤنس وعطاء يشعرها بالمشاركة والمساواة وبحضورها كأنتى. فالعطاء المادي يعني بالنسبة لها أكثر من قيمته. فإذا طلبت من زوجها مبلغاً من المال يصاحب ذلك طلب آخر وعربون عن الحب، فالرفض يشعرها بالذلة ويعيد إليها الإحساس بالدونية. والهدايا التي يغدقها الرجل على زوجته خاصة الحلوي تتفاعل في نفسياتها قيمة تعزز أنوثتها وتسدل الغطاء على موضوع النقصان. فالتزيين بالحلية خاتماً أو سواراً أو عقداً أو جوهرة يسلب النظر ويصوبه إلى الموضوع الخارجي بدلاً من النقصان الداخلي الذي يأخذ قيمته من كون الموضوع المهدي يصطحب معه رهاناً على الحب الذي يعزز هذا النقصان فبدلاً من أن يكون مصدراً للدونية إذا به يعطي قيمة لها ومعزة، لأن الرجل إن كان يحبها ويغدق عليها فليس ذلك إلا لما هو نقصان عندها. فالاعتراف به كمصدر رغبة يتعمم على كل جسدها ويشكل صورة نرجسية تستأنس بها.

فالبخل لا يختزل بقيمته المادية ولكن يحمل في طياته إنكاراً لأنوثتها وشحاً في حبها. لذلك نرى أن هذه الآفة تنعكس سلباً على الطرفين فتبعد المرأة لأنها لا تجد في هذه العلاقة ما يعزز حضورها كأنتى. وعادة يؤدي إلى أقول الرغبة

والاكتئاب وإن رضيت فعلى مضض لأنه لا يوجد خيار آخر. الحقل العيادي يؤكد ذلك عندما تلجأ المرأة إلى المرض (somatisation) أو اكتئاب تجبر الزوج على صرف ما هو حريص عليه كبديل عن شحه لأنوثتها ويصبح في هذه الحالة المرض ملاذاً يمكنها من التعايش معه. لأن المرض هو دونية بديلة يدخل في إطار واجب صرف المال.

قد تلجأ المرأة في بعض الأحيان إلى الإكثار من صرف المال إلى حد التبذير. الملاحظ أن هذه الظاهرة تأتي في حالات تكون المرأة تعاني من قلق واكتئاب مرحلي تجهل مصادره. فالانصراف إلى الشراء وتبذير الأموال التي في حوزتها ينعكس عليها إيجاباً لأنه يعطيها قيمة من خلال المواضيع التي حصلت عليها. فهي بمثابة عملية علاج ذاتية تترد عليها بتعويضات عما كان ينقصها في علاقتها بزوجها، سواء كان جنسياً أو عاطفياً. فقيمة الشراء من ألبسة أو مجوهرات أو مساحيق تجميلية تمكنها من رؤية شكلها من جديد في حلية تظهر محاسنها على اعتبار أن الجسد في حال حصل على قيمته الجاذبة والمغرية يعوض عن النقصان لأنه يحل مكانه كبديل فالوسي يتمتع بلعانه وبريقه أمام الناظرين ويعزز نرجسية المرأة وحبها لشكلها. وهذه صفة أنثوية تعود إلى خمسة آلاف سنة في الآثار المصرية المكتشفة في الصعيد.

المرأة تتماهى برغبة الرجل وهذا الأخير يجسد على شكل المرأة موضوع رغبته. فإضفاء لمسات الحسن على جسدها والتنوع في المظهر يدخل في إطار قواعد لعبة التجاذب والإغراء التي ترضخ لمقاييس ومعايير خاصة بكل مجتمع وكل جيل. على سبيل المثال السمثة كانت تشكل صفة من جمال المرأة وهذا يعود إلى مدلول الرفاهية والثراء أما الآن فالنحافة هي الطاغية في البلدان المتحضرة لأنها تشير إلى تحكمها في الشراهة وإيحاء إلى إمكانية التملك بجسدها. وفي كلتا الحالتين يدخل المال كعنصر أساسي لإظهار محاسن الجسد سواء في اللبس أو في الطعام. من هذا المنطلق نستطيع القول إن علاقة المرأة بالمال هي علاقة عضوية تدخل في إطار إظهار أنوثتها ومحاسنها. أما المال كثروة ملصقة بجاذبية بعض الرجال فهو موضوع رغبة يمكنها بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقاً أن تكون وسيلة تحقق لها هوماتها ونزواتها السلطوية أي الفالوسية القضيبية لأن السلطة ملحقة بالثروة وكذلك المكانة الاجتماعية.

إن الثروة بلمعانها وأضوائها المظلمة تخفي العيوب وتزيد من أهمية المزايا. فالمرأة ترغب برجل ثري كي تتسلط على ثروته فيأخذ أهميته من كونه مصدراً أساسياً لتحقيق نزواتها. والقصص التي تروى للأطفال والأساطير حافلة بالأمثال على غرار سنديلا وغيرها. وحتى قصص مشاهير الأغنياء وعلاقاتهم مع النساء. على سبيل المثال المليونير الذي وضع إعلاناً ليختار شريكة حياته فتقدمت له عشرات الآلاف من النساء وقد أخرج فيلماً على شاشة السينما.

المرأة في سوق الإستهلاك

١- الإعلان

هذا ما نراه في الإعلانات الدعائية ترويجاً لبضاعة معينة، حيث أن أريج الليبيدو الذي يخرج من جسد امرأة شبه عارية يضفي نكهة إثارة إيجابية على السلعة المروج لها، أو عارضات الأزياء أو استعراض ملكات الجمال. وهذه كلها ظواهر مستحدثة تدخل جسد المرأة في السوق الاستهلاكي. القاسم المشترك بين المستثمرين وبين هؤلاء النساء هو استثمار الجسد كموضوع (objet) مجرد من كونه يحمل ذاتاً متكلمة (sujet) أي الجسد وحده مع التواطؤ المشترك هو الذي يحق له التعبير. يعبر عبر تقاطع الجسد المتفكك عن طريق الإيحاء، لأفضلية نوع من الجوارب، أو من الأحذية أو لقبعة إلخ.. واذكر على سبيل المثال فتاة جميلة وذكية بعد أن حازت على لقب وصيفة ملكة الجمال أتت لمعاينة لأنها وقعت في أزمة بعد أن رفضت أن تدخل الدعاية، ولأنها رفضت أن يتحول جسدها إلى سلعة يتاجر به وتتحول إلى نوع من الروبو يتحرك حسب متطلبات المخرج الدعائي. وبعد أن دخلت هذه التجربة أصيبت بنوع من الاكتئاب ففقدت رونقها وجاذبيتها مما اضطرها إلى الاستغناء عن هذه المهنة واعتبرت أن جسدها كان حكيماً أكثر من عقلها فرفض ما كانت الأنا قد انغرّت به وضللتها عن هويتها الجسدية فرفض هذا الأخير (الجسد) الطاعة لها. فجمالها أصبح عبئاً عليها يوقع الآخر في كمين الإغراء بدلاً من أن ينفذ إلى ذاتيتها ولذلك لجأت إلى العلاج النفسي كي تحصل على المصالحة بين الجسد والذات (objet-sujet). كذلك الأمر مع فتاة جميلة تشتغل في الإعلام فكانت الأدوار التي تكلف بها متناسبة مع جاذبية شكلها (Look) والعمل يقتضي إظهار محاسنها أكثر من التوجه إلى ذكائها. فاضطرت بعد أزمة ذاتية أن تترك هذه المهنة

الاستعراضية وانطوت على نفسها وقررت أن تعمل في مهنة الكتابة ولو كانت تدر دخلاً أقل بكثير من السابق، لأن جمالها أصبح كذلك عبئاً عليها يضلل الآخر عن رؤية ذاتيتها وكفاءتها الفكرية.

هذا الفصل بين المرأة كذات (sujet) وكموضوع (objet) يحدد العلاقة بالطريقة التي تكسب بها المال. فإن كانت موضوعاً خسرت ذاتها وإن كانت ذاتاً عقلانية خسرت جاذبيتها وجزءاً من أنوثتها لأنها الإثنين معاً. يترأى هذا الفصل بوضوح في مهنة كسب المال الأقدم في العالم كما يتردد وهو البغاء.

٢ - البغاء:

أصبح البغاء مهنة مصنفة كباقي المهن ترسخ لقانون الضرائب على الربح أي بوضوح أكثر تشريع الجسد كسلعة يتاجر بها. السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ما هو الهوام الذي يتحكم بهذه المرأة كي تختار هذه المهنة لكسب المال؟

قالت الأولى إنها ذاهبة إلى الخليج لإعانة أهلها، وقالت الثانية بعد أن اعترفت بممارسة البغاء إنها اضطرت لدفع قسط الجامعة والثالثة لشراء خلوي والرابعة لشراء سيارة. وهكذا أصبح الجسد مورداً لإشباع الحاجات على حساب الرغبة علماً أن هذه الأخيرة لا ثمن لها.

الواقع بالرغم من أن هذا الشعاع العام لبزوغ الرغبات الجنسية، أي انفصالها عن الطبيعة الحيوانية إلا أنه يبقى عالماً من دون جواب. ما هو السر الذي يجذب الرجل كي يدفع حفنة من الدولارات إلى امرأة مقابل تسليم جسدها؟ وهنا تبدو الغرابة إذ أن هذا الجسد المسلم يخرج عن المفهوم الاجتماعي الذي يدعو إلى الحفاظ على حرمة.

إن الدافع المادي لا يشكل السبب الأساسي، فكثير من الفتيات يعشن في ضيقة مادية شديدة لكن لا يستسلمن لمهنة البغاء. والكسب المادي الذي تتقاضاه لا يعادل، مهما بلغ، الفعل الجنسي، بل تتقاضى المبلغ تعويضاً عن ضرر لحق بها. وهذا الضرر يعود إلى مصادر لاواعية تدخل في تركيبة هوام يسقط على الجسد في تصوره الحالي. فهو جسد مباح تلغى عنه الحدود الجغرافية المحرمة.

وأذكر على سبيل المثال زوجة كانت تطلب من زوجها مبلغاً من المال بعد كل علاقة جنسية، رغم أنها ليست بحاجة إلى المال. وتبين لي فيما بعد أنها عندما كانت طفلة كانت تسمع والدتها تردد أنها لولا كون زوجها رجلاً غنياً لما تزوجت به.

فعنصر المال يدخل في صلب التكوين العائلي وأضحى بالنسبة للزوجة فيما بعد طقوساً تمارسها مع زوجها لحفظ العلاقات الزوجية رغم أنها تحبه، لأن المال أضحى موضوع رغبتها، إذا ما اعتبرنا أن الرغبة هي رغبة الآخر (الأم بالمناسبة). إن المال كتعويض عن ضرر يخفف من ألم الجرح النفسي عندما تنتهي العلاقة نتيجة استعادة القضيب من قبل الزوج الذي يعيد إلى ذاكرتها ارتهانها به وفقدانه.

خلال حديث مع صديق اختصاصي بالطب الشرعي ومعالجة نفسية المومسات قال لي بالتأكيد أن ٧٥٪ من المومسات قد تعرضن في طفولتهن لسفاح الأب أو الأم أو في بعض الأحيان للاغتصاب الجنسي ما قبل المراهقة.

السؤال هنا: ما هو تأثير الحدث في نفسية المومس وكيف تفك حزام المحرمات عن جسدها؟

في الأساس إذا سلمنا منذ البداية بشهوة القضيب (الفالوس) وهي العقبة التي أوقفت فرويد في فهمه للمرأة نجد أن هذا المتخيل يظل يلاحق الفتاة في كل مراحل نموها الجنسي، ويشكل ضرراً وإعاقة في حياتها طالما لم تجد له حلاً.

وهذا الحل يأتي عن طريق دور الأب، فإذا استطاع هذا الأخير أن يعوض عنها، وذلك بالاعتراف بنقصانها وبمنحها الحب والحنان لأجل هذا النقصان فإنها تستطيع عندئذ أن تكتشف أنوثتها وتبدأ عملية حداد على «فالوس» الأب المتخيل. وقد لاحظت في العمل العيادي أن بعض النساء العصائيات يتحكمن بهوام الحصول على قضيب الأب عن طريق الكبت فلا يظهر إلا عبر الأحلام. وقالت إحداهن إنها حلمت بمشهد في وسط دائرة لعدد من الشباب في حالة انتصاب وتمارس الجنس مع كل واحد على هواها بعد أن تتقاضى منه حفنة من المال.

فهذا الحلم الذي يعبر عن هوام أتى جواباً على الأب الذي كان يهزأ دائماً من كبر ثدييها فسخر من أنوثتها مما سبب لها ألماً وخجلاً شديدين. فالحلم تحدٍ للأب، فإذا حرمها من الفالوس الأبوي فهي تستطيع أن تحصل على العديد من البدائل إضافة إلى المال كتعويض.

معنى ذلك أن هوام المومس قد يكون متواجداً عند العديد من النساء، مع حفظ الفارق بين المتخيل والفعل. الفتاة التي تتعرض للسفاح سيما من قبل الأب فإنها تصاب بصدمة نفسية قد لا تشفى منها مدى الحياة، ومن الممكن أن تتحول إلى مهنة البغاء كحل نهائي، لأنها قد فقدت النقصان الجسدي المؤسس لأنوثتها.

فالسفاح ينزع عنها صفة التحريم، لأن الأب في مثل هذه الحالة يستقيل من دوره كأب لكي يتحول إلى أحد عداد الرجال الذين يتناوبون عليها أي أنه يلغي موضوع اشتهاؤها الأولي وينقله من حقل تمني المتخيل الذي يتطلب الترميز إلى حقل الواقع. وهذا الموضوع الفالوسي لا يجد قيمته الدالة إلا في حالة غيابه وتحريمه. فدخوله عالم الواقع -السفاح- يقفل الطريق على التمني والحرمان ثم الحداد النهائي عبر حصول البدائل وهنا ينشأ عندها هوامان:

١ - هوام الترجل أي أنها تمارس الجنس عدة مرات مع عدة رجال كما لو كانت ذكراً وليست أنثى. والعضو الجنسي أي المهبل يصبح بمثابة القضيب المقلوب (Doigt de gant). ما يساعد على ذلك تكوينها السلبي الاستقبالي وانعدام الإحساس في المهبل أي غشاؤه مخدر.

٢ - كراهية الرجال ورغبة الانتقام منهم وعلى رأسهم الأب. هنا أشير خلافاً لما يشاع أن المرأة قد سلمت جسدها إلى رجل مجهول. وهذا صحيح جزئياً ولكن الواقع أنها قد شئتت جسدها بعد أن حولته إلى سلعة في سوق الاستهلاك بين العرض والطلب، وبالمقابل أنزلت الرجل من عليائه لكي تحوله إلى سلعة استهلاكية أيضاً وتشيء موضوع رغبته. فهو أضحى بعد المضاجعة فاقد الرجولية مختزلاً أو لا يساوي أكثر من حفنة من الدولارات، مشيئاً في النهاية كباقي الأشياء لا اسم له (عادة ما يعرف عن نفسه باسم مستعار) وهي بالنهاية تعكس امرأة لكي يرى نفسه في صورتها يخجل منها ولكنها تهزأ منه لأنها كانت متخفية وراء المرأة تراقب ما حدث كأنها طرف ثالث تعطي جسدها من دون ذاتها، وتسخر منه ومن فحولته التي تلاشت وأضحى مخصياً لا يساوي أكثر من بضعة دولارات يدفعها ويذهب لكي يترك المكان لغيره. أضف إلى ذلك أنها تحول الدونية إلى قوة لتقلب المعادلة بينها وبين الرجل. والمال في مفهومه الرمزي يحول هذه المعادلة الجديدة إلى واقع يدفع الرجل من جيبه لأنه هو كان السبب.

أخيراً، كل النظريات التي بنيت على دونية المرأة على أساس حكم مسبق متوارث عبر التاريخ، من أنها كائن ذكر ينقصه الفالوس. فالعنصرية التي يعاني منها المجتمع الإنساني بدأ منذ أن ظهر هذا التمييز بين الرجل والمرأة على أساس مخلوق ناقص فتعمم ذلك على باقي الأشياء بين الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من حيث أن كل لون يعطي تمييزاً خاصاً لكل طرف يستطيع أن يصنف الآخر

بالدونية. ومنذ أن دخل المال في دائرة السلطة أصبح الحصول عليه يعطيه الحق بالانتقال من الدونية إلى الفوقية. والمرأة تسعى إلى المال لكي تغير هذه المعادلة سواء عبر التحصيل الخاص أو عبر جاذبيتها تجاه الرجل الثري لأن المال يدخل بالنسبة لها في موضوع رغبة سلطوية تتحكم بعلاقتها بهذا الرجل.

المحور الثاني
الوضع الاقتصادي للنساء
بين الهجرة والاستقرار



**LA FEMME MAROCAINE
IMMIGREE DANS
L'ESPACE ECONOMIQUE
DES PAYS D'ACCUEIL**

*"Un voyage s'inscrit simultanément
dans l'espace, dans le temps et dans la
hiérarchie sociale"*

Claude LEVI-STRAUSS :
Tristes Tropiques, Paris 1955

Introduction

Le XXIème siècle serait probablement celui de l'eau et de l'immigration. La question migratoire constitue désormais un enjeu essentiel dans les relations internationales. Dans ces flux migratoires, les femmes, 95 millions environ représentent près de la moitié de la population migrante (48,6%)⁽¹⁾. Cette importance de la migration féminine présente un intérêt certain pour la recherche, dans la perspective de combler les lacunes et les carences dont souffre cette question. En effet, les travaux de recherche disponibles ont rendu visibles certains aspects de la migration féminine ; celles portant sur les oppressions subies par ces femmes, basées sur l'ethnicité, la classe et le genre, ce qui est une réalité, mais leur visibilité dans l'espace économique, leur apport, leur capacité, leurs compétences, leur courage et leur résistance sont trop souvent occultés, de telle sorte que se développe

MOHAMED KHACHANI

(1) Commission mondiale sur les migrations internationales. www.gcim.org

une image tronquée des femmes migrantes : catégorie faible, vulnérable, soumise et victime de toutes sortes de discriminations⁽²⁾.

L'objectif de cette communication est de rendre plus visible la dimension économique de cette migration dans l'espace euro-méditerranéen, espace dans lequel le Maroc constitue un important foyer d'émigration. Dans ces flux, la migration économique féminine devient de plus en plus visible, la femme immigrée au même titre que l'homme investit le champ économique dans les pays d'accueil. Eu égard aux motivations, les liens de la migration avec l'argent sont directs et dans la plupart des cas quand la migration est autonome, la relation est de cause à effet. C'est en général, une situation de précarité ou celle visant l'amélioration des conditions de vie qui poussent les femmes à entreprendre le projet migratoire et à devenir des actrices actives et non passives de la migration.

L'examen de cette question renvoie à une série d'interrogations : comment la femme marocaine immigrée a investi le champs économique dans les pays d'accueil c-à-d l'épaisseur historique du phénomène? Quel est le profil de la femme marocaine immigrée dans cet espace économique? Quelle est la dimension de cette migration? Quels sont les secteurs investis et les formes de cette intervention, salariat ou activités indépendantes? Quel est l'impact de cette occupation du champ économique sur la condition de la femme marocaine immigrée?

Cette problématique à différents niveaux butte au niveau de l'analyse sur une carence documentaire notoire. Il y a un manque de statistiques et de données sociologiques, les statistiques disponibles sur la femme immigrée dans l'espace économique sont relativement rares et quand elles existent (dans certains pays d'accueil) elles sont souvent incomplètes, imprécises ou fragmentaires. De même, il existe peu d'enquêtes qualitatives sur la question.

Cette carence s'explique par le fait que la femme marocaine immigrée a occupé l'espace économique beaucoup plus tard que l'homme et par conséquent sa visibilité dans cet espace n'est devenue effective que durant les deux dernières décennies. Avant, même quand la question de la femme marocaine immigrée a été abordée, elle a été circonscrite dans des

(2) Malika Benradi. La mobilité des compétences féminines : vecteurs de changement et actrices du développement, In symposium Diaspora scientifique et intellectuelle en Europe et la mobilité Sud-Nord des personnes hautement qualifiées. Joensuu Yliopisto Academy Of Finland. 5-7 juin 2007.

domaines spécifiquement féminins comme la famille et les enfants. En dépit d'un certain intérêt pour la question féminine, à partir des années 80, la femme est restée fondamentalement l'actrice culturelle de l'immigration, l'homme l'acteur économique. Mais cette tendance semble se corriger et la femme investit de plus en plus l'espace économique à la recherche de meilleures conditions de vie⁽³⁾.

L'approche que nous adoptons est empirique fondée sur l'observation de la migration féminine à travers les rares enquêtes et études disponibles sur la question ; elle est également historique fondée sur l'analyse de l'évolution de cette migration.

I- Les flux migratoires féminins du Maroc

Globalement, on peut distinguer trois phases dans l'émigration féminine marocaine:

- La première phase, celle des années 60 et du début des années 70 intéresse essentiellement la **population masculine**. Dans ce flux d'émigration économique, la femme marocaine était très peu présente.

- La deuxième phase voit l'arrivée de la femme marocaine dans les pays d'accueil dans le cadre du **regroupement familial** et rarement elle émigre seule. Ce cycle migratoire démarre dans les années 70 et engendre une implication certes timide mais soutenue de la femme marocaine dans le marché du travail.

Le regroupement familial prévu par les conventions bilatérales de main d'œuvre a été autorisé en vertu du principe selon lequel la famille offre un "cercle protecteur" qui favorise l'adaptation socioculturelle de l'immigré et garantit sa solvabilité économique⁽⁴⁾.

Ce phénomène a été très important en France (où, par exemple, la part des effectifs féminins dans la population totale marocaine est passée de 26,7% en 1975 à 39% en 1982⁽⁵⁾) En Belgique, aux Pays Bas et en

(3) En fait , les femmes marocaines expatriées commencent à investir tous les champs : l'enseignement supérieur, la recherche, la médecine, la pharmacie, l'architecture, le barreau, la justice, la littérature, la musique, le cinéma, ..

(4) ADRI : L'insertion socioprofessionnelle des femmes d'origine étrangère. Savoir et Perspectives. Juin, 1994. P 81.

(5) On enregistre la même tendance pour les autres ressortissantes maghrébines : le nombre d'Algériennes venant s'installer à la faveur du regroupement familial entre les mêmes échéances est dix fois supérieur à celui des hommes. La proportion des femmes

Allemagne, on relève la même tendance. Le regroupement familial a permis l'installation de nombreuses familles dans ces pays, par contre, il est resté, durant cette phase, marginal dans d'autres pays d'immigration récente comme l'Espagne et l'Italie.

Dans cette vague d'émigration, on retrouve globalement deux catégories de femmes : celles, en général d'origine rurale, qui continuent à vivre comme au pays se conformant à la division sexuelle du travail, à la distribution des rôles et des tâches qui découlent de l'organisation familiale de la société d'origine (s'occupant du foyer et des enfants), et celles qui, même sans expérience professionnelle, par nécessité ou influencées par les modèles véhiculés par la société d'accueil, ont commencé à travailler après être restées un certain temps inactives.

Par ailleurs, le développement de l'émigration familiale a provoqué un rajeunissement de la population immigrée. Les nouvelles générations arrivées à l'âge adulte se sont mises à la conquête de l'espace économique⁽⁶⁾, leur apparition dans cet espace s'inscrit dans la troisième phase de l'immigration.

Cette troisième phase est marquée par une nouvelle tendance des flux migratoires qui s'est développée à partir principalement de la deuxième moitié de la décennie 80. Les femmes migrent de plus en plus en leur qualité **d'entités économiques autonomes** et non à charge des migrants de sexe masculin. L'émigration féminine autonome est le fait de femmes surtout célibataires, parfois mariées avec ou sans enfants. Ces femmes souhaitant améliorer leurs conditions de vie arrivent dans les pays d'accueil à la recherche d'un travail. Leur départ correspond toujours à un désir d'émancipation par la migration. Dans ce groupe, de nombreuses étudiantes issues des classes moyennes et favorisées sont arrivées, avec un bac ou une maîtrise en poche, et toutes ne sont pas rentrées au pays à l'issue de leurs cursus universitaires.

Le profil de la communauté marocaine immigrée en Europe a beaucoup changé au cours des dernières décennies. Il tend notamment vers une

Tunisiennes présente également une tendance à la hausse passant de 30,9% en 1975 à 38,2% en 1982 pour atteindre 41,1% en 1990.

(6) Dans ce groupe, on retrouve celles qui ont brillé par leur réussite dans d'autres domaines: en politique : ministres(Rachida Dati, Gardes des Sceaux en France, Fadela Laanane , ministre de la culture en Belgique,..), sénatrices, députées, conseillères communales. D'autres se sont distinguées dans d'autres domaines, tels le spectacle (Saïda Churchill), la chanson (Sophia Mestari).

structure par sexe et par âge plus équilibrée, en raison, d'une part, de la féminisation et du rajeunissement de la population immigrée par l'arrivée massive des femmes et des enfants dans le cadre du regroupement familial et de l'émigration féminine autonome.

Selon l'enquête réalisée par le Centre d'Etudes et de Recherches Démographiques (CERED) la part des femmes marocaines expatriées dépasse les 45%. Cette migration est relativement plus importante en France, au Royaume Uni et aux Pays Bas. Cette présence est relativement moins importante dans les pays d'immigration récente comme l'Espagne et l'Italie

Tableau 1- Répartition (%) de l'ensemble des Marocains résidant à l'étranger selon le pays de résidence et le sexe

Pays de résidence actuel	Sexe			Effectif
	Masculin	Féminin	Total	
Espagne	58,8	41,2	100,0	1997
France	52,4	47,6	100,0	5294
Allemagne	55,7	44,3	100,0	230
Italie	58,5	41,5	100,0	1408
Belgique	53,5	46,5	100,0	983
Hollande	52,9	47,1	100,0	868
Angleterre	52,4	47,6	100,0	126
Autre pays d'Europe	57,1	42,9	100,0	42
Total	54,6	45,4	100,0	10948

Source : CERED (Haut Commissariat au Plan) : l'Enquête sur l'Insertion Socio-économique des Marocains Résidant à l'Etranger (MRE) dans les pays d'accueil, 2005. P 22.

Par groupe d'âge, cette migration est plus concentrée sur la tranche d'âge 15-59 ans qui regroupe plus des deux tiers des femmes migrantes.

Tableau 2- Répartition (en %) des Marocains résidant à l'étranger par groupes d'âge

Groupe d'âges	Hommes	Femmes	Total
moins de 15 ans	50,6	49,4	100,0
	26,9	31,5	29,0
15-59 ans	55,1	44,9	100,0
	68,8	67,4	68,2
60 ans et+	83,0	17,0	100,0
	4,3	1,1	2,8
Total	54,6	45,4	100,0
	100,0	100,0	100,0

Source : CERED(HCP): idem. P 25.

Au Royaume Uni, les femmes marocaines sont plus nombreuses que les hommes, on estime leur effectif à 40.000 sur une population migrante totale de 60.000. C'est l'un des rares pays où se sont les femmes qui ont émigré en premier et les hommes ont suivi après. Les femmes travaillaient au départ dans l'hôtellerie, la restauration et l'agriculture⁽⁷⁾.

Le cas espagnol paraît intéressant du fait de la croissance particulièrement rapide de l'effectif migratoire féminin dans ce pays durant la dernière décennie. En 2005, les femmes marocaines (170 498) représentaient le tiers de l'ensemble des Marocains en Espagne. Ce degré de féminisation est plus important que celui des ressortissants de certains pays comme l'Egypte (23,4%), l'Algérie (24,1%), la Tunisie (27,8%), la Turquie (31,1%) et la Jordanie (31,8%). Il est moins important que celui d'autres pays comme la Syrie(36,7%) ou le Liban(36%). Mais en terme d'effectif, le nombre de femmes marocaines demeure le plus important.

Dans les pays du Golfe, les femmes représentent une proportion

(7) Abdellah Alaoui (directeur de banque à Londres) : La contribution économique des femmes marocaines immigrées en Angleterre. In colloque organisé par le Conseil de la Communauté Marocaine à l'Etranger(CCME) sur le thème : Marocaines d'ici et d'ailleurs: Mutations, défis et trajectoires. Marrakech. 19-20 décembre 2008

importante de l'effectif migratoire. La seule estimation disponible concerne les Emirats Arabes Unis où sur la base des informations recueillies localement, 70% de migrants sont de sexe féminin et 30% de sexe masculin. C'est une population qui vit dans un contexte socio-économique particulier, qui est astreinte à des normes juridiques particulières s'inspirant des traditions locales, sans rapport avec les normes universelles (l'institution de la kafala, l'absence d'une législation moderne de travail,) ; et qui est confrontée, par conséquent, à des problèmes particuliers⁽⁸⁾.

II - Les déterminants de l'émigration féminine

Au Maroc, la migration est devenue un phénomène sociétal voire même une culture, des Marocaines n'hésitent plus à se lancer dans l'aventure migratoire voire à risquer leurs vies en émigrant clandestinement dans des embarcations de fortune (les pateras).⁽⁹⁾

Si l'émigration dans le cadre du regroupement familial avait des causes essentiellement culturelles, l'émigration féminine autonome a des causes fondamentalement économiques; la crise qui a frappé l'économie marocaine à partir de la fin des années 70 a engendré des disfonctionnements qui se sont intensifiés à partir du début de la décennie 80. Les mesures prises dans le cadre du Programme d'Ajustement Structurel ont permis de réaliser certaines performances au niveau des équilibres financiers, mais leur impact sur l'emploi en général et l'emploi des femmes en particulier a été très négatif. Les femmes sont plus affectées par le chômage à cause de leur statut socio-économique qui les place invariablement dans les groupes les plus vulnérables de la population.

L'extension du chômage demeure donc la principale cause d'émigration féminine autonome. La plupart de ces femmes sont pauvres, peu éduquées et issues souvent du milieu péri- urbain; le facteur principal qui explique leur vulnérabilité est la détresse économique dans laquelle vivent leurs familles. Les femmes diplômées ou à statut économique plus élevé sont moins nombreuses. Au Maroc, l'analyse de la population active fait ressortir une intégration croissante de la femme au marché de l'emploi. En effet, le taux de féminisation de la population active est passé de 19,7% en 1982 à 27,6% en 2007. Cette remarquable évolution est le produit de l'ouverture enregistrée

(8) Voir Mohamed Khachani : Les Marocains dans les pays arabes pétroliers. Publications de l'Association Marocaine d'Etudes et de Recherches sur les Migrations. Rabat 2008

(9) Le journal espagnol ABC du 23 Juin 1999 rapporte le cas d'une patera qui a été interceptée par la Guardia Civil avec, à son bord, un passeur et 15 femmes marocaines.

au Maroc en matière des droits des femmes. Mais cette féminisation prononcée butte contre un certain nombre d'obstacles ; les femmes sont encore victimes de discrimination en matière d'emploi en particulier en milieu urbain.

Tableau N°3

Les indicateurs du chômage selon le milieu de résidence et le sexe

Indicateurs	Rural	Urbain	Ensemble
- Population active en chômage (en milliers)	206	886	1 092
- Taux de féminisation de la population active en chômage (en %)	14,3	30,3	27,3
- Taux de chômage (en %)	3,8	15,4	9,8
- Taux de chômage selon le sexe (en %)			
. Masculin	4,8	13,9	9,8
. Féminin	1,7	20,8	9,8

Direction de la Statistique (HCP) : Activité, emploi, chômage. 2008

Même si le taux de pauvreté a régressé passant de 19% en 1998-1999 à 14,2% en 2004, les femmes demeurent plus vulnérables que les hommes. Cette situation s'explique par le faible niveau des revenus, faiblesse aggravée par le non respect du salaire minimum légal, discrimination dont sont victimes les femmes plus que les hommes, même dans certains secteurs structurés comme l'industrie de la confection. Le salaire minimum légal demeure, certes, une norme juridique, mais ne semble pas avoir d'effet contraignant. Cette norme est respectée principalement dans des branches demandant une certaine qualification et dans les grandes entreprises.

Ainsi, le différentiel des salaires demeure motivant pour s'expatrier. Cet écart, même corrigé par le pouvoir d'achat de la monnaie, demeure important et exerce un puissant attrait sur les migrantes potentielles. Le salaire moyen, beaucoup plus élevé dans les pays du Nord, évolue en fonction du coût de la vie. Au Maroc, le Salaire Minimum Interprofessionnel Garanti (SMIG) fixé à 183 Euros environ, apparaît très faible comparé à certains pays de l'Union Européenne : Luxembourg (1403 Euros), les Pays Bas (1265 Euros), la

Belgique (1186 Euros), la France (1173 Euros), le Royaume Uni (1083 Euros), l'Espagne (537 Euros) et le Portugal (498 Euros).

A cet égard, la part des « **working poors** » c'est à dire les femmes qui ont un emploi mais qui reçoivent des rémunérations trop faibles pour vivre décemment, demeure importante. Dans les villes comme dans les campagnes, un grand nombre de candidates à l'émigration appartient à cette catégorie.

Mais si les causes économiques sont autant de facteurs d'émigration, l'idée d'émigrer peut ne pas se manifester chez des candidates potentielles. L'incubation du projet d'émigrer est souvent enclenchée sous l'effet d'autres facteurs d'attraction qui sont fondamentalement d'ordre socio-psychologique: l'image de réussite sociale⁽¹⁰⁾ qu'affichent les immigrés (es) de retour au pays pendant leurs vacances annuelles; la révolution de la communication qui renforce par l'image diffusée inondant l'espace audiovisuel marocain, le mythe de l'occident; la multiplication des moyens de transport rendant plus facile et moins cher l'accès aux destinations lointaines, la proximité géographique de l'Europe (à 14 km des côtes marocaines). Enfin, l'existence dans les pays de destination d'une demande de travail spécifique répondant pour des raisons de coût et de flexibilité aux besoins d'un marché secondaire, caractérisé par des emplois précaires et/ou socialement indésirables pour les populations autochtones.

Vers les pays du Golfe, les motivations de la migration féminine sont en

(10) Dans le cadre d'un travail de recherche que nous avons co-dirigé sur le travail des enfants au Maroc, il est intéressant de raconter l'histoire d'une petite bergère de 9 ans habitant un village du nord du Maroc et qui, sollicitée pour répondre à une question sur ses aspirations pour l'avenir, avait formulé une réponse tranchée : " moi , je veux émigrer en Espagne" (les autres réponses dans ce sens émanaient de jeunes filles plus âgées: 12-14 ans et surtout citadines). Comment une petite fille rurale d'un tel âge pourrait-elle avoir un projet d'avenir aussi lourd de conséquences ?

L'étude de ce cas a permis de relever que cette aspiration s'explique par la fascination exercée par une femme du village qui a émigré en Espagne en laissant le mari s'occuper des enfants et du foyer. Cette femme migrante a construit une grande maison au village et chaque fois qu'elle revenait en vacances, elle étalait des signes d'enrichissement. Cette femme incarne dans l'imaginaire de la petite bergère, le symbole de la réussite sociale, au même titre que l'incarnation pour les garçons les hommes immigrés. In Khachani,M, Benradi,M, Guesous, Ch, et Tebbaa, J et autres, 1995 : Le travail des enfants au Maroc. Association Marocaine d'Aide à l'Enfant et à la Famille. Casablanca. 1995. Document non publié.

général les mêmes, mais avec certaines spécificités. La fermeture des frontières en Europe, l'appartenance à la sphère culturelle arabo-musulmane (langue, religion,) et les opportunités d'emploi (travaux domestiques, coiffure, nursing, hôtellerie) constituent les principaux facteurs d'appel.

Autant de facteurs qui ont engendré une forte propension de la femme marocaine à émigrer et un changement dans la réaction sociale à l'égard du projet migratoire. Selon une enquête réalisée au Maroc, le projet migratoire de la femme, même célibataire, est approuvé ou toléré à la fois par deux échantillons distincts sélectionnés : les migrants actuels et les non migrants à hauteur respectivement de 53,3% et 24,8% en milieu rural et 53,6% et 43,3% en milieu urbain⁽¹¹⁾.

III- Le profil de la femme marocaine immigrée dans l'espace économique

A la lumière de l'évolution tracée de l'immigration féminine, quel profil peut-on dresser de la femme marocaine dans l'espace économique des pays d'accueil, sachant que l'effectif migratoire correspond à un ensemble hétérogène, à une grande diversité de situations, d'itinéraires, de formes d'insertion et de potentialités socio-économiques et culturelles ?

C'est une femme en général plus jeune que l'homme, d'immigration assez récente, une féminisation retardée certes mais accélérée avec une part sans doute importante de jeunes filles de la seconde génération ayant acquis ou non la nationalité du pays d'accueil.

En ce qui concerne le niveau d'instruction, un grand nombre de femmes marocaines migrantes sont analphabètes, sans qualification, surtout celles qui ont émigré dans le cadre du regroupement familial ; les plus instruites sont des jeunes, celles de la deuxième génération ou celles appartenant à la vague récente d'immigration ou celles ayant poursuivi des études et préféré rester dans les pays d'accueil.

La proportion des migrantes marocaines n'ayant jamais ou pas encore fréquenté l'école, est de 29,2%, celles des migrantes ayant un niveau secondaire est de 35,8%, alors que presque 15% ont un niveau supérieur.

(11) Voir l'enquête INSEA : Les Marocains résidant à l'étranger. Al Maarif Al Jadida. Rabat.2000.

Tableau N° 4
Niveaux d'instruction des femmes marocaines migrantes dans
les pays de l'OCDE

	Niveaux	Primaire	Secondaire	Tertiaire	Total
1990	Femmes	215807	38027	30174	284008
	Total Migrants	527762	95745	87421	710928
2000	Femmes	332985	76572	58873	468430
	Total	764738	190815	155994	1111547

Source : F.Docquier, L.Lowell, A.Marfouk : « A gender assessment of the brain drain » IZA, December 2007.

L'insertion de ces femmes dans le marché du travail se fait différemment selon des catégories se distinguant par leur statut juridique et social:

-les femmes entrées clandestinement aux pays d'accueil se différencient par leur statut d'illégalité. Ces femmes victimes de leur fragilité juridique occupent des emplois plus précaires (services domestiques, restauration, agriculture), perçoivent des salaires plus bas et ont des horaires de travail plus longs.

-Les femmes de courants migratoires anciens connaissent souvent une situation précaire dans le marché de l'emploi et ne se distinguent des clandestines que par la légalité de leur séjour.

-les femmes naturalisées "noyées" du fait de la naturalisation parmi les autochtones se prêtent difficilement aux études mais sont plus avantagées du fait de leur statut.

-la seconde génération se démarque, par contre, par un niveau d'instruction et d'aspirations plus élevées. Les jeunes filles de cette génération se dirigent principalement vers le tertiaire structuré (commerce, banque, etc) , pour les naturalisées, les emplois de la fonction publique sont également ouverts.

-Les femmes immigrées diplômées, même si elles occupent une position privilégiée, leur arrivée conduit assez souvent à un déclassement prononcé et durable vu les conditions actuelles du marché du travail.

-Les cadres (chercheuses dans des laboratoires, enseignantes, cadres d'entreprises,etc) ainsi que les indépendantes et les entrepreneures voient

leur nombre augmenter avec le rajeunissement et la féminisation croissante de la population migrante.

Le Maroc comme les pays du Sud est devenu pourvoyeur de compétences. Cette fuite des cerveaux est encouragée par les politiques publiques dans les pays développés et par des motivations personnelles animées d'un désir de réussite individuelle.

IV- Les secteurs d'emploi

Nous ne disposons pas de statistiques complètes sur les secteurs investis par la femme au travail. L'entreprise est d'autant plus complexe qu'il existe un marché de l'emploi parallèle où les femmes travaillent au noir et que par ailleurs, les naturalisations créent souvent des confusions dans les statistiques.

Les emplois occupés par les femmes migrantes dépendent de leurs profils. Pour celles non ou peu qualifiées et qui constituent l'effectif le plus important, elles investissent principalement certains secteurs comme les services, l'agriculture et l'industrie.

Tableau N°5
Secteurs d'emploi des migrants marocains par sexe en %

Secteurs	Sexe		
	Hommes	Femmes	Total
Agriculture, forêt et pêche	8,8	2,6	7,2
Industrie	30,0	16,4	26,4
BTP	22,2	1,3	16,8
Commerce	10,2	14,1	11,2
Transport, entrepôt et communication	6,9	3,9	6,1
Réparation	2,9	-	2,2
Administration générale	2,4	6,9	3,6
Services sociaux fournis à la collectivité	6,0	24,1	10,7
Autres services	10,5	30,2	15,7
Total	100,0	100,0	100,0

Source : CERED(HCP) : op.cit, p 137.

Selon l'enquête menée par le CERED, la répartition de l'emploi des Marocains expatriés par sexe et par catégories socio- professionnelle fournit des informations intéressantes sur les secteurs investis par les femmes migrantes:

Le secteur d'activité qui absorbe le plus de main d'œuvre féminine, qu'elles soient migrantes autonomes ou arrivées dans le cadre du regroupement familial, est sans doute le tertiaire. Ce secteur enregistre une offre considérable d'emplois à durée déterminée, flexibles, généralement peu qualifiés, et donc boudés par les femmes autochtones, à laquelle l'immigration offre une réponse adéquate. Ces emplois sont situés en dehors de l'échelle de la promotion sociale et donc sans attrait pour les autochtones et sont considérés comme une extension des activités réalisées par les femmes dans la sphère privée. Les femmes autochtones se déchargeant des tâches domestiques ou assimilées sur les femmes migrantes, celles-ci occupent des emplois domestiques en laissant leur(s) propre(s) enfants aux soins d'autres femmes (de la parenté ou des personnes recrutées à cet effet). Dans ces conditions, l'enrichissement matériel de la migrante s'accompagne d'un appauvrissement affectif et psychique de ses enfants.

En général, les femmes migrantes sont en grande majorité recrutées dans les emplois de service: commerce, restauration, travaux de nettoyage et surtout, comme on vient de le souligner, les services domestiques (femmes de ménage, cuisinières, nurses, baby-sitter, assistantes pour personnes âgées, etc).

Les données disponibles pour certaines pays confirment cette prépondérance de l'emploi tertiaire. En France, par exemple, nous disposons des données suivantes pour les femmes maghrébines:

Tableau N°6
Actives maghrébines occupées dans le secteur tertiaire en France

	Algériennes	Marocaines	Tunisiennes	Total
Population active(1)	64.830	52.235	20.864	137.929
Emploi dans le tertiaire(2)	59.773	45.868	16.912	122.563
(2)/(1)	92,2%	87,8%	81,1%	88,8%

Source : INSEE : Enquête sur l'emploi, mars 2000

Près de 9 marocaines immigrées sur 10 sont employées dans le tertiaire. Mais si la tendance est à la croissance de l'emploi tertiaire chez la population marocaine, ce tertiaire est cependant plus instable et moins qualifié que le tertiaire occupé par les Françaises. Les Marocaines en particulier se substituent aux Espagnoles dans les services domestiques⁽¹²⁾.

En Espagne, l'importance du travail domestique surtout dans les grandes villes s'explique, comme le note Pablo Pumares, par l'essor que connaît la classe moyenne dans ce pays à partir de la décennie 80. L'extension du modèle "couple moderne avec enfants" accule les conjoints qui travaillent à faire appel à des employées de maison. Comme ces couples préfèrent que les domestiques résident avec eux et que les Espagnoles "répugnent" à cette condition, cela convient mieux, par exemple, aux migrantes du Sud comme les Marocaines qui économisent ainsi les dépenses du loyer⁽¹³⁾.

En Italie, on retrouve la même situation. Depuis 1990, les visas d'entrée en Italie pour motif de travail sont octroyés quasi exclusivement à celles qu'on appelle les "collaboratrices domestiques".

Une autre forme d'emplois signalée en France et qui échappe à la réglementation est la sous-traitance. Ici, la demande de main d'œuvre féminine augmente notamment dans les entreprises de nettoyage industriel. L'interdiction d'employer des étrangères dans le secteur public est contournée par la solution de la sous-traitance qui n'offre pas les mêmes prestations sociales aux femmes employées.

Enfin, le secteur de la prostitution occupe également des femmes immigrées ; l'existence de réseaux de prostitution où sont impliquées des Marocaines est signalée de temps en temps par les médias⁽¹⁴⁾ ou par certaines ONG, telles les ONG Espagnoles l'IOE et l'ACSUR. Ces réseaux abusent ainsi de la vulnérabilité de ces migrantes et de la fragilité de leur statut juridique, la plupart d'entre elles étant en situation irrégulière⁽¹⁵⁾.

Dans les pays du Golfe, l'emploi des femmes immigrées marocaines est

(12) ADRI. Op.cit.

(13) Pablo Pumares: « Structure démographique et socio professionnelle/radiographie de la population marocaine immigrée régularisée en 1991 ». in : l'Annuaire de l'émigration. Maroc. Afrique- Orient Casablanca 1994

(14) Al Masae du 11/09/2007 et en particulier le numéro spécial de l'hebdomadaire AIMichaâl N° 78 du 27 juin -3 juillet 2006

(15) Tel Quel N° 166 du 1er janvier 2009.

relativement important, elles enregistrent une forte présence dans les services domestiques (nurses, femmes de ménage,...) et dans l'industrie du « divertissement ». Mais, il est fréquent que les emplois occupés ne correspondent pas à l'activité indiquée dans le contrat du travail et assez souvent ces femmes sont victimes de réseaux de prostitution.

Cette importance de l'emploi féminin dans le tertiaire s'explique par les facteurs suivants :

- L'accès, après le « boom pétrolier », de larges couches de la population des pays du Golfe à des services tels ceux dispensés par les femmes de ménage, les gouvernantes, les nurses et les accompagnantes, emplois réservés exclusivement aux femmes.

L'interdiction faite aux femmes autochtones, dans les pays du Golfe, d'exercer certaines activités⁽¹⁶⁾ (particulièrement dans les services hôteliers).

Enfin, certaines fonctions, sans être interdites, sont sanctionnées socialement. Par conséquent, les énormes besoins de main d'œuvre sont satisfaits par le recours à la main d'œuvre étrangère sans que des efforts particuliers soient faits pour recruter la force de travail féminine autochtone⁽¹⁷⁾.

En Espagne, l'agriculture est un secteur demandeur de la main d'œuvre féminine. A cet égard une convention a été signée entre l'Agence Nationale de la Promotion de l'Emploi et des Compétences et la commune de Cartaya en Espagne pour recruter cette main d'œuvre. Cette convention est conclue pour une période d'une année renouvelable par tacite reconduction. Elle a permis le recrutement de 1.200 ouvrières agricoles en 2005, 9905 en 2007 et prévoit un recrutement de 12.000 en 2008. Les migrantes sont en majorité d'origine rurale, elles travaillent trois mois à la collecte des fraises et perçoivent un salaire journalier de 32,45 Euros par jour, soit plus de 7 fois le SMAG marocain (Salaire minimum agricole garanti) qui ne dépasse pas les 4,6 Euros par jour, le logement étant assuré par l'employeur.

Les critères de sélection de ces femmes obéissent à des normes strictes ; les candidates doivent avoir moins de quarante ans, être mères de famille et obtenir l'autorisation de leurs époux. Elles doivent selon les termes du contrat impérativement revenir au Maroc.

(16) En Arabie Saoudite, par exemple, on estime que l'octroi du droit de conduire à la femme permettrait d'économiser 100.000 emplois occupés par des chauffeurs étrangers.

(17) Philippe Fargues : Réserve de main d'œuvre et rente pétrolière. Etude démographique des migrations du travail vers les pays arabes du Golfe .Beyrouth. CERMOC. 1980.

Force est de constater cependant qu'une autre catégorie de femmes migrantes, moins importante, investit les activités entrepreneuriales et indépendantes.

V - Travailleuses indépendantes et entrepreneures

Le mouvement de création d'activités indépendantes par les migrantes marocaines (entreprises, professions indépendantes,) constitue une forme particulièrement originale d'intégration dans les sociétés d'accueil.

Les motivations sont très diverses et souvent multiples. Pour les unes, c'est avant tout le goût d'autonomie et d'indépendance, le désir d'entreprendre qui sont à l'origine de leur projet; mais pour la plupart, cette initiative est la conséquence de la conjoncture économique et présente souvent la seule issue à une situation de précarité. Le développement du statut d'indépendante apparaît ainsi comme la conséquence des discriminations subies dans le marché du travail, les femmes subissant doublement la discrimination en tant que migrantes et en tant que femmes.

Pour beaucoup de femmes, le recours à l'auto-emploi sous forme de micro-entreprise individuelle, s'impose à elles du fait de la situation difficile sur le marché de l'emploi; un grand nombre de ces femmes ont créé leur entreprise après un long parcours de travail temporaire et de chômage. L'atout réside dans l'existence d'un marché constitué par la communauté marocaine qui peut, grâce à ces femmes, satisfaire des besoins spécifiques comme la restauration, la pâtisserie, la coiffure, l'organisation de fêtes, la confection traditionnelle, etc.

Pour ces femmes migrantes, créer sa propre entreprise signifie « créer son emploi » et ne plus dépendre des aléas du marché du travail⁽¹⁸⁾. Cependant, ce projet demeure « un parcours de combattant ». L'entreprise n'est pas facile parce que la femme marocaine immigrée devra convaincre non seulement l'extérieur dans l'espace public, mais elle devra convaincre aussi sa famille et son entourage, ce qui dans son cas est un véritable défi.

Une fois la décision avalisée par la famille, le soutien familial devient important pour la réussite du projet. Il y a une forte intervention de la famille ou de la communauté ethnique dans la réalisation du projet, dans l'aide à la gestion et dans des tâches particulières comme la conquête de marchés ou de débouchés.

(18) Ruth Padrum, (sous la direction de): Vivre et entreprendre en France, IRFED 1990

Cette question souffre des mêmes contraintes méthodologiques, les études sur les femmes immigrées ayant le statut d'"indépendants" ou d'entrepreneurs sont rares et encore plus quand il s'agit d'une catégorie spécifique comme les Marocaines.

Selon l'enquête réalisée par le CERED, les femmes ayant les statuts d'employeurs et indépendantes représentent 5% des femmes migrantes, les hommes 10,9% du collectif masculin, la moyenne pour les deux sexes s'élève à 9,4% , ce qui dénote l'importance relative de l'entrepreneuriat féminin.

En France, les organismes ou associations d'aide à la création d'entreprises constituent des sources d'information pour les études sur la question.

Depuis 1990, l'IRFED(Institut de Recherche et Formation Education et Développement) a mis en place une action pilote de formation à la création d'entreprises⁽¹⁹⁾ avec des femmes de cultures, origines et nationalités diverses, au chômage de longue durée ou bénéficiaires du RMI(Revenu Minimum d'Insertion) mais toutes porteuses d'un projet de création d'entreprise.

Chaque année, environ 600 femmes s'adressent à l'IRFED EUROPE pour une demande de formation ou d'appui, environ 75% sont immigrées ou issues de l'immigration, originaires d'environ 50 pays différents dont le Maroc (15% des stagiaires entre 1993 et 2000 sont maghrébines). Les unités créées par les Maghrébines concernent principalement les services marchands: restauration, hôtellerie, coiffure, commerce alimentaire et non alimentaire et services divers. Ces activités se sont diversifiées quant à leur contenu et quant à leur clientèle, elles peuvent ou non être liées à un savoir faire d'origine et cibler ou non une clientèle mixte.

En Italie, le projet piloté par une coopérative " Progetto Integrazione" à Bologne, a pour objectif de former des femmes pour l'entrepreneuriat dans le secteur de la confection sur mesure et de la réparation des vêtements.

(19) Les formations sont gratuites et se déroulent en trois phases: La première est consacrée à la prise de contact et à l'étude des différents projets pour en déterminer la viabilité. La deuxième consiste en un stage de six semaines complètes, au cours duquel les participantes vont se familiariser avec les principaux aspects de la création d'entreprise (étude de marché, marketing, comptabilité, gestion, structures juridiques, plan de financement, fiscalité, vente). Enfin, une troisième phase prolonge le stage par un suivi individuel ou collectif des créatrices.

Voir <http://www.irfed-europe.org/methodes.htm>

Pour d'autres pays, nous ne disposons que de données fragmentaires et éparses. En Belgique, le groupe le plus important des entrepreneurs extra communautaires est celui des Marocains, soit 8% du total. Des Marocaines font très probablement partie de cet entrepreneuriat ethnique ("ethnic niche" ou "créneau ethnique"), constitué de l'ensemble de petits magasins, restaurants, services et entreprises artisanales.

Aux Pays Bas, les femmes représentent 12% des entrepreneurs marocains⁽²⁰⁾ Certains témoignages rapportés par August CHOENNI le confirment; l'une de ces femmes ayant réussi à monter un commerce florissant de vêtements de cuir et agissant en femme moderne et ambitieuse déclare: "je ne veux rien d'autre qu'être maîtresse de mon destin". Une autre justifie ainsi son projet : «le désir de montrer aux gens ce que j'étais capable d'accomplir après mon divorce". Une troisième exprime sa fierté de réussir à concilier entre ses responsabilités de patronne et ses devoirs familiaux et conjugaux.

VI - Les incidences de la migration féminine :

Ces incidences sont à saisir à deux niveaux : au niveau de la condition de la femme migrante et au niveau de l'impact économique sur le pays d'origine.

(i) Sur le statut de la femme migrante : Du statut de sujet familial à celui d'acteur économique :

En dépit des difficultés auxquelles demeure confrontée la femme marocaine pour s'intégrer dans les sociétés d'accueil, son implication dans l'espace économique a eu des effets positifs sur sa condition au sein de la famille. En effet, l'immigration économique constitue un facteur de mutation

(20) Ministère des affaires économiques : Ondernemer-Shap monitor 2006. Une success story impressionnante mérite d'être citée, Rahma El Mouden, 48 ans ; elle a été nommée "Amstellodamienne de l'année" en 2005, et a été reçue par la reine. Poussée par sa famille à épouser un Marocain déjà installé aux Pays-Bas, Rahma débarque à Amsterdam à l'âge de 16 ans, et deux ans après, elle est déjà mère de deux enfants. Contrairement à beaucoup de ses compatriotes, elle apprend rapidement le néerlandais, tout en travaillant comme femme de ménage. En 1997, elle décide de monter sa propre compagnie de nettoyage avec sept de ses collègues. Dix ans plus tard, son entreprise : Nettoyage Multiculturel d'Amsterdam emploie 330 personnes et affiche 5,5 millions d'euros de chiffre d'affaires. Son succès s'explique largement par la motivation d'une équipe constituée majoritairement de femmes immigrées et dans laquelle l'entreprise investit réellement, en assurant une formation professionnelle et linguistique.

du statut de la femme; de sujet familial, elle devient un acteur économique. En investissant l'espace public, elle s'affranchit des contraintes de l'espace privé.

Pour nombre de femmes immigrées, l'insertion dans l'espace économique est l'occasion de s'émanciper des liens et contraintes qu'impose la famille traditionnelle; les revenus perçus constituent pour les femmes un instrument de conquête de l'autonomie et un objectif d'enrichissement à terme de la cellule familiale.

Ainsi, la femme salariée ne dépend plus totalement du mari, elle participe au budget familial, à la gestion du foyer, au choix des placements de l'épargne, comme elle intervient de plus en plus dans les décisions importantes du ménage.

Le facteur financier est sans doute la cause fondamentale qui incite le mari à s'affranchir des différentes contraintes sociales pour laisser sa femme travailler. Cette décision qui pour certains immigrés tels ceux originaires de la région du Rif au Nord du Maroc, réputés être très conservateurs⁽²¹⁾, constitue une véritable révolution, est favorisée par un relâchement du contrôle social et en particulier l'absence du contrôle social familial.

Ce motif de soutien familial, se retrouve également chez les immigrées célibataires qui pour la plupart ont une responsabilité vis à vis de leurs parents restés dans les pays d'origine. L'absence de contrôle social accule ces migrantes à occuper des emplois qui transgressent parfois les normes et les traditions afin de répondre à l'image de réussite sociale associée aux migrants et migrantes.

Ce sentiment d'autonomie voire même d'indépendance se confirme encore plus chez les femmes migrantes ayant le statut d'"indépendants" ou d'« entrepreneurs ».

(ii) L'impact sur la société d'origine :

Enjeu essentiel de la problématique migratoire à la fois aux niveaux micro-économique et macro-économique, les transferts des fonds constituent une source appréciable de devises pour les finances du pays

(21) Et qui résident principalement aux Pays Bas et en République Fédérale d'Allemagne. cf. Khamlichi F: " l'honneur et l'émigration dans la région du Rif Central(ville d'Al Hoceima et tribu des Béni Ouriaghel)". DES en Sociologie. Faculté des Lettres .Rabat.

d'origine⁽²²⁾. Le Maroc est classé parmi les 10 premiers pays au monde percevant les transferts des expatriés. Entre 1970 et 2006, le volume de ces transferts officiels (en valeur nominale) a été multiplié par près de 149,5 fois passant de 320 millions à 47.833,8 millions de dirhams (1Euro = environ 11 dirhams)

Les femmes migrantes contribuent au développement économique de leur pays d'origine par les envois de fonds et par les investissements réalisés.

Bien que l'on sache peu de choses sur les différences de comportement à l'égard des transferts de fonds entre les hommes et les femmes migrants, certains éléments laissent penser que les secondes envoient une plus grande partie de leur revenu à leur famille. Dès lors que les femmes migrantes gagnent souvent moins que leurs homologues masculins, elles ont une propension à épargner et par conséquent à envoyer des fonds relativement plus importante. C'est particulièrement vrai pour la femme migrante au Royaume Uni pour lesquels les informations sur les transferts sont disponibles. Dans ce pays, on estime que sur un total, de 2,5 milliards de dirhams de transferts, 65% de ce montant sont effectués par des femmes migrantes soit 1,5 milliards de Dhs.⁽²³⁾

L'émigration dans les pays du Maghreb, étant fondamentalement une émigration économique, le comportement économique de la migrante est assez typé : les revenus sont affectés en priorité à la satisfaction des besoins fondamentaux de l'immigrée et de sa famille. Une partie de ces revenus est épargnée et réservée à l'investissement afin de préparer une éventuelle réinsertion dans le pays d'origine.

En fait, l'investissement de prédilection demeure l'achat ou la construction d'un logement. Il s'agit là d'un symbole de la réussite sociale aussi bien pour l'immigrée que pour son entourage. Selon une étude de la Banque Européenne d'Investissement, les affectations des transferts se répartissent ainsi dans les 3 pays du Maghreb.

(22) Voir : Mohamed Khachani : Les Marocains d'ailleurs. Publications de l'Association Marocaine d'Etudes et de Recherches sur les Migrations. Rabat 2006.

(23) Abdellah Alaoui (directeur de banque à Londres) : La contribution économique des femmes marocaines immigrées en Angleterre. In colloque organisé par le Conseil de la Communauté Marocaine à l'Etranger(CCME) sur le thème : Marocaines d'ici et d'ailleurs: Mutations, défis et trajectoires. Marrakech. 19-20 décembre 2008

Tableau N° 7 : Les affectations des transferts dans 3 pays de l'Afrique du Nord (%)

Affectations	Maroc	Algérie	Tunisie
Besoins quotidiens de la famille	46	45	-
Dépenses d'éducation	31	13	23
Dépenses de logement	16	23	34
Investissement	5	8	18
Autres	2	11	25

Source : FEMIP, Op cit BEI, 2005. FEMIP - Facility for Euro-Mediterranean investment and partnership - Study on improving the efficiency of workers remittances in Mediterranean countries, European Investment Bank

Cette importance de l'investissement dans « la pierre » est confirmée par plusieurs enquêtes effectuées au Maroc.⁽²⁴⁾,

Dans les pays arabes, le Maroc se démarque par un fort taux des transferts en provenance des pays du Golfe. La moyenne la plus élevée des transferts par habitant est enregistrée aux Emirats Arabes Unis (111.986 Dirhams) suivis par le Bahreïn (56.250 Dhs) et l'Arabie saoudite (28.897 Dhs) alors que la moyenne générale des transferts par migrant au Maroc ne dépasse pas les 13.188 Dhs. Si on compare cette moyenne à celle enregistrée dans les pays européens, on constate que cette moyenne atteint en France 16.357 Dhs, en Italie, 14.567 Dhs, en Allemagne 13.650 Dhs et en Espagne 10.514 Dhs⁽²⁵⁾.

Sur le plan social, les transferts des migrantes, les placements qu'elles effectuent dans leur pays d'origine, ont favorisé, l'amélioration des conditions de vie des familles restées au pays. Les dépenses sont affectées aux besoins de la famille, à la garde des enfants et à leur éducation.

Conclusion

Les flux migratoires marocains à destination des pays d'accueil sont appelés à connaître plus de mixité sous le poids de la féminisation croissante de la population active et du chômage.

(24) Mohamed Khachani : Migration et développement en Afrique du Nord. Nations Unies. Commission Economique pour l'Afrique . Bureau de l'Afrique du Nord. Mars 2007

(25) Ces chiffres sont calculés sur la base d'un effectif approximatif des migrants en situation régulière dans ces pays où la proportion des irréguliers est relativement importante.

La femme marocaine immigrée est devenue ainsi visible dans l'espace économique des pays d'accueil. Cette actrice de l'immigration ne peut plus être figée dans une image qui évolue plus lentement que la réalité. Étudiée jusque là sous le prisme de la soumission à la communauté et résumée à des rôles visant à la reproduire « gardienne de la tradition », elle tente d'exister en tant qu'individu autonome et indépendante.

Si au départ, le travail de la femme marocaine immigrée était perçu comme une atteinte à l'intégrité du groupe, comme une transgression des codes de l'honneur, la situation a beaucoup changé entre temps; l'entrée en activité des femmes dans l'espace économique- comme le note A. LEBON "constitue un phénomène irréversible qui a pour effet de rejeter dans la catégorie des clichés l'image de référence de la femme immigrée, mère de famille nombreuse et inactive"⁽²⁶⁾.

La femme marocaine investissant le champs économique transgresse le code de la tradition que ce soit en tant que salariée et encore plus quand elle a le statut de travailleur indépendant, et comme le note F. Mernissi, " le fait d'entreprendre détruit le harem en tant que concept spatial et mental pour ouvrir à la femme tous les espaces de la création, de la production, de la créativité et de l'innovation"⁽²⁷⁾.

(26) A. LEBON: Les étrangères en France: une situation en voie de transformation rapide" in MIGRANTS_FPRMATION N° 54. 1983.p55.

(27) Fatima Mernissi: colloque" Pour une dynamique de l'entrepreneuriat féminin au Maroc" ESIG. Casablanca les 13 et 14 Mai 1995

ملكيّة الجدّات وانعكاساتها على سلوك النساء المالي عند الطوارق

تمهيد

لم يكن العمل على مجتمعات الطوارق وليد الصدفة ولا التلقائيّة بل كان سببه الدخول في نقاشات حول النساء وأشكال السّلط التي صادفتني وأنا على مشارف الانتهاء من بحث حول المواقعيّة^(١). إذ وجدت قوائم طويلة لمواقع تحمل أسماء نساء أي ما يطلق عليها matronymes فوجّهت السؤال إلى المجتمع (كانت الدراسة في إحدى المدن المحاذية للعاصمة، أي مدينة بومرداس)^(٢) إذا ما كان الناس يتماهون بهذه الأسماء فلم أجد سوى نكران وعدم التعرّف عليها بل والأكثر من ذلك تحويلها وتعديلها لتصبح أسماء ذكوريّة (فتصبح نورة نور، ونفيسة نفيس وهكذا) فتمّ توجيهي للاطلاع على نماذج لسلط نسائيّة عند الطوارق، باعتبارهم نموذجاً رائداً لسيادة النساء حتّى أضيء بعضاً من جوانب تلك الإشكاليّة.

كانت تجربة العمل بهذا الميدان البعيد، وبقلة الامكانيات المتاحة للعمل الأنثروبولوجي

مريم بوزيد

(١) أثناء العمل المتعلّق برسالة ماجستير نوقشت بجامعة الجزائر ١٩٩٤، وكانت تحت عنوان: أسماء

الأمكنة وإشكالات تملك الخطاب والفضاء. تترجم Toponymie بالمواقعيّة أو أسماء الأمكنة.

(٢) تقع شرق العاصمة وتبعد عنها حوالي ٥٠ كم.

واحدة من تجارب العمل على الذات، على الجسد مباشرة، لمختلف العلاقات التي «فُرِضت» عليّ بداية ثم تأسست عن قناعة، للأهداف العلمية المتوخاة من دخول حميمي وعميق في جوانية الظواهر التي تتأسس على علاقات النساء بالرجال، إذ أنّ الاقتراب من الذوات وملامسة تلك الجوانب الرقيقة المتأزّمة لم يكن أبداً منافياً للموضوعية بل هو جدل مستمر بين الذاتية المفرطة لحدّ «الإغماء» والموضوعية، موضوعية فهم العلاقات الإنسانية من منظور العلم الإنساني.

كانت البداية صدامية في البحث على المجتمع من خلال الرجال، فهم لا يعترفون بوجود المرأة خارج الغرائز ولعبة الإغراء، لكن ومع هذا تحمّلت نتيجة بعض أخطائي في التعامل مع الرجال في أحيان كثيرة لأنني كنت أنتهك عتبات رجولتهم مرّة بالسؤال ومرّات بالهندام والشكل الخارجي، فما الذي يمكن انتظاره من باحثة امرأة تتعطر وتكتحل وتلبس لباس النساء هناك وتذهب لموعد ليليّ مع أحد شيوخ القبيلة في غرفة شاسعة الأبعاد على ضوء مصباح خافت والحديث عن الزواج واختيار الشريك وعن تلك المناظرات الشعرية الغزلية بين النساء؟

أعتقد أنّ النهاية معروفة لديكم، فقد كنت كالفريسة التي تبحث عن قنّاص، كتمت أنفاسي وابتعدت عن جسد رجل عملاق بتغيير السؤال إلى منحى الحروب القبلية فامتنع الشيخ عن الكلام، فلقد أدرك خيبة أمل بينما اتّسعت الخيالات عندي لأنني لم أحصل على مرادي ولأنني كنت عذراء من كلّ التجارب تلك. صدمت ثمّ لملت أثوابي وجلست رففته أمام السلطانات^(٣) وتناولنا عشاءً لذيذاً رومانسيّاً على وقع الضحكات وغمز وهمس النساء، فما حدث معي كان «طفولياً» بالنسبة لهنّ.

وهل هي توبة أم عناد على الفهم والاقتراب من الأعماق، ازدادت فضولاً وتفهماً وحبّاً لكلّ ذلك المجتمع الذي يعرف كيف يسيّر مشاعر الغضب والحبّ والتعدي، وهذا ما جعلهم يفتحون لي قلوبهم ومؤسّساتهم فبدأت أحضر مناسباتهم واحتفالاتهم وأشارك في مختلف طقوس الحياة من أفراح وأحزان وشعائر وكان

(٣) يطلق عليهنّ باللفظ المحلي «تمنوكالين» وهنّ الوحيات بعالم الطوارق المتوزّعين على الخمس بلدان (الجزائر، مالي، النيجر، ليبيا وبوركينا فاسو) ممّن مازلن يحتفظن بلقب السلطانات ويحظين باحترام وسمعة كبيرين، وكنت كلّما قصدت منطقة «إهرير» حيث يتواجدن وهي منطقة تبعد عن «جانث» بحوالي ٢٠٠ كم، أقصدهنّ وأمكث عندهنّ ومن هناك أتقل بين حنايا تلك الواحة الغناء.

الفضل للنساء في احتوائني وإشراكي في مختلف جوانب حياتهم، وعلمني كيف أكون امرأة وكيف تكون المرأة جميلة في مجتمع يقيس كل الأشياء عكس ما يجري عندنا بالشمال.

فإذا كانت الملاحظة بالمشاركة هي لبّ تقنيات المنهج في الأنثروبولوجيا، إلا أنّ ذلك لا يكفي إن لم تتوّج بمختلف المشاركات الوجدانية التي تربط الباحث بمجتمع بحثه: فالتجارب البحثية تغير الباحث من الداخل وتزرع العديد من قناعاته وتوسّع آفاق رؤاه والأكثر من ذلك أن بات من الشجاعة الكلام في تلك المسائل «الصغيرة» التي تكبر يوما بعد يوم بالميدان وندونها على دفتر اليومي وتحاشر الخوض فيها «خوفا» و«حياة»: إذ نخاف من أنفسنا وأحاسيسنا وكيف تتدخل في إنتاج المعرفة، وهناك حياء المكانة الاجتماعية والأكاديمية التي نعمل لها ألف حساب، لكنني ضربت عرض الحائط كل ذلك.

١. النساء والخيرات المادية عبر التاريخ

لا يمكننا أن نفهم سلوكيات النساء الطارقيات المالية ولا تصرفاتهنّ تجاه المال ما لم نبحث في أصول الملكية والخيرات التي تنتقل إلى كامل الجماعة عن طريق النساء. ففكرة الاستقلالية المالية للنساء في تلك المجتمعات قديمة قدم تاريخهم، فليست مرتبطة بقوانين ولا بديانة معينة، بل ترتبط بالأعراف ولا أحد يمكنه التكهن بتاريخ تلك الملكية. تبقى الكلمة الفصل في ذلك، الروايات الشفهية التي ترسلنا إلى عوالم الرموز والدلالات.

تتمثل هذه الملكية لدى مجتمعات «الأزجر» في ما يطلق عليه ب«الخبس»، وهناك تسميات أخرى هنا وهناك في بلاد الطوارق كما سنتطرّق إليها لاحقا.

١.١ موضوع الملكية العقارية: «الخبوس» عند الطوارق

في البداية نحاول تعريف ما المقصود ب«الخبوس» هنا؟ لا يتعلّق الأمر بأيّ حال من الأحوال بالمفهوم الإسلامي ل«الخبوس» والأوقاف، بل باختصار هي ملكيات تتعلّق بالنساء وللنساء فقط، وبالرغم من تعقيد هذا «المفهوم» وتعدّد معانيه سنحاول تلخيص معناه في ميدان معين وهو منطقة الواحات «التأسيلي ن أزجر»، منطقة تقع أقصى الجنوب الشرقي الجزائري بالصحراء الوسطى على تخوم ليبيا

بواسطة مدينة غات، وجمهورية النيجر بواسطة «أغليت»، إذ تبعد غات عن جانت بـ «٢٠٠ كم» والنيجر بـ ٤٠٠ كم، بينما تبعد عن مقرّ الولاية «إليزي» بحوالي ٤٢٠ كم وعن العاصمة الجزائر بـ ٢٣٠٠ كم.

١.١.١. أصل «الخبس»

يطلق عليه محلياً «الخبس» وهو تلك الملكية المتمثلة في جنان النخيل ومنابع المياه والمساكن بالقصور، والتي انتقلت في زمن تاريخي ما للنساء، كيف ذلك؟
تنقل لنا الروايات الشفهية أنّ ذلك حدث بواسطة بعض «السلطين» الذين كانوا يحتكمون على السلطة السياسية المتمثلة في سلطة الطبل التي يطلق عليها «تْمُنُوكَلَة»^(٤) ويصبح السلطان «أْمُنُوكَال» والمرأة «تْمُنُوكَالْت» وهم الأوائل ممن قاموا بكتابة تلك الملكيات المختلفة على بناتهنّ، أو على نساء القبائل الأخرى «ذات سيادة» (tribu suzeraine) أو نساء القبائل التّابعة (tribu vassale)، سأذكر هنا رواية عن السلطان «قوما»^(٥) وأخرى عن أحد أفراد قبيلة من القبائل المهمة في المنطقة وهي «الإفوغاس» وهو «أفاغيس أحمد».

الرواية الأولى:

فالسُلطان الأوّل «قوما» من قبيلة ذات سيادة صالت وجالت في العديد من البلدان، فقد شمل طبل سلطتها طوارق الشمال «الهُقَار» والتّاسيلي نَ أَرْجَر، وطوارق «ليبيا» وطوارق «النّيجر» وكان هو آخر السلطين وكان مستبداً فكانت نهايته بشعة، حسب الروايات، ولم يترك ذكوراً وراءه بل ترك فقط بنتين هما «عيشة» و«النّما» ربّما هذا ما جعله يفكر في ضمان مستقبل ابنتيه.

الرواية الثانية:

لقد كتب «الأمونوكال» الأول، فيما مضى الوثيقة الأولى ل «الخبس» على جلد

(٤) يدلّ هذا اللفظ على السّلطة السياسيّة عند الطّوارق، والتي تنتقل بواسطة النساء، إذ يشترط في انتقالها لدى قبيلة «الإمّان» أن تكون الأمّ من نفس القبيلة أو ذات شرف وحظوة، حيث تنتقل من الأخ إلى الإبن الكبير للأخت الكبرى ولا تنتقل للأبناء، أي في حالة وفاة «الأمونوكال» أي السلطان لا تورث مكانته لأحد أبنائه بل لأبن أخته وهذا ما يطلق عليه: droit d'aînesse.

(٥) هو آخر سلاطين هذه القبيلة والذي حكم كامل المنطقة خلال القرن السادس عشر، وهو من الأشراف الأدارسة من المغرب الأقصى حسب شجرة نسبه.

غزال وهو في كامل قواه العقلية، وهذا ما أكدته لي إحدى النساء قائلة: اَكْنِيْعُ أَوْأُ أَوْرُ مُرْلَزَلْعُ، أَوْرُ مُشْلَشَلْعُ، إشارة إلى أنّ أحد «الإفوغاس»^(٦) هو الذي كتبه باسم «شيت تربونة» (أي نساء قبيلة «تربونة» فلفظ «شيت» يدل على النساء و«كيل» يدل على الرجال) قبيلة المتحدثة^(٧)، والأمر قد يختلف بالنسبة للمجموعات والفرق الأخرى المكونة للقصورية (كيل أغرم: سگان القصر).

فخبس مجموعة «تربونة»، إحدى القبائل المكونة لقصر «ازلوان»، كان بإيعاز من رجل من «الإفوغاس» يدعى أحمد، حدّد ملكية هذا الخبس من المكان المسمّى «كيلل» حتّى المكان المسمّى «أَصْرُ نْ تَكْلِيْتْ»^(٨) في تلك الفترة (ذلك الزمان) كانت جانت جميلة لم تلوثها يد (جانت تهوسي مازال أو أجزنت الدونت) وقال ساعتها قولته المشهورة بين «شيت الخبس» هذا، أي بين نساء تربونة، وغيرهنّ:

«أور مضرّيع اد ود تيوض تيتّي، أو وشّرغ اتّوسار دغي تيتّي»

يعني هذا القول:

«لست صغيراً دون عقل، ولست مسنّاً نقص عقلي، أي خرفت»، قال هذه العبارة حتى لا يأتي أحدهم ويتهمه بالقصور العقلي لأنّه قام بهذه الفعل، التي ليس بالسّهل التعوّد عليها مستقبلاً مع كلّ ما سيحدث من تغييرات، إنّه بعد نظر من الأوائل، وحسن تصرف لحماية النساء من كلّ طارئ.

وحثّى تكتمل صورة «الأفانيس أحمد» تذكر النساء هذه العبارة، بلغة وصوارة «كيل أضاغ»، فيصبح القول:

أُورُ مُشْلَشَلْعُ أَوْرُ يُوِيْتْ أَصُو (أُورُ يَجِي أَصُو)، أي التأكيد على سلامة قواه العقلية.

(٦) من قبيلة «الإفوغاس» وهي من القبائل ذات سيادة محدودة ومنتشرة في شمال مالي وبعض المناطق الأخرى المجاورة وهم أيضاً يدعون النسب الشريف وينقل النسب فيها عن طريق الرجال لا النساء.

(٧) السيدة تارزغ بن عومر من قبيلة تربونة، وهي من القبائل الثلاث المكونة لمجموع سگان قصر «زلوان»، فمدينة «جانت» تأسست في الماضي على ثلاثة قصور (والقصر هنا كمنظ معماري صحراوي ولعلاقة له بالسلطة أو الجاه) وهي قصر «زلوان» وقصر «الميهان» وقصر «جاهيل»، وكل المجموعات البشرية بهذه القصور تأسست حول الجدّات المؤسّسات لا الأجداد المؤسّسين كما هو متعارف عليه.

(٨) يعني اسم هذا المكان الأخير: رجل العبد، وهو موجود قرب منطقة «إهرير» مكان إقامة السلطانات.

إذا يرتبط الأصل بالملكية، ملكية الخبس المتعلقة بالنساء في مختلف المجموعات المشكّلة للواحة، فعند التطرّق لأصل «تَرْبُونَة» تقول الحَاجَّة تَارَزُ: «تَمَطَّنَ أَفَاغَيْسُ دَعُ نَكْنَى، وَلَتَّ تَرْبُونَة أَفَاغَيْسُ أَبَا نَيْث، نَتَّ يَحْبَاسُ فُولَسْنَتُ (إِهْرِي) مَنْ «تَبَكَاتُ»^(٩) أَرُ أَضَرُّ نُ تَكْلَيْتُ». بمعنى أن جدّة قبيلة تربونة والدها من الإفوغاس، وهو الذي قام بوقف ممتلكاته على بناته، والتي حدّدت مجالياً من «تبكات» حتى منطقة «أضر ن تكليت» وهناك من يقلن من: «كيلل» إلى «أضار ن تكليت» ب«إهرير». وكتبه على ابنته «غيشة» (أي عائشة).

كذلك وعند التطرّق لأصل «كَيْلُ تَمَمَلِينُ»^(١٠) يرتبط الأصل بالملكية، أي ب«الخبس» وحدوده التي تقع من «الكارزنة (الثكنة) تجاه طريق إليزي»^(١١) إلى «رُودد» حدود «تشاد» كما سبق وأشارنا إلى ذلك.

وفي منطق هذه المؤسسة كما سنرى، في دراستنا لوثيقة «الخبس» التي بين أيدينا، أنه يتمّ ذكر الوارثين المحتملين في حالة انقراض المجموعة الأولى المخولة لهذه الملكية العقارية المتعددة المصادر، لذلك سيعود «خبس كيل تربونة» في حالة فنائهم وانقراضهم لقبيلة «الإفوغاس» أينما كانوا، وكذلك الأمر بالنسبة ل«خبس تاملين».

لكن، حسب الروايات التي نقلها دوفيريبي (Duveyrier) أنّ سلاطين «الإمان» هم أول من قاموا بهذه الخطوة، وأرسوا لتقاليد كتابة «الخبس» على النساء من القبيلة، وليس «الإفوغاس» أو ربّما وجدت تلك التّقاليد عند عموم القبائل ذات السيادة، إذ تقول الرواية:

«في يوم من الأيام دعا قائد «الإمان» لبلاطه النساء المسنّات النبيلات ممّن كان لبطونهنّ المقدرة في إنجاب القادة، وبدافع إحساس بالسّخاء واللّباقة، قام بتعيين عقار لكلّ واحدة منهنّ، فأخذت سيّدة «الأوراغن» حصّتها متمثلة في سهل

(٩) منطقة بالقرب من الملعب البلدي الموجود بمنطقة «بني وسكن» وهذه الأخيرة عبارة عن مساكن فوضوية في الأصل ثمّ زودت بالمؤسسات الرسمية كقاعة علاج، ومدرسة.

(١٠) توجد هذه المجموعة القبليّة بقصر «الميهان» وجاءت هذه الروايات ومعلومات أخرى قيّمة على لسان السيّدة «سنّي».

(١١) تعتبر مدينة «جانت» دائرة حسب تقسيمات ١٩٨٤ ولايتها «إليزي»، بلغ عدد سكّان مقرّ الولاية ١٨٢٥٠ نسمة، بينما بلغ عدد «جانت» ١٥٦٩٠ نسمة من بينهم ٤٧٦ من الرّحل وهذا حسب إحصائيات ٢٠٠٨.

إغرغن(تغرغت) وكان لسيدة «الامنغساتن» قسمتها المتمثلة في واد «تخامت» فتمّ تخصيص وقف كل قبيلة بنفس الطريقة».^(١٢)

يمكننا أن نستنتج من كل هذا، العديد من العناصر التي تلقي بالضوء على علاقات السلطة والتاريخ الاجتماعيين للأزجر، فقد تكون محاولة «الأمنوكال» (السلطان) هي نوع من الموازنة بين جميع الفئات والجماعات لحدوث الاستقرار، وربما بروز الأدوار السلمية التي لعبها رجال من الفرع الآخر لقبيلة «الامنان» ممّن لم تكن السلطة هاجسهم لأسباب يصعب الخوض فيها:

١. إنّ نظام الخبس هو «اختراع» قادة وشيوخ قبيلة «الامنان» وإن أتى به من لحقهم، فذلك ربما تقليداً وأسوة بهذا الفعل لما رأوا فيه من نتائج إيجابية على كامل المجتمع.

٢. جاء ذلك للتشديد على المكانة التي تحظى بها النساء، عموماً، وتلك النبيلات التي تدبغ بطونهن الأصل، وتعطيه الهوية الاجتماعية والسياسية للأبناء، وهذا كون «الامنان» أشرف من الآباء ونبلاء من الأمهات، ولا يمكن أن يكون الرجل «إمنانا» إن لم تكن الأم من قبيلة سيّدة، وإن كان الأب شريفاً، أو نبيلاً، عكس قبيلة «الأوراغن» التي قد تغيّر فيها بعض الحالات أسس انتقال «تمنوكلت» (السلطة السياسية) وتجعلها ليّنة نوعاً ما، ولنا في تاريخ هذه القبيلة نموذج: «الأمنوكل» إبراهيم آف أبكدا^(١٣) الذي كان والده من «الأوراغن» من فرقة «كيل ميهرو» وأمّه من التبو واسمها «ميا»، والذي كان يعاني طيلة فترة شبابه من سوء معاملة من طرف عمّه بوبكر آف لقوي وابن عمّه خوسيني.^(١٤)

وكما لنساء «تربونة» (شيت تربونة) حكاية عن مؤسسة «خبس» الجدات، هناك حكايات أخرى عن ذلك حسب القبائل والمجموعات التي تقطن القصور المختلفة ب«جانت». فهناك «خبس» «كيل إجيف» بقصر «زلوان» دائماً و«خبس» «كيل تجيريت» و«دروون» بقصر «جاهيل» وهناك خبس «تممليين» و«أجدل» بقصر

DUVEYRIER, H. Les Touareg du Nord. Exploration du Sahara, Paris, Challamel Ainé, (١٢) 1864, P: 324

(١٣) «آف» بمعنى ابن والأنثى «ولت» أي ابنة.

Vacher, M. «Brahim Ag Abakada, Amghar des Ajjer.», Encyclopédie Berbère (Edition provisoire), cahier n°32, 1983.

«الميزان» أو يطلق عليه «الميهان». كما ليست كل المجموعات معنية ب«الخبس»، فهناك مجموعات «آرابن» من قصر «زلوان» و«تغورفيت» من قصر «الميزان» و«بري»^(١٥) من قصر «جاهيل» لا توجد لهم «خبوس». ماذا يعني هذا؟ وما تفسير كل ذلك؟

تقول إحدى النساء، من فرقة «تملمين» إن سكان «جانت» الحقيقيين هم من يمتلكون نظام «الخبس»، وهم، حسب نفس السيدة:

«تملمين لأن الخبس، كيل تجيريت لأن الخبس، كيل اجيف لأن الخبس، كيل تربونة لأن الخبس، كيل درون لأن الخبس...»^(١٦) (أي أن مجموعات كل من «تجيريت» و«إجيف» و«تربونة» و«درون» عندهم ملكية «خبس») أي من هم المعنيون ب«الخبس» في «جانت».

إذا ترتبط مؤسّسة «الخبس» بأصول المجموعات والفرق المتواجدة في القصور المختلفة ب«جانت» أي بأصول الجدات المؤسّسات للجماعات والمحددات للمهور والحدود في بعض الأحيان، أي الجدات المعروفات المصدر، كما جاءت بذلك حكايات وأساطير الأصل.

كما يبدو أن مؤسّسة «الخبس» هذه شديدة الارتباط بطبيعة الأصول، إن كانت نبيلة، أو دنيا. فكما رأينا أن أحد سلاطين «الإمان» جمع في البداية نساء القبائل ذات السيادة وحبس عليهنّ سهولاً خصبة بالمنطقة، ثم انتقلت التقاليد تلك وشملت المجموعات الأخرى، والأهم من ذلك أنها، أي تلك الملكية بالوحدات، أو ما يحيط بها من بساتين وأراضٍ خصبة.

٢.١.١. خيرات الخبس: القوة الاقتصادية والملاذ الآمن

تأخذ هذه المؤسّسة أسماء ودلالات مختلفة باختلاف تواجد الطوارق وإن جمعتها حياة النساء لكل تلك الخيرات ذات الطبيعة المختلفة من مكان لآخر. وعن تسمية هذا النوع من الملكية النسائية ب«الخبس» جعل هيلين كلودو حواد (Claudot-Hawad)^(١٧) تنتقد إطلاق هذه التسمية لما يحدث عند طوارق «كيل

(١٥) ومع هذا فإن الوثيقة التي بين أيدينا هي مخطوط «خبس» مجموعة «كيل بري» من قصر «جاهيل».

(١٦) السيدة سني من تملمين.

(١٧) في مقالها المعنون: «Le lait nourricier de la société ou la prolongation de soi chez les touaregs», in Héritier en pays Musulman,

فروان» بالنيجر، من خلال الدراسة التي قام بها كازاجوس (Casajus)^(١٨) وتقول في الهامش (٨) إنّ الطابع القديم لخيرات الابول مقارنة مع الإرث الإسلامي قد فلت تماما من بعض المؤلفين مثل د. كازاجوس مثلا (١٩٨٢) الذي، باعتماده، على ما يبدو على معلومات مرابط محليّ (فقيه أو عالم دين)، قد خلط بين مؤسّسة تقليديّة والحبس (الذي يلفظ حبس في بلاد الطوارق) الذي هو قاعدة إسلاميّة من طبيعة أخرى.

حيث ميّزت كلودو حوّد، بين خيرات «الابول» (biens d'ébawél) والخبس، أو الخبوس. فالمقصود ب«الابول» هو حفرة صغيرة حيث تستقرّ وتثبّت الأدوات والعناصر، إنه مكان يمنح الملاذ ويوفّر الحماية ويضمن بعضاً من الاستقرار والسكينة. كما تعبّر هذه الكلمة عن الحفرة التي تضع الاناث فيها بيوضها لكي تكون محميّة إلى أن تفقس. كذلك هو الحفرة حيث توضع المواشي من الماعز أو الكباش ... وتواصل بأنّه عند « كيل آير»، يستعمل هذا اللفظ للدلالة على الملاذ الذي تمثّله القرابة الأمومية (الأم، الجدّة من الأمّ، الخالة...) حتى تصل إلى مفهوم «الابول» الواسع والذي يعني أو يتضمّن: الأسلاف المؤنثة (تمروت) أو القرابة الأمومية.^(١٩)

تسترسل الباحثة، في إعطاء تعاريف لذلك المفهوم المركّب الغزير الدلالات والصعب التّحديد، لأن تقول: «يعرّف الإبول على أنّه نسب عن طريق الأم حيث تكون نواته المركزيّة المؤنث، أو الإناث بينما حوافه مشكّلة من عناصر ذكوريّة والتي يُطلب منها الانفصال عن المجموع».^(٢٠)

تتمثّل خيرات «الإبول» في البداية فيما يعطيه الأخ البكر (الذي يطلق عليه امكني ن ابول) أو «انكراس» أي الباني أو المشيد، الذي يرتّب ويقوّي، لأنّه هو الذي يعطي حليب الإبول (آخ ن ابول) أي الذي يغذي «الابول» والذي يسمح له بالبقاء والوجود، والذي يعطيه استقلاليتّه وإمكانيّة تحمّل دوره كملاذ. يساهم هذا الرجل في بناء «الإبول» بمنحه القطيع (في البداية، يتعلّق الأمر بقطيع صغير، تحفظ له النساء المراقبة التامة)، وفي السّابق كانت تُمنح نساء عبادات (تكلاتين) كقوّة عمل،

(١٨) « Le mariage préférentiel chez les Touaregs du Nord du Niger », in Journal des Africanistes, T. 52, 1-2, 1998

(١٩) Claudot-Hawad, H, « Le lait nourricier de la société... », p: 131

(٢٠) Op.cit, p: 133

وخيرات أخرى (بساتين، أشجار...). ومن جهة أخرى يقوم هذا الأخ البكر المانح، بتسليح ابن أخته (تجيزي) الذي يصبح حامي «الإبول» وخلفه الشرعي.^(٢١)

وهذه الخيرات، تتميز تمييزاً دقيقاً عن الخيرات الأخرى التي تنتقل حسب قوانين الشريعة الإسلامية، كالميراث والذي يطلق عليه اسم «تكاشيت».

أردت أن أسهب في تعاريف هلين كلودو حواد وانتقادها لدومنيك كازاجوس، للتعلم في هذه المؤسسة التقليدية كما تسميها، والتي بالفعل يمكن أن نقول إنها بقيت من الذكريات، كغيرها من المؤسسات الأخرى في بلاد الطوارق، لأنني سأطرّق لمؤسسة يطلق عليها كافة طوارق الأزجر لفظ «الخبس» دون أن يخلطوا بينها كقاعدة إسلامية جاءت لأغراض مغايرة لخبسهم الذي يعرفون قواعده ونظامه ورموزه، مكتوباً ومحفوظاً كما يحفظون القرآن أو أكثر، ويحكمون إغلاق خزائنه. ولسنا مطالبين بالذهاب إلى مناطق أخرى لنستلف مفهوماً يبدو أنه الأصلح في التعبير عن هذا النظام، وهنا بالفعل سنكون قد وقعنا في خطأ تحميل المعاني أكثر مما تعنيه داخل سياقها التاريخي والاجتماعي.

ننتقل إلى مثل ملموس لتناول الملكية عند نساء الطوارق بنموذج خاص هو ملكية مجموعة «كيل بري بقصر جاهيل» بواحة «جانت».

تقول الوثيقة، في الصفحة الأولى^(٢٢):

« وصى الله على من لانيي بعده

وثيقة الحبس المعروف من أرض وعقار وعيون ونخيل وعيون وريع وحبس على نساء من افاهل (اقاهل، أي اجاهل) من قبيلة اهل بري بنات زينب بنت شيب وامينة بنت عثمان واختها عيشة (عيشة) وبنات اختها وبنات اختها عيشة كديوا بنت عومر واخواتها عيشة وخيك وبنات وبنات لم بنت شيب ايضا مريم بنت محمد واخواتها وكذلك بنات فاضم (فاطمة) عيش مريم بنت احمد واخواتها تفار وبنات الهوى (الهوني؟) وبنات فاضمات بالاختصار على من هو سابقاً قديماً في يد امهاتهن أم (الصفحة الثانية) بنت محمد علي وفاضم وأمهاتهن حبساً مرتباً عليهن حتى

(٢١) Op. cit, p : 134

(٢٢) يتكوّن المخطوط من ١٤٧ صفحة مكتوبة بالخط المغربي (أنظر الصفحة الأولى من المخطوط) في

نهاية المقال.

ينقرضن ثم بناتهن حتى ينقرضن ثم بنات بناتهن حتى ينقرضن واستمرّ الترتيب على ذلك حتى ينقرضن فإن انقرضن رجع (مكتوب بخط رفيع بين الأسطر في اتجاه شاقولي نحو أعلى الصفحة) على بنات اجاهل من غير تخصيص بنات ادرون واهل ايتمالك واهل تجارت واهل تيجيريت وثم رجع على الذكور لذلك وقفا تاما عاما قاطعاً مقطوعاً لارجوعاً في ذلك ولا ندامة ومن بدل وغير في تلك الحبس فالله يتولاه وينتقم عليه جبريل وميكايل واسرافيل وعزرائيل وحمالة العرش والانبياء ومحمد هو خاتمهم والرجال ياكلون في حياتهم ولا يوهب ولا يبيع ولا يورث».

بعد هذا يبدأ في تعيين الملكية.

تعتبر هذه الوثيقة بمثابة «الثورة» في تعيين ملكية «الحبس» وتخصيصها، إذ يجمع سكان «جانث» بوجود مجموعات قبلية بحوزتها ملكيات «الحبوس» التي يطلقون عليها «كيل الحبس» ك: مجموعات «تَرْبُوْنَة» و«تَمَمَلِين» كما رأينا و«إِجِيف» و«تَجِيرِيْت» و«دِرَوْن» لكن تستثنى بعض المجموعات مجهولة الجدة أو المغيبات من التاريخ: ك«أَرَابْن» و«تُغُورْفِيْت» و«بِرِي». لكن تكسر لنا هذه الوثيقة تلك الأطر التصورية التقليدية المكروسة للأصل والفصل الرفيعين، فمجموعة «بِرِي» في قصر «أَجَاهِيل»^(٢٣) مجموعة يقال إنَّها مجهولة الجدة تكون قد قدمت (هذه المرأة أصل مجموعة «بِرِي») من تشاد أي من «التَّبُو» ولأنَّها لم تكن تعرف اللُّغة المحلية للطوارق^(٢٤)، كانت تردّد لفظ «بري بري» أي اجلس هنا،^(٢٥) للدلالة ربّما على الاستقرار بالمكان. إذ يتأكّد لنا أنَّها مجموعة عريقة الوجود بالمنطقة، وإن كانت من منطقة أخرى، لكنَّها من إفريقيا السَّاحلية على أكثر تقدير، وتدخل في منطِق النِّساء المؤسَّسات للنسب «الأمومي» (Matrilinearité) و«سيادة الأم» (Matriarcat) حسب فرضيات الشَّيخ ديو.^(٢٦) وهذا حسب رأينا هو سبب اقتصار مثل هذه الملكيات «الثابتة» في المخطوط والتي تذكر اقتصارها على النِّساء من جيل لجيل.

(٢٣) تتكوّن واحة جانث من ثلاثة قصور رئيسية، قديمة وهي : قصر الميهان وقصر زلواز وقصر اجاهيل، القصر هندسة معمارية تقليدية منتشرة في الصَّحاري المغربية.

(٢٤) يطلق على لغة الطوارق «تماهق» (طوارق الشمال الموجودين بالجزائر).

(٢٥) حسب ما قالته لنا إحدى النِّساء من «جانث».

(٢٦) يقترح عدة شروط في المجتمعات التي عرفت نظام سيادة الأم (١٥ شرطا) ويقول بعدم عالمية هذا النظام كما سارت عليه الفلسفة النسوية انطلاقاً من أفكار «إنجلز» و«باشوفان» وهذا في كتابه:

Antériorité de l'Afrique. Présence Africaine, 1967.

فإذا تفحصنا هذه الورقة الأولى من المخطوط نجد المعلومات الآتية:

تبدأ الوثيقة في ذكر طبيعة الملكية ومكوناتها، فهي تتعلق بالمعروف من الأراضي وعقار وعيون ونخيل وريع. والمعنى من قوله عقار ربما فيه إشارة إلى ملكية البيوت، لأن المساكن أيضا حبست على النساء، كما هو الحال بالنسبة لعيون الماء والنخيل والريع (ثم تأتي الوثيقة لذكر أسماء النساء صاحبات هذه الملكية وذكر أمهاتهن وجدتهن: في الأول تخصيص عام للملكية، أي «نساء أجاهيل» ثم ذكر القبيلة بالضبط، أي «قبيلة بري» ، ثم يأتي ذكر النساء كما يلي: بنات زينب بنت شيبا وأمينة بنت عثمان وأختها وهكذا نلاحظ أن أسماء الآباء مختلفة لكن لا يوجد ذكر للأمهات فهن النساء الأوائل بنات القبيلة الكبرى المشتركة في الأصل النسائي.

٢. نساء «جانت» وسلوكياتهن المالية حاليا

بالرغم مما حظيت به نساء القبيلة الأوائل من استقلالية اقتصادية بامتلاكهن للأراضي والنخيل ومنابع المياه والمساكن القديمة في القصور، إلا أن ما يلاحظ للوهلة الأولى أن سلوكيات النساء اليوم استهلاكية محضة بالنسبة للشابات، بينما النساء الأكبر سناً مازلن يقمن بخدمة الأراضي المحبوسة تلك بمساعدة بعض العبيد السابقين أو الخدم من الرجال الوافدين من النيجر ومالي والكامرون وغيرها من البلدان المجاورة^(٢٧) إذ يعزف الأبناء عن تلك الأعمال.

يقوم الرجال بشراء كل ما يلزم النساء حتى الأغراض العادية البسيطة، حيث أن الصداقات والعلاقات بين الجنسين تتأسس على مقدار ما يقدمه الرجل للمرأة من هدايا مختلفة وأغراض: ملابس، عطور وحلي. كما يحقق لهن رغبات التنقل بالسيارات وزيارات المجاملات في نظام منسجم دون تشنج أو رفض قد يعجب لها من هو خارج ذلك المجتمع أي وفرة الخدمات تلك التي تحظى بها النساء.

(٢٧) بعد موجات المجاعات والجفاف التي ضربت بلدان الساحل الإفريقي والحروب، تشهد جانت وتمنغست (مدن جزائرية على الحدود) توافد موجات من الرجال والنساء، الذين أصبحوا يشكلون يداً عاملة بالبساتين والمنازل وحتى الشركات الخاصة، يقومون بالأعمال الشاقة، ثم يطردون إلى الحدود بفعل حملات «التطهير» التي يقوم بها رجال الشرطة والدرك، بينما يقوم الأهالي بالتستر عليهم ويخرجون ليلاً فقط.

إن تبدو هذه السلوكيات كنوع من «الابتذال» العاطفي و«السّمسرة» الجنسيّة. لكن في واقع الأمر، قد يكون ذلك تذكيراً لاوعياً للرجال من طرف النساء للجميل والفضل الذي شملهنّ من الجدّات إذ يقلن بأنّ الرجال يأكلون ولا يملكون، وبقوا بالفعل يستفيدون من معظم تلك الخيرات لحدّ الساعة من تمور مختلفة الأنواع وقمح و«بشنة» وجميع المحاصيل من خضر وفواكه.

في هذه المجتمعات التي تنتقل فيها الأنساب والخيرات الماديّة والسلطة السياسيّة عن طريق الأمّهات، هل يبقى ما يقدمه الرجال اليوم للنساء شيئاً يذكر أمام كلّ ما قدّم لهنّ عبر الأزمان، ولحدّ اليوم؟

إنّ نسبة إقدام النساء، على العمل في المؤسّسات الحديثة يتزايد بصورة كبيرة جداً، إذ لا يخلو بيت لا تجد فيه أنّ كلّ البنات من مختلف المستويات التعليميّة يشتغلن: في المستشفيات، مراكز البريد، المدارس والثانويّات ومختلف المؤسّسات الأخرى، فتوجد مدرّسات الفلسفة والتاريخ والمستشارات التربويّات والملحقات بالحفظ الأثري، كما نجد العاملات كمنظّفات وغيرها من المهن التي لا تحتاج لمستوى تعليمي، كما هناك المشتغلات في مراكز الشباب والحرف التقليديّة ومهن أخرى تتوافق وطبيعة المنطقة و مترجمات من نوع خاصّ.^(٢٨) كما توجد الناشطات بأعمال اقتصادية موازيّة^(٢٩): صناعة القفاف والسلال وغيرها من الحرف التي تقوم بها النساء من أعمار متقدّمة.

تسعى النساء عبر كلّ تلك النشاطات إلى تغيير العديد من العادات من بينها الاستقلال الماديّ الفعلي للتوافق مع السلوكيات الاستهلاكيّة الجديدة، فالسعي وراء تغيير المظهر وحساب الزمن والكنز كلّها عوامل استدعت ذلك الإقبال على العمل.

١.٢. الاهتمام بالمظهر: طقوس جسديّة

لا يعتبر الاهتمام بالمظهر الخارجي عند النساء، شيئاً عابراً أو غير ذي قيمة بل هو شأن مهمّ في الثقافة الطارقيّة، وليس ظاهرة هامشيّة كما نراه في العديد من

(٢٨) وذلك ضمن مشاريع PNUD حيث تستدعي بنات يعرفن العربيّة ليكنّ وسائط بين الخبراء في الصحراء وموظفي ال PNUD والسكان المحليين من البدو، أي الترجمة من «تماق» لغة الطوارق إلى العربيّة ثم الفرنسيّة.

(٢٩) كما توجد الفتيات ممّن شكّلن فرقا غنائيّة تحيي حفلات الزواج وغيرها من المناسبات، حيث نجد بكلّ حيّ من الأحياء فرقة خاصّة به.

مجتمعات الشمال. فليس من العيب الاجتماعي أن تتزيّن المرأة وتتعطر لمقابلة المجتمع برجاله ونسائه وأغرابه. فالاهتمام باللباس والأناقة يعتبر شأنًا طقوسياً للجميع، بما في ذلك الرجال إذ يعتبر من غير المقبول أن يأتي رجل لزيارة امرأة أو نساء دون أن يتأنق ويرتدي ما غلا ثمنه ويتعطر ويتبخّر، وهذا يمكن معاينته عند أول مناسبة إذ من العار أن يأتي الرجل بملابس العمل اليومي للزيارة والتحدّث.

واللباس وإن كان في ظاهره تقليدياً من لباس محليّ أو لباس المجاورين له، فهو مرتبط بالموضة العالمية من تقاطيع وألوان، فيتمثّل لباس النساء الشّابات والمتزوجات من الشّابات في ما يسمّى بـ«تسغنست» وهذه عبارة عن قطعة قماش مستطيلة الشكل يتراوح طولها بين أربعة وخمسة أمتار وعرضها متر وثمانون سنتيماً أو مترين، متنوع القماش والأشكال وتتغيّر موزعتها حسب موضة القماش والاسم الذي يعطى له، وهو يأتي من «موريطانيا» مروراً بـ«مالي» و«تمنغست»^(٣٠) ليصل إلى «جانت»: والأسماء متعدّدة فموضة هذه السنة تتمثّل في ما يسمّى «الحوزة» و«بيبر» (biper) و«الريزو» (réseau) وهذا لانتشار الهواتف النّقالة بين النساء في هذه المجتمعات وما أحدثه من تغييرات على مستوى العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن تصوّر السرعة التي انتشرت بها الهواتف النّقالة بين النساء ومن مختلف الأعمار، ويرتدى هذا اللباس دون خياطة قد يشدّ بمشابك أو فقط بالعقد، ولأنّه شفاف تلبس تحته مختلف القطع المعبّرة عن اتجاهات الموضة.

كما تحظى الوجوه، أي البشرة بالعديد من الطقوس التزيينية، حيث تعالج بمراهم مختلفة المصادر والوظائف: من مراهم تأتي من النيجر ومراهم انتشرت بفعل الإشهار على مختلف القنوات الفضائية ك: فير اند لافلي (fair and lovely) وغيرها. وهذا الاهتمام له مبررات جمالية محضة قد ترتبط بمسائل طقوسية قديمة، فوضع أقنعة من مصادر نباتية وعضوية على الوجوه أثناء الاحتفالات والشعائر والمناسبات كالميلاد وغيرها هي تقاليد ماتزال قائمة حيث تضع النساء أقنعة من الزعفران على كامل الوجه وأقنعة من المغرة الحمراء والصفراء وخطوط على الأنف (زلالا) حمراء وتسوّد الشّفاه بالنيلة الموجودة على مختلف أقمشة «الشّو» التي توضع على الرّأس. فنتخيّل نساء في سنّ متأخرة وهنّ يبحثن عن شقف المرايا

(٣٠) أو يطلق عليها تمرناست وهي مدينة في أقصى الجنوب الجزائري لها حدود مع مالي.

لوضع الكحل وتخطيط الحواجب وصناعة الوجه للمشاركة في احتفالات عاشوراء (سببية) أو حضور زواج أو تسمية المولود، لذلك تضع الشابات طبقة من fond de teint التي لا تبدو طبيعية أبداً مع لون البشرة، فيعلق الناس على ذلك بأنّها الرغبة في البحث عن بياض الوجه، بينما الصورة المرغوبة في هذا الفعل حسب رأيي هو التوافق بين التقاليد والموضة.

كذلك يحظى كامل الجسد باهتمام قد يبدو مبالغاً فيه: إذ تشكّل مادة البخور وحدها عالماً خاصاً يستلزم ميزانية خاصة، لتجدد الرغبات التي تتحقّق بواسطتها، إذ تتعلّق في مجملها بالجنسانية وجمسانية متطورة في اعتقادي، فتلعب البخور ذات العلاقة بالحياة الجنسية دوراً رئيسياً ضمن البخور الأخرى إذ تستعمل مباشرة بعد الاستحمام. وتتمثّل وظائف بخور «تدوّا» مثلاً في تضييق المهبل لممارسة جنسية ممتعة للجنسين، وتستعمل النساء كثيراً ما يطلق عليه بـ «تَفَرُّشِيَّت» وهو بخور للجسم والملابس بعد الاستحمام حتى تدوم، وهي تستعمل لتحريك الرغبات الجنسية لدى الرّجل، إذ تصبح تلك العقاقير المختلفة المصدر والوظيفة هاجساً لدى النساء تدور حوله مواضيع الحديث في مختلف الجلسات واللقاءات فتقوم النساء بالشراء والتبادل فيما بينهما وتكون نقود «الشبكة»^(٣١) هي الدّعم الوحيد للعديد من النساء ممّن لا يقمن بأيّ عمل. ويبقى مجتمع النساء الرهان الوحيد الذي تبنى عليه الحياة الماديّة والمعنويّة للمجتمع هنا، مقابل أسفار السودان التي كان يقوم بها الرجال في القديم ومقابل ما يتحمّله الرجال حالياً نظير تجهيز بيت الزوجيّة من مسكن لائق وتجهيزه بمختلف الضروريات والكماليّات.

كذلك تلجأ النساء للاستدانة من مختلف محلات الملابس وغيرها لتظهر بالمنظر اللائق. ولباس الأعياد ليس مقتصراً على الأطفال بل الكل معنيّ بها، فحتّى الكبار يشتركون الملابس الجديدة لاستقبال العيد ولصلة الأرحام، فالزيارات جماعيّة للجميع وتكون أوّل زيارة في أول يوم من عيد الفطر والأضحى للعمّة وهذا مع طلوع الفجر ويكون الغداء عندها.

(٣١) أي الشبكة الاجتماعية، أي منحة شهرية تقدّر بثلاثة آلاف دينار لكلّ امرأة مأكّنة بالبيت، وكانت تعطي هذه القيمة لهذه الفئة من النساء مقابل قيامهنّ بتنظيف أحيائهنّ السكنية لذلك لم نكن نلاحظ تواجداً للقاذورات، وبعد تلك برزت فكرة عبقرية تقضي بمنح النساء ذلك المبلغ مقابل أن يتركن مهمّة التنظيف لـ «مجهول».

٣. مجتمعات الهمس والرّمز

ما تزال الأعراف والتقاليد تسير العديد من مؤسّسات المجتمع، بالرغم من أشباح التغير التي تلوح في الأفق والتي تعتبر النساء جزءاً أساسياً فيها، إذ تعتبر النساء من العوامل المحدّدة والمقرّرة للتغير الاجتماعي فخرجهنّ للعمل من التغيرات الكبيرة بالمجتمع لكنّه لم يحدث أثراً سلبية بل على العكس، إلا أن الاختلاط بالشمال وبقيمه المتناقضة في التعامل مع النساء، جعل أشباح العنف تتسلّل إلى مختلف المؤسّسات التقليدية (ظاهرة الولادات خارج الزواج).

لكن بالرغم ممّا يحاك ضدّ المجتمع جرّاء الدخول في اقتصاد السوق، تبقى جاذبية المجتمع تصنعها تلك العلاقات بين النساء والرجال ودلع النساء على الرجال، في طلبات متكرّرة لا تقابل بالانزعاج، مادام المجتمع يعترف بالهمس واللمس مع الأخذ بمختلف المحاذير.

وعمل النساء وأموالهنّ تعتبر ملكية خاصة لا يتدخّل فيها الآباء، بل تكون خالصة لصاحبيتها لتكتنز الذهب ومختلف أغراض الجهاز ولكنّها تبقى (هذه الأموال) تحلّ المعضلات الأسريّة وتصلح ذات البين وتساعد الآخرين، فلا يمكن تخيل مدى التآزر النسائي فيما بينهم في حالة الأزمات، والكلّ يتقدّم بالمساعدات والهدايا لإدخال الفرحة على المجتمع: فليس فقط الأهل هم المعنيّون بهذه المواساة الماديّة بل الجميع من جيران وأقرباء بعيدين وغيرهم من الوافدين.

بالفعل ما تزال الرحمة في «جانت» حسب الجميع، فبإمكان الغرباء أن يسكنوا وأن يأكلوا وأن تحاط بهم الرأفة من كلّ جانب وللنساء إسهام عظيم بكلّ الماديّات المتوفّرة لديهنّ.

العازبة المهاجرة والمال:

التمرد، الرضا، الحرية،
والشريك الجديد.

لموضوعنا عنوان واحد، ذو شقين
وإشكاليين. المرأة العازبة المهاجرة والمال.

الشق الاول له علاقة بالمرأة والمال.
وإشكاليته تطرح نفسها على الوجه التالي:

أصل المال حظ من حظوظ الدنيا. إما
يأتي كهبة من القدر على شكل إرث. وورثة
المال هم المحظوظون بامتياز. والمال عندهم
من البديهيات. وإما، وهذه حالة نقيض، يأتي
المال عن طريق طاقة من الطاقات: القدرة الذاتية
على السيطرة والقيادة وإدارة الصراع؛ أي قوة
الشكيمة المكتسبة او قوة التبادل المالي؛ او قوة
الخيال والموهبة. واقتران هذه الطاقات، او
بعضها، بحظ متوسط او كبير يمنح صاحبها
مكانة مالية. تتحول بدورها الى قوة تبادلية
بامتياز. بل القوة التبادلية القصوى. فالمال هو
للتبادل، إلا في حالات البخل المَرَضِي. نعطيه
مقابل خير من الخيرات، أو خدمة أو صفة أو
سرّ...

قبل اختراع المال كان التبادل (troc) يتم
بين البضاعة والبضاعة، او البضاعة والخدمة،
أو البضاعة وما يوازيها. يعطي بيضاً يأخذ
حليباً؛ أو يعطي ملحاً ينال مقابله ممراً آمناً...
كانت أنشطة القبائل البدائية تتم على هذا

دلال البزري

المنوال. وما زالت بعض الاتفاقيات بين الدول تعمل بمقتضاه.

المهم: بعدما يغطّي صاحب المال حاجاته الاساسية، من مأكّل ومشرب ومسكن، ويفيض منه المال، علامَ ينفق أمواله؟ بماذا يبادل بماله؟ بأقصى اللذات: لذة الجنس ومصدرها النساء. الاثرياء لديهم العدد الأوفر من النساء والأجمل من بين النساء. وفي تراثنا زخرٌ من هذه الوقائع. أبعدُها زهاباً «الحرْمَلُكُ». حريم السلاطين؛ جيوش الجميلات في خدمة ملذّات مالك الزمان، السلطان والمال. وفي الاسلام إشارة الى هذه القاعدة وتكريس لها. في سورة «النساء» يحثّ الله الرجال على هذه اللذة، اذ تقول الآية الكريمة:

«وإن خفتم ألا تُقسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك ادنى ألا تعولوا». (النساء. الآية ٣)

والجزء الاخير من الآية يلقي بعض الضؤ. إن لم يكن الرجل قادراً على إعالة كل ما طابَ له من النساء، فليقتصر الأمر معه على واحدة، حرة أو عبدة. في نفس السورة توضيح إضافي لنفس القاعدة القائمة للعلاقة بين الجنسين: «الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم». (سورة النساء. الآية ٣٤).

أما بخصوص مؤسسة البغاء النسائي، وقد اوجدت في كافة العصور البطريركية، فهي التعبير الأنضح عن العلاقة التاريخية القائمة بين المال والمرأة. بل ان زيادة أهمية المال في عصرنا، وتحولّ المال الى رقيب ومعيار ومنتج، أعطى مؤسسة البغاء «غير القانونية» امتداداً أخطبوطياً، عابراً للقارات. العبودية الجنسية، بغاء الاطفال، السياحة الجنسية... كلها من مظاهرها. فالبغاء مؤسسة كاشفة للعلاقة التبادلية القوية القائمة بين المال والمرأة. وقد يكون الانسان اخترعها في زمن سيطرة الرجل المطلقة على المرأة من اجل احتكار اللذة وتنظيمها بحيث تؤول الى الاقوى، الى القادر على شرائها، أو مبادلتها.

الآن تغيرّ العهد القديم. وإن كانت إرهاباته القوية ما زالت قائمة. كانت النساء في ظل النظام القديم غير مالكات للمال. إلا الملكات والاميرات، أو الوارثات ازواجهن وأبائهن الاثرياء. وكان بإمكان هؤلاء النسوة التصرف بمصيرهن وقتذاك، بما تسمح به قوتهن الاستثنائية من بين بنات جنسهن. والسيدة خديجة، أولى زوجات الرسول

الكريم (صلعم)، كانت من هذا الصنف من النساء. مالها سمح لها بان تطلب يد الرسول الكريم (صلعم)، وتتزوجه، بمفردها. فمالها كسر الاحتكار الجنسي للرجال بالمبادرة واللذة. والأرجح ان نموذجها جعل الاسلام ينفرد من بين الاديان السماوية الاخرى بمنح النساء التصرف بأموالهن الخاصة.

في العهد الماضي كانت جموع النساء قد بنّين استراتيجيات للدفاع عن أنفسهن وكيانهن المالي العاري: الخضوع، المكائد، التقيّة، الجمال، الاغراء، الرقّة، الثرثرة، قمع جموح النفس، جمع الذهب والحلى وادخار المال سراً في الغالب... وكلها السلاح البديل، سلاح الضعيف امام القوي.

كل هذا تغيّر ولم يتغير. لكن الذي تغيّر لعب دوراً هاماً في خلخلة ما لم يتغيّر. الذي تغيّر هو المرأة، بتغيّر مكانها وادوارها. صارت في «الخارج»، وصارت تعمل فيه. وبات باستطاعتها ان تكون قادرة على كسب المال. اي ان يكون لها حصة في اللذة، أو رأي فيها؛ أي ان تُعامل بغير ما عوملت به في العهد القديم. ان تختار، ان تبادر، هي ايضا. ان لا يهدر رأيها في الحق او الرفض او القبول او الاختيار أو تحديد من يكون شريكها؛ ولو بقي ذلك ضمن نطاق الضمني، او نصف الضمني... او نطاق الكمون.

هذه الوضعية الجديدة نالت من هوية الرجل الجنسية، والتي كان عمادها «القوام» القائمة على «الإنفاق». وانعكس ذلك بطبيعة الحال على علاقته بالمرأة. فحصلت الازمة بين الجنسين. وقوام هذه الازمة ان المرأة في الخيال الجمعي السابق التي شبّ عليها الرجل وتكوّن، والتي وحدها تلبّي متطلباته الايروتيكية، الجنسية-العاطفية... ان هذه المرأة اذن ليست هي نفسها المرأة الواقعية. فيما انتظارات هذه المرأة من الرجل يمتزج فيها القديم والجديد. فصورة الرجل المطابق لأوضاعها الجديدة هذه لم تتبلور تماماً، لأن أوضاعها الجديدة هذه لم تتبلور هي ايضاً تماماً. وما يزيد من التشوّش والاختلال ان هذه الامور ليست مطروحة على النقاش في هموم ثقافتنا الراهنة؛ وهي ثقافة مشغولة اكثر بالحلال والحرام؛ او التندرّ على «إختفاء الرجال»، او «نقص الرجال»... من أزواج او عشاق او شركاء. ولذلك لا نملك حولها دراسات جدية كافية؛ بل توك شويات (talk shows) إعلامية عجولة، تفرّقع بالتسلية والاثارة.

فأزمة العلاقة بين الجنسين حاصلة، وأوضح مؤشراتهما: النسب القياسية في

معدلات الطلاق؛ أي فشل صيغة الزواج القديمة، أو عدم قدرتها على الصمود امام تقلبات أمزجة الجنسين المستجدة. أو استمرار الزيجات المرهقة. وبعد ذلك، النسب غير المسبوقة من العزوبية، المسماة، للباشاعة، «العنوسة»، للتسويق على ان العزوبية، المرغوبة او القصيرة، هي من حصّة النساء فحسب...

ثم الانتشار، غير المسبوق ايضاً، للمثلية الجنسية؛ بين الشباب بداية، والآن شيئاً فشيئاً بين الشبابات. والأهم من كل ذلك: بدء انتشار البغاء الرجالي، مترافق مع انتشار تقليد جديد مأخوذ عن النساء: وهو انتخاب ملك جمال الرجال. وكلها وقائع تهزّ النظام الماضي للعلاقة بين الجنسين؛ ولكن بفوضاها واضطرابها والعذابات الشخصية التي تحدثها، هي غير قادرة على إرساء نظام جديد بين الجنسين، يكون تبديلاً فعلياً عن القديم، ولا يخلّ بالتوازن النفسي للمعنيين به، رجالا كانوا ام نساء.

وموضوعنا معطوف على شق آخر، واشكالية اخرى: هي هجرة الشبابات العازبات. ولا نعرف ان كان يمكن ان نسميها «ظاهرة»، طالما اننا لا نعرف نسبتها من بين المهاجرين اللبنانيين الباقين. فالإحصاءات التي تغطي الهجرة لا تلحظ هذه الفئة في حساباتها؛ علماً بأنها يمكن ان تندرج في خانة «الطوائف» او «الشباب»؛ وهي الاكثر رواجاً من بين الخانات الاخرى في الإحصاءات الخاصة بالهجرة.

ان فعل الهجرة لعازبة من اجل العمل، اي من اجل كسب المال والتقدّم في المهنة، هو فعل استثنائي في تاريخنا الاجتماعي؛ قد تكون حصلت في حالات فردية، ولكن نادراً ما ذكرتها الحوليات. باستثناء الحرب العالمية الاولى، وخصوصاً اثناء المجاعة الكبرى، عندما هاجر عدد من العاملات المتزوجات للعمل في مصانع الولايات المتحدة، تاركات خلفهن أزواجهن وأولادهن. وكما في الثلاثينيات ايضاً، عندما هاجرت شابة لبنانية الى فلسطين والعراق للتعليم في مدارسها بغية جمع المال المطلوب لمتابعة تعليمها.

عدا ذلك، فلا نعرف ما يشبه هذا الفعل عن هجرة النساء، إلا برفقة أزواجهن والتحاقا بهم، أو لمرافقة العائلة، الأب والأم. وهجرة العازبة من هذه الزاوية هو فعل إخلال آخر، يُضاف الى فعل كسب المال المستقل. انه فعل قطيعة، دائمة او مؤقتة، عن مكان التوازن القديم، الى مكان مجهولة توازناته، او غير مضبوطة وتيرته. او مهدّدة لهذا الاتجاه او الآخر من التوازن القديم؛ خاصة عندما تتم هذه الهجرة الى

بلدان أقل ليبرالية اجتماعياً، من المجتمع اللبناني؛ او الى بلدان أكثر ليبرالية... أي في الحالتين.

اليوم تبحث الشبابات الباقيات في لبنان عن الشريك، لا يجدهن، فيسألن: «أين الرجال...؟». وغداً ربما سوف يسأل شبابها الباحثين عن شريكة: «أين النساء...؟». قد لا تصل الحالة تلك التي نسميها «ظاهرة» الى هذه الدرجة من التنامي؛ ولكن مجرد المقارنة بين القائم وبين المحتمل تحيك الى تصور الانسان الجديد، المقبل على المستقبل وهو غائص في التقلبات والتغيرات.

ما أعنيه ان شق «المهاجرة العازبة» من موضوعنا ظاهرة ما زالت مبكرة. ولكنها تتموضع في خيوط دقيقة وشبه خفية من المستوى «الميكرو» سوسولوجي (micro) من معرفتنا بموضوع العلاقة بين الجنسين وازمتها: مستوى الفرد وتبدل معطياته وتصورات وسلوكه؛ في مجمل مسار حياة هذا الفرد، او جزء من هذا المسار. وذلك مقابل «المكرو» سوسولوجي (macro) والذي يغطي العنوان الأشمل، الأزمة بين الجنسين، أو أزمة الهوية الجنسية، اي مجمل العلاقة بين الجماعتين التي تتشكل منها انسانيتنا: النساء والرجال. ومقاربة كهذه تسمح لنا بفهم أفضل لأسس هذه الازمة، وبالتقاط خيوطها الدقيقة النافذة الى هذه الاسس؛ أو التي تصب في مجراها.

ولكن طبعاً: لا يكتمل جمع المبعثر من خيوط هذه الازمة إن لم نتناول «الشريك»، الآخر، اي الرجل. وكل ما نعرفه عن المهاجر الشاب العازب انه يغادر «من أجل بناء نفسه»، أو «بناء مستقبله». وانه عندما «يتوقّف»، سوف يعود في الاعياد والاجازات الى البلاد بحثاً عن زوجة. وان الصبايا يتجمّلن في هذه المواسم من اجله، من اجل «العريس» المهاجر «اللقطه»، الذي سوف ينتشلهن من شبخ العنوسة او العوز او الاحباط. وهذه صورة منمّطة، يغذيها الاعلام. وقد لا تكون مطابقة لواقع الشاب المهاجر. بل قد تعطينا الدراسة عنه عكسها...

يتناول موضوعنا اذن الأقصيين من الحدود:

- الاستقلالية الاقتصادية للنساء، أي قدرتهن الجديدة على كسب المال.
- والعازبات بهجرتهن من أوطانهن، من أجل تعزيز هذه القدرة.
- وكما سبق وألمحنا، لا نعرف شيئاً ميدانياً أو نظرياً، عن شقّي هذا الموضوع، اللهم بضع روايات وتحقيقات صحافية (عن لبنان وعن غيره من الدول العربية). ما

يجعل هذه الدراسة من النوع الاستكشافي الأولي، دراسة تسمح ببلورة التساؤلات وطرح الفرضيات؛ تمهيداً لدراسة أكثر شمولاً وأكثر قابلية للتعميم.

وهذه دراسة تقوم على أسئلة بُعثت إلكترونياً، موجّهة الى شبّات عازبات لبنانيات، رسيّن في تسعة بلدان، هي: كندا (شابتين)، بريطانيا (٢)، فرنسا (شابة واحدة)، قطر (١)، المملكة العربية السعودية (١)، الكويت (١)، الامارات (١)، قبرص (١). وهن يمارسن مهناً مختلفة تتطلب مهارات مهنية معينة، ودراسة جامعية، وثقافة تسمح لهن بالاجابة كتابةً على الاسئلة. وهن ينتمين الى طوائف مختلفة من لبنان، ومناطق مختلفة من عاصمة ومدن وبلدات وقرى؛ وتتراوح أعمارهن بين الـ ٥٦ سنة والـ ٢٥ سنة.

الاسئلة كانت مفتوحة مقنّنة. تمّت الاجابة عليها على دفعتين: الثانية للتدقيق حول الاولى. وقد أجبن باللغات الثلاث: عربي، انكليزي، فرنسي. وكان التجاوب مع الاسئلة في غاية البطء، لكثرة انشغال المبحوثات بأعمالهن، اوعدم اعتيادهن ربما على هذا النمط من الأنشطة (الى درجة انني تصوّرت لبرهة بانني لن أكمل الدراسة). بعض الشابات أثرن التحفظ المهني. وهناك أسئلة لامست مناطق حميمة لدى بعضهن الآخر، كالأهل والشريك والذات. فكان الورع والاقتضاب طريقاً للتعامل مع الاسئلة والاجابات. والكثيرات طلبن عدم ذكر اسمهن. فغيرت الاسماء.

ما من شك ان هكذا نهج «إفتراضي» في البحث الميداني الانساني يضع مصافي عديدة على معرفتنا بالموضوع. فخلف شاشة الكمبيوتر تكون الموضوعية مختلفة والعفوية أقل. وعدم الالتقاء الشخصي مع المبحوث يحرم الباحث من فهم أشياء غير الكلمة والحرف؛ مثل اللهجة واللفظ والمناخ والهندام وتعبيرات الوجه وحركة الجسد. وكلها موارد للمعرفة الأدق، أو للاستشعار المعرفي، على الاقل. ناهيك طبعاً عن غياب الحوار والأخذ والرد والاستيضاح او المزيد من التدقيق. اخيراً، فإن عدد المبحوثات ليس كافياً للخلوص الى نتائج تعميمية.

اما المبحوثات فهن على التوالي:

مارتا. مخرجة افلام توثيقية. هاجرت الى الامارات.

فايزة. استاذة جامعية مساعدة. هاجرت الى كندا

يارا. كبيرة مدرّبين لموظفين في الطيران. هاجرت الى سلطنة عُمان.

رشا. مهندسة كمبيوتر. هاجرت الى كندا.
دنيا. صحافية، مديرة مكتب اعلامي. هاجرت الى السعودية.
ريموندا. موظفة رسمية في احدى الوزارات الفرنسية. هاجرت الى فرنسا.
فاديا. اعلامية واكاديمية. هاجرت الى انكلترا.
رندة. اعلامية ومذيعة. هاجرت الى انكلترا.
ليلى. متخصصة في «الغرافيك ديزاين» (graphic design). هاجرت الى الكويت.
حميدة. مسؤولة العلاقة العامة في احدى كبرى الشركات. هاجرت الى قطر.
بديعة. صحافية في وكالة اخبار. هاجرت الى قبرص.

- فعل الهجرة. التمرّد.

كل هؤلاء الشابات تركنَ لبنان؛ لأن لبنان لم يكن ليقدمَ لهنَّ الفرص المهنية التي يطمحن اليها. كلهن عملنَ بعد التخرّج في لبنان. وبعد سنوات من العمل في لبنان، متفاوتة العدد بين الواحدة والاخرى، قررنَ القيام بما يقوم به عادة الرجال: رحلنَ بقصد العمل ذي المردود الأفضل، الأعلى. لم تفكر الواحدة منهن بأن عريساً قد ينتشلها من ضيق العيش او خيبات الطموح المهني، أو ان أهلها قد يغطون تكاليف حياتها، او يعوضون عن هذا الاخفاق.

باستثناء فائزة التي حلمت طويلا بهجرتها ورصدت امكانياتها: «أردتُ مغادرة لبنان منذ زمن، حتى وانا تلميذة في المدرسة. غادرت عندما وجدت الفرصة المناسبة. غادرتُ لأن لبنان كان لديه القليل... القليل يعطيني اياه، أو بالأحرى لم يكن لديه شيء يعطيني».

باستثناء فائزة اذن، الجميع تركَ لبنان بأسى وشوق. مارتا غادرت ثم عادت الى لبنان، ثم غادرت من جديد الى دبي. وتفسيرها الآن لسلوكها: «كنت شابة. وكان باستطاعتي ان اكره دبي وأغير رأبي (بالهجرة الاولى)». اما رندة، فان كل ترحالها له مطاف واحد. تقول، واصفة مرحلتها المهنية التالية، بعد نجاح الاولى: «أفكر بالانتقال الى مدينة أوروبية أخرى أو الى الولايات المتحدة للعمل كمراسلة حرة (freelance) كي أتمكن بعد ذلك من العودة الى بيروت وهو الهدف الرئيسي».

يارا هاجرت في بداية الحرب الاهلية الاولى، (١٩٧٥-١٩٩٠): «لبنان كان في

حرب (...) الحرب اضرتنا اقتصادياً، وابي كان قد تقاعد». عادت الى لبنان في فترات متقطعة من الهدنة والحرب. حاولت تأسيس عمل فيه. لكن كل مرة كان المشروع ينهار لسبب ما من الاسباب الامنية. آخر المشاريع توقف بسبب حرب تموز ٢٠٠٦ فعدت الى عُمان.

الغالبية عبّرت عن دواعي أزمة الوطن، وانعكاس هذه الازمة على أوضاعهن الشخصية والمهنية.

رشا تقول ان الاضطراب الدائم في لبنان والتهديدات الاسرائيلية المستمرة... كل ذلك: «كان يعني بالنسبة لي انني لا أستطيع الانتظار اكثر من ذلك على أمل ان تتحسن الامور. وأعود وأبدأ من بعدها بناء حياتي من جديد، كما حصل وانتظرت انتهاء سنوات الحرب الاهلية الاولى (١٩٧٥-١٩٩٠).... أعتقد أنني عندما قررت الهجرة، كنت مصابة بسندروم (syndrome) ما بعد الحرب: من انني لا استطيع ان أضع حياتي بين أيادي مجهولة. لم يكن بوسعي ان اجازف وانتظر... ثم استفيق يوماً وأرى انني أمضيتُ الحياة نفسها التي عاشها والدَي. (...) لم اكن أريد المجازفة بشبابي».

اما حميدة فتصف قرارها بالهجرة: «لم أكن أعاني وقتها من أزمة مالية بل من أزمة وطن (...) كانت هجرتي «هريبة» من وطن ومن حياة سياسية بعد سنوات عديدة من العمل و«بناء الاسم» كما يقولون في مهنتنا... وليس لأي دافع مادي لأنني لست مسؤولة الا عن نفسي».

فيما بديعة تقولها باختصار: «هدف هجرتي الاستقلالية المادية».

– البيت والسفر، الحرية والاستقرار.

بعد تغطية كل الحاجات، الحياتية منها والاستهلاكية، يبقى قطبان يتنازعا ميزانية هؤلاء الشباب. قطب الاطمئنان والاستقرار المتجسّد بامتلاك منزل؛ وقطب الحرية والمتجسّد خصوصاً في حرية السفر.

باستثناء ريموندا وفايزة اللتين لم تشتريا منزلاً، ولا فكّرنا بشراء منزل؛ لسبب من الاسباب، ربما حادثة عمر الاولى، او قطيعة الثانية مع بلدها... باستثناء هاتين الشابتين اذن، فان الجميع اشترى منزلاً او بصدد شراء منزل او التفكير، مع بداية الطريق، بشراء منزل.

وحدها رشا من بينهن اشترت منزلاً في كندا؛ تستقبل فيه والديها من شهرين الى ثلاثة اشهر في السنة. يارا ودنيا وفاديا وحميدة اشترين منزلاً في لبنان. ورندة اشترت بيتاً لأمها في لبنان. ومارتا بصدد التفكير بشراء منزل. فيما ليلي وبديعة هما من فئة اللواتي يفكرن بالبيت ويخططن للإدخار من اجله.

البند الثاني في الميزانية أي السفر، والى بلاد مجهولة، بالرغم من الحنين الى لبنان. ولفحة حرية تنضح بها الاجابات الخاصة ببند السفر. كلهن يعبرن عن هذه الحرية على طريقتهن. مارتا: «بصراحة، ان الشيء الوحيد الذي يسعدني الآن هو انني قادرة على ان أسافر أكثر... وهذا ما أعمل على تحقيقه في غالب الاحيان. أفضل الآن رحلة الى الهند لمدة اسبوع على شراء شاشة ٥٠ انش للتلفزيون».

هذه السعادة بحرية السفر هي ترجمة لشعور أعمق بأن وضعهن الراهن في الهجرة حقق لهن حرية الارادة والاستقلال. فايضة «نعم» سعيدة الآن: «انا أكسب مالا اكثر الآن. وانا سعيدة به الآن. أمامي الآن خيارات أكبر، إمكانيات أكثر وبامكاني تحقيق ما أريد...» انا اكثر استقلالاً الآن من الناحية المادية».

نفس السعادة لدى يارا «بالتحرك بحرية بالمال (الذي املك)». بل تذهب ريموندا الى اعتبار ان حريتها هذه أعادت لها توازنها النفسي «أنا سعيدة (...) انتقلت الى قدرة مالية اكبر وقدرة شرائية أعلى، وانني اكثر حرية في التنقل والقرار والاختيار وطرق الصرف (...) الأهم هو الانتماء الى الذات، أي العيش وفقاً لوجداني ومشاعري ومبادئ الخاصة ولا خشية لدي من التخلي والرفض والذم».

والجميع يعتز بحرية القرار. وقرار حرية التنقل، مثل السفر من أقوى ترجماتها. قطبي الاستقرار والحرية ، والمتجسدين في شراء المنزل والسفر الى بلدان جديدة: قطعة من «البازل» الجديد لصورة المرأة القادمة. وهذه الصورة ليست بالبساطة المعروضة. فبين المنزل والسفر، بين الاستقرار والحرية هناك قلق على المستقبل، تعبر عنه فاديا بالقول: «بالتأكيد قدرتي المادية زادت (من) حريتي. ولكنني زدت قلقاً أيضاً».

– الشريك الجديد.

مفهوم الشريك النّد لدى الجميع يختلف عن ذاك الذي ما زالت فروعه وقواعده قوية حتى اليوم؛ أو بالاحرى هي عائدة بقوة.

فالشريك غائب تماماً عن ذهن دنيا «حقيقة، لا أفكر بالموضوع على الإطلاق»؛ ولا حاجة للإلحاح عليها.

اما يارا، فتسرد: «كوني من منطقة الشرق الاوسط... لم يكن لدي رغبة بالالتزام بزواج كنت متأكدة انه سوف يؤثر على حريتي وعلى وتيرة تقدمي وتطوري. (ثم) كان لبنان في حرب، ولم يكن سليماً وقتها تأسس أسرة (...) لم يكن لدي رغبة بتحمل المسؤولية بصفتي مواطنة من العالم المتخلف بمشكلاته المعقدة والمضطربة أمنياً. اليوم في لائحة «سبب وجودي» (ma raison d'être) لا مكان لزوج. لا تغريني اطلاقاً فكرة الارتباط بعلاقة. (...) ان اهتمامي الآن يختلف، وصار معياري ان يكون لدي رفيق درب أتقاسم معه اهتماماتي الفكرية».

اما الباقيات فمنقسمات بين تصور للشريك منذ البداية لم تبدلها الهجرة؛ وبين تصور تبلور وتغير معها. ولكن في جميع التصورات الشريك هو شريك آخر.

في الفئة الاولى اذن. مارتا: «اود الزواج من رجل له وظيفة ثابتة ويحبها، يكون شغوفاً بها. وان يكون محبا للسفر. كانت هذه رغبتني قبل الهجرة وما زالت. اعتقد بأن الحياة تكون أسهل لو كانت متقاسمة بين اثنين. (اريد شريكاً موظفاً... لا رجلاً ثرياً) لأنني مسؤولة عن نفسي ومن العدل ان اطلب من شريكي ان يكون مسؤولاً عن نفسه (...) والحياة سوف تكون مليئة بالصراع وقلة الاحترام اذا لم يكن لشريكي وظيفة محترمة . وكلنا يعلم بالاساس كم يصعب إبقاء العلاقات بين البشر والمحافظه عليها».

اما فايضة، فتقول «لا أعتقد ان كندا غيرت تصوّري للشريك. كنت أريده ذكياً جداً، طموحاً وليبرالياً وتكون له نفس عقليتي وقيمي (...). كل هذا لم يتغير. ولكن في كندا لم أقابل هذا الرجل. والأمر لا يهم حقيقة، لأن باستطاعة المرء في كندا ان تكون له «كاريير» (مهنة ذات قيمة career) ناجحة ومرضية. فيما هذا (النجاح) مستحيل في لبنان».

ليلي ايضاً: «لم يتغير شيء عن تصوري السابق للشريك. ولكن اصبحت قادرة ان أساعد شريكي، اذا تزوجت. وبنفس الوقت أن اكون سيدة نفسي إن لم أجد الرجل المناسب (...). هدفي ان اكون متساوية مع شريكي».

فيما حميدة تقول: «لم يتبدل (تصوري) للشريك اذا وجد. فالطموح هو أن أجد من يؤمن بقدرتي على التصرف والكلام وأخذ القرارات والمشاركة في الشأن العام.

وغالباً ما كنت أعاني من ايجاد صديق لا يشعرني انه يغار مني او يريد ان يقمعي.
(...) سرعان ما يبدأ بتسطير الممنوع والمسموح».

وتختصر بديعة : «ما زلت أتصور الشراكة تلك شبه كاملة، متكاملة، ومتوازنة، متوازنة».

ورشا تشرح عن الشريك: «الشريك الآن هو الشريك في القرارات والمشاريع المستقبلية. كبرت في ثقافة تُعدّ البنات للزواج... وبأن الزوج سوف يكون مسؤولاً عنها وعن مستقبلها. كنت دائماً أرفض هذه الفكرة في أعماقي. بعد هجرتي استطعت ان احدد بالضبط ما أراه في الشريك وما استطيع ان أساوم عليه، وما لا استطيع (...) أبحث عن شريك يتقاسم معي القيم ورؤية الحياة (vision of life). عليه ان يكون مسلماً بالاختيار، وبذلك يكون لنا أسلوب حياة مشترك. عليه ان يتمتع بالحد الأدنى من التعليم والثقافة بما يمكّننا من التواصل. عليه ان يكون عقله منفتحاً بمعنى ان يقبل بالاختلاف، ويكون بذلك قادراً على فهمي. وبهذا العمر الذي بلغته (٣٦) عليه ان يكون صاحب «كاريير» ويعرف الى اين هو ذاهب، فلا أقع على «طفل مفقود جونيور» (lost child J.). وإن وجدته، هذا الشريك، أم لم اجده... فأنا سعيدة. فهناك الكثير الكثير ما أعمله. والقليل القليل من الوقت».

ومن فئة اللواتي غيرت الهجرة تصوّرهن للشريك، ريموندا، التي تقول: «أشعر أكثر وأكثر بالرغبة بشريك أسلك معه سبيل حياتي، وقد غيرت تصوراتي في هذا الشأن. في مراهقتي كنت أحلم أن أعاشر فنّاناً معروفاً أو مفكراً بارعاً، فأكون أنا مصدر إلهامه و أستطيع أن أستعين به للتعويض عن شعوري بالنقص وإدارة قلقي وخوفي. فعاشرت الكثير من الفنّانين والمبدعين، وعانيت الكثير حتّى غيرت منهجيتي في التواصل مع الآخر والغرام. فاليوم انا لا أبحث عمّن يريحني من شكوكي و من يعيد ثقتي بذاتي بل أبحث عمّن يشاركني في قيمي و أهدافي، فنعمل سوياً و ننظر سويا في نفس الاتجاه بدل أن نتفرج على بعضنا البعض».

اما فاديا ورندة فالزواج وتحديد الانجاب.

تصف فاديا تصوّرها: «لم أعد أفكر بطريقة رومانسية في الشريك بل أصبح المهم (عندي) التفاهم والشراكة في أمور الحياة والاستمتاع؛ وإنجاب طفل... وهذا أمر مهم جداً. اذن صورة الرجل تغيرت تماماً عما كانت سابقاً ولم أعد أفتش عن المغامرات او عن الرومانسية بل الاحترام والشراكة (...) كنت اعتقد (سابقاً) انني

سألتقي بأحد يكون الحب من أول نظرة او انه سيكون عظيماً وان العلاقة لن يشوبها اية شائبة واليوم بتّ عملانية اكثر أي انني افكر بالتناسب».

اما رنده فتقول «زادت الهجرة من حاجتي الى وجود شخص أو شريك في حياتي وبعد ان كانت فكرة الزواج تثير في نفوساً وهزءاً أصبحت الآن أقرب الى مزاجي وأكثر قبولاً. أما تصوري لهذا الشريك فلم يتغير قبل الهجرة أو بعدها ولا تزال معايير اختياره هي نفسها. قد تكون هذه المعايير قد أصبحت أكثر وضوحاً الآن إذ يصعب علي الارتباط بشخص يثقل على حرية تنقلي في حال قررت الانتقال الى مدينة أخرى. (...) بالنسبة الى الشريك المحتمل (...) فقط ان لا يثقل علي في قرار الانتقال من مكان الى آخر. اعتقد ان العنصر الثاني الأهم بعد ذلك ان يرغب في الإنجاب لان الهدف الاساسي للزواج في هذه المرحلة بالنسبة لي هو الإنجاب. (أما المال فأعتقد انه عنصر مهم جدا في إنجاح علاقة من النوع الذي أطمح اليه».

من هذا المشهد الجزئي الى الفرضيات التي تخلص اليها هذه الدراسة:

ان الفعل الذي قامت به الشابات صاحبات الدور في هذا المشهد هو فعل من صميم الفردية. فعل نادر، يفتح دروبا غير مسلوكة. لا بد ان خلف قرار الهجرة حافز ذاتي ومسؤولية خاصة تجاه النفس. والشابات لم يرحلن، كما يرحل نظراؤهن الشباب (على ما نعرفه حتى الآن) من أجل المسؤوليتين الفردية والعائلية؛ من أجل العودة واختيار العروس المناسبة، بل من أجل أنفسهن فحسب.

هجرتهن بلورت تصورات موجودة في مجتمعهن الاصلي اللبناني. أعطت دفعاً تعبيرياً جديداً، دفعاً سلوكياً جديداً؛ فاقترن عندهن القول بالفعل. فلا ننسى انهن بنات زمانهن، حيث صورة الشريك القديمة تتعايش مع الجديدة، وبطريقة غريبة: تارة بالصراع وطورا بالتجاهل أو التدبر أو التلاعب بالالفاظ او التناقض الصارخ بين القول والفعل. وهذا إطار تاريخي للافكار والمفاهيم يحتاج الى ما يشبه فعل الهجرة لتأخذ التصورات مجالها وتذهب نحو تجارب غير معهودة. وإن كان هناك استعداد للـ«تسوية» او «المساومة»، كما عبرت رشا ورنده.

الشابات المهاجرات استطعن تحقيق أنفسهن في مجال العمل، او في قسط وافر منه. هن ناضجات، راضيات، مستقلات، سعيديات بحريتهن. ولكن ايضا غير مستغنيات عن اللذة والعائلة. شراء البيت والبحث عن شريك عبر رسم ملامحه علامتان لا تخطئان. السعي الى إستقرار في نهاية المطاف وتكوين عائلة.

لكن الصيغة التي يتميّنها للعلاقة مع هذا الشريك ترسم نموذجاً لرجل، هو على نقيض نماذج النظام القديم، وأوضح من النظام «المختلط»، بين القديم والجديد، اذا جاز التعبير. بادىء ذي بدء، تتلى سمات هذا النقيض. في الحق الذي اصبح شبه مكتسب، او على الأقل مطروحاً، برسم ملامح الشريك المطلوب. المساواة والندية؛ وأبلغ صيغتهما ما عبرت عنه مارتا: «انا مسؤولة عن نفسي ومن العدل ان أطلب من شريكي ان يكون مسؤولاً عن نفسه». وتستتبع هاتين الصفتين، اي المساواة والندية، المشاركة في اتخاذ القرار؛ وجميع الراغبات بشريك شدّدن عليها. ويليها «التناغم» في منظومة القيم؛ الذهنية المشتركة، الافكار المتشابهة. ولا واحدة منهن أشارت الى جنسية الشريك العتيد او دينه. اللهم حنان التي اشترطت ان يكون «مسلماً» مثلها، اي بـ «الاختيار»؛ فيكون منفطحاً ومتسامحاً مثلها. مؤقتاً يمكن القول بان المال المكتسب من قبل المهاجرات واستقلالية قراراتهن قلباً المفهوم التبادلي السابق للمال؛ النساء مقابل المال. وخلقاً وظيفية اخرى للمال، قائمة على التساوي في اللذة، التساوي في حظوظ السعي اليها، مع التساوي او التقارب في القدرات المالية.

وهن بذلك رائدات في صياغة علاقة مع الشريك لا تتوافق مع الصيغة الدينية التقليدية للعلاقة بين الجنسين. وقد أتينا على وصفها آنفاً. انها، على نقيضها، علاقة ندية، قائمة على المسؤولية والشراكة والتساوي في الحقوق العاطفية والجنسية. فيؤكدن بتجربتهن هذه على نسبية الانوثة والذكورة وعلى الفحوى الثقافي الذي يغلفهما.

الخلاصات غير قابلة للتعميم، كما أشرنا، بسبب قلة عدد المبحوثات. ولكن تتولد من هذه الخلاصات الحاجة الى معرفة أوساط أخرى من المهاجرات العازبات، إن وجدن، اللواتي لبسنَ الحجاب وتمسكنَ بفلسفة الهوية الدينية. هل التمسك هذا لجمّ تصوراتهن للشريك والحرية؟ أم صهرها في بوتقة معقدة، تحتاج الى تفكيك؟ والحاجة ايضا الى معرفة أين ستجد شاباتنا هذا الشريك. وهذا يتطلب معرفة المهاجرين العازبين الشباب وعلاقتهم بالمال والشريكة. واللبنانيين، ثم اللبنانيين المقيمين. ثم الآخرين... ان لا نستبعد ان تجد شاباتنا سعادتهن لدى شباب من جنسيات اخرى، وأديان اخرى. وهذا كسر اضافي لرتابة النظام القديم على يد بنات العصر الراهن.

وكل هذا فرضيات تحتاج الى المزيد.

البليوغرافيا

- عزة شرارة بيضون. الرجولة وتغير أحوال النساء.دراسة ميدانية. المركز الثقافي العربي. بيروت. ٢٠٠٦
- أيمن وهبة. «بنات الفلاحين، عاملات مصانع». (دراسة) مجلة الحوار المتمدن، ١-٣-٢٠٠٨
- Francesco Alberoni. *Le choc amoureux*. Pocket. Paris. 1993
- Francesco Alberoni. *L'érotisme*. Ramsay. Paris. 1887
- Michel Foucault. *Histoire de la sexualité*. Gallimard. Paris. 1889
- Fatima Mernissi. *Sexe, idéologie, Islam*. Tierce. Paris. 1983
- Pascal Brucker & Alain Finkielkraut. *Le nouveau désordre amoureux*. Seuil. Paris. 1972
- *Femmes étrangères et immigrées en France*. Actes du colloque organisé par le "comité de suivi des lois sur l'immigration". A l'Assemblée Nationale. Organisé le 3 Juin 2000.
- *Les femmes immigrées et l'intégration*. Direction des affaires économiques et sociales. Les Editions du Conseil de l'Europe. 1995
- *Women's international labor migration in the Arab world: historical and socio-economic perspectives*. Mona Khalaf. United Nations division for the advancement of women (DAW). 14 January 2004
- *Women and international migration*. Division for the advancement of women. Department of Economic and Social Affairs. United Nations. No date.

المحور الثالث
نساء عربيات سيدات أعمال



المرأة العربية صاحبة

الأعمال:

قراءة سوسيولوجية لإدارة

المرأة للمال والأعمال

المقدمة

يجد البحث في موضوع المرأة العربية صاحبة الأعمال مبرراته الفكرية والميدانية في مستويات عديدة منها النقص الكبير في الإنتاج العلمي والبحثي حول موضوع المشاركة الاقتصادية للمرأة وهو موضوع يبدو غير متناول بالقدر المطلوب في مشهد الإنتاج البحثي حول المرأة العربيّة^(١). ويجد ذلك التناول مبرراته كذلك في اندراجه ضمن جهد التدقيق في واقع حضور المرأة في المشهد الاقتصادي العربي، والوقوف على بعض خفاياه بدافع محاولة رسم صورة موضوعية وأكثر قربا من ذلك الواقع. ولعلّه جهد يساهم في دحض بعض الاستنتاجات الراجحة في الساحة الدوليّة والتي تعمل لسبب أو لآخر على تنزيل المشاركة الاقتصادية للمرأة العربية في قاع ترتيب المشاركة الاقتصادية العالميّة للمرأة.

وتجتهد هذه الورقة في البحث عن بعض كوامن علاقة المرأة العربيّة بمسار بعث

عائشة التاييب

(١) وهي نتيجة تمّ التوصل إليها انطلاقا من دراسة موثقة حول كمّ الإنتاج العلمي المنشور حول المشاركة الاقتصادية للمرأة. أنظر مداخلتنا: «دراسات المرأة والتهميش الاقتصادي: مقارنة نقدية لحالة التهميش المزدوج» ضمن أعمال ندوة المرأة والحياة العامة: قضايا التمكين والمشاركة في مجال الدراسات والبحوث الاجتماعية. برنامج بحوث الشرق الأوسط، منظمة المرأة العربيّة، بلودان/ سوريا ٢٤/٢٢ - ٢٠٠٧، نشر مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس.

المؤسسة الاقتصادية الخاصة وإدارتها ، وتحاول من خلال الاجتهاد في تصنيف أنماط إدارة المرأة للمال والأعمال وخصائصها إلى تنزيل الظاهرة في سياقها السوسيوثقافي المرتبط بالعولمة وبتداعياتها الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وبتنزيلها كذلك في سياقها السوسيوثقافي العربي.

١- في مفهوم المرأة صاحبة الأعمال وأصنافه.

على اختلاف مسميات فعل بعث المؤسسة الاقتصادية الخاصة^(٢)، يبقى باحث المشروع أو المؤسسة أو صاحب الأعمال رجلا كان أو امرأة ذلك الذي يتحمّل مسؤولية وحدة اقتصادية منتجة في أي قطاع نشاط يعبر من خلاله عن قدرته على الاندماج في سوق العمل وتحمل مخاطر تسيير مؤسسته بنفسه أو بالتعاون مع غيره، موظفا خبرته الشخصية وأرصده المالية وعلاقاته الاجتماعية بغرض تأمين نجاح مشروعه.

ومن منطلق هذا التعريف تنسحب لفظة صاحبات المؤسسة على كبرى سيدات الأعمال صاحبات المؤسسات الاقتصادية المتوسطة وصغيرة الحجم في القطاعات المختلفة، وتنسحب أيضا على صاحبات مكاتب الهندسة والطب والمحاسبة والاستشارة والإشهار وغيرها، كما تنسحب كذلك على صاحبات المبادرة الاقتصادية المتناهية الصغر في قطاع العمل غير الرسمي سواء كنّ تاجرات تجزئة أو تاجرات حقيبّة أو غيرهن من مبتدعات الاستراتيجيات الفردية المختلفة للعيش وكسب القوت .

وبناء عليه لا بدّ من القول بوجود صاحبات أعمال كُثر في ميادين مختلفة قد تتوسع قائمتهنّ أو تضيق حسب السياقات التاريخية والاقتصادية والسياسية وليس صاحبة أعمال واحدة. وتبقى عملية البحث عن ماهية محدّدة لصاحبة أو لصاحب الأعمال عملية معقدة بالنسبة لكليهما نظرا لاتساع المجالات التي يرتبطان بها،

(٢) يسمى المبادرة والمقاولة وتنتشر خاصة لفظة المرأة المقاولة (Femme entrepreneur) على حدائتها في بعض الأدبيات في دول المغرب العربي وفي بعض الترجمات العربية لبعض التقارير الدولية، ويذكر أن المقاولة ترد في معجم لسان العرب بمعنى المفاوضة ويقول ابن منظور في ذلك «وقاولته في أمره وتقاولنا أي تفاوضنا» انظر ابن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس، طبعة دار المعارف (بدون تاريخ)، ص ٣٧٨٠.

وتنوعها وتعدّها وعدم إمكانية حصرها خاصة مع جملة ما يشهده عالم الأعمال من تحولات هيكلية. ويبقى الأمر أكثر تعقيدا في حالة المرأة العربية صاحبة الأعمال بسبب ما تنسم به المشاركة الاقتصادية للنساء العربيات عموما من عدم انكشاف نظرا لارتباطها بالفضاء الخاص من ناحية، وتساعد وتيرة انخراطهنّ في قطاع العمل غير الرسمي من ناحية ثانية.

وبهذا يبدو مشهد المرأة العربية صاحبة المؤسسة مشهدا فسيفسائيا من حيث طبيعة وأصناف الفاعلات الاجتماعيات وخصائصهنّ ضمنه، بما يجعل من أية محاولة للتصنيف والبحث عن وحدة جامعة بين نموذج وآخر عملية معقدة ونسبية من حيث تناغم الصفات المشتركة بين نساء كل نموذج وآخر.

وقد اقترحت دراسة منجزة حول المرأة المقاوله في تونس^(٣) تصنيفا للمرأة صاحبة المشروع ينطلق من مجموعة من المؤشرات المرتبطة بالظروف المادية لبعث المؤسسة (عملية الولوج إلى المؤسسة عن طريق الزواج أو الوراثة، أو الصدفة..)، ونوعية السوق الذي تتحرك فيه المرأة المقاوله (نوعية حرفائها ونوعية الخدمات التي تقدمها..) ودوافعها وتمثلاتها لنجاح المؤسسة وحدسها المهني والشخصي... وقد أفضى اعتماد هذه المؤشرات في دراسة حالة المرأة باعثة المشروع في تونس إلى إبراز النماذج التالية:

- المرأة صاحبة المشروع سليله العائلات أو الوارثات.
- نساء الصناعات المتوسطة.
- نساء قطاع الخدمات.
- صغار المنتجات في المجال الحرفي الصناعي.
- التجارات الحرفيات.
- المؤسسات الصغرى في قطاع الإنتاج والتجارة والخدمات.

ومهما يكن من أمر محاولات تحديد ماهية المرأة أو النساء صاحبات الأعمال وتحديد نماذجهنّ وأصنافهنّ، وبغض النظر عن حجم المؤسسة المحدثه من قبل المرأة ومجال نشاط تلك المؤسسة، فإن أكثر المسائل تأثيرا في طبيعة علاقة المرأة بمؤسستها وصيغ تسييرها لها ومنطق تعاملها معها، تبقى بنظرنا متصلة بدرجة

(٣) CREDIF, Les femmes entrepreneurs en Tunisie, paroles et portraits, Tunis 2001, p 44

كبيرة بعنصر أساسي يتمثل في طبيعة علاقة المرأة بعالم الأعمال عند لحظة إحداث مؤسسيتها الخاصة. وهو عنصر يحيل إلى وجود نموذجين أساسيين من المرأة صاحبة المؤسسة:

- **نموذج أول:** يتجذر فيه فعل دخول المرأة لعالم الأعمال في منظومة تقاليد عائلية ثابتة في مجال المال والأعمال وفي ثقافة متأصلة لممارسة التسيير وإدارة المشاريع الاقتصادية.

- **نموذج ثان:** يمثّل فيه فعل المبادرة وإحداث المؤسسة بمثابة اقتحام غير مسبق للمرأة لعالم جديد وغريب عنها وعن وسطها العائلي.

وتتفاعل برأينا مختلف صيغ إحداث المرأة للمؤسسة متوسطة كانت أو صغيرة أو متناهية الصغر في ضوء هذين النموذجين لتنحدر منها مختلف أنماط علاقة المرأة بالمال والأعمال ومستويات تمثّلها للنجاح والتفوق وطريقة تسييرها ومؤسسيتها وإدارتها ، وتنمو في ضوء ذلك طموحاتها وتطلعاتها.

٢- المرأة ومسارات بعث المؤسسة.

يرتبط اتجاه المرأة العربية نحو المبادرة الاقتصادية وخوض تجربة العمل المستقل وبعث المؤسسات المتوسطة أو الصغيرة أو المتناهية الصغر في سياقات ثقافية وقانونية واقتصادية معيّنة تكون بمثابة المحركات الأساسية لتسارع وتيرة دخول المرأة لذلك المجال.

وينخرط ذلك الاتجاه أولاً في سياق من تطوّر العقليات والأوضاع الاجتماعية والثقافية في مجمل الدول العربية، بما أضحي يدعم حضور المرأة في الساحة الاقتصادية. وربما يبقى تطوّر نسق تعليم الفتاة أحد أبرز أوجه ذلك التغيّر في العقليات والقيم الاجتماعية الثقافية التي لم يعد بإمكانها استهجان تعليم البنات أو منعها من مواصلة تعليمها بل حفزها عليه باعتباره أضحي يمثل في شرائح اجتماعية عديدة مجال استثمار اجتماعي مربح ومضمون. ولا ريب في أن توسّع مسار بعث المرأة للمؤسسة الاقتصادية وتسييرها لها وتحدي الصعاب المتصلة بذلك، ما هي إلا بعض أوجه تجليات ظاهرة انتشار تعليم البنات بما تحتمله تلك الظاهرة من تمثلات اجتماعية جديدة لنجاح الفتاة وتفوقها وفرضها لذاتها وإعلائها لشأن أسرتها ووسطها العائلي.

كما يرتبط ذلك الاتجاه ثانياً بالسياقات القانونية والتشريعية العامة بمختلف مستوياتها المحلية (تشريعات وقوانين) والإقليمية والدولية (موثيق ومعاهدات والتزامات) ومختلف تفرعاتها ذات الصلة بالتمكين الاقتصادي والاجتماعي للمرأة وما له من تأثير مباشر على مجال خوض المرأة لمجال المبادرة الاقتصادية الحرة وبعث المؤسسات. ومعلوم أن البيئة القانونية والتشريعية الدولية والوطنية الداعمة للنهوض بالأوضاع العامة للمرأة والمنادية بأهمية تمكينها الاقتصادي شهدت تطورات كبيرة منذ المنتصف الثاني من القرن العشرين، بما كان له بالغ الأثر في تطوير الأحوال العامة للمرأة على أصعدة مختلفة ومنها صعيد انخراطها في الحياة الاقتصادية وإسهامها المتنوع الأوجه فيها.

ويتنزل ذلك الاتجاه في مقام ثالث في إطار سياق اقتصادي اتسم بالتوجه نحو اقتصاد السوق الحرّ. وقد تفاعل ذلك التوجه بحركته المتسارعة مع تزايد المناداة بتمكين المرأة في البلدان العربية ليفرزا زيادة واضحة في مساهمة النساء في حركة إنشاء المؤسسات الاقتصادية المتوسطة والصغيرة. ومعلوم انه تمّ على نطاق مختلف الدول العربيّة منذ السبعينات اتخاذ تدابير مشجعة على مزيد مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي. وترجم ذلك عمليا بدخول أعداد كبيرة من النساء العربيات في المشرق والمغرب سوق العمل لاسيما بالقطاع الخاص الذي أخذت مؤسساته تتنامى منذ تلك الفترة. واتسقت دعوات الحفز على بعث المرأة للمشاريع المدرة للدخل في بعض الدول العربيّة مع اختيار أعداد من النساء صاحبات التجربة المهنية الطويلة في القطاع الخاص التوجه نحو إحداث مشروع اقتصادي مستقل^(٤). وتوازي ذلك أيضا مع تدشين مرحلة انتهاج سياسة تمكين المرأة في ثمانينات القرن العشرين وتبني مناهج النوع الاجتماعي والتنمية وتشجيع مسار اعتماد المرأة على ذاتها وتحقيقها للاستقلال الاقتصادي.

٢-١ سيّدة الأعمال العربية: حقيقة اجتماعية واقتصادية بارزة

برزت فئة سيدات الأعمال العربيات في السنوات الأخيرة في المشهد الاقتصادي العربي كفئة اجتماعية بارزة تأخذ طريقها نحو الانتشار وتوسّع

(٤) CREDIF, Les femmes entrepreneurs en Tunisie, Paroles et Portraits, op cit, p5

قاعدها. وأضحت الدلائل الإحصائية تؤكد الأهمية غير المسبوقة والمسجلة في السنوات الأخيرة لحضور المرأة العربية صاحبة الأعمال كفاعل ناشئ ومؤثر في الواقع الاقتصادي العربي. ورغم شحّ البيانات الإحصائية الدقيقة والمفصلة حول سيّدات الأعمال العربيات فإن الأرقام العامة المتاحة تؤكد التنامي المطرد لهذه الظاهرة على مستوى أغلب الدول العربية حتى تلك المتوسطة أو محدودة النموّ وبما فيها تلك الراضحة تحت الاحتلال مثل فلسطين والعراق.

وقد بلغ عدد سيدات الأعمال في دولة الإمارات العربية المتحدة على سبيل المثال أكثر من تسعة آلاف امرأة، وبلغت نسبة مشاركتهن في القطاع الخاص ١٨ ٪. وبلغ عدد سيّدات الأعمال في إمارة أبو ظبي ٣ آلاف امرأة، حققن نسبة استثمار قاربت ٢,١ مليار درهم في قطاع الصناعة. وقد فاقت ملكية النساء صاحبات الأعمال في المملكة العربية السعودية حوالي ١٥٠٠ شركة تمثل ما نسبته ٣,٤ ٪ من إجمالي المشاريع المسجلة بالمملكة. ويرجع لهنّ بالنظر ٥٥٠٠ سجل تجاري (نسبة ٢٠ ٪) في قطاعات تجارة التجزئة والمقاولات والبيع بالجملة والصناعات التحويلية، كما يمتلكن أكثر من ٤٥ مليار ريال أي ما يعادل نسبة ٧٥ بالمائة من مدخرات المصارف السعودية. وفي البحرين ارتفع عدد سيدات الأعمال من ١٩٣ سيدة في سنة ١٩٩١ إلى ٨١٥ سيدة في سنة ٢٠٠١، وكانت البحرين قد منحت أوّل سجل تجاري لامرأة عام ١٩٥٢ وبلغت نسبة تملكها للسجلات التجارية ٢٩,٨ بالمائة من مجموع السجلات فيما بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣. وشهد عدد سيدات الأعمال في دولة الكويت تطوّرًا لافتًا بلغ نسبة ٣٣ بالمائة من إجمالي القوة العاملة عام ١٩٩٩ وكانت نسبتهن لا تتعدى ٢,٥ بالمائة في عام ١٩٦٥. ووصل عدد سيدات الأعمال القطريات إلى ما يقارب ٥٠٠ سيدة أعمال، وبلغ عدد المؤسسات الاقتصادية التي يساهمن فيها ٨٠٠ مؤسسة^(٥). وفي تونس زاد عدد المشروعات المملوكة لنساء حسب الإحصائيات الرسميّة المصرح بها من ٣٠٠ في سنة ١٩٩٠ إلى حوالي ٢٠٠٠ في سنة ١٩٩٨، ليلبغ اليوم عدد النساء صاحبات مؤسسة حوالي ١٠ آلاف امرأة. وتشير بيانات جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني أن مسح المنشآت لسنة ٢٠٠٤ ابرز أن عدد المنشآت التي تقودها نساء في الأراضي

(٥) مركز الخليج للدراسات الإستراتيجية، سيدات الأعمال العرب، نواة لتكتل اقتصادي عربي. أخبار الخليج

٢٥ ابريل ٢٠٠٦ منشورة على شبكة الانترنت.

الفلسطينية بلغ عدد ٥٢٣٦ منشأة منها ٣٩٣٢ مؤسسة في الضفة الغربية و١٣٠٤ مؤسسات في قطاع غزة. وقد وظفت هذه المنشآت ١٥٩٣٢ عاملاً منهم ٣٧٥٧ عاملاً ذكراً و١٢١٧٥ أنثى^(٦).

ولا بدّ من الإشارة إلى أن العدد الجملي للنساء صاحبات المؤسسة في الأرقام الرسمية المصرح بها لا يوفر تدقيقاً يذكر حول نسبة سيدات الأعمال صاحبات المؤسسات المتوسطة الحجم من الحرفيات وصاحبات المشاريع المتناهية الصغر، حيث أن عدد من المشروعات الاقتصادية المدارة من قبل المرأة والمضمّنة في الأرقام هي في جزء منها عائلية ويتمركز عدد منها في النشاط الحرفي والتجاري.

ومن المهم الإشارة إلى أنه توازياً مع ارتفاع أعداد صاحبات الأعمال وتزايد وزنهن في المجتمعات العربية تسارعت حركة تنظّمهن المجتمعي لتفرز جملة من الهياكل والجمعيات التي تأسست على أيديهن بهدف تنظيم أنشطتهن الاقتصادية والتغلب على الصعوبات المشتركة التي من الممكن أن تواجههن كفتة ناشئة. وقد أصبح نسق تأسيس المنظمات والغرف المهنية لصاحبات الأعمال حركة مستشرية في أغلب الأقطار العربية حتى تلك التي تعتبر من أقلّ الأقطار تصالحا مع حقوق المرأة ومن أكثر البلدان تشدداً تجاهها.

ويوجد في مصر في سنة ٢٠٠٥ حوالي ٢٢ جمعية لنساء الأعمال مقارنة بوحدة فقط في سنة ١٩٥٥، وفي المغرب تأسست جمعية «أفيم» لنساء الأعمال المغربيات التي زادت عضويتها من ٧٠ عضواً في سنة ٢٠٠٠ إلى حوالي ١٨٤ عضواً في سنة ٢٠٠٤^(٧). وفي موريتانيا تأسس منذ ١٩٩٣ «اتحاد التاجرات والمقاولات الموريتانيات» المكوّن من ٥٠٠ امرأة تعتبر ٣٠ بالمائة منهنّ سيدات الأعمال والبقية من صغار ومتوسطي التاجرات^(٨). وشهد الصومال منذ سنة ٢٠٠٠ تأسيس «رابطة نساء الأعمال» التي تنتمي إليها ٧٨٠ سيدة أعمال.

(٦) معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس)، الحرفيات وصاحبات الأعمال الفلسطينيات: الواقع والآفاق، القدس ورام الله ٢٠٠٥، ص ٥.

(٧) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية لسنة ٢٠٠٥، نحو نهوض المرأة العربية، ص ١٠٦.

(٨) حسب تصريح تلفزي للسيدة فاطمات بنت سيدي أحمد رئيسة اتحاد النساء التاجرات والمقاولات برنامج «وجهة نظر» بث على قناة الجزيرة في ١٠ / ١١ / ٢٠٠٥ بعنوان «المرأة الموريتانية ودورها في الحياة العملية». نص البرنامج موجود على موقع الجزيرة نت: <http://www.aljazeera.net>

وقد امتدّ نشاط النساء العربيات سيدات الأعمال إلى غرف التجارة والصناعة حيث أصبحت النساء إلى جانب تشكيلهن لقوة لافتة في صلب اتحادات الصناعة والتجارة وعضوات بارزات في هيكله الوطنية^(٩)، ينشئن غرفا خاصة بهنّ لاسيما في دول الخليج والمغرب العربي حيث أصبحن يتجسمن أدواراً ريادية في الساحات الوطنية وكذلك الإقليمية والدولية^(١٠).

٢-٢- الخصائص العامة للمرأة لصاحبة المؤسسة

بغضّ النظر عن بعض الاختلافات الأفقية أو العمودية التي قد تشق أصناف ونماذج النساء صاحبات المؤسسة المتوسطة والصغيرة من بلد عربيّ إلى آخر، يمكن القول بتوحّد الخصائص والملامح العامة لتلك النماذج والأصناف. و تتكرر في الغالب جملة من العناصر المشتركة والسمات العامة في مختلف التجسّدات الواقعية لصورة المرأة العربية صاحبة الأعمال.

ونشير في البداية إلى أن أغلب المؤسسات الاقتصادية المنجزة من قبل النساء في الأقطار العربية تتركز بدرجة أساسية في قطاع الخدمات حيث تبلغ نسبة تلك المؤسسات ٧٧ بالمائة في اليمن و٥٩ بالمائة في مصر، و٣٧ بالمائة في المغرب^(١١). وتتركز في فلسطين نسبة ٣٤ بالمائة من مشاريع النساء في مجال التجارة^(١٢). وأما في تونس وبالرغم من بعض التنوّع المسجّل في ميادين نشاط صاحبات الأعمال^(١٣) وبالرغم من الأهمية التي تحتلها الصناعة في نشاط المرأة صاحبة المؤسسة (٤٢ بالمائة)، إلا أن ذلك لا ينفى ارتفاع حجم نشاط المرأة في

(٩) تمّ على سبيل الذكر انتخاب أربع سيدات أعمال ضمن المكتب التنفيذي للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية ضمن مؤتمره الوطني الرابع عشر المنعقد بتونس يومي ٢١ و٢٢ نوفمبر ٢٠٠٦. نشرية الغرفة الوطنية للنساء صاحبات المؤسسات، تونس نوفمبر ٢٠٠٧.

(١٠) أضحت الساحة العربية تشهد بشكل متكرر لقاءات ومنتديات ومؤتمرات عالمية تقيمها الاتحادات الوطنية والعربية لسيدات الأعمال فضلا عن مشاركة عدد من العضوات في تظاهرات عالمية بالتنسيق مع هيكل نظيرة في دول المتوسط والمنظمة العالمية لصاحبات الأعمال.

(١١) تقرير التنمية الإنسانية العربية نحو نهوض المرأة، ص ١٠٥

(١٢) معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطيني (ماس)، الحرفيات وصاحبات الأعمال الفلسطينيات، ص ٤

(١٣) تتنوع مجالات النشاط وتحضر صاحبات الأعمال في تونس في قطاعات عديدة منها الصناعات الغذائية والصناعات الميكانيكية الكهربائية والكيميائية ومواد البناء والصناعات المختلفة وقطاع التصدير والتوريد والتجارة الدولية ومكاتب الخبرة والدراسات والتدريب والسياحة.

قطاع الخدمات والتجارة والأعمال اليدوية التي تحتل على التوالي النسب التالية ٣٤ و ١٤ و ١٠ بالمائة^(١٤) من نشاط المرأة المقاوله في تونس. والوضعية ذاتها نجدها تتكرر في حالة المرأة البحرينية التي رغم حضورها في مجال الصناعات التحويلية إلا أن الجزء الأغلب من أنشطة مؤسساتها يظل يحوم حول تجارة الجملة والتجزئة والفنادق والمطاعم والأنشطة العقارية والمهنية .

ويمكن القول عموماً بأن أغلب أموال سيدات الأعمال العربيات تظل منحصرة في مجالات نشاط بعينها كالصناعات الخفيفة والصناعات الحرفية وتجارة الجملة والتجزئة ومجال العقارات والمطاعم والفنادق والسياحة، بالرغم من أن إمكاناتهن المالية خاصة في بعض دول الخليج العربي تتجاوز تلك المجالات بكثير إذ يقدر حجم استثمارات سيدات الأعمال بالمملكة العربية السعودية ٨ مليارات ريال، والقطريات ١,٦ مليار دولار ويقدر حجم استثمارهن في الإمارات بحوالي ٣ مليار دولار^(١٥).

ويمكن القول بأن ظاهرة سيطرة قطاع الخدمات على نشاط المرأة صاحبة الأعمال ظاهرة قد تُفسر ببعض العوامل الذاتية وثيقة الصلة ببعض خصائص شخصية المرأة كالتوجس من بعض ميادين النشاط الاقتصادي غير المألوفة في وسطها العائلي والاجتماعي، أو الخوف من مغامرة غير مأمونة العواقب في مجالات استثمار معينة... ولكن يمكن تفسير تلك الظاهرة كذلك بجملة من العوامل الموضوعية التي قد تكون لها تأثيرات مختلفة الأثر على السلوك الاستثماري والسلوك التنظيمي للمرأة باعثة المشروع، ومن ذلك مثلاً عامل الانتشار العام لثقافة الاستثمار في مجال الخدمات على نطاق واسع في جلّ الدول العربية ولدى جميع الفئات والفاعلين رجالاً ونساءً، وميل صغار ومتوسطي الباعثين عموماً إلى البحث عن الربح اليسير من خلال بعث مؤسسات متوسطة ومتواضعة الحجم لا تخرج عن السيطرة الإدارية والمالية للباعث. وهي مواصفات غالباً ما يؤمنها لهم الاستثمار في قطاع الخدمات والتجارة.

(١٤) حسب تصريح وزير الدولة التونسي للتعاون الدولي في افتتاح منتدى لسيدات الأعمال في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. أنظر جريدة الوطن الالكترونية بتاريخ ٢٠ ماي ٢٠٠٨.

(http://www.egyptiangreens.com)

(١٥) مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، سيدات الأعمال العرب، مرجع مذكور.

وأما فيما يتصل ببعض الخصائص الذاتية للنساء صاحبات الأعمال في البلدان العربية كالمستوى التعليمي أو السن فلا بدّ من التأكيد على شحّ المعطيات الإحصائية الرائدة لتلك الخصائص. وتبقى المصادر المتاحة مقتصرة على بعض الدراسات الجزئية والظرفية المنجزة في هذا البلد أو ذاك. وتجدر الملاحظة بأن مقارنة تجربة المرأة في بعث المؤسسة الخاصة عبر مؤشر السن تفضي منذ البداية إلى نفي وجود أي رابطة مباشرة بين صنف معين من أصناف نساء الأعمال وبين شريحة عمرية معينة. ويتأكد ذلك رغم أن الاعتقاد الشائع والصورة النمطية المألوفة عن المرأة صاحبة الأعمال ترجّح بعث المرأة للمؤسسة الاقتصادية (لاسيما ذات الحجم المهمّ) في سن متقدمة نسبيا وفي سنّ تنضج فيها الرغبة في الاستثمار، ويكتمل فيها الاستعداد المادي والمعنوي لدى المرأة لخوض تجربة المبادرة الحرّة^(١٦). وتبدو السنّ المتقدمة في مثل هذه الحالة مبرّرة بعوامل انتهاء المرأة من تربية أطفالها أو الرغبة في التخلص من أعباء الوظيفة والتحرر من التزاماتها، أو كنتويج لمرحلة من تجميع رأسمال المؤسسة وتحقيق حلم تأسيسها.

ولكن ارتباط بعث المرأة للمؤسسة الخاصة بالسنّ المتأخر وإن يبدو ارتباطا منطقيا إذا ما تمّ تنزيله في الواقع الاجتماعي العربي، إلا أنّ المعطيات الميدانية الراهنة بدأت تفنّده. ويبدو أن مجمل التحوّلات الطارئة على عالم العمل والمؤسسة وما يشهدانه من أوضاع إعادة الهيكلة في مسار العولمة وسياساتها المتصلة بتحرير الاقتصاد والتجارة، إلى جانب مختلف التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية والقانونية الطارئة على أوضاع المرأة العربية أضحت تغير إلى حدّ كبير من مغزى ذلك الارتباط.

وقد أضحت الدلائل تؤكّد دخول الفتاة العربية الشابة لعالم المال والأعمال في عدد من الدول. ويذكر على سبيل المثال أن الساحة الاقتصادية السعودية أبرزت مؤخرا عددا من سيدات الأعمال الشابات اللاتي لا تتجاوز أعمارهن ٣٠ سنة،

(١٦) ويبدو هذا الانطباع شبه عالمي حيث تؤكّد بعض الدراسات الغربية عن المرأة المقاتلة إن معدل سن خوض المرأة لتجربة بعث المؤسسة غالبا ما تكون في سن الخمسين فما فوق وغالبا ما تبادر المرأة بإحداث مؤسستها في سن متقدم نسبيا عن الرجل، وبينت بعض النتائج انه في بعض الشرائح العمرية تبدو النساء صاحبات المؤسسة أكثر عددا من الرجال مثلا في الفئة العمرية ما فوق الخمسين سنة هناك ١٤ بالمائة من النساء يحدثن مؤسسة مقابل ١٠ بالمائة للرجال. انظر:

وأشارت بعض المصادر إلى أن ٣٠ بالمائة من سيدات الأعمال السعوديات تتراوح أعمارهن بين ١٨ - ٣٠ سنة، وأن نحو ٤٥ بالمائة منهن صاحبات مشاريع صغيرة^(١٧). وقد أصبحت المؤشرات الإحصائية في عدد من الدول العربية تؤكد ذلك الانخراط المبكر للفتاة في الحياة الاقتصادية عبر المشروع المستقل. وتنطبق هذه الوضعية على وجه الخصوص على المتخرجة حديثاً من التعليم والحاملة لشهادة جامعية عليا. وقد أظهرت نتائج مسح أجري في المغرب في سنة ٢٠٠٤ أن غالبية النساء من أصحاب المؤسسات الخاصة هنّ من خريجات الجامعات، وكان ثلاثة أرباعهن يدرن مشروعاتهن بأنفسهن^(١٨).

وأكدت الدراسة المنجزة في تونس في سنة ٢٠٠١^(١٩) أن جيلاً جديداً من الفتيات صاحبات الشهادات العليا يبرزن كفاعلات لمؤسسات خاصة ومسيرات لها. وترتبط تلك الفئة الصاعدة أكثر بالمهن الجديدة المنحدرة من حذق تكنولوجيا المعلومات والاتصال وميادين الإشهار والتزويق وعالم التجميل والموضة وغيرها، حيث تتجه ذوات الشهادة الجامعية في بعض التخصصات إلى ولوج عالم المبادرة الحرّة وفتح مكاتب محاسبة أو تصرّف أو استشارة الخ. وعادة ما تكون المؤسسة المحدثة في هذه الحالة على صلة نوعية بالتكوين العلمي المتحصّل عليه، وعلى صلة وثيقة برغبة مسبقة وحلم سابق للفتاة ببعث المؤسسة.

ويجدر التأكيد على أن خيار الفتاة خوض تجربة بعث المؤسسة وإن كان يمثّل أحد الأوجه البناءة لارتفاع نسب ومستويات تعليم الفتاة وتفوقها فيه في أغلب الدول العربية، فإن الانخراط المتزايد لمسار إحداث الفتاة للمؤسسة المستقلة في سن مبكرة أو عقب تخرجها مباشرة، قد يكون في حالات عديدة قدراً محتوماً لا مناص من الهروب منه في واقع حال لا يطرح لصاحبة الشهادة حلاً أخرى^(٢٠). وقد أصبح انسداد السبل المألوفة ومسالك ظفر المتخرجة حديثاً من التعليم العالي وحاملة الشهادة الحاملة بوظيفة آمنة ومستقرة يدفعها كغيرها من غير حملتها

(١٧) حسب تصريح هند الزاهد (مديرة مركز سيدات الأعمال في غرفة الشرقية والمسؤولة التنفيذية عن منتدى سيدات الأعمال) لصحيفة لها أون لاين، الرياض، ٣ مايو ٢٠٠٨، انظر الموقع على شبكة الانترنت: <http://www.lahaonline.com>

(١٨) تقرير التنمية الإنسانية العربية لسنة ٢٠٠٥، ص ١٠٥.

(١٩) CREDIF, Les femmes entrepreneurs en Tunisie, op cit, p 50

(٢٠) نفس المرجع، ص ٧٦.

للانخراط في الحياة المهنية عبر مسالك بعث المؤسسة الخاصة والمغامرة بتسييرها والنموّ بها. ويصبح في هذه الحالة خيار بعث المؤسسة بديلاً اقتصادياً عن بطالة محتومة أو عن حالة امتهان عمل قار مقابل أجر لا يتناسب في نظر صاحبة الشهادة مع القيمة المادية والرمزية لشهادتها العلمية.

وهو ما يتأكد كذلك من خلال الحالة الفلسطينية التي وإن تبرز بعض الدراسات بها الارتفاع النسبي للمستويات التعليمية للنساء المبادرات بإحداث المشاريع الخاصة^(٢١). ورغم تأكيد المعطيات الواقعية تفضيل صاحبة الشهادة العليا الانخراط في مسار البحث عن وظيفة قارة في قطاعات أخرى، إلا أنّ عدم توفر ذلك (في ظل الواقع المتردي للاقتصاد الفلسطيني تحت وطأة الاحتلال والحصار) قد يدفع بالكثيرات إلى تبني خيار بعث المشروع المستقل. وبهذا يجوز القول بأن خيار بعث المرأة للمشروع الاقتصادي وتنامي المبادرات النسائية الخاصة في المشهد العربي، قد لا يمثل بالضرورة ترجمة لحالة ترف مادي يدفع بالمرأة أو بالفتاة نحو خوض التجربة، بقدر ما قد تكون انعكاساً لحالة ضائقة مالية واقتصادية وتعبيراً عن وضعية انسداد آفاق الدخول لسوق العمل ولمعترك الحياة المهنية. وهو ما سوف نقف عنده بتفصيل أكثر في ما سيقدم حول المرأة وسياقات بعث المؤسسات الاقتصادية المتناهية الصغر.

٣- المرأة صاحبة الأعمال المتناهية الصغر.

٣-١ - سياق ظهور التمويل المتناهي الصغر.

ظهرت ضمن سياق العولمة برامج التمويلات الصغرى وسياسة تشجيع بعث المرأة للمؤسسات المتناهية الصغر كاستراتيجية مركزية في مكافحة فقر النساء خاصة بالمناطق الحضرية^(٢٢). واتخذت المؤسسة المتناهية الصغر وظيفة اجتماعية

(٢١) إن نسبة ٦ بالمائة من العينة المستجوبة هن من الأميات و١٤ بالمائة درسن المرحلة الابتدائية و٢٤,٥ بالمائة للمرحلة الإعدادية و ٩,٥ بالمائة حصلن على ثانوية مهنية و ٢١,٦ بالمائة ثانوي أكاديمي و ٤,٤ بالمائة دبلوم متوسط أكاديمي و ١٤,٤ جامعة فأكثر، معهد أبحاث السياسات الاقتصادية الفلسطينية (ماس)، الحرفيات وصاحبات الأعمال الفلسطينيات، ص ٤

(٢٢) تمّ لأول مرة ضمن مؤتمر بيكين (عام ١٩٩٥) عرض فكرة إسداء القروض الصغرى في إطار محاولة الحدّ من الانتشار العالمي لظاهرة فقر الإناث على وجه الخصوص. ووقع التشديد على أهمية « منح النساء إمكانية الوصول إلى المؤسسات وآليات الائتمان والادخار».

متصاعدة بما أُلقي على عاتقها من أدوار امتصاص فوائض أسواق العمل، والتخفيف من وطأة بعض عيوب العولمة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية الجانبية كالفقر والبطالة. وتزايد الحديث عن الدور المركزي للمؤسسة المتناهية الصغر في تعديل توازن اختلالات سوق العمل وإعادة ضبطها. وتُعرّف التمويلات الصغرى بأنها محاولة «مضاعفة إسداء الخدمات المالية المتمثلة عادة في الإقراض أو الادخار لأشخاص يطورون نشاطا منتجا عادة ما يكون في مجال الصناعات التقليدية أو التجارة، ولا يكون بوسع هؤلاء النفاذ إلى المؤسسات المالية التجارية بسبب أوضاعهم السوسيو اقتصادية»^(٢٣). وتتمثل أهم آليات التمويلات الصغرى في سياسة الإقراض الصغير المحفّز على بعث المشروعات المتناهية الصغر. وتتجلى أهم خصائص ذلك الإقراض في بُعده المحلي حيث يجب أن يكون على مقربة من المستفيدين منه حتى تتيسر عملياته وتعمّ الجدوى منه، وتتصل أغلب تدخلاته عادة بتمويل المشروعات المتناهية الصغر في مجال القطاع غير الرسمي، وتمثّل النساء أكبر فئاته المستهدفة.

ويعود الرواج المنقطع النظير لفكرة كبح فقر النساء عبر آلية الإقراض المتناهي الصغر على الساحة العالمية إلى نجاح نموذج «جرامين بنك» في بنغلادش وإعلان فوز مؤسسه «محمد يونس» بجائزة نوبل للسلام في عام ٢٠٠٦ ونجاحه في مساعدة ملايين الفقراء على ولوج دوائر العمل المنتج^(٢٤). وأصبح «جرامين بنك» نموذجا محتذى عالميا من قبل هيئات الإقراض في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومن قبل عدد من المنظمات غير الحكومية العالمية.

وتجدر الإشارة إلى أنه بالتوازي مع ما باتت تؤكد الأرقام المتداوله في حقل

(٢٣) Labie Mark, La micro finance en questions, FHP, Paris 2000

(٢٤) ويمول البنك مؤسسات متناهية الصغر لمقترضين غالبيتهم من أوساط ريفية بمتوسط مبلغ ١٥٠ دولار للقرض الواحد وبمبلغ جملي يفوق ٣٠ مليون دولار في الشهر، وتصل نسبة سداد قروض البنك إلى حوالي ٩٨ بالمائة ويقرّ البنك بتخطّي ٤٨ بالمائة من حرفائه لخط الفقر المضبوط في بنغلادش. ويستخدم «جرمين بنك» معادلة الإقراض الجماعي التي تشمل مجموعات مكونة من ٥ إلى ٢٠ شخصا أغلبيتهم من النساء، وتتحمل المقترضات المسؤولية الجماعية لسداد قروض المجموعة. وهو ما من شأنه الرفع من الضغط الاجتماعي باتجاه المحافظة على سمعة المجموعة لدى البنك ويضمن لها بلوغ مستويات قروض أعلى في المستقبل. أنظر:

Hofmann Elisabeth, Kamala Marius Gnanou, "L'approche genre dans la lutte contre la pauvreté, p 4

الفعل التنموي من نجاح برامج التمويلات الصغرى في الوصول إلى الفقراء^(٢٥)، وبالتوازي مع ما يروج في الساحة العالمية من قصص نجاح المؤسسات الممولة لتلك البرامج في مكافحة الفقر والحدّ من انتشاره في صفوف النساء، يشكك بعض الباحثين في القيمة الفعلية لتلك النتائج المعلنة وتدعو بعض الآراء إلى ضرورة الحذر من المبالغة في المفعول السحري للتمويلات والقروض الصغرى والمتناهية الصغر في تغيير وضعيّة فقر الإناث وتمكينهنّ الاقتصادي والاجتماعي. ويبقى سؤال الجدوى الفعلية لبعث المشروعات المتناهية الصغر على تمكين المرأة محلّ جدل ونقاش.

٣-٢- المرأة وبعث المشروعات الصغيرة: تمكين أم إعادة إنتاج للتهميش؟

يتحفظ الكثير من الدارسين على برامج الإقراض المتناهي الصغر ويشككون في جدوى الأثر العائد منها في محاربة فقر الإناث بشكلٍ أخصّ. ويمكن تصنيف جملة المواقف الناقدة لتلك البرامج إلى صنفين أساسيين:

- صنف أوّل يُوضع تلك البرامج في سياق علاقة مشبوهة مع العولمة، توصف فيها القروض الصغرى بمثابة الفئات الذي يرميه كبار العولمة لصغارها ومهمشيها.

- صنف ثانٍ يشكك في النتائج المباشرة لتلك البرامج في التخفيف من فقر النساء انطلاقاً من بيان بعض الصعوبات الميدانية في قياس الأثر، وتحديد الفئات المستهدفة، والتحقق الفعلي للتمكين.

وتُجمع آراء الصنف الأوّل على اعتبار القروض المتناهية الصغر وسيلة يتمّ من

(٢٥) ترجّح بعض التقديرات أنه يوجد أكثر من ١٦٠٠ مؤسسة للتمويلات الصغرى في الدول النامية تشغل جملة من الحرفاء بلغ عددهم حوالي ١٦ مليون فقير في تلك الدول، ويرتفع حجم الموارد المستغلة إلى ٢,٥ مليار دولار أمريكي في العالم. وتتدخل تلك الهياكل في مستويات محدودة بمعدل عام للعمليات يتمثّل في أقلّ من ٣٦٠,٠٠٠ ألف دولار. ويبلغ الحجم العالمي للقروض الصغرى نسبة ٣٠ بالمائة سنوياً، وتبلغ نسبة السداد حوالي ٩٧ بالمائة. وتشير التقديرات كذلك إلى أنّ قاعدة الطلب على القروض الصغرى تبلغ حوالي سبعة ملايين مقترض إضافي، وتقدر الطلبات المحتملة على القروض الصغرى بحوالي ١٩ مليون مدخر جديد. أنظر:

Organisation de Coopération et de Développement Economiques, Introduction à un nouveau débat sur la politique du bien être. OCDE 2004, p 20

خلالها إخضاع عملية مدد يد العون إلى الفقراء والمعوزين إلى شروط السوق ومقاييسه بحيث تصبح معونة «مسوّقة» تعمل على إدماج الشرائح الفقيرة في دائرة نفوذ قوانين السوق وشروطه. وقد دفع هذا الموقف بالبعض إلى التساؤل عن جواز القول بتحوّل آلية القروض الصغرى إلى «حصان طروادة» العولمة التي تصرّ على إقحام فقراء العالم ومهمّشيه في دوائرها الماليّة^(٢٦). وتأبى إلاّ أن تحوّلهم إلى أعوان يساهمون - ولو بقدر معلوم - في نماء اقتصادها. وتصبح بذلك نساء الشرائح المعدومة المقصيّات من مسارات العولمة وسياقاتها، إحدى الروافد الخلفية للدوائر المالية لأنظمة العولمة ومصدرا مساهما فيها. وبهذه القراءة يبقى مسار إتاحة القروض المتناهية الصغر للمرأة الفقيرة، حسب البعض، مصدر ثراء لغير الشرائح الفقيرة وينأى عن نُبل هدف مكافحة الفقر.

وفي نفس هذا الاتجاه يشدّد بعض الباحثين على الارتباط المباشر بين سياسات التعديل الهيكلي (الثقيلة الظل على الشرائح الفقيرة وعلى النساء) وبرامج التمويلات الصغرى، ويركّز هؤلاء على التأثيرات العكسيّة لبرامج القروض المتناهية الصغر التي بدل أن ترتقي بالأوضاع المادية للفقراء فأنها تساهم على العكس من ذلك في إثقال كاهلهم بالديون اللامتناهية. وهكذا لا تبدو برأي هذا الفريق القروض الصغرى كألية معتمدة لمحاربة الفقر غير فُتات ترمي به العولمة لفقراء العالم حتى تمكنهم من الإدلاء بدلوهم في لعبة اقتصاد السوق المعلوم عبر تحويلهم التدريجي من فقراء إلى باعثي مشاريع ومديري مؤسسات صغار يتمّ إدماجهم بشكل تدريجي في قلب رحي العولمة.

وأما الصنف الثاني من المواقف فينطلق من التأكيد على الصعوبة الفعلية في قياس أثر القروض الصغرى على المرأة وتحقيق التمكين الفعلي لها. ولا بدّ من الإشارة إلى أن كفيّة إجراء القياس وأدواته تظلّ معضلة حقيقية مطروحة بحدّة على مؤسسات التمويلات الصغرى. ويبقى اختلاف وجهات النظر وتباين النتائج أمرا واقعا في اغلب دراسات قياس أثر القروض المتناهية الصغر حتى بالنسبة لنفس

Hofmann Elisabeth, Gnanou K. Marius, "Le micro crédit pour les femmes pauvres: (٢٦) Solution miracle ou cheval de Troie de la mondialisation? Etat du débat". Dans Regards des femmes sur la globalisation approche critique sur la mondialisation, (dir, J Bisilliat), Karthala, 2003. p 45.

البرامج والمنتفعين والفترة. وفي حين تتجه بعض نتائج دراسات الأثر إلى تأكيد الجدوى الاقتصادية الملموسة فعلياً من برامج القروض الصغرى^(٢٧)، إلا أن الكثير منها يؤكد على أن مسألة قياس الأثر تبقى مسألة غير هيّنة وتتطلب الكثير من الدقة في مستوى فرضيات الانطلاق ومقاربات التحليل المعتمدة ووسائلها.

إن التثبت من ظفر المرأة الحاصلة على قرض صغير بقدر من التمكين مقارنة بوضعية سابقة، يبقى تمرين عسير الانجاز وعملية غير مضمونة النتائج لاعتبارات عديدة. لعلّ من أهمها صعوبة الوصول إلى حقيقة ما يدور داخل حياة المرأة، ومجمل ملابس علاقاتها اليومية بأفراد أسرتها وموقعها فيها عقب حالة الإقراض.

هذا ويتجه النقد الموجه لدراسات أثر القروض الصغرى على التمكين في أحيان عديدة إلى نقد استخدام مفهوم التمكين في حدّ ذاته والذي يجب - بنظر بعض الدارسين- أن لا يكون مفهوماً مجرداً ومسبق التحديد، بل يتوجب إخضاعه لخصوصية كل سياق ثقافي واجتماعي وربطه بتمثلات المرأة للتمكين^(٢٨) ولمغزاه ومقاصده من وجهة نظر المجموعة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة. ويشدّد هذا الرأي على أهمية دلالة التباين الموجود بين وضعيات النساء داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات والثقافات، واختلاف مدى تمثلهن لتحسّن أوضاعهنّ ومؤشراته.

ويتصل الرهان السوسيوولوجي المطروح على دراسات الأثر في هذا الاتجاه بالقدرة على تفكيك معاني تمثّلات مجموعة اجتماعية معينة للتمكين وتحليل دلالاته، والقدرة على فقه طبيعة العلاقات القائمة بين تلك التمثّلات والمرجعيات الثقافية والقيمية، وارتباط ذلك بطبيعة علاقات النوع الاجتماعي وتأثيرها في مسائل أخذ القرار والسلطة والمبادرة والاحتكام للموارد وغيرها.

وفي دراسة الحالة العربية تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من تزايد اتجاه أغلب الدول العربية نحو اعتماد القروض الصغرى في السنوات الأخيرة كوسيلة لمكافحة فقر النساء، وبالرغم من قطع بعض الأقطار العربيّة لأشواط مهمّة في حفز النساء

(٢٧) بينت بعض الدراسات المنجزة في بوليفيا التي توجد بها ٢٠٠ مؤسسة إقراض و ٣٠٠٠٠٠٠ حريف أن ٢٥ بالمائة من النمو الاقتصادي للبلاد قد يكون عائداً من القروض الصغرى. أنظر المرجع السابق.

(٢٨) Hofmann Elisabeth, Gnanou K. Marius, Le micro crédit pour les femmes pauvres. ibid...

على بعث المؤسسات المتناهية الصغر، تكاد تنعدم المحاولات الجديّة لتقييم أثر تلك السياسات على نساء الشرائح الفقيرة. وتبقى البيانات الرسميّة المتوفرة حول مسارات بعث المؤسسات عن طريق القروض الصغرى نادرة وغير مصنّفة في الغالب حسب الجنس والسّن وقطاعات النشاط، ولا تمدّ الدارس بما يكفي لتحليل انعكاسات تلك السياسات وجدواها الاقتصادية والاجتماعية على المرأة والأسرة العربيّة.

إن توجه عدد من المؤسسات العربيّة المتزايد إلى الاهتمام بكبح فقر النساء عن طريق دفعهن نحو بعث المشروع الاقتصادي المستقل، وحفزهنّ على خوض غمار المبادرة، ومدّ يد العون لهنّ يبقى في حدّ ذاته توجها محمودا ينصهر في توفر الوعي والإرادة الساعية إلى التغيير الفعلي لأوضاع المرأة. ولكنّ من المهمّ القول بأن الاتجاه نحو دفع مسارات بعث المرأة للمشاريع الصغرى لا يجب أن يتحوّل إلى هدف في ذاته بقدر ما يجب أن تتلائم - في ذهن الأطراف المتدخلة - عمليات تمويل المشروعات الصغرى وبرامجها مع هدف التحقيق الملموس للتمكين الاقتصادي والاجتماعي للمرأة. ويتطلب ذلك التلائم الاستراتيجي بين الإقراض والتمويل من جهة وبعث المشروع والتمكين من جهة أخرى، ضرورة متابعة المرأة المستفيدة من القرض في المراحل المختلفة من عمر مؤسستها.

وتصبح عملية متابعة هياكل الإقراض للمؤسسات المنجزة من قبل النساء ومساعدتهن على تخطّي مصاعب مرحلة التأسيس، ضرورة لا تقلّ أهميّة عن خطوة إسداء القرض في حدّ ذاته. ولا بدّ من التذكير في هذا النطاق بتأكيد بعض نتائج الدراسات والمؤشرات الميدانية على أنّ استمرارية أداء المؤسسة الصغرى قد تبقى نتيجة غير مأمونة في حالات عديدة^(٢٩).

وبناء عليه قد تصبح الأرقام الكبيرة المحققة في مستوى أعداد المنتفعات بالقروض وبعثات المشاريع إلى أرقام جوفاء على غير علاقة بتطورات الواقع بما أنّ عددا من المؤسسات المبعوثة قد يموت فور الولادة بسبب صعوبات مختلفة.

(٢٩) وقد بينت بعض الدراسات المنجزة في تونس أن نسب سداد القروض المنخفضة (٥٢,٥ بالمائة) في إطار بعض برامج تمويل المشاريع المنتجة في القطاع غير الرسمي، تؤكد على ارتداد نصف المؤسسات الممولة باعتبار عجزها عن تسوية وضعية سداد القرض. أنظر: منظمة العمل العربيّة، تشغيل الإناث في القطاع غير المنظم بالجمهورية التونسية، مرجع سابق، ص ٦٣.

وبالرغم من أن الأهداف المعلنة لبعض برامج التمويلات الصغرى تتبنى ما يسمّى بالخدمات المصاحبة كالتدريب على المحاسبة والتصرف ودعم عمليات التسويق... ، إلا أن هذه الخدمات المصاحبة قليلاً ما تحظى بالاهتمام في صلب مهام مؤسسات الإقراض في العالم العربي.

ولا تزال كذلك بعض صيغ إسناد القروض الصغرى ومبالغها وأسعار الفائدة وتأثيراتها الايجابية على المرأة وعلى صلابة مسار بعثها للمؤسسات المنتجة محل نقد مطروح عربياً وعالمياً، حيث بيّنت النتائج أوجه قصور عديدة في تطبيق برامج تمويل المؤسسات الصغرى التي تظل أغلب المنتفعات بها في مستوى العالم العربي تصنّف ضمن خانة المستفيدات من المشاريع الجزئية^(٣٠) التي لا تؤهل لغير نيل قروض ذات حجم صغير (لا يتجاوز أقصاها ٢٠٠ دولار أمريكي)، وهي مبالغ لا يتحقق منها في الغالب الهدف المرجوّ من الإقراض المتمثل في دعم المشروع وتحسينه. وتدفع القيمة المتدنية للقروض بالمنتفعة إلى الاضطرار في الغالب لاستخدامها في مصاريف يومية للمرأة وللأسرة^(٣١). وهو ما يفرز حالة عكسية من الاستثمار العقيم للقروض بدلا من الاستثمار المنتج له، ممّا يؤدّي كذلك إلى نتيجة دوران المرأة في حلقة مفرغة من السعي لطلب القرض وسداده من أجل المزيد من الاقتراض.

وخلاصة القول إن الحديث عن روابط مباشرة وواضحة بين بلوغ هدف تمكين المرأة والحدّ من انتشار الفقر في صفوف النساء عبر مسارات حفز بعث المؤسسات الصغيرة عن طريق برامج القروض المتناهية الصغر يبقى فرضية من الصعب تأكيدها في ظل غياب المعطيات الدقيقة والدراسات المشخّصة لوضعية المرأة بعد الحصول على القرض وبعد إطلاقها لمؤسستها. وإن تظل امرأة الشرائح

(٣٠) اليونيفيم، تقدّم المرأة العربيّة، ص ٢٤٠

(٣١) ومن ذلك صرف المرأة لمبلغ القرض في استخلاص معالم استهلاك الماء والكهرباء أو تغطية مصاريف الأبناء التلاميذ وهو ما بينته نتائج جملة من مقابلات أنجزت مع عينات من النساء المنتفعات من قروض جمعية «اندا» العالم العربي بتونس في منطقة حي التضامن بتونس العاصمة، في إطار بحث تخرّج تحت إشرافنا بعنوان دور المؤسسات غير الحكومية في عمل النساء بالقطاع غير الرسمي (أفريل ٢٠٠٥)، وفي إطار بحث بعنوان المرأة وتجارة الحقيبة الأسباب والنتائج: نموذج المنتفعات من قروض جمعية اندا. (أفريل ٢٠٠٦).

الفقيرة في أغلب الحالات الواجهة الأمامية لحرفاء مؤسسات التمويل وتمثل النساء الحاضر الأول في الأرقام الجمالية للمقترضين، فإن لا شيء يثبت ميدانياً أنها ستكون المستفيد الأول منه بعد ذلك أو المتحكم الرئيسي فيه خاصة في ظل أوساط وأعراف وتقاليد اجتماعية تفتنح المرأة فيها أحيانا بعدم جواز وضع يدها على المال الذي يبقى مسؤولية الرجل الأقدر على إدارته والتصرف فيه.

ويبقى الرهان المطروح على برامج القروض الصغرى المكافحة للفقير في أقطارنا العربية متصلا بالتحوّل من مجرد آلية محدودة الأثر والتأثير، إلى منظومة اجتماعية متكاملة تجمع بين مدد المساعدة المالية والفنية والخبرائية، وبين العمل على تطوير استراتيجيات حماية اجتماعية للمنخرطين فيها (منح تقاعد، تأمين على المرض..) من نساء ورجال الشرائح المعدومة المقصيين بطبعهم من مختلف دوائر الضمان الاجتماعي.

٤- المبادرة الاقتصادية للمرأة والرأسمال الاجتماعي

تنظر السوسيولوجيا الاقتصادية إلى الفرد باعثة المؤسسة الاقتصادية على أنه فاعل اجتماعي ينغرس بقوة في مجموعة اجتماعية ذات خصوصية يكون الباعث نموذجا منها، ويسعى عبر مبادراته الاقتصادية إلى تجسيد هوية اجتماعية ومهنية^(٣٢). وقد اجتهد المختصون في ذلك للتأكيد على ما يتضمنه فعل المبادرة الاقتصادية من أبعاد غير براكميتية يطمح صاحب المشروع الاقتصادي إلى بلوغها. وكان ذلك في إطار رغبة في تجاوز ما كانت تؤكده النظرة الاقتصادية النيوكلاسيكية من اختزال المبادرة الاقتصادية في حدود مفهوم الفعل العقلاني وفي حدود الحسابات المادية الضيقة للربح والخسارة.

وقد بيّنت الدراسات أن المبادرة الاقتصادية ترتبط بنوع من الذاتية المتصل بالسياق السوسيواقتصادي الذي ينتمي إليه المبادر كما يرتبط بخصائصه الفردية والجماعية. وهو ما يؤكد بأن الفعل الاقتصادي كيفما كانت طبيعته وحجمه، لا يمكن أن يُقتطع من البنية ومن التفاعلات الاجتماعية ومن السياقات التاريخية التي ينتمي إليها صاحب المبادرة الاقتصادية أو صاحبها.

Bevort A et Lallement M. Le capital social, performance, équité et réciprocité. La (٣٢) Découverte, Paris 2006, p 246.

ومن هذا المنطلق لا يمكن لفعل المرأة الاقتصادي ومبادراتها بيعت المؤسسة الاقتصادية وإحداثها لمشروع مستقل، مهما كان حجمه متوسطا أو صغيرا أو متناهي الصغر، ومهما كان نوعه وقطاع النشاط الذي ينتمي إليه، وبغض النظر عن نموذج المرأة صاحبة المبادرة فيه (سيّدة أعمال كانت أو بائعة رصيف أو تاجرة حقيبة)، أن ينفصل عن محيط اجتماعي يحتضن مبادراتها بأسلوب أو بآخر. ولا يمكن لتلك المبادرة أن تشدّ عن فلك اجتماعي ثقافي وقيمي تتحرك فيه المرأة الباعثة وتسترفد منه نماذجها التسييرية وثقافة إدارتها مؤسستها.

٤-١- روابط النوع وشبكة العلاقات الاجتماعية للمرأة.

إن الصورة النمطية السائدة عن المرأة العربية والتي كانت تجعل منها ربة بيت تدير بامتياز كبير شؤون «مملكتها الصغيرة» مفترضة جدلا أن لا فلاح لها في غير ذلك المجال، صورة دحضتها الدراسات العديدة والمعروفة التي أنجزت في أقطار عربية عديدة منذ انتشار ظاهرة خروج المرأة للعمل في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد عمل بعض تلك الدراسات^(٣٣) على إظهار اجتهادات المرأة العاملة للمزاوجة بنجاح بين واجباتها العائلية وبين واجباتها المهنية، وأبرز حجم المشاق التي كانت تكابدها المرأة العاملة في ذلك الاتجاه مع ما كان يترتب عن كل ذلك من نتائج على وضعها الصحي النفسي والبدني. وقد تمّ الوقوف على نتيجة تحوّل خروج المرأة للعمل في أوساط اجتماعية عديدة إلى ضرورة اجتماعية ومطلبا عائليا أصبحت تفرضه حاجة الأسرة الاقتصادية إلى تنويع مصادر دخلها لمجابهة صعوبات الحياة وضعف القدرة الشرائية وارتفاع مستويات المعيشة.

وفي حالة المرأة صاحبة المبادرة الاقتصادية المستقلة، وإن لا تزال الظاهرة حديثة نسبيا ولم تُخصّص بما تستحق من البحث، فإن الدراسات الميدانية القليلة المنجزة تؤكد بما لا يترك مجالاً للشك على أهمية تفصيل الخاص بالعام في حياة المرأة صاحبة المشروع، بما يرفد إلى حدّ كبير نجاحها في التسيير والإدارة، وبما قد يبرّر ذلك الافتراض القائل بوجود علاقة قويّة بين نجاح المرأة صاحبة الأعمال في تسيير مؤسستها وبين مهاراتها وتجربتها في إدارة شؤون البيت وطباع أهله وأزماته.

(٣٣) يمكن على سبيل المثال ذكر دراسات كميليا عبد الفتاح وبعض الدراسات التي نشرت بمركز دراسات الوحدة العربية ببيروت وغيرها من الدراسات العديدة التي نشرت بالشرق والمغرب العربيين.

ويشير الواقع إلى محورية حضور الأسرة بصيغ مختلفة في مسيرة المرأة باعثة المؤسسة، حيث لا يبرز في الغالب خيار المبادرة ببعث المؤسسة على حساب حضور الأسرة في ذات المرأة الباعثة. كما لا يتجلى ذلك الخيار في صور عكسية أو متناقضة مع خيارات الأسرة، بقدر ما يندرج إقدام المرأة على خوض غمار التجربة الاقتصادية المستقلة ضمن صيغ مختلفة من التوافقات الأسرية^(٣٤) ومن الصفقات العائلية المتعددة الأبعاد.

وبغض النظر عن نموذج المرأة صاحبة الأعمال (المغامرة بمفردها أو المستندة إلى تقاليد عائلية في المجال)، فإنّ فعل الانخراط في مسار المبادرة الاقتصادية الخاصة في مستوى علاقته بالأسرة، ينصهر في الغالب في صيرورة حلّ لأزمة أسرية ما أو جبر ضرر نفسي أو اجتماعي أو اقتصادي. وهو ما قد يتجسّم سواء في حالة المرأة سليلة العائلات الضليعة في عالم المال والأعمال التي يضطرها الانتماء العائلي لظرف أو لآخر إلى تسلّم المشعل ومواصلة المسيرة بمؤسسات العائلة والأب أو بمشاريع الزوج، أو في وضعيّة المرأة المفتقدة لذلك السند والتي عقدت العزم من أجل أسرتها وعبر مصداقيتها على كسر توق الفقر عبر قرض ومؤسسة متناهايا الصغر.

إنّ بعث المرأة للمؤسسة لا يولد بالصدفة كما عبّر عن ذلك بعض الباحثين، وإنما يتموقع في منطقة معلومة من الشبكة التي تنسجها الباعثة للمشروع مع الأيام، حيث يحيط بها مناخ ملائم «ووسط ساند». ويبقى من العبث تصور أن ظاهرة المقابلة النسائية ظاهرة فريدة بإمكانها النجاح بمعزل عن الدعم والمؤثرات العائلية^(٣٥) وبالتالي بمعزل عن الرجل والرجال. ويعرف مشهد إدارة المرأة للمؤسسة الاقتصادية حضورا مكثفا للرجل بصيغه المختلفة كأب وزوج وأخ وابن وجار وابن عمّ الخ... ويختلف شكل الحضور وقوة تأثيره في سير المؤسسة وفي شخصيّة صاحبها بحسب طبيعة الرابطة مع تلك الأخيرة، وبحسب الدور الذي يتبوأه الرجل داخل المؤسسة وخارجها والمكانة التي يحتلها في ذات صاحبة المؤسسة.

(٣٤) CREDIF, Les femmes entrepreneurs en Tunisie, op cit, p 35

(٣٥) نفس المرجع ص ٨٥

وتتراوح مستويات وجود الرجل / الزوج مثلا وسلّم حضوره في المؤسسة من الوجود الفعلي الذي يتقاسم فيه مع المرأة مسؤولية الإدارة والمتابعة والتسيير، إلى الوجود «الواجهة» الذي يبرز فيه عند الحاجة إلى قضاء شأن ما لا يقضيه غير تدخل «الرجال»، كالحصول على قرض أو التزود بمواد أولية أو غيره، إلى الوجود عن بُعد الذي لا يبدي فيه غير المراقبة وتقديم النصح والمشورة.

أما الرجل / الأب فبقدر ما قد يكون حضوره مباشرا في حالات باعثة المشروع العزباء، فإن حضوره الأبرز يكون غالبا في مستوى نسق تمثّلات النساء صاحبات الأعمال لقيم النجاح والتألق والثقة بالنفس، وفي مستوى استبطانهنّ لأساسيات التسيير الحكيم والتعامل مع الحرفاء والعمّال والمزودين وغيرهم. وقد رأى «بيارنويل دينياي» أن إحداث المرأة للمؤسسة كثيرا ما ترتبط بعملية إعادة إنتاج اجتماعي لمهنة معينة أو لمجال نشاط معين، وغالبا ما تنغرس الحساسة تجاه بعث المشروع والرغبة الجامحة في المبادرة الاقتصادية الخاصة في طفولة المرأة وفي تنشئتها الاجتماعية التي تقودها بأشكال واعية وغير واعية إلى بلورة تلك الرغبة وبلوغ تلك النتيجة. ولئن يرتبط ذلك الحسّ نحو بعث المشروع في رأيه بالثقافات الوطنية والحوافز المؤسساتية، فإنه يرتبط كذلك بقدر مهمّ من الممارسات العائلية التربوية التي تساهم في الإعداد المسبق لمستقبل المرأة، وتهيئتها لبعث المؤسسة الخاصة وتولي مسؤولية قيادتها^(٣٦).

إن حديث بعض المختصين عن تجذّر مبادرات بعث المؤسسة النسائية في الدول العربية في دائرة الوسط الاجتماعي الرافد للمؤسسة ولصاحبها، أفضى إلى التأكيد على محورية التحرك الذكي للمرأة باعثة المشروع ضمن نسيج أكبر من العلاقات الاجتماعية المختلفة التي تصنعها تلك المرأة خارج محيطها العائلي والاجتماعي، وقدرتها على تأليف شبكة من العلاقات الحيوية التي تستند إليها في رفد حياة مؤسستها وانتعاشها، واستنفارها في أوقات الضرورة لقضاء شؤون مؤسستها.

ولا يعدّ الحديث عن تمفصل الاقتصادي بالاجتماعي وتلخّف الأوّل بالثاني واكتسائه به، تناولا جديدا في الأدبيات السوسيولوجية والانثربولوجية التي أكّدت

منذ فترة الرواد والمؤسسين على أهمية انصهار الفعل الاقتصادي في مجموعة من العلاقات الاجتماعية التي تحملها معاني المصادقة الاجتماعية، وتضفي عليه معاني ودلالات رمزية.

وقد عاب عالم الاجتماع الفرنسي «بيار بورديو» [Pierre Bourdieu] منذ الستينات على علماء الاقتصاد افتراضهم اشتغال الرأسمال الاقتصادي بشكل مستقل، وافتراضهم لحدوث التراكم الاقتصادي وفق النماذج الاقتصادية الصرفة. وبيّن «بورديو» في مقابل ذلك أن إعادة إنتاج الرأسمال الاقتصادي وتناميّه يفترض بالضرورة حالة من تحوّل نحو أشكال أخرى من رأس المال، ومنها رأس المال المدرسي والثقافي واللغوي الرمزي ومن ثمّ تحوّل إلى رأس مال اجتماعي^(٣٧). ويختزل الرأسمال الاجتماعي برأيه كلّ أشكال رؤوس الأموال غير الاقتصادية التي لا يمكن للنماء الاقتصادي أن يتحقق بدونها. ويعرّفه على أنّه «مجموعة من المصادر المتوفرة أو الكامنة المرتبطة بملكية شبكة دائمة من العلاقات القائمة على التعارف المتبادل، والمرتبطة بالانتماء إلى مجموعة من الأعوان المتحدّين بروابط قارة ومثمرة قائمة على تبادلات ماديّة ورمزيّة متلاحمة»^(٣٨).

وقد بدأ مفهوم الرأسمال الاجتماعي يبرز في بعض الدراسات بوصفه المفهوم السوسولوجي الأكثر قدرة على فهم ظاهرة المقابولة النسائية. وبدأت بعض الأدبيات تؤكد على محوريّة اعتماد المرأة باعثة المؤسسة الاقتصادية الخاصة (أكثر من الرجل وبشكل مختلف عنه) على جملة من التحالفات الاجتماعية وشبكة من العلاقات الاجتماعية التي تستثمر فيها بشكل مجدي الرصيد العلائقي للأهل وخاصة للأب والزوج والأبناء. وأصبحت الوقائع تؤكد تحمّل الرأسمال الاجتماعي للمرأة باعثة المشروع، أكثر من غيره من رؤوس الأموال، جزءاً مهماً من مسؤوليّة نجاح مختلف عمليات مضارباتها في السوق، وتسييرها لمؤسستها، وجبر عثراتها المالية والإدارية، وتجاوز كلّ الصعوبات التي يمكن أن تعترض المسيرة الاقتصادية للمرأة ولمؤسستها.

Bourdieu Pierre, Le capital social, notes provisoires. Texte reproduit dans Bevort, A et (٣٧) Lallement, M, Le capital social, ibid, p 31.

(٣٨) نفس المرجع والصفحة.

إن التطور الفكري الحاصل في مقارنة علاقة المرأة بالمؤسسات الاقتصادية والتمفصل القائم بين الاجتماعي والاقتصادي في مسارات مكافحة الفقر، وبعث المؤسسات الاقتصادية، وعمل المرأة بالقطاع غير الرسمي في الدول النامية، أضحى يدفع باتجاه تغيير فعلي في التوجهات الفكرية والنظرية القائمة والمعتمدة لعقود في علم اجتماع التنظيم والمؤسسة.

وتتوجه الإشارة تحديدا إلى بعض أوجه القصور النظري الناتج عن تناول السوسيولوجي للمؤسسة مختزلا في دراسة وتحليل المؤسسات الصناعية الكبرى وبمعزل عن دراسة وتحليل كيفية اشتغال المؤسسات الصغرى والمتناهية الصغر. وهو ما أدى إلى نقص لافت في تطوّر الإدراك السوسيولوجي لبعض الظواهر الاجتماعية المتصلة بتلك المجالات.

وقد أصبحت الدراسات تؤكد على ضرورة الانتباه إلى أن رأسمال المؤسسة الاقتصادية القار في البلدان النامية لا يرتبط فقط بقيمة التبادل المنتجة من طرفه، ولكنه يرتبط بقيمة اجتماعية، وبتنوع في العلاقات والصدقات والدعم الذي يمكن أن يحتكم عليه باعث المشروع أو باعته. إن نجاح المؤسسة الاقتصادية متوسطة كانت أو صغيرة ينشأ كذلك من رأسمالها الاجتماعي وقدرة صاحبها أو صاحبها على التحرك داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية المتنوعة مع الحرفاء والمزودين والموظفين الإداريين والعاملين بالبنوك وغيرهم.

إن القوة تكمن كذلك في ذلك «الرأسمال الاستراتيجي»^(٣٩) العصي عن القياس الخارجي والعابر والذي لا يتسنى للدارس فهمه وتقييمه إلا إذا ما تم اعتبار مجموعات الانتماء. وقد دعت بعض الدراسات الحديثة إلى ضرورة استحداث مرجعيات نظرية وبراديجمات جديدة لدراسة المؤسسة المتوسطة والصغيرة، مرجعيات تنطلق من تبيين دور البنية الخارجية ومن تأثير المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد على سلوك صاحب المؤسسة أو صاحبها. وتنطلق هذه الدعوات من قناعة راسخة بأن المؤسسة المتوسطة والصغيرة والمتناهية الصغر يمكن أن تمثل موضوع بحث قائم بذاته. إنها تتجلى كحقيقة متداخلة مشحونة بالروابط التي تنسجها تلك المؤسسة مع محيطها. وتؤدي بنا محاولة مقاربتها إلى تناول المجال

Denieul P N, Les entrepreneurs du développement. L'Harmattan, Paris 1992, p 11. (٣٩)

الاجتماعي المحلي على أنه منظومة مؤلفة من جملة من العلاقات الاجتماعية^(٤٠).

وهو ما يدفع باتجاه التأكيد على القيمة المضافة والعائد النظري من تفكيك مرجعيات النظر، والتخلي عن المقاربات الشمولية للظواهر التي لا تعير انتباها لعلاقات النوع الاجتماعي ولتجسدها في الواقع والمجال المدروسين. ولا شك في أن اعتماد منظور سوسيولوجي مراعي للنوع الاجتماعي وأكثر التصاقا بخصوصية المجتمعات والثقافات والشعوب يثري إلى حد كبير محاولات فهمنا للظواهر المدروسة.

٤-٢ المرأة العربية والسياق السوسيوثقافي للمبادرة الاقتصادية

تشهد حركة دخول المرأة العربية لعالم الأعمال المهمة أو الصغيرة الحجم تناميا لافتا في ظل تسامح مجتمعي وثقافي لم يبدُ رافضا لحضورها في هذه الساحة، بل إنه كان على العكس من ذلك - كما تقدّم - سندا ودافعا لحركة انخراطها في مجال المبادرة الاقتصادية الخاصة.

ويتمّ ذلك في حالة كانت المرأة صاحبة الأعمال مدفوعة بتقاليد أو بثروة عائلية، أو كانت لا تحتكم على غير الصبر والمبادرة وتشجيع المحيطين بها. وقد يبدو الأمر لافتا بعض الشيء خاصة إذا ما وُضع في سياق الوصم المتداول للثقافة العربية الموسومة بذكوريتها وببطوريكية مجتمعاتها المعطّلة لأدوار المرأة الاقتصادية والمانعة لحركة تحرّرها من قيود الفضاء الخاص.

ويبقى سؤال المشروعية الاجتماعية والثقافية وتقبّل تلك الثقافة الذكورية لفعل المبادرة الاقتصادية الحرة للمرأة، محيّرًا، ويحتاج إلى جهود بحث أكثر عمقا تعمل على فهم اركيولوجيا ذاكرة المجتمع وثقافته وتاريخه، وتحاول عبر ذلك فهم ظاهرة المقاولات النسائية في علاقتها بالثقافة العربية الإسلامية. ولا ندعي في هذا المقام القدرة على فعل ذلك بقدر ما نطمح لتناول بعض زوايا النظر لظاهرة ولوج المرأة عالم المال والأعمال في بعدها الثقافي.

Ganne Bernard, "Pour une sociologie des PEM ou de l'entreprise comme articulation (٤٠) d'un système de relations" in Cahiers du Lastrée, Université de Lille, 1987. dans Denieul, Les entrepreneurs du développement, p 12.

لقد أفضت بعض القراءات السوسولوجية لظاهرة المقابلة النسائية ومحاولات فهم نجاح المرأة صاحبة الأعمال وتألقها في إدارة مؤسستها، إلى تنزيل الظاهرة في إطار علاقة سببية بينها وبين المجتمع الذكوري وثقافته. ورأت تلك القراءة أن بروز المرأة كفاعل اقتصادي رائد في بعض المجتمعات العربية قد يكون في جانب منه نتيجة منطقية لوجودها ضمن مجتمعات ذكورية. وقد بيّن «بيار نويل دينياي» في هذا الصدد بان الثقافات التي تُنعت بأنها ذكورية تمنح فرصاً أكبر لبروز مقابلة نسائية طموحة ومتحدية^(٤١).

إن الاعتبار بأن طموح المرأة واقتحامها عالم المال والأعمال نتيجة محكومة بطبيعة الثقافة الذكورية السائدة، قد يكون مدخلا مهماً لفهم بعض جوانب إصرار المرأة وعزمها على تحديّ العوائق الثقافية وكسر مسلمات أدوار النوع الاجتماعي وايديولوجياتها التي لا يخلو منها مجتمع ولا ثقافة، إلا أنه يبقى بنظرنا غير كاف لتحليل الظاهرة وفهماها.

وإذا كان من الأكيد بأن تجديف المرأة العربية ضدّ التيار المعادي لإسهامها الفاعل في الحياة الاقتصادية قد يكون وراء تفسير عزمها على التحديّ وتحقيق النجاح وفرض الذات، فإنه من المؤكد كذلك أن مختلف أوجه ذلك التحدي لا تنطلق من عدم، ولا يمكن اعتبارها ظواهر بلا ظلّ وبدون جذور ثقافية واجتماعية. وربما تجد تلك القيم النسائية المتحدية لنفسها، امتدادات تاريخية وحججاً تستند إليها وتستمد منها مشروعيتها الثقافية في الوجود والبروز.

وتتكرّر صور تلك المشروعية الثقافية التاريخية ونماذجها ويُعبّر عنها بأشكال مختلفة في مشهد المرأة العربية سيدة الأعمال ذات الدور الاقتصادي الرائد مغرباً ومشرقاً. ويطفو نموذج السيدة خديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً بقوة في دوائر متنوعة من فعل التألق والبروز الاقتصادي للمرأة العربية. ولا غرابة في أن يقترن اسم السيدة خديجة بسلسلة معامل للفولان والصلب تديرها امرأة عربية، كما لا غرابة أن تحمل بعض مننديات سيدات الأعمال ومجالسهن وغرفهن التجارية ذلك الاسم الرمز. ولا غرابة في أن تستمدّ اليوم تاجرة موريتانية (تجوب البلاد العربية طولاً وعرضاً بحثاً عن أجود أنواع العطور والحلي والقماش لتزود به

صغار تاجرات موريتانيا^(٤٢) شرعية ممارستها من جذاتها تاجرات موريتانيا اللاتي كنّا في قرون خلت يسجلن حضورهن في قوافل التجارة الصحراوية بين المغرب الإسلامي ووسط وغرب إفريقيا.

وقد تتمظهر تلك المشروعات التاريخية بصور مختلفة حسب السياقات والظروف وقد تتجلى بطريقة أو بأخرى في نماذج متعددة من سيدات الأعمال العربيات، ولكن المهمّ أنها تنخرط جميعا في ذات المسار من الدلالة، ومن نسج المعاني المسترفد بدوره من فضل الشريعة الإسلامية على المرأة والاعتراف لها بدمّة مالية مستقلة مكنتها - رغم سطوة الأعراف وجور التقاليد - من فرض ذاتها في عالم الأعمال، وساعدت على توفير مناخ ثقافي عام لا يستنكر وجودها فيه.

وتتجه المرأة صاحبة العمل المتواضع والمشروع المتناهي الصغر في نفس ذلك المسار من البحث عن المشروعات الرمزية والاسترفاد منها، إلى نصوص القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة التي تبارك السعي وتستهنج الاستكانة وتُعلي من شأن العمل على قتل شبح الفقر ودحره. وتجد في المأثور الشعبي سندا لكل ذلك لتؤكد للمحيطين بها وللمتعاملين معها أن «لا عار في عمل النهار» وأن «في الحركة بركة» وأن «التعب والشقاء أفضل من الاحتياج والعوز» الخ...

الخاتمة

ينصهر توجه المرأة العربية نحو مسارات بعث المؤسسة الاقتصادية وإدارتها في إطار تطور لافت للسياقات الاجتماعية والقانونية والسياسية. وترتبط المشاركة الاقتصادية الناشئة للمرأة في هذا المجال بمناخات عامة أضحت تدفع باتجاه حفز المرأة على الحضور والإسهام في ذلك المجال. وتبرز فئة سيدات الأعمال المديرة للمشاريع الاقتصادية المهمة الحجم في النسيج الاقتصادي العربي كفتة أضحت تؤكد أهمية ما يمكن أن تسجله المرأة في المجال الاقتصادي من إنجازات فعلية. وقد أضحى السياق الاقتصادي المعولم وتطور السياسات والبرامج الدولية والوطنية في مكافحة الفقر والحدّ من انتشاره يدفع باتجاه إنتاج صنف مستحدث من النساء

(٤٢) لمزيد من التفاصيل حول ممارسة المرأة الموريتانية لنشاط التجارة يمكن الرجوع:

Simard Gisèle, Petites commerçantes de Mauritanie: voiles, perles et henné. ACCT-Karthala, Paris 1996.

العربيّات صاحبات الأعمال يتصل بإدارة المشروعات الاقتصادية الصغيرة والمتناهية الصغر.

وبقطع النظر عما توظفه المرأة العربية صاحبة الأعمال بنماذجها المختلفة من مال في مشروعها الكبير أو المتواضع الحجم، تبرز خصوصيتها في أهمية استثماراتها الاجتماعية وفي صيغ إبرازها لمشروعية ثقافية ورمزية وتاريخية لنشاطها الاقتصادي. وتبرز الدراسات الميدانية مدى حذق المرأة صاحبة الأعمال في توظيف رأسمال اجتماعي رمزي قائم على شبكة من العلاقات الاجتماعية المتينة التي تدور في فلكها. ويتجلّى الرجل بمختلف صيغه (أب وزوج وأخ وابن...) في عمق تلك الشبكة كشريك رافد للحضور الفعلي للمرأة ولمؤسستها الاقتصادية، كما يحضر كسند رمزي داعم لشخصيتها ولثققتها بذاتها ومهيكلًا أساسياً لنماذج تسييرها لمؤسستها وأدارتها لمشروعها. وترسم المرأة العربيّة صاحبة الأعمال- حسب السياق والظرف وطبيعة النشاط وحجم المؤسسة الاقتصادية- صوراً متعددة مؤكدة من خلالها مشروعية نشاطها الاقتصادي وارتباطه الهيكلي بالثقافة وبالتاريخ وبمقومات الهوية الجماعية وأسس الانتماء.

المرأة السودانية سيّدة أعمال في المشاريع الصغيرة

مقدمة:

تهدف هذه الورقة الى تسليط الضوء على مساهمة المرأة في النشاط الأقتصادي الإنترنترونيى من خلال ادارتها لمشروعات صغيرة (MSEs) ووحدات انتاجية منزلية خاصة فى مجال الاطعمة والمشروبات، كما تركز الورقه ايضاً على دور مثل هذه المشروعات الصغيرة في دفع عجلة التنمية في المجتمع عامة كمحصلة للمنافع المكتسبة من هذه المشروعات والانشطة على المستوى الفردي والأسري. ويتمثل اسهام هذه الانشطة في تحقيق فوائد ومكاسب في مختلف مناحى حياة النساء العاملات فيها وكذلك فى حياة أسرهن من خلال أنماط الاستهلاك والإنفاق للدخل المحقق منها.

وكما هو معروف فإن عمل المرأة عموماً وعملها فى مجالات الاستثمار الفردي والعمل التجارى تحكمه مفاهيم ومعتقدات كثيرة. وتبعاً لهذه المفاهيم وانعكاساتها فقد تركز نشاط المرأة الاقتصادي في معظم المجتمعات حول مجالات العمل التقليدية مثل انتاج الغذاء والإنتاج المنزلي وهي تمثل امتداداً لمفهوم النوع الإجتماعى وترتبط بدور المرأة الانجابي

وداد عبدالرحمن

حسب تقسيم العمل والادوار داخل الاسرة واعتبارها المسؤول الاول والاساسي عن توفير الغذاء والرعاية لافراد الاسرة (وبخاصة القوة العاملة المنتظره من الرجال في النظام الرأسمالي). بهذا فان مجال المشروعات الصغيرة ووحدات الإنتاج المنزلي، خاصة في صناعة الغذاء، يستقطب نسبة كبيرة من النساء الناشطات اقتصاديا في كل المجتمعات ويجسد ظروف المرأة عامة حيث يفضل بقاؤها في المنزل للقيام بالدور الانجابي .

ففي السودان مثلا بلغت نسبة النساء العاملات في المجالات الإنتاجية والتجارية في القطاع غير الرسمي في الحضرة ٥٤٪ من النساء الناشطات إنتاجيا، وتعمل ١٥٪ منهن في مجال الخدمات الغذائية ككائنات للخبز والشاي (بلميس بدرى وآخرون، ٢٠٠٨). كما يمثل نشاط الإنتاج الغذائي المنزلي الملجأ الرئيسي لمعظم النساء اللائي يعانين من حالات الفقر وقلة الموارد، ويمكّن اعدادا كبيرة من النساء من التكيف مع الظروف الاجتماعية القاسية التي يواجهنها مثل الحروب والنزوح وعدم الاستقرار والسياسات الاقتصادية الخ... بذلك يكون عمل المرأة الإلتربونيرى في المشروعات الصغيرة والإنتاج المنزلي بمثابة الاستراتيجية التي تمكّن المرأة من تحقيق الرعاية لاسرتها والحصول على كثير من عناصر التمكين الاقتصادي والاجتماعي لنفسها.

محور هذه الورقة يتبلور في مدى تحقيق المرأة العاملة في هذه المجالات لفوائد حقيقية في البعد الاقتصادي، وذلك من خلال قدرتها على التحكم في دخلها الذي تكسبه من نشاطها الإقتصادي وقدرتها على إتخاذ القرار فيه. كما تهدف الورقة إلى التعرف على أنماط الإنفاق لدى المرأة بما يساعد في دعم تمكينها وتوفير الاستقلالية الاقتصادية وحرية القرار المالي لها.

في هذا المنحى تحاول الورقة الإجابة على عدد من الأسئلة مثل ما مدى مساهمة المرأة العاملة في المشروعات الصغيرة والإنتاج المنزلي في إتخاذ القرار حول التصرف في دخل الأسرة؟ كيف تنفق هؤلاء النسوة دخلهن المحقق من نشاطهن الاقتصادي؟ ولأى درجة يمتلكن حرية التصرف بدخلهن؟ ما هي أولويات الإنفاق لدى هذه المجموعة من النساء العاملات في المشروعات الصغيرة؟ ما هي العوامل التي تؤثر على قرارهن في التصرف بدخلهن المالي؟ ما هو المردود من انخراط المرأة في الأنشطة الإنتاجية والفوائد الفعلية المحققة للنساء، لأسرهن

وللمجتمع كافة؟ ما مدى إسهامهن في دعم شبكات الأمان ضد الفقر؟ وهل لهن تفاعل مجتمعي في دعم الجمعيات الخيرية وفي رعاية الفئات الأكثر فقراً؟

الإطار المفاهيمي:

ان مساهمة المرأة في النشاط الاقتصادي قديمة واساسية في مختلف المجتمعات وفي مختلف مراحل تطورها. فمنذ القدم تساهم المرأة في نشاطات الزراعة والرعي وتوفير الغذاء لافراد المجتمع. ومع تطور الحياة ومع بداية الثورة الصناعية اتجهت المرأة الى مواقع الانتاج الجديدة وتدفقت جيوش من النساء الى العمل في المصانع والمكاتب والمحال التجارية خاصة عقب الحرب العالمية الثانية. ومع تنامي التحولات الحضرية في المجتمعات زاد دخول المرأة في مجالات العمل الانتاجي المختلفة في القطاعين الرسمي وغير الرسمي.

لكن عمل المرأة كقوة بشرية مساهمة في التنمية يُوَطر بالمفاهيم المتعلقة بالنوع الاجتماعي، مثل تحديد الادوار وتقسيم العمل وامتلاك الموارد والتحكم بها واتخاذ القرار داخل الاسرة. وكان لهذه المفاهيم دور اساسي في تحديد وتشكيل انماط عمل المرأة والانشطة التي تساهم بها في التنمية. كما تحدد أيضا مدى قدرة المرأة على التحكم بالمنافع المالية المحققة لها من مساهمتها في العمل المنتج، وكذا تحديد أولويات الإنفاق من دخل الأسرة عامة ومن دخلها من عملها وكسبها المالي خاصة.

في الجزء التالي يتم استعراض بعض المفاهيم النظرية التي تسلط الضوء على كيف ساعد عمل المرأة في وضعها داخل الأسرة من خلال الإسهام في الجوانب المالية، وكذلك تأثيره في قدرتها على اتخاذ القرار في الإنفاق داخل الأسرة من دخلها، والعوامل التي تؤثر في تحكم المرأة بدخلها من عملها في المشروعات الصغيرة والإنتاج المنزلي.

الأسباب والعوامل المؤثرة في اتخاذ القرار الخاص بإنفاق دخل المرأة

النشأة التقليدية والأيدولوجية الذكورية:

إن التنشئة التقليدية القائمة على مفاهيم النوع الاجتماعي وتقسيم الأدوار بحيث يكون الرجل هو رب الاسرة والعائل الرئيسي لها، في حين يكون دور المرأة داخل تلك الاسرة هو دور الرعاية وتقديم الإحتياجات المختلفة من خلال القيام

بالأدوار الإيجابية والأعمال المنزلية اللازمة لتوفير احتياجات الأسرة، تلعب دوراً هاماً في قدرة المرأة على اتخاذ القرار في نواحٍ كثيرة، منها الإنفاق والتصرف في الموارد المالية. تبعاً لذلك فإن دور الرجل في الأسرة المستمد من أيديولوجية السيطرة الذكورية (البطيركيه) يعطيه دور القيادة والسيطرة ويتسبب في تحجيم دور المرأة في إتخاذ القرار. فإذا كان الرجل هو «رب» الأسرة وعائلها فإن ذلك يعطيه المكانة القيادية والسيطرة المطلقة التي تقود إلى انفراده باتخاذ القرار داخل الأسرة في كل ما يتعلق بها من شؤون. والمرأة تبعاً لدورها كما رسمته حدود الأيديولوجية الذكورية ومفهوم النوع الاجتماعي كدور تابع «لرب» الأسرة فإن مساحة الحرية في إتخاذ القرار - خاصة في القرارات الهامة والحاسمة في حياة الأسرة - تكون من نصيب رب الأسرة وعائلها، ويترك للمرأة - في أفضل الحالات - إتخاذ القرارات التي تتعلق بمعطيات أدوارها المرسومة لها حسب الأيديولوجية الذكورية وتقسيم ادوار النوع (الأدوار الانجابية والاعمال المنزلية).

والنظرية الذكورية ما زالت هي التي تحدد أدوار النساء والمكاسب التي تتحقق من هذه الأدوار لتؤكد أنه حتى مع التغيرات الاجتماعية / الثقافية / الاقتصادية التي أدت الى الاندفاع المتزايد للنساء إلى سوق العمل بشقيه الرسمي وغير الرسمي فإنه ما زال على النساء القيام بتسيير أمور المنزل إضافة إلى العمل المأجور او المنتج. إلا ان هذه التغيرات لم تطل دور الرجل حيث ظل هو «العائل» «الرب» المنفق ولم يشارك في الدور الإيجابي (أعمال المنزل ورعاية الأطفال) بنفس القدر الذي شاركت فيه المرأة في دور الرجل (الإعالة والإنفاق) حسب تقسيم الأدوار والأيديولوجية الذكورية. بدلاً عن ذلك يتأكد دوماً ومن خلال تثبيت هذه الأيديولوجية والتأكيد عليها من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تساهم فيها مؤسسات المجتمع كافة، بداية بالأسرة والمؤسسات الأخرى مثل المؤسسات التعليمية، الدينية، الإعلام وحتى الدولة بسياساتها وقوانينها. ويفسر الكثيرون ذلك بأن الإبقاء على هذه الأدوار يحقق منافع للرجال وللنظام الاقتصادي ككل خاصة في تنامي الاقتصاديات القائمة على رأس المال الذي يضمن وجود مصدر يغذي النظام الرأسمالي بما يحتاجه من قوة العمل (لين جيرمان، ٢٠٠٢).

ومن هنا فإنه حسب النظرية الذكورية تتمركز القدرة على اتخاذ القرارات المالية داخل الأسرة في أيدي عائلها الذي هو الرجل ولا بد من المحافظة على هذه

الأيديولوجية رغماً عن كثير من التغييرات وذلك لأجل المحافظة على الإنتاج بشقيه العمل المأجور والإنتاج للاستهلاك الأسرى.

من هنا يتضح أن إستمرار وبقاء الأيديولوجية الذكورية في المجتمع يرتبط بالتنشئة الاجتماعية، كما يرتبط بالقناعة بضرورة هذه الأيديولوجية لاستمرار الإنتاج بشقيه وذلك باستمرار دور المرأة الإنجابي ودور الرجل الذكوري القيادي الذي يمنحه حق القرار والتحكم في موارد الأسرة حتى في الحالات التي تشارك المرأة في الإنتاج والعمل من أجل الكسب.

وعليه فإن دور الرجل في غالب الأحيان يمتد للتحكم حتى في دخل المرأة الخاص من نشاطها الإنتاجي كجزء من تحكم «رب» الأسرة وعائلتها . بمعنى أن مكونات هذا الدور تصبح مطلقة فيما يختص بوضع المرأة داخل الأسرة وما يميزه من قهر للمرأة.

وقد أجريت بعض الدراسات في هذا السياق في بعض المجتمعات العربية، وبحثت في اتخاذ القرار داخل الأسرة العربية كمثال على ذلك الدراسة التي تمت في داخل المجتمع الفلسطيني حول اتخاذ القرار داخل الأسرة في نواحي إنفاق دخل الأسرة (محاسن، ٢٠٠٥)، والذي توصل إلى أن القرار ظاهرياً للمرأة لكنه ضمناً للرجل وأن المرأة مهما يكون لها من مكانة علمية أو اقتصادية أو اجتماعية فأنها لا تملك حق القرار داخل اسرتها، وتكون الكلمة الأولى والقرار النهائي للرجل. وأوضح البحث أنه حتى في حالة المرأة التي تعمل براتب فإن الغالبية العظمى منهن لا يستطعن التصرف برواتبهن إلا بجزء ضئيل جداً في شكل مصروف جيب للأطفال أو شراء بعض الاحتياجات البسيطة. فيما عدا ذلك يكون القرار للرجل. وقد عزت الباحثة ذلك إلى العادات والتقاليد الثقافية السائدة التي يتم التنشئة عليها في المجتمع الفلسطيني مثله مثل باقي المجتمعات العربية والغربية التي لا تقبل القرار من المرأة داخل الأسرة (المرجع السابق).

ضعف القدرة على المفاوضة داخل الأسرة:

لم يعد من المفيد النظر إلى المنزل كوحدة اقتصادية واحدة تتماثل فيها احتياجات الأفراد وتتوزع فيها الموارد بعدالة ومساواة لينعم جميع افراد الأسرة بالقدر من الموارد الذي يفي احتياجاتهم. كما ان النظرة الاقتصادية القديمة التي تنظر إلي دخل الأسرة الإجمالي "pool" وتوزيع الدخل والموارد على أساس جدول

أولويات لجميع الأفراد، لم تعد هذه النظرة تعكس واقع الدخل والإنفاق الأسري ، بل إنه فى بعض الأحيان يحدث تضارب واختلاف يرجح فيه ميزان القرار غالبا لصالح الرجل. وإن قدرة المرأة على التحكم بالدخل والإنفاق داخل الأسرة تحكمه عوامل كثيرة مثل القدرة على التفاوض والمساومة *negotiating and bargaining* "power داخل الأسرة والتي ترتبط بمحددات كثيرة أيضا. وتشير أقروال (١٩٩٦) إلى أن العادات والمعتقدات ومفاهيم النوع الاجتماعي تحدد مدى وكيفية التفاوض داخل الأسرة . كما أن عملية التفاوض فى حد ذاتها تكون عاملا لتغيير المعتقدات خاصة فى حالة عمل المرأة خارج المنزل لكسب الدخل كما هو الحال فى الهند وبنكلادش والسودان أيضا (أقروال، ١٩٩٦: شولتز، ٢٠٠٥). وفى دراسة عن السودان ونماذج الإنفاق الأسرى ودور المرأة فيه ، فقد أوردت شولتز ٢٠٠٥ أن هناك قدرا من التوافق بين احتياجات ومسؤوليات أفراد الأسرة . وبالرغم من بعض التفاوت، إلا أن الجميع يتفق فى الحرص على تحقيق رفاهية الأسرة وتأتي تلبية الحاجات الأساسية كأولوية للجميع. لكن فى ذات الوقت فإن الرجل يحظى بنصيب أكبر فى اتخاذ القرارات المؤثرة، وكذلك نصيب أكبر فى الإنفاق على احتياجات خاصة به (شولتز، ٢٠٠٥).

من العوامل التى تؤثر فى القدرة على التفاوض والمساومة فى إنفاق الدخل، تملك الموارد والتحكم بها نتيجة القوانين والمعتقدات التى تؤثر فى هذه الموارد مثل الأجور . كما هناك من العوامل ما يتعلق بمفهوم النوع الاجتماعي حول عمل المرأة ومشاركتها فى النشاط الاقتصادى وأهمية دخلها كمورد للأسرة ، إضافة إلى العوامل التى تتعلق برأس المال الاجتماعى. كذلك مدى اشتراك النساء فى التنظيمات والشبكات المجتمعية يدعم رأس المال الاجتماعى لديهن ويزيد من قدرتهن على التفاوض من أجل اتخاذ القرار داخل الأسرة فى مختلف النواحي ومن ضمنها تحديد أوجه الإنفاق الأسري، وإنفاق الدخل الفردى للمرأة (نايلة كبير، ١٩٩٨ فى سوكومار ٢٠٠٢).

النظرة إلى دخل المرأة كدخل ثانوي:

تبعاً للأيديولوجية الذكورية وتقسيم الأدوار حسب مفهوم النوع الاجتماعى وإعتبار أن الرجل هو العائل الأساسى للأسرة "breadwinner" فإنه ينظر لدخل الرجل كدخل أساسى لتلبية احتياجات الأسرة، فى حين ينظر إلى دخل المرأة كدخل

ثانوي وينظر إلى المرأة والأطفال كمستهلكين وليس كمنتجين داخل الأسرة. وقد ساهمت هذه النظرة الهامشية لعمل المرأة والدخل منه في تشكيل نواحي كثيرة ترتبط بسياسات تحديد أجر المرأة وفي خلق معوقات لدخول المرأة سوق العمل، وأهم من ذلك أنها أثرت في تشكيل العلاقات والقوة والقدرة على التفاوض في الإنفاق داخل الأسرة (بوسرب، ١٩٧٠). وقد أهملت هذه النظرة العدد المتنامي من الأسر التي تعولها المرأة بمفردها وكيف أن دخل المرأة فيها هو دخل أساسي، وان هذه الأسر تعاني من الفقر أكثر من غيرها في المجتمعات العربية خاصة مع النقص في الخدمات المدعومة من قبل الدولة مثل حالة مصر والسودان (الليثي: عبدالرحمن، ٢٠٠٦).

نظريات السلوك حسب القيم والمنفعة:

تشير بعض نظريات السلوك الإنساني إلى أن سلوك الفرد يتشكل حسب القيم التي تحقق المنفعة من السلوك المحدد، وعموما هناك اتجاهين في مثل هذه النظريات يمكن ان تساعد في تفسير أنماط سلوك المرأة عند إنفاق دخلها المكتسب من نشاطها الاقتصادي وعملها في مشروعات صغيرة والإنتاج المنزلي.

النظريات التي تفسر السلوك على أساس القيمة المحققة للفرد متخذ القرار بالحرص على منفعة الخاصة "egoism" تشير إلى أن الفرد يختار السلوك الذي يحقق له المنفعة القصوى ، ويكون قراره بالتصرف بقدر إسهام ذلك السلوك المعين في تحقيق أقصى منفعة له ربما دون النظر في تبعات ذلك السلوك على الآخرين.

أما نظرية المنفعة الكلية "utilitarianism" فتركز على أن الفرد يقوم بالسلوك الذي يحقق المنفعة أو السعادة لأكبر عدد من الناس بمن فيهم الشخص متخذ القرار نفسه. وتفيد هذه النظرية ألي أن سعادة الفرد ترتبط بالسلوك الذي يؤدي إلى إسعاد الآخرين وإشباع حاجاتهم لتحقيق المنفعة والفائدة لهم "eudemonia"، بمعنى آخر يسعد الفرد من إسعاد الآخرين ومساعدتهم (wikipedia, 2003).

ويرتبط هذا النمط من تحليل السلوك الإنساني بنظرية الإيثار "altruism" التي تفيد بأن الفرد يمكن أن يستمد سعادته وتزداد منفعته الحدية من خلال إسعاد الغير وخدمتهم وبذل المال والجهد والوقت من أجلهم (المرجع السابق).

وقد أشارت دراسات كثيرة إلى قصور النظريات الكلاسيكية في تفسير دوافع

الأفراد للانخراط في أنشطة مدرة للدخل ومشروعات صغيرة ضمن النشاط الإنترنتي، من قبيل النواحي الاقتصادية التي تحقق المنافع الفردية المبنية على تقديم المصلحة الفردية (egoism) والعقلانية الاقتصادية البحتة، عند اتخاذ القرارات في الأعمال المنتجة (أمارتا سن، في نورسيا وتينقر، ٢٠٠٠). ولمعالجة هذا القصور في النظرية الكلاسيكية عند تحليل المنافع من النشاط الاقتصادي خاصة الدخل وكيفية إنفاقه، أصبح من المفيد إتباع نظرية «المنافع المتعددة» لتفسير التصرف في المنافع والمكاسب من العمل المنتج بما في ذلك المكاسب المالية وإنفاق الدخل (المرجع السابق).

عليه يكون قرار المرأة في إنفاق دخلها المحقق من نشاطها الاقتصادي في المشروعات الصغيرة والإنتاج المنزلي خاضع لدوافع متعددة: شخصية، اقتصادية، وأخلاقية تلمس الواجب الاجتماعي والمسؤولية تجاه أفراد الأسرة.

المنهجية:

اتبعت هذه الورقة المنهجية التحليلية الوصفية. واعتمدت على بيانات تم جمعها من مجموعة من النساء (٧٥ امرأة) يمارسن نشاطاً اقتصادياً في المجال الإنترنتي وإملاك مشروعات صغيرة ومتناهية الصغر (فردية) (MSEs) إضافة للإنتاج المنزلي في مجالات مختلفة أهمها صناعة الأطعمة. وقد تمت الدراسة داخل ولاية الخرطوم بوصفها أكبر تجمع حضري من حيث الكثافة السكانية والعوامل الديمغرافية الأخرى التي تشجع الاستثمار بكل أنماطه ومستوياته.

بالنسبة لاختيار هذه العينة من النساء ونسبة لأن الغالبية العظمى من هؤلاء النسوة يعملن في القطاع غير الرسمي وبالتالي لا توجد بيانات دقيقة تمكن من استخدام العينات الاحتمالية، فقد اتبعت أسلوب العينة غير الاحتمالية القصدي لتضم الدراسة مجموعة تتناسب مع الغرض من الدراسة أصلاً. وقد جاءت فكرة هذه الورقة أثناء دراسة أجريت حول المشروعات النسائية الصغيرة في الأسواق الحضرية بولاية الخرطوم، للتعرف على قدراتهن الإدارية في إدارة هذه المشروعات. والآن استخدمت نفس مجموعة الدراسة الأولى مع خلق موازنة في تمثيل مفردات العينة بحيث تضم الأسر التي يكون أفرادها جميعهم موجودين (زوج / زوجة / أبناء وربما أقارب آخرون)، وكذلك الأسر التي تكون المرأة هي العائل

الوحيد\الأساسي لها (Female Headed Households, FHH) وذلك لغياب الزوج لأي من الأسباب. وكان السبب في ذلك أن موضوع اتخاذ القرار داخل الأسرة يختلف باختلاف عائلها (مى بابكر، ١٩٩٩). وعليه تم اختيار (قصدية، purposively) عدد من مجموعة الدراسة الأولى وأضيفت مفردات جدد لتمثل وحدات التحليل في هذه الدراسة.

استخدمت المقابلات الشخصية المتعمقة كوسيلة لجمع البيانات ، عدد كبير من المفردات تم مقابلتهم أكثر من مرة خاصة اللاتي كن جزءا من مفردات الدراسة السابقة. وقد استغرقت المقابلة في المتوسط ساعة ونصف الساعة، في مكان عمل مفردات العينة، في الأسواق وفي مشروعاتهن أو في منازلهن كوحدات إنتاجية.

تم تحليل البيانات بأسلوب تحليل البيانات النوعية عن طريق تحديد المفاهيم الأساسية وتحليل العلاقات المختلفة بينها للوصول إلى الحقائق حول الظاهرة قيد الدراسة، ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار تأثير الجوانب الثقافية الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في فهم الواقع الاجتماعي ودور مفردات البحث في رؤية وإدراك ما يدور حولهن. كما تم التحليل أيضا على ضوء الإطار المفاهيمي للإجابة على أسئلة الدراسة دون تحديد فرضية محددة وذلك لتحقيق قدر أكبر من المرونة التي تعمق فهم الظاهرة وعكس مدى التفاعل مع المتغيرات المرتبطة بها ونوع ردة فعل مفردات العينة وتجاوبها معها من خلال إستراتيجيات واضحة (action/ interaction) كما ورد في (ستراوس وكوربن، ١٩٩٠).

التحليل والنتائج:

من خلال تحليل البيانات الخاصة بمفردات العينة بداية تم التعرف على الخصائص الديمغرافية، من أهمها ان الغالبية العظمى منهن في الفئة العمرية ما بين ٢٥- ٥٠ سنة، وأنهن من مستويات تعليم متواضعة أو أميات، معظمهن متزوجات ولديهن أطفال (٤- ٩ أطفال معظمهم في سن المدارس). من أهم الخصائص أن معظمهن من الطبقات الفقيرة، ويساهمن مع أفراد الأسرة الممتدة في توفير الدعم المادى. تم تسليط الضوء على جوانب مختلفة مثل أسباب ودوافع انخراط النساء في مثل هذه المشروعات وكيفية اختيار المشروع ومجالاته، القدرات الادارية والتسويقية لدى هؤلاء النسوة، والعوائق التي تواجه النساء أثناء القيام بادارة هذه

الوحدات الانتاجية ، وكيفية التغلب عليها واستراتيجيات التكيف المختلفة، والمكاسب المحققة من الانشطة الاقتصادية ومدى تحقيق الأهداف المرجوة من هذه المشروعات وأخيرا الخطط المستقبلية واحتمالات توسع هذه المشروعات. ومن بعد تم التركيز على النواحي المتعلقة بتأثير هذه المشروعات على العلاقات النوعية والتحكم بموارد الأسرة والإنفاق عامة. كما تم التعرف على اتخاذ القرار في إنفاق دخلهن الخاص المحقق من عملهن في المشروعات الصغيرة والعوامل المؤثرة فيه، والذي يشكل محور هذه الدراسة.

تبين من هذه الدراسة ان من أهم دوافع انخراط النسوة في هذه الأنشطة هو الكسب المادى من أجل تحسين وضع الأسرة وتوفير كثير من متطلبات العيش الكريم خاصة وأن معظم هؤلاء النسوة من شرائح المجتمع التى تعاني من محدودية الدخل ويناط بهن اعالة أسرا كبيرة الحجم. أوضحت الدراسة أن هؤلاء النسوة يسهمن في زيادة دخل الأسرة وتحسين الوضع الاقتصادي للعائلة، وفى أحيان كثيرة تعتمد الأسرة كليا على الدخل المحقق من هذه الأنشطة خاصة فى حالة الأسر التى تعولها المرأة بمفردها (FHH) وهذا يؤدي فى غالب الأحيان الى خلق مساحة أكبر للمرأة مما يؤدي غالبا إلى انفرادها بقرار الإنفاق (مي بابكر، ١٩٩٠). وحتى مع وجود دخل للزوج فإن المرأة تنفق دخلها على متطلبات الأسرة وتلبية الاحتياجات الأساسية خاصة المأكل والمشرب والملبس...إلخ.

وهذا التوجه لدى المرأة بقرار الإنفاق لتحسين الوضع المعيشى للأسرة فى السودان يقوى ويتبلور أكثر فى حالات الأسر التى تعاني من الفقر ، لكنه فى ذات الوقت كان هو النمط الشائع فى كل الحالات ربما مع اختلاف الحرص على نوعية ومستوى الاحتياجات . فمع التحسن النسبى فى وضع الأسرة الاقتصادى ينتقل الإنفاق الى مستوى الحاجات التى تحقق الرفاهية أكثر على سلم أولويات الإنفاق لدى المرأة. وهذه النتائج تشابه ما ورد عن مجتمعات عربية أخرى مثل فلسطين والسعودية (محاسن، ٢٠٠٥: نائلة، ٢٠٠٧). ففى دراسة نائلة العطار ٢٠٠٧ عن لماذا تعمل المرأة السعودية؟ فقد أفرزت الدراسة فوارق فى أنماط الإنفاق حسب المستوى الاقتصادى للأسرة وتم تحليل العينة على ثلاث مستويات بدأت بالمرأة الفقيرة التى تنفق على الاحتياجات الضرورية لها وللأسرة ، ثم المرأة متوسطة الدخل وتنفق «على تحسين الوضع الاقتصادى للعائلة وخاصة الأبناء ، وترغب فى

توفير الكماليات لها ولعائلتها.....». أما المستوى الثالث وهو المرأة من وسط مرتفع الدخل نوعاً فما «ترغب فيه إثبات ذاتها والتأكد من قدرتها على الاستقلال المادي.....» (نائلة العطار، ٢٠٠٧).

وقد أفادت معظم مفردات العينة أن الدخل المحقق من عمل النسوة في هذه المجالات يوجه بشكل رئيسي إلى الصرف على تعليم وصحة الأبناء بصفتهن دعائم أساسية لرأس المال البشرى.

بالنسبة للتعليم فإن سياسة الدولة وتبني سياسات الإصلاح الهيكلي وما تبعها من خصخصة وتحرير الأسواق ورفع الدعم عن الخدمات، جعل الإنفاق على التعليم من أهم بنود صرف ميزانية الأسر بمختلف طبقاتها. وحتى تتاح فرصة التعليم لأبناء الأسرة فإن النساء العاملات في المشروعات الصغيرة والإنتاج المنزلي أكدن أن الإنفاق على تعليم الأبناء يأتي في مقدمة أولويات الإنفاق من دخل الأسرة عامة، ومن أهم أوجه التصرف في العائد من الاستثمار في المشروعات الصغيرة التي يمتلكونها خاصة. غالبية هؤلاء النسوة ابدن حرصاً شديداً على تعليم أبنائهن وبناتهن بهدف أن يتمكنوا في المستقبل من شغل أعمال ذات قيمة عالية وأن يتحقق لهم وضعاً أفضل من حالهن وحال أسرهم. حتى بعض مفردات البحث غير المتزوجات أكدن هذه الناحية وأفدن بأنهن ينفقن جزءاً من دخلهن لمساعدة إخوانهن أو أقاربهن للإنفاق على تعليمهم. وترى جميع مفردات البحث أن الاستثمار في تعليم الأبناء استراتيجية الهدف منها أن لا يضطر الأبناء للانخراط في الأعمال الهامشية أو المحدودة الموارد مستقبلاً. وكانت غاية معظم النساء في العينة أن يتسلح الأبناء بالعلم ليتبوأ كل منهم مكاناً أفضل في سوق العمل مستقبلاً.

أكدت الدراسة وعي هذه الشريحة من النساء لأهمية التعليم كأحد مقومات رأس المال البشرى وأستخدمن عبارات مثل «الاستثمار في تعليم الأبناء أولوية بالنسبة لي...» و«الصرف على تعليم الأبناء ضرورة لأنه سلاحهم للمستقبل...». ومثل هذه العبارات تؤكد ادراك العاملات في المشروعات الإنتاجية الصغيرة أن الاستثمار في رأس المال البشرى أولوية وهدف يتحقق من العائد من عملهن والذي لولاه لما تيسر لهن ذلك.

ومن النماذج الفعلية التي أكدت هذا الإدراك أن غالبية مفردات العينة قمن فعلاً بتمكين أبنائهن من مواصلة تعليمهم وفي كثير من الحالات وضع الفرق في وضع

تعليم أفراد الأسرة قبل وبعد انشاء المشروعات الانتاجية. فمثلا فى أكثر من ثلث الأسر تبين أن كبار الأبناء والبنات لم تتح لهم فرصة التعليم بنفس مستوى الفرص التى أتاحت للأخوة الأصغر سنا والذين هم أوفر حظا بسبب عمل الأم. ووجد أن عددا ليس بالقليل قد تمكن من اكمال الدراسة الجامعية وفى مجالات مثل الصيدلة والقانون وفى معاهد الكمبيوتر، وفى بعض الحالات تم الصرف على التعليم فى النظام الأهلى. بهذا فقد جاءت نتائج هذه الدراسة مماثلة لكثير من الدراسات (النقر، ١٩٩٥: بيتامبر، ١٩٩٨: شولتز، ٢٠٠٥: عبدالرحمن، ٢٠٠٦) والتى أشارت الى أن معظم النساء العاملات سواء فى أعمال تجارية أو انتاجية يمثل الأنفاق على متطلبات الأسرة أهم أولويات انفاق دخلهن ، والأنفاق على التعليم هو الأكثر إلحاحا. وتتسق هذه النتائج مع ما ورد من دراسات حتى فى الدول المتقدمة والتى تتمتع بسياسات لدعم التعليم الأساسى، مثل الدراسة التى قامت بها باحثتان عن صاحبات الأعمال والقدرة على التعلم من خلال العمل حيث تطرقن فى نفس الدراسة إلى مؤشرات النجاح لدى هؤلاء النسوة. وقد أظهرت الدراسة أن من أهم مؤشرات النجاح عند معظم مفردات العينة هو «إسعاد الأسرة والوفاء باحتياجات الأبناء لكى يكونوا أصحاء وينعموا بالتعليم فى الجامعات» (تارا وسوزان، ٢٠٠٠).

وتبين فى هذه الجزئية أن قرار الإنفاق فى هذا الاتجاه يعكس مدى اهتمامهن الذى يمكن أن يفسر على ضوء نظرية أشباع وتحقيق المنفعة من خلال منفعة الآخرين ونظرية الإيثار "altruism" كمحددات للسلوك الإنسانى. كما يتضح أن هؤلاء النسوة عند اتخاذ قرار إنفاق دخلهن لا يمتثلن دائما للأنماط السائدة حسب المفهوم الثقافى الاجتماعى من أن الرجل هو المناط به الإنفاق . وبالرغم من أن القدرة على اتخاذ القرار فى ظاهرها تمنح هؤلاء النسوة قدرة وحرية أكبر فى اتخاذ قرار الإنفاق، إلا أنها من ناحية أخرى تثقلهن بمسؤولية إضافية تزاح عن كاهل الرجل حسب ذلك المفهوم.

وتضيف هذه البيانات بعدا هاما فى مدى قدرة المرأة على رسم استراتيجيات انفاق دخلها بما يساهم فى تغيير المفاهيم التى تؤدى الى دونية المرأة وذلك من خلال تحقيق التمكين لمتخذة القرار وللمستفيدين منه خاصة البنات والفتيات.

بالنسبة لأوجه الإنفاق الأخرى التى وردت ولكن بدرجة أهمية أقل وبتفاوت كبير بين مفردات البحث ، الإنفاق على تطوير مسكن الأسرة، الإنفاق على الوحدات

الإنتاجية وتحسين بيئة وأساليب العمل، والإنفاق على بعض الكماليات مثل الترفيه لأفراد الأسرة.

بعض النساء اللاتي لديهن أبناء في سن الزواج ينفقن على مساعدة الأبناء لإكمال مراسم الزواج ونفقاته، ويعتبرن هذا كنوع من الالتزام الاجتماعي. ويفسر هذا بسعي المرأة لتحسين رأس المال الاجتماعي لها ولأسرتها كإحدي محددات قرار الإنفاق. ويرتبط بالبعد الاجتماعي في قرار الإنفاق المساهمة الاجتماعية في مناسبات الأهل والأصدقاء والجيران بمساهمات مالية أو عينية عند الأفراح أو المآتم فيما يعرف «بالموجب» وفي هذا الجانب من الإنفاق تدعيم لوضع المرأة في دائرة مجتمعها الصغرى مما يؤثر بإيجابية في وضعها الاجتماعي ويحقق لها السعادة والمنفعة حسب العقلانية الاجتماعية وليس الاقتصادية فقط "eudemonia".

أما مساهمة النساء في أعمال خيرية منظمة فلم يرد بشكل واضح إلا في حالات قليلة تقوم فيها جمعيات لتبادل المنفعة مثل جمعيات الأحياء التي تساهم فيها النساء لتوفير احتياجات المناسبات من أوانٍ ومعدات مثل خيام المناسبات والأثاث اللازم في المناسبات الاجتماعية. وقد وضح أن دورهن وإسهامهن في مثل هذه الجمعيات أفضل بكثير من النساء غير العاملات مما يعكس القدرة المالية و/أو قدرة أفضل في قرار الإنفاق.

من أضعف بنود الإنفاق لدى هذه المجموعة الإنفاق على النواحي الشخصية مثل تطوير الذات (القراءة والاطلاع، المشاركة في برامج تعليمية) والاعتناء الذاتي والإنفاق على الجمال وقد عزت بعض النساء هذا إلى عدم وجود زمن لديهن بسبب انشغالهن في النشاط الإنتاجي إضافة إلى الأعمال المنزلية ورعاية الأسرة. وعموما فإن العوامل والخصائص الديمغرافية تؤثر بشكل أقوى في هذه الجوانب من الإنفاق حيث يقل مستوى الإنفاق على النواحي الشخصية مع تقدم العمر مثلاً.

عدد من صاحبات الأعمال الصغيرة اشرن الى ان بند الإِدخار يمثل جزءاً من بنود الإنفاق من دخلهن، لكنه في الغالب يكون عبر القنوات غير الرسمية بما يعرف «بالصندوق» أو «الختة» وهي عبارة عن وسيلة للتوفير الجماعي تجمع وتصرف المبالغ الموفرة منه بطريقة دورية على المشتركات فيه. وقد اكدن ان هذا النمط من التوفير يساعد في مواجهة النفقات الكبيرة نسبياً والتي تفوق حدود الدخل المنفرد وتكون بدون كلفة (فوائد) ملموسة. كما اتضح ان هذا النمط من التوفير يكون نواة

للاستثمار وبداية مشروعات صغيرة ، أو للتوسع فى مشروعات قائمة أصلا. نسبة ضئيلة جدا من النساء صاحبات الأعمال الصغيرة والمشروعات المدرة للدخل تلجأ الى التعامل مع البنوك وذلك بسبب عوائق كثيرة اهمها سياسات القطاع المصرفى تجاه صغار المنتجين. إلا أن هذه الصورة يتوقع لها أن تتغير قريبا نتيجة جهود الدولة فى دعم صغار المنتجين بإنشاء وحدة للتمويل الأصغر كواحدة من استراتيجيات بنك السودان المركزى لمحاربة الفقر من خلال تمويل الشرائح ذات الموارد الشحيحة لتشجيعهم بتمويل نشاطهم فى المشروعات الصغيرة.

أما بالنسبة لقرار الإنفاق نفسه فإن هذه الدراسة نظرت الى جانبين:

أولا: قدرة المرأة فى حرية القرار بالتصرف فى دخلها الخاص من نشاطها الإنتاجى. وقد أفادت الدراسة من خلال هذه العينة أن الغالبية العظمى ذكروا أنهم يتصرفن بحرية تامة فى دخلهن وإن كان من أجل مصلحة أفراد الأسرة جميعا. بعضهن ذكروا أنهم يتخذون القرار لكن غالبا بالتشاور مع أفراد الأسرة خاصة فى الأشياء الأساسية. نسبة ضئيلة جدا ذكروا أنهم فى القرارات الكبيرة مثل صرف مدخراتهم من «الصندوق» فإن الزوج يخطط لصرفه فى متطلب للأسرة دون قناعة الزوجة صاحبة المال أصلا.

ثانيا: مدى تأثير مساهمة المرأة فى زيادة دخل الأسرة عن طريق إنفاق دخلها الخاص فى رفع المستوى المعيشى للأسرة، على قدرتها للتصرف فى دخل الأسرة من الموارد الأخرى (بما فى ذلك دخل الزوج كدخل موحد pool). جاءت نتائج الدراسة فى هذه الناحية بأنماط متباينة بدرجة كبيرة فى كسب المرأة لوضع أفضل وقدرة أكبر على القرار داخل الأسرة، لكن يمكن القول بقدر كبير من الثقة إن التمكين الإقتصادى للمرأة لم يؤد بالضرورة لتغيير المعتقدات السائدة خاصة فى ميزان القوة والسلطة فى الأسرة. ومازال مفهوم السلطة الذكورية وتقسيم الأدوار حسب النوع الاجتماعى هي الأقوى خاصة عند الرجال بحسب ما أوردت مفردات العينة. أما فى حالات أخرى فقد وجد قدر من التوافق بين الأزواج فى توحيد الدخل خاصة فى حالات محدودية دخل الرجل. وهذا يبلور تفسير شولتز، ٢٠٠٥ عندما ذكرت أنه تنازل من الرجل «بمقابل».

أخيرا سلطت الدراسة الضوء على مدى إحساس هؤلاء النسوة بالنجاح وتقييمهن لأدائهن ونجاح مشروعاتهن. وقد أكدت جميع مفردات العينة أن أنماط

إنفاقهن لدخلهن وهو فى معظمه موجه نحو الأسرة يحقق لهن الأشباع والشعور بالرضاء وتحقيق الذات ، وأن نظرتهن للنجاح لا تنحصر فى الربحية المالية والمادية وتوسع المشروعات فقط ، إنما يعتبرن المكاسب الاجتماعية والأسرية مؤشرات نجاح هامة. وقد وردت نفس النتائج فى دراسة صاحبات الأعمال فى المجتمع الكندى التى ذكرت سابقا، حيث أكدن أن أنماط الاستهلاك لدى غالبية صاحبات الأعمال تتمركز حول منافع وإشباع حاجات متعددة لهن ولأبنائهن فى أعلى هرم الاحتياجات ونظريات السلوك الاقتصادى غير التقليدى (تارا وسوزان، ٢٠٠٠)، وهذا يؤكد البعد عن النظرة الاقتصادية الكلاسيكية ومواءمة نظرية الدوافع المتعددة.

الخاتمة:

إن اهم ما أسهمت به هذه الدراسة هو تسليط الضوء على انماط الاستهلاك والإنفاق داخل الأسرة خاصة للنساء صاحبات المشروعات الصغيرة والوحدات الإنتاجية المنزلية. والنساء فى نشاطهن هذا يتأثرن بالمفاهيم الثقافية الاجتماعية السائدة مثل اللأيديولوجية الذكورية وتقسيم الأدوار حسب النوع الاجتماعى. وأفادت هذه الدراسة أن أهم ما تركز عليه هؤلاء النسوة هو الإنفاق على صحة وتعليم الأبناء ، ويأتي الإنفاق على التعليم كأولوية لدى جميع العينة. وهذا يبرز دور هذه المشروعات فى تنمية راس المال البشرى للأجيال القادمة. ان المدلول الرئيسى هنا ان اهمية الدور الذى تلعبه هذه الشروعات فى دعم راس المال البشرى خاصة بالإنفاق على التعليم يحتم وضع سياسات لدعم هذه المشروعات والعمل على ازالة العقبات التى تعترض طريقها خاصة فى ظل سياسات السوق الحر ورفع الدعم عن الخدمات الأساسية فى بلد يعانى غالبية سكانه من الفقر والحروب وما يتبع ذلك من تردي الوضع للطبقات الفقيرة والمستضعفة.

التصرف فى الدخل الخاص ارتبط بقدرة أكبر من الاستقلالية وحرية اتخاذ القرار بدرجة أكبر، من القرار فى دخل الأسرة عامة، مما يعنى ان عمل المرأة وتمكينها الاقتصادى لأى مدى دائما الى تغيير مفاهيم النوع الاجتماعى وتقسيم الأدوار، ولكنه يحدث قدرا من التغيير يجب استثماره ودعمه بنواحٍ مكملة حتى يصبح إسهام المرأة فى عملية التنمية والبناء الاجتماعى أقوى وأشمل.

المراجع:

المراجع العربية:

- بلقيس بدري وآخرون ، المرأة السودانية حاضرها ومستقبلها، معهد دراسات المرأة والنوع والتنمية، جامعة الأحفاد، مدارك للطباعة والنشر، القاهرة والخرطوم، ٢٠٠٨، صفحة ٦٨-٩٠.
- ليند ساي جيرمان، النظريات البطريركية، International socialism, 2, 12، صفحة ١-١٩.
- محاسن أصرف ، القرار في العلاقات الأسرية الفلسطينية..... هل هو سوريا للمرأة وضمناً للرجل؟، ٢٠٠٥، صفحة ١-٣.
<http://www.lahaonline.com/hndex.php>
- نائلة حسين العطار، لماذا تعمل المرأة السعودية، عكان الاقتصادية السعودية، ٢٠٠٧، صفحة ١-٢.
<http://www.voltairenet.org/article 153646.html>
- هبة الليثي، القضاء على الفقر (الحد من الفقر)، مؤتمر المرأة المصرية والأهداف التنموية للألفية، ٢٠٠٦، صفحة ١-١٣.
http://www.ncwegypt.com/arabic/conf_papers/economics

المراجع الإنجليزية:

- * Agrawal, B. (1994). **A Field of One's Own-Gender and land Rights in South Asia**. Cambridge. Cambridge University Press.
- * A/Rahman, W. A. (1999). **Employed Women and Domestic Responsibilities: Perceptions, Challenges and for Women, Sudan. Strategies**. An MSc. Thesis in Gender and Development, Ahfad University, pp:87-90.
- * A/Rahman, W. A. (2006). **The Integration of Women-Owned Enterprises in Urban Markets in Khartoum State: An application of the Grounded Theory Methodology**. A PhD Thesis, Ahfad University for Women. Sudan. pp (124-135) (280-290).
- * Boserup, E. (1970). **Women's Role in Economic Development**. St. Martins Press, New York.
- * Di Norcia, V. and Tinger, J. (2000). "Mixed Motives and Ethical Decisions in Business". *Journal of Business Venturing*, Vol.25, Iss. I: PP 1-13.

- * El Nagar et al. (1995). "Management of small-scale women enterprises". A paper presented at a workshop on women small-scale enterprise management. Sudan Academy for Management Sciences, Khartoum.
- * Fenwick, T. and Hutton, S. (2000). "Women Crafting New Work: The Learning of Women Entrepreneurs". Published in the proceedings of the 41st Adult Education Research Conference, University of Colombia, pp: 4-7.
<http://www.wikipedia.org>
- * Maslow, A. (1954). Motivation and Personality. P 1.
<http://www.utoledo.edu/~ddavis/maslow.htm>
- * Pitamber, S. C. (1998). Women in the Informal Sector in Khartoum between Poverty, Entrepreneurship and Empowerment. A PhD Thesis, University of Bremen. Germany, p22-25.
- * Schultz, U. (2005). "Globalization of Poverty or Empowering Poor Women? Female Income Earning in the Food Sector in Sub-Saharan Africa". In: Spectrum, Berlin Series on Society, Economic and Politics in Developing Countries. Vol.84. Lit VERLAG Muntster. pp: 408-423.
- * Strauss, A. and Corbin, J. (1990). **Basics of Qualitative Research: Grounded Theory Procedures and Techniques**. Newbury Park, CA: Sage. Pp 16-90.
- * Sukumar, M." An Analysis of Income Expenditure Pattern of Working Women in the Context of Emerging Consumer Culture". p 5.
<http://krpeds.org/report/minisukumar.pdf>
- * <http://www.wikipedia.org> Theory of Conduct, pp: 1-6.
<http://www.wikipedia.org>

سيّدات الأعمال السعوديّات والاستثمار المالي^(١)

«المرأة السعويّة طاقة تنتظر بشدّة دعم الرجل السعوي فالرجل يتحكّم بقراراتها من جانب والحكومة من جانب آخر بقوانين لا علاقة لها بالواقع. فأقلّه لتعمل المرأة عليها ان تأخذ إذناً خطّيّاً من زوجها». خ. د.

تمهيد:

قادتني الى الاهتمام بدراسة ظاهرة سيّدات الأعمال السعويّات أسباب عديدة، أوّلها:

صورة المرأة العربيّة السعويّة التي ترزح تحت التنميط السائد والذي يتطابق مع بيئة تقيّد حقوقها الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة. وثانيها، التباين الواضح بين بروز سيّدات أعمال سعويّات في دنيا المال والاقتصاد، وبالمقابل وجود قوانين وضوابط معيقة لعمل المرأة، سواء من قبل الرجل أو الوزارة المختصّة أو من قبل الأعراف المتوارثة. وثالثها، التنازل عن التصوّر الشائع الذي يعتبر ان عمل المرأة يقتصر على المؤسسات الصغيرة الحجم ، الأقل تطوّراً، والأكثر تركّزاً

حُسن عبود

(١) أوّد شكر جميع سيّدات الأعمال السعويّات لتعاونهن كما أشكر الزميلة الأستاذة مارلين نصر في لجنة الكتاب على الاقتراحات الهامة التي أخذت بها بوضع خطة الدراسة. وكذلك اشكر الزميلتين في لجنة الكتاب فاديا حطيط وإلهام كلاب بساط على قراءتهما النقديّة التي قدّمتها والتي أثارت النقاشات الممتعة بيننا .

في القطاعات الثانويّة. ولذا يعتبر عمل النساء عملاً في اقتصاد الظلّ .

ترتكز هذه الدراسة الميدانيّة النوعيّة على مقابلات معمّقة مع سيّدات أعمال سعوديّات ناشطات في المشاريع الاقتصاديّة المتوسّطة والكبيرة، تمّت مقابلتهن بين بيروت وجدّة والرياض. تتراوح أعمار هؤلاء السيّدات بين الثلاثينات والخمسينات، باستثناء سيّدة واحدة في سنّ التقاعد. قبل التعرّف على هذه المجموعة من صاحبات الأعمال، سأقدّم تعريفاً لمفهوم المرأة سيّدة الأعمال عموماً، ولمحة عن الخصائص البيئيّة والقانونيّة لانطلاق المرأة السعوديّة كسيّدة أعمال، وأخيراً، أقدم نتائج التحقيق الذي قمت به مع ستّ سيّدات أعمال اخترتهن من القطاعين المالي (الاستشارة الماليّة والخدمات المصرفيّة) والتجاري الصناعي (الحلويات والأزياء) مركّزة على خلفيتهن العائليّة والعلميّة والعملية، والى تقديمهن لمسار عملهن، وما يعتبره شروط النجاح ومتطلّبات القيادة النسائيّة في مجال الأعمال.

المقدّمة:

I. المفهوم:

ان فكرة إدارة وامتلاك المرأة الأعمال بمفهومها الحداثي من «ولاية الأشخاص والأموال والأعمال» دخلت حيّز المجتمع السعودي عموماً حديثاً، ليس لأن المرأة لم تكن مهنيّة بـ«طبيعتها» لدخول عالم التجارة والصناعة والمال، بل لأن المرأة في المجتمعات التقليديّة وجّهت قدراتها وطموحاتها للأعمال المنزليّة والأسريّة والرعاييّة،^(٢) فلم تبلغ المستويات التي يتطلّبها عالم المال وإدارة الأعمال وفنونها.^(٣) لكن مع ارتفاع نسبة تعليم المرأة السعوديّة في كلّ المراحل خاصّة المرحلة الجامعيّة (حيث بلغت نسبة الخريجات ٥٧٪ من الإجمالي)،^(٤) ومع تقدّم وعي المرأة

(٢) بالنسبة الى مشاركة المرأة السعودية في الأعمال الخيريّة انظر، حصّة بنت محمّد بن عبد الله المنيف، الجهود التربويّة للجمعيات الخيريّة النسائيّة السعوديّة، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٥).

(٣) انظر كلمة رئيس الجمعية اللبنانيّة لإدارة الأعمال (أل أم أي)، خاتشيك بابكيان، في المرأة العربيّة وإدارة الأعمال، أعمال مؤتمر إقليمي للجمعية اللبنانيّة لإدارة الأعمال ومعهد الدراسات النسائيّة في العالم العربي (بيروت: ٢٤-٢٦ أيّار ١٩٩٥)

(٤) انظر الى الوضع التعليمي البيّن في تقرير التنمية البشريّة ١٤٢٣/١٤٢٤ (٢٠٠٣) الذي أصدرته وزارة الإقتصاد والتخطيط في فصل خاص بالمرأة والتنمية البشريّة، والذي تجده في قسم الوضع

لذاتها^(٥) ولحاجتها للعمل لأسباب كثيرة أهمّها إقتصاديّة. إضافة الى توجّه الدولة نحو تطوير مشاركة المرأة في النشاطين الاقتصادي والاجتماعي، وتخفيف الضوابط القانونيّة على مبادراتها،^(٦) والتحوّلات الإقليميّة والعالميّة التي صاحبت العولمة وشكّلت تحديّات منها قضيّة تفعيل مشاركة المرأة في التنمية الوطنيّة، حينها بدأنا نسمع بالسيدات صاحبات الأعمال.

وسيّدة الأعمال هي «أيّ امرأة قادرة على خلق فرصة عمل لها أو غيرها وتنتج سلعة أو خدمة تقدّمها فهي سيّدة أعمال».^(٧) واليوم أصبح مصطلح «صاحب الأعمال» خاصة في منطقة الخليج العربي والمملكة العربيّة السعديّة ليس حكراً على الرجال، وسنرى من تجارب سيّدات الأعمال، ان تعليم المرأة والرأسمال العائلي والتشجيع الحكومي، هي من أهم العوامل التي دفعت المرأة على خوض عالم المال والأعمال في المملكة العربيّة السعديّة، وعلى المطالبة بحقوقها في المجتمع من باب الاقتصاد.

٢. عمل المرأة في القطاعين العام والخاص

يعتبر عمل المرأة السعديّة في القطاعين العام والخاص، ومشاركتها في سوق العمل من حيث حجمها وتنوّع إسهامها القطاعي^(٨) محدودة وحديثة.

التعليمي في الفصل السابع عشر «المرأة والتنمية في خطة التنمية الثامنة» ص. ٣٣٩-٣٤٠. والتقريب متوفّر على قرص إلكتروني في مركز خديجة بنت خويلد لسيّدات الأعمال، في الغرفة التجارية الصناعية بجدة.

(٥) نلاحظ وعي المرأة السعديّة لذاتها في إنتاجها الأدبي في إصدار الرواية او الشعر او الدراسات العلمية، فوعي المرأة لذاتها لا يتحقّق إلا بالوعي الإنساني والاجتماعي. انظر مثلاً في حقل الرواية، دراسة سامي جريدي، **خطاب المرأة وتشكيل السرد** (بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٨). وانظر في الشعر، فاطمة الوهيبي، **المكان والجسد والقصيدة: المواجهة وتجليّات الذات**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥).

(٦) انظر الى توجّه الدولة هذا في الفصل السابع عشر خطة التنمية الثامنة (٢٠٠٥-٢٠٠٩) «المرأة والتنمية» المصدر نفسه، ص. ٣٣٩-٣٤٠. وانظر الى نشاط مركز خديجة بنت خويلد لسيّدات الأعمال في هذا الصدد، ونشاط سيّدات الأعمال في مجلس الإدارة في الغرفة التجارية والصناعية في جدة على الموقع الإلكتروني لكليهما.

(٧) هذا التعريف هو للدكتورة نجا جمعون اليمنيّة، انظر فؤاد القاضي، «المؤتمر الوطني الأوّل اكبر تجمع لسيّدات أعمال في اليمن»، صحيفة ٢٦ سبتمبر رقم ١٤٣٤. انظر أيضاً تعريف عائشة التايب حول سيّدات الأعمال العربيّات في كتاب الباحثات الثالث عشر الذي بين أيدينا.

(٨) انظر الى خطة التنمية الثامنة (٢٠٠٥-٢٠٠٩)، المصدر نفسه، أعلاه.

فمع تطوّر مراحل التنمية وانعكاس جهودها على أوضاع المرأة، خاصّة في مجال التعليم، بدأت نسبة إسهامات المرأة في سوق العمل بالارتفاع التدريجي. ومع عام (٢٠٠٣) ارتفعت النسبة الى (١٠,٣٪) وبلغت نسبة الإناث (١٤٪) من قوة العمل. وبالرغم من انخفاض مشاركة الإناث في النشاط الاقتصادي في المملكة إلا أن هذا الانخفاض هو جزء من سمة تطبع المنطقة العربيّة، حيث المشاركة هي الأدنى مقارنة مع باقي المناطق الجغرافيّة في العالم.^(٩) وقد اتّضح عند مراجعة أنماط توزيع العمالة حسب النشاط القطاعي والمهني، نوعيّة التوجّهات التخصّصيّة للإناث في التعليم العالي، وتمركزها في التربية والتعليم والعلوم الإنسانيّة. حيث تتمركز المشتغلات السعوديّات وبشكلٍ حادّ في قطاع التعليم الذي بلغت حصّته ٨,٨٪ من مجموع المشتغلات، يلي ذلك قطاع الصحّة والعمل الاجتماعي (٦,١٪)، والإدارة العامّة (٤,٤٪).^(١٠)

أما بالنسبة الى عمل المرأة في السوق الحرّة والاستثمار،^(١١) فتشير بيّانات خطة التنمية التاسعة، المعدة من قبل وزارة التخطيط، الى تشجيع الدولة المرأة على الاستثمار لأسباب تتعلّق بالحاجة الى إتاحة فرص التوظيف للعمالة الوطنيّة^(١٢)، خاصة ان القطاع الحكومي قد تشبّع، والقطاع الخاصّ يعاني من العقبات المتعدّدة لتوظيف العمالة السعوديّة، وخصوصاً النساء. ومع تزايد حجم الخريجات السعوديّات من مختلف معاهد التعليم والتدريبات، وجد أصحاب القرار:

«أن الاستثمار قد يكون أحد المخارج أمام المرأة السعوديّة، ويناسب عدداً كبيراً من السيّدات المقننات مادياً في سوق العمل من خلال التوظيف وإثبات الذات وتحقيق مكانة اجتماعيّة جيّدة إضافة الى سهولة الجمع بين المشاركة في التنمية والوفاء الأفضل بمسؤوليّات المرأة المنزليّة وعمل المرأة في الاستثمار لتنمية الاقتصاد، ومن هنا كان إهتمام خطط التنمية الأخيرة بتشجيع مثل هذا النوع من

(٩) انظر معدّلات مشاركة الإناث في النشاط الاقتصادي (١٥ سنة فأكثر) ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢) في خطة التنمية الثامنة (٢٠٠٥-٢٠٠٩) ص. ٣٤٢.

(١٠) انظر تقرير خطة التنمية في المصدر أعلاه ص. ٣٥١.

(١١) See, Khaled Almaena, editor in Chief, "Saudi women are no longer standing in the shadows," in *Arab News* (Sunday 25 March, 2007).

(١٢) انظر الى جدول التوزيع النسبي للعمالة بالقطاع الخاصّ حسب النشاط الاقتصادي والجنسيّة عام ٢٠٠٥ في جدول التوظيف في القطاع الخاصّ صفحة ٢١.

المشاركة وإتاحة الفرصة الأكبر للمرأة لاستثمار مدخّراتها الكبيرة التي تقدّر بنحو (٢٠) مليار ريال مجمّدة في البنوك ومعطّلة عن استخدامها عام (١٤٢٧هـ) ٢٠٠٧م مقارنة بعام (١٤٢٤هـ) ٢٠٠٣م التي كانت تقدّر بـ (١٨) مليار ريال^(١٣).

وقد لوحظ فعلاً نشاط سيّدات الأعمال السعديّات في الاستثمار في العقدين الأخيرين في مختلف النشاطات الاقتصادية. وتشير البيانات المتاحة إلى أن عدد السجلات التجارية المملوكة لأسماء نسائية تبلغ (٣٣,٦٢٠) ألف سجل تجاري. وتمثّل هذه السجلات منشآت صغيرة ومتوسّطة وهي من المشاريع المفضّلة كقنوات استثمارية لسيّدات الأعمال السعديّات ويلاحظ من جدول السجّلات التجارية النسائية حسب النشاط (صفحة ٢٧١) أن النشاطات التجارية (تجارة الجملة والتجزئة والخدمات التجارية، والمواد الغذائية، والتشييد والبناء) تشكّل ما يقارب (٩٠٪) من السجّلات التجارية المقيّدة، وهو ما يتّفق والحركة التجارية النشطة في سوق المملكة التي قدّرت عام (١٤٢٥هـ) ٢٠٠٤م بـ (٨٠٪)^(١٤).

II. الخصائص البيئية والقانونية لانطلاق المرأة السعديّة «سيّدة الأعمال»:

ان العوائق المرتفعة في بيئة ممارسة أنشطة الأعمال، تشكّل بصفة عامة رادعاً وحافزاً سلبياً كبيراً أمام النساء عنه بالنسبة للرجال. هذا ما وصل اليه تقرير البنك الدولي الذي أعدّته المستشارية بالبنك الدولي، السيّدة نادرة شاملو، حول بيئة العمل الحرّ في منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا عموماً. ويرى التقرير ان المعاملة التفضيلية بمقتضى القوانين الواقعة خارج نطاق التشريعات للأعمال التجارية، إضافةً الى الأعراف الاجتماعية والاتجاهات السلبية السائدة نحو النساء العاملات تؤدّي الى إضعاف قدرة النساء على تنظيم مشاريع العمل الحرّ^(١٥).

وبالرغم من تمتّع النساء بحقوق اقتصادية قويّة في ظلّ مبادئ الشريعة

(١٣) انظر الى خطة التنمية التاسعة «الأسرة، المرأة والمجتمع»، لوزارة التخطيط في المملكة العربيّة السعديّة (١٥ مارس ٢٠٠٩) إعداد هدى رزق مستشارة إقليمية في شؤون النوع الاجتماعي في الأسكوا (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية الاقليمية لغرب آسيا).

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) أنظر، نادرة شاملو، «سيّدات الأعمال المشتغلات بمشاريع العمل الحرّ في منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا يتحدّين كلّ التوقّعات» (ديسمبر ١٨، ٢٠٠٧) على

<http://qo.worldbank.org/Ly8szp5n/Qo>

الإسلامية،^(١٦) إلا ان التشريعات السارية تؤدّي الى تعزيز الأدوار النمطية للجنسين، حيث تنظر الى الرجال مثلاً على أنهم معيلو أسرهم الرئيسيون مما يؤدّي بدوره الى سنّ قوانين تفرط في حماية تلك الأدوار والى اجتهادات قانونية متحيزة للنظام الأبوي المهيمن.^(١٧) لذلك، كانت البيئة القانونية المتاحة في المملكة للمبادرات السعوديةّات بمشاركة العمل الحرّ، مقيّدة للغاية، ومختلفة عن ايّ بلد عربي او إسلامي آخر.^(١٨) ويكفي ان نقرأ ما حدده مجلس القوى العاملة منذ خمسة وعشرين عاماً من ضوابط لتنظيم عمل المرأة، لنفهم الحذر والقلق من دخول المرأة العمل في المجال العام:

- الضرورة لعمل المرأة (حاجة المجتمع او حاجتها)

- موافقة وليّ أمرها

- ان يكون العمل ملائماً لطبيعة المرأة وان لا يشغل عليها وقتها فيعوقها عن أداء واجباتها المنزلية والزوجية وان لا يؤدّي هذا العمل الى ضرر اجتماعي أو خُلقي.

- ان تؤدّي المرأة عملها في مكان منفصل تماماً عن الرجال.

- ان تؤدّي المرأة عملها في وقار وحشمة وان تلبس طبعاً الحجاب الشرعي.

باختصار، تحتاج المرأة السعوديةّة للمبادرة في إنشاء عملها الحرّ الى نظام الأقرباء الرجال من الدرجة الأولى، او الوكلاء من غير الأقرباء، ليمثلها في تأسيس شركتها او صناعتها. وتحتاج الى معقّب في الدوائر الرسمية لإنهاء الإجراءات الإدارية الرسمية، وغالباً ما تجهل المرأة، كيف تختار او تحدّد من صلاحيات الوكيل

(١٦) «إن حقّ تملك المرأة والرجل القيمة الاقتصادية ثابت بنصوص القرآن والسنة سواء أكانت الملكية في الأموال المنقولة أو العقارات أو الأراضي الزراعية أو غير ذلك. وقد ضمن الإسلام للمرأة النفقة كضمان اجتماعي والصدّق، وهو حقّ مالي يجب على الرجل للمرأة التي يريد ان يتزوّجها، وحقّها في الميراث. انظر، د. فاطمة عمر نصيف، حقوق المرأة وواجباتها: في ضوء الكتاب والسنة، (جدة: مكتبة دار جدة، ١٩٩٧) ط. ٣ ص ١٨٣.

(١٧) شاملو، المرجع نفسه.

(١٨) حدّدت الفقرة ٢/أ من قرار مجلس قوى العاملة رقم ١٤٠٥/١٩م/١ وتاريخ ١٤٠٨/٤/١ المبني على الأمر السامي رقم ٨/١١١ وتاريخ ١٤٠٨/٢/١٠ هـ الصادر بشأن تنظيم عمل المرأة هذه الضوابط.

(فتخسر او تقع ضحية). وتحتاج المرأة أيضاً الى إذن خطّي من أبيها او زوجها او وكيلها ليأذن لها في العمل. لكن هناك قرارات وزارية اتّخذت من قبل مجلس الوزراء كالقرار (رقم ١٢٠ تاريخ ١٢/٤/١٤٢٥) بشأن زيادة فرص ومجالات عمل المرأة السعديّة، وقرار رقم (١٨٧ تاريخ ١٧/٧/١٤٢٦) القاضي بأن وزارة العمل هي جهة الاختصاص بتطبيق الضوابط باعتبارها الجهة المعنية بتطبيق نظام العمل، مما ساهم في رفع العوائق التنظيمية والاجتماعية أمام كل سعديّة راغبة في فتح باب فرص التجارة والصناعة. وتقوم السيّدات صاحبات الأعمال، في مجلس الإدارة في الغرفة التجارية الصناعية بجدة، وفي مركز خديجة بنت خويلد لسيّدات الأعمال، بتأسيس «مفهوم جديد لفلسفة عمل النساء من خلال خلق قواعد بيانية ومظلات لحماية العاملات قانونياً وتقنياً». وقد أكّدت المديرية التنفيذية لمركز خديجة بنت خويلد، الدكتورة بسمة مصلح عمير، في لقاء معها ان المركز حقّق إنجازات قانونية منها حقّ دخول السيّدات مجلس إدارة الشركات، حقوق التجارة في جميع الأنشطة، إزالة الوكيل الشرعي، وإعطاء المرأة فرصة ان تكون معقّبة، فانفتحت أمام المرأة جميع مجالات الشروع في الأعمال التجارية والصناعية وألغى نظام العمل القديم، وأصبح وقفاً على الضوابط الشرعية^(١٩) وتناقش الآن مادة ١٦٠ التي تنصّ بعدم الاختلاط في العمل. وسنرى في التحقيق، مع هذه المجموعة من سيّدات الأعمال، الواقع الذي يحتاج الى جهد أكبر وفترة زمنية أطول لتطبيق ما استحدثت من هذه القوانين وما ألغى منها حتى الآن.

III. سيّدات الأعمال السعديّات الناشطات في القطاع المالي

١. الخلفية العائلية والعلمية والمهنية:

* «المستشارة المالية للشركات»

السيدة خلود الدخيل عضو مجلس الادارة ونائب الرئيس التنفيذي لمجموعة الدخيل المالية (أ ف ج)، وهي شركة مساهمة سعودية مغلقة مرخصة من قبل هيئة

(١٩) انظر الى التباين بين مساعي السيّدات في الغرفة التجارية والصناعية في جدة لحدوث تغيير إيجابي في مؤسسات القطاع العام اتّجاه صاحبات الأعمال والمرأة العاملة في مقالة فايز بن ظاهر الشراري، «سيّدات الأعمال السعديّات وعوائق عدّة»، الجزيرة (الأحد ١٨-٠١-٢٠٠٩).

السوق المالية السعودية (سي م أي) لممارسة جميع أعمال الأوراق المالية في المملكة بما فيها الاستشارات المالية، إدارة الاكتتابات، خدمات الوساطة، إدارة الأصول، التعهد بالتغطية وخدمات الحفظ.

منذ تأسيس المجموعة كشركة مساهمة في عام ٢٠٠٧، تعمل السيّدّة خلود كمؤسس وشريك مالك وعضو في الهيئة التنفيذية للمجموعة، مسؤولة عن المراقبة المالية، وإدارة المخاطر التشغيلية الداخلية، والعمليات الاستثمارية وخدمات الوساطة الجديدة للمجموعة.

السيّدّة خلود (٣٦ سنة) متزوجة وأم، من عائلة مميّزة في التعليم والمال والشأن الاقتصادي الوطني في المملكة. فوالدها، الدكتور عبد العزيز محمّد الدخيل، هو مؤسس المركز الاستشاري للاستثمار والتمويل. وقد شغل قبل تأسيس المركز في عام ١٩٧٩ منصب وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني، ورئيس مجلس الإدارة للعديد من المؤسسات المالية السعودية. ومثّل المملكة لدى المركز العالمي لتسوية المنازعات الاستثمارية بالبنك الدولي. وقد أصبح المركز الاستشاري للاستثمار والتمويل المصدر الرائد في المملكة العربية السعودية للخدمات الاستشارية وطرح الشركات العائلية لشركات مساهمة في السوق السعودي.

كان من الممكن ان لا يشجّع الأب ابنته على العمل في مجال المال والاقتصاد، لكن كما تقول السيّدّة خلود «الذي فتح لي المجال العملي في الاستثمار المالي هو بالدرجة الأولى تعليمي، وبالدرجة الثانية أهلي الذين شجّعوني على العلم والعمل، ومن يومي أدرس وأشتغل.» فبعد تعليمها الابتدائي والثانوي في المملكة، تابعت السيّدّة خلود تعليمها الجامعي في الولايات المتّحدة، حيث حازت على البكالوريوس في «الإدارة المالية والتجارة الدولية» الى جانب الدراسات العربية السياسية والاقتصادية في جامعة جورج تاون في واشنطن. وبعدها عملت في البنك الدولي (أي ف سي) في قسم استشارات البنية التحتية للدول النامية.

ثم حازت على الماجستير في إدارة الأعمال المالية (أم بي أي) من كلية كوغود لإدارة الأعمال في الجامعة الأميركية في واشنطن. وحازت بعدها على شهادة «محلل مالي معتمد» (سي أف أي) من مؤسسة السي ف أي في الولايات المتّحدة وتعد السيدة السعودية الوحيدة الحائزة على هذه الشهادة.

عملت السيّدّة خلود (من أيلول ١٩٩٨ - شباط ٢٠٠٣) في البنك السعودي

الأميركي سامبا (المنتسب مع سيتي غروب) كمسؤول أول في قسم الاستشارات المالية للشركات. ثم عملت ثلاث سنوات (من آذار ٢٠٠٣ - نيسان ٢٠٠٦) في مجموعة سامبا الماليّة (سابقاً سيتي غروب) كمساعد مدير العام في قسم إدارة المخاطر وإدارة الائتمان للشركات. وقامت بإدارة قسم تطوير المسؤولين الشباب للعمل على الحسابات. ولقد أختيرت لتمثّل البنك في مخاطر الائتمان ضمن فريق عمل بازل (بازل أكورد) لدى مؤسسة النقد وذلك لخبرتها في إدارة مخاطر الائتمان. في عام ٢٠٠٦ نُقلت السيّدّة خلود الى شركة المركز الاستشاري للاستثمار والتمويل وهي الشركة التي قامت بطرح أولي لـ ٢٢ شركة سعودية بسوق الأسهم السعودي بما في ذلك شركة سابك في عام ١٩٨٤ وعدد كبير من البنوك مثل البنك البريطاني وبنك الرياض وشركة سافولا العالمية وغيرها. وفي عام ٢٠٠٧ تم تأسيس مجموعة الدخيل المالية وتحويل أعمال الاستشارات المالية بأكملها من المركز الاستشاري للاستثمار والتمويل بناء على رخصة هيئة السوق المالية الى مجموعة الدخيل المالية.

* «مديرة بنك فرع السيّدات (العليا في الرياض)»

السيّدّة أمل الدويش، مديرة فرع بنك سامبا للسيّدات (فرع العليا)، مواليد الرياض (٢٨ سنة) متزوّجة وأم. نشأت في بيئة عائيّة مشجّعة للعلم، فقد كان الوالد يدرس ويدرس الأولاد، وهو موظّف، والوالدة ربّة منزل. تعلّمت السيّدّة أمل في مدرسة «الخامس والعشرون»، ثم في جامعة الملك سعود في الرياض، تخصص «الحاسب العالي» (أي تي). ولها فقط سبعة أشهر مديرة لهذا الفرع وتجربة ثلاث سنوات في المصرفيّة.

دخلت السيّدّة أمل مجال العمل المصرفي عن طريق شركة الموارد البشريّة، بعد ان قدّمت استمارتها ونجحت في امتحان اللغة الإنكليزيّة، وفي المقابلة التي قامت بها مع مسؤول الدائرة التي تعنى بالمستخدمين. بدأت أمل التجربة العملية في البنك في قسم خدمات العميلات، ثم تدرّجت الى مسؤولية الحسابات الخاصة للعميلات الذهبيّة والماسيّة، ثم مديرة فرع بنك سامبا للسيّدات (فرع العليا).

تنظر أمل الى العمل الخاص على انه أفضل من العمل الحكومي لأن الإدارة في العمل الخاص برأيها «تنظر الى أداء الموظّف». والخبرة بنظرها ليست بعدد السنين

لكن بعدد الإنجازات، ويقع مجهودها في مجال الخدمات التي تقدّمها، والخبرة التي تكتسبها مع معرفتها برأسمال البنك الذي تعمل له والذي يتمتع بالسمعة الطيبة.

* «المستشارة الماليّة والاستثماريّة للحسابات الخاصّة» (الرجال

(والسيّدات)

تعمل السيّدة ريم القوتلي حالياً في مجموعة مورغان ستاينلي الاستثماريّة السعوديّة، وكانت سابقاً مديرة الحسابات الخاصّة للسيّدات في مجموعة سامبا الماليّة في المنطقة الوسطى (الرياض). تنتمي السيّدة ريم (٤٤ سنة) الى العائلات الشاميّة التي عاشت واستوطنت في المملكة العربيّة السعوديّة، وهي متزوّجة. حصلت منذ طفولتها على الدعم العائلي للتعليم والعمل، فالأم أخذت القرار بإرسالها الى خارج المملكة للدراسة في المرحتين الثانويّة والجامعيّة (بريطانيا)، والأخّ شجّعها فيما بعد على دخول مجال العمل.

درست السيّدة ريم في المرحتين الابتدائيّة والإعداديّة (الى سن الرابعة عشرة) في الرياض في مدرسة خاصّة تدعى «التربية الإسلاميّة». ومن ثمّ تابعت تعليمها الثانوي والجامعي في بريطانيا حيث حازت على شهادة البكالوريوس في العلوم الاقتصاديّة من جامعة ريتشموند في لندن.

من عام ١٩٩٣-٢٠٠٢ عملت السيّدة ريم مستشارة ماليّة للحسابات الخاصّة في بنك سامبا لندن. عام ٢٠٠٢ حازت على ترقية من جهة العمل لتعود الى المملكة العربيّة السعوديّة، وتشغل منصباً هاماً، وهو إدارة وإنشاء أقسام الحسابات الذهبيّة للعميلات الأفضليات لأكثر من عشرة فروع للسيّدات لمجموعة سامبا الماليّة في المنطقة الوسطى (الرياض). هذه الأقسام عبارة عن غرف بمداخل خاصّة داخل الفروع، تتميز بالخصوصيّة التامة، وجودة الخدمة التي تقوم على إشرافها مديرات يرئسن كلّ الأقسام الذهبيّة والمحاسبة.

* «المستثمرة في سوق البورصة السعوديّة عن طريق التداول بالأسهم»

السيّدة إلهام ميقاتي الحسيني سعوديّة من أصل لبناني، رائدة من رائدات تعليم البنات في المملكة العربيّة السعوديّة، تقاعدت (عام ١٩٩٩) عن العمل في وزارة التعليم، ناشطة في الاستثمار المالي عن طريق التداول في الأسهم والاشتراك بصناديق استثماريّة.

نشأت السيّدة إلهام، وهي من عائلة تعود الى أصول طرابلسيّة، في بيت علم. فالأب تعلّم في الجامعة الأميركيّة في بيروت، والأم من عائلة قدّورة المميّزة بتعليم البنات. وخالتها هي الدكتورة الأستاذة زاهية قدّورة، وعمّة الأخيرة السيّدة ابتهاج قدّورة الناشطة في أوائل القرن المنصرم في الحركة النسائيّة اللبنانيّة. درست السيّدة إلهام بمدرسة «سيّدة الناصرة» في فلسطين، ثمّ حين عادت العائلة الى بيروت، دخلت مدرسة «الكلية الإنجيليّة الفرنسيّة». وكان النظام الجامعي آنذاك يستدعي دخول الفتيات كليّة البنات «جونيور كولج» (أل أي يو حالياً) قبل دخول الجامعة الأميركيّة في بيروت (أي يو بي). وهذا ما فعلته، فحازت على بكالوريوس تربيّة وعلم نفس من الجامعة الأميركيّة في بيروت. ثم التحقت بوزارة التربية والتعليم قسم البنات بالمملكة العربيّة السعديّة، وكان اسمها سابقاً «الرئاسة العامّة لتعليم البنات»، وتدرّجت في الوظائف التعليميّة في مجال التوجيه والإشراف التربوي. فكانت أول مدير عام التوجيه والإشراف التربوي في المملكة، وأول مستشارة للرئيس العام لتعليم البنات (وهو برتبة وزير آنذاك)، عندما كان تعليم الفتاة منفصلاً عن تعلم البنين. منذ ست سنوات ضمّوا تعليم البنات تحت وزارة واحدة هي وزارة التربية والتعليم.

يمثّل نشاط السيّدة إلهام في سوق البورصة السعديّة حالة أوجدتها ظاهرة ارتفاع سوق الأسهم السعديّة والثقة بالاقتصاد السعدي، فأقبلت شريحة من السيّدات العاملات في قطاع التعليم على التداول في سوق الأسهم مع الخبرة الضئيلة لديهن في هذا المجال. وقد جازف عدد غير قليل من المدرّسات في التداول المالي في سوق الأسهم السعدي الذي تعرّض للأزمات على ثلاث مراحل بين سنة ٢٠٠٣ و٢٠٠٦. وهنا نتساءل ما الذي دفع هذه الشريحة من السيّدات الى استثمار أموالهن التي جاءت بعرق الجبين كما نقول في العاميّة. فكان لي لقاءات مثمرة، على أكثر من صعيد مع السيدة إلهام ميقاتي، بين بيروت والرياض. وأود لفت النظر الى جرأة السيّدة إلهام في خوضها غمار الاستثمار المالي بالتداول في سوق البورصة، لكن ما يميّزها عن الكثير من السيّدات اللواتي جئن من القطاع التعليمي للاستثمار في سوق الأسهم، أنها تتداول بمعرفة ورويّة.^(٢٠)

(٢٠) انظر الى المخاطر التي وقعت بها المرأة السعديّة، خاصّة شريحة المدرّسات في المملكة العربيّة السعديّة، حين استثمرت عن غير دراية وخبرة في سوق الأسهم والبورصة، في حلقة على العربيّة قدّمها سمار جابر بتاريخ ٢٨-٦-٢٠٠٥.

٢. تقديمهن لإدارة أعمالهن

* السيّدة خلود الدخيل «المستشارة الماليّة للشركات» نائب الرئيس التنفيذي لمجموعة الدخيل الماليّة «مجموعة المركز الاستشاري»، وهي شركة مساهمة عائلية مكونة من خمسة ملاك مؤسسين وتدار من قبل المجلس التنفيذي.

ومجموعة الدخيل الماليّة، هي شركة استثماريّة مرخصة من قبل هيئة السوق المالية لمزاولة جميع أعمال الأوراق المالية وهي: الترتيب، والمشورة، والوساطة وإدارة الأصول وخدمات الحفظ والتعهد بالتغطية.

الترتيب والمشورة لهما علاقة بترتيب أسهم الشركات والمشورة بالنصح في الأوراق المالية. الوساطة هي بيع وشراء الأسهم. وهيئة سوق المال تراقب سوق المال الإلكتروني. فمجموعة الدخيل الماليّة توفر خدمة بيع وشراء الأسهم للمستثمرين حيث تم ربط المجموعة كعضو بسوق الأسهم السعودي.

والسيّدة خلود متمرسّة في ادارة الحسابات المصرفية للشركات بما في ذلك اقراض الشركات واعادة هيكلية القروض المتعثرة. وعملاء المجموعة أكثرهم من الشركات العائليّة ويمثلون ٥٢٪ من قائمة أكبر الشركات السعودية كما صنفت لعام ٢٠٠٨، ويعاني الكثير من هذه الشركات قلة توفر الخبرات الادارية والمالية. وكما تؤكّد السيّدة خلود، ف«كثير من الملاكين يعتقدون بأن مهنة الإدارة شيء موروث ولكنه باعتقادي شيء مكتسب بالعمل والخبرة».

تعرفّ السيّدة خلود الشخصية القياديّة، خاصة من موقعها في مجلس الإدارة وكنائب الرئيس التنفيذي، بأنها «القدرة على اتّخاذ القرار، الشخصية القويّة، الوضوح في التفكير، الصلابة في اتّخاذ القرار، والقدرة على الرؤية الطويلة الأمد. وهناك أمور كثيرة وميزات لا علاقة لها بالعمل مهمّة جداً للإدارة وهي السياسات التي يجب أن تدرس وتطبّق».

تشارك السيّدة خلود دوماً، الى جانب عملها في المركز الاستشاري، في محاضرات مجانيّة لتعليم الإدارة الماليّة للسيدات. تتراوح مواضيعها بين كيف تديرين أموالك؟ ما معنى القطاع المالي؟ الى غير ذلك من المواضيع. على سبيل المثال أعطت محاضرة مؤخراً في جامعة سلطان الأهليّة عن «المحاسبة الإداريّة»

لطالبات الماجستير، ومحاضرة أخرى لطلبة كليّة دار العلوم عن «كيفية ادارة الأموال للتحكّم بالحياة». وتعطي محاضرات في المدارس لطالبات الثانويّة وللمعاهد. وتساعد دائماً من يحتاج لاستشارة او مساعدة في التعليم او الدراسة خارج المملكة. تقول:

«لم أردّ أحداً ولن أردّ أحداً يوماً ما يريد استشارة فعضائي ووقتي ومعلوماتي للنساء السعديّات خاصّة بغرض توعيتهن سيظلّ عطاءً مجّاناً للأبد. فعندما تصبح المرأة السعديّة قادرة على فهم كيفية إدارة أموالها عندها أستطيع ان أتعاقد بالعمل كمستشارة ماليّة كما نفعل للشركات. فلقد عهدت نفسي بأن أعطي من علمي كل ما أستطيع لأنّ نفع غيري لأن شيئاً داخلياً، كما أراه عند الكثير، يعيش للعطاء».

* «مديرة بنك سامبا فرع السيّدات»

قبل التعرّف على عمل السيّدة أمل الدويش، مديرة فرع بنك سامبا للسيّدات، سأقدم لمحة مختصرة عن فرع بنك السيّدات. فقد تأسست بنوك السيّدات منذ ١٩٨٠، حين افتتحت أربعة بنوك، بنك القاهرة والراجحي والأهلي والبريطاني فروعاً للسيّدات. وهذا الاتجاه نحو تخصيص مجال للمرأة لتصريف أعمالها في جوّ مريح لها، يخلق عالماً عملياً للمرأة، ومجالات كانت في السابق حكراً على الرجال. لكن حقيقة ان هذا الاتجاه في خلق مساحة عملية ومريحة للمرأة السعديّة في الثمانينات من القرن المنصرم تعود الى أمرين: الثروة الطائلة المجمّدة بأيدي النساء والمعطّلة عن الاستثمار، وثانياً، ان المرأة السعديّة محافظة إجتماعياً، بسبب العرف الذي يقتضي عدم الاختلاط بين الجنسين، فترتاح أكثر مع السيّدة من الرجل في فتح الحسابات او تيسير أعمالها الماليّة الأخرى.

يقدم الفرع الذي تديره السيّدة أمل خدمات كفتح حسابات، بطاقات «آي تي أم» الصرّاف، بطاقات الائتمان، القروض، الضمانات البنكيّة، الشيكات المصدّقة، الشيكات الشخصية والسياحيّة، النقد، الحوالات المحليّة والدوليّة، خدمات الاستثمار، الصناديق، والتداول في الأسهم المحليّة والعربيّة والدوليّة. والهدف الذي تسعى اليه، السيّدة أمل كمديرة فرع، هو تحقيق أكبر عدد ممكن من العميلات ورفع قيمة حساباتهن.

استطاعت السيّدة أمل ان تبني قاعدة جيّدة من العميلات، وكسبت مهارات،

ونجحت في التواصل مع العميلات المتنوعات. من العميلة الفقيرة الى الغنية، ومن العميلة الجاهلة الى العميلة المتعلمة. فشريحة العميلات متنوعات من ربّات البيوت الى سيّدات الأعمال، من المدرّسات الى الأكاديميات، من صاحبات السموّ من العائلة المالكة، الى الطبقة المخملية والموظّفات ذات الدخل المحدود. وتقوم السيّدات، بشكل عام بفتح حسابين، حساب يعرف به الزوج وحساب يبقى سرياً.

ويقدّم البنك خدمات خاصّة للعميلات المقننات مالياً، واللاتي ينقسمن بين العميلة الماسية، ايّ متوسط الحساب لا يقلّ عن ٥٠٠٠٠٠٠ ريال، والعميلة الذهبية ايّ متوسط الحساب لا يقلّ عن ١٠٠٠٠٠٠، فهؤلاء العميلات لهن غرفهن المخصّصة لأن ربحية حساباتهن أعلى، ومن واجب البنك تأمين «الفخامة والأولوية في الخدمة والخصوصية التامة». ويتراوح استثمار هؤلاء العميلات بين الاقتصار على الحساب الجاري فقط، والودائع لتأخذ أحسن سعر فائدة، او شراء صناديق الاستثمار منخفضة المخاطر، والقليل منهن اللواتي يندفعن الى الصناديق العالية المخاطر. والصناديق هي مفتوحة ولكل صندوق نشاطه.

الفرق بين بنك النساء وبين البنك الذي يعمل به الجنسان، حيث ليس ممنوعاً ان تدير أعمالها السيدات في فروع الرجال، ان العمل في فروع السيّدات يقتصر على تيسير الخدمات المصرفية، وفي البنك الرئيسي، حيث توجد الإدارة الرئيسية والرئيس التنفيذي ومدراء المنطقة، تتخذ القرارات.

عندما سألت السيّدة أمل عن صفات القيادة والإدارة أجابت:

«ان صفات القيادة ليست مكتسبة بينما الإدارة الناجحة مكتسبة. وتقع على المديرية مسؤولية التطوير والتغيير، وان يكون لها سمعة طيبة بين الزميلات والمديرات بحيث أتبنى خطة وأطبّقها، أكتشف المواهب عند زميلاتي، وأعطي الموظّفات الجدد واللواتي لديهن القدرة، الفرصة على التطور».

بالإضافة الى العمل الإداري الذي تقوم به، تشارك السيّدة أمل في الجمعيات الخيرية، وتستضيف في موسم الصيف موظّفات للتدريب على العمل والخدمة المصرفية. وهي مؤمنة بفكرة بنك فرع السيّدات، وبقدرة المرأة على التوسيع والتطوير، واختيار الموظّفات الكفوءات. وتؤكد انها تحب لغة الأرقام والتعاون مع الناس، وتستمتع بالجلوس مع السيّدات والتعرّف على اهتماماتهن، وتنصح العاملات في المجال المصرفي ان يمتلكن مقدرة عالية على التواصل مع الناس.

* «المستشارة المالية للحسابات الخاصّة»

من ضمن مهام السيّدة ريم القوتلي التي قامت بها كمديرة الحسابات الخاصّة للسيّدات في مجموعة سامبا المالية، وقبل ان تنتقل الى العمل كمستشارة ماليّة واستثماريّة للحسابات الخاصّة (الرجال والسيّدات) في مجموعة مورغان ستاينلي الاستثماريّة، هو إشرافها على تدريب مديرات تلك الأقسام على المنتجات الاستثماريّة والبنكيّة والتسويقيّة، ولغة الخطاب، والتعامل المهني اللائق، والسريّة المصرفيّة التامّة للشريحة المتألّفة من العميلات الأفضليّات.

وبالإضافة الى هذه المهام دعت السيّدة ريم الكثير من الناشطات في الجمعيات الخيريّة لتحفّزهن على التواصل بين المؤسسة الماليّة ومجتمع السيّدات السعودي. وقامت بالعديد من المحاضرات الاقتصادية والماليّة والتسويقيّة، واستضافت عدداً من المحاضرات السعديّات والأجنبيّات للحوار الواعي الثقافي والاقتصادي.

من أهم الدورات التدريبيّة التي قامت بها هي تدريب المديرات على إتقان جودة لغة الخطاب والتأمّل المهني وخاصّة السريّة المصرفيّة التامّة. وانه برغم خجل المرأة السعديّة في التخاب مع الرجل لنقاشه في مسائلها الماليّة الخاصّة الا أنّها ما زالت تلجأ الى بنوك الرجال لخدماتها المصرفيّة خوفاً من عدم حفظ الموظّفات النساء على سريّتهن المصرفيّة.

لذلك شكّل عملها على تدريب الموظّفات، لتأمين المرأة بكل إتقان مهني في فروع السيّدات، تحدياً لها.

ومع التطور الاقتصادي والطفرة الماليّة التي شهدتها المملكة في الأعوام السابقة، فإن مستقبل فروع السيّدات البنكيّة وأقسامها الاستشاريّة، أصبح باهراً، كما تؤكّد السيّدة ريم. وأضافت ان المرأة السعديّة أصبحت مساهمة في النشاط الاقتصادي والمجتمعي، وفقاً لتغيير الظروف البيئيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة منها:

أولاً، حماسها وتمسّكها بالعلم وتفوّقها، فقد حصلت المرأة السعديّة على نسبة عاليّة من التعليم الجامعي (٥٧٪) من الإجمالي. وهذا ما يعتبر أقوى سلاح لها لخوض معركة التحدي مع البيئّة المحافظة، وإثبات نفسها لمشاركة الرجل المسؤوليّة العائليّة الاقتصاديّة بسبب غلاء المعيشة، وتخفيف البطالة عند المرأة.

ثانياً، خروج المرأة الى العمل، بتشجيع من الحكومة التي أعطت تراخيص لفتح

مشاريع تستفيد منها المرأة في شتى المجالات، وإصرارها على موضوع السعودية في جميع قطاعات العمل الخاص ليصبح توظيف إمرأتين سعوديات لنسبة رجل واحد سعودي.

لقد كانت تجربة السيِّدة ريم العمليَّة التي اكتسبتها بعد عودتها الى المملكة مليئة بالمفاجآت الإيجابية والتحديات. قالت:

«كنت فخورة بأن تعكس تجربتي، مما اكتسبته بالخارج، لتنفيذ بنات بلدي بالتطور الفكري والمهني. وطبعاً في البداية واجهت من قبل الموظفات تمنعاً ليقبلنني كمديرة لهن بدلاً من الرجال. وأشعر بالفخر بنتائج جهودي التي حصلت عليها بنجاح إدارتي، برغم من الممانعة والمنافسة التي واجهتها من قبل زملائي الرجال والنساء. وذلك النجاح لم يحصل دون العزم الأساسي من قبل عائلتي، وأيضاً من إدارتي التي أعطتني كامل الثقة والدعم المعنوي. اما بالنسبة الى المردود المالي فقد كان من الممكن ان يكون أفضل مما هو عليه. ولكن المجتمع العملي والإداري دوماً يفرِّق ويميّز عنصرياً بين الرجل والمرأة، فالرواتب والمكافآت تعطى الى الموظَّفين الرجال بفارق ملحوظ عن الموظَّفات النساء مع العلم بأن الموظَّفة تتعب وتشقى وتنتج أكثر بكثير من الموظَّف الرجل».

أضافت ان الصعوبات التي تواجهها الموظَّفة السعودية كامرأة عاملة في المجتمع كثيرة، وأهمها هي تلك التي تأتي من زوجها أو وليِّ أمرها. فالمرأة السعودية لا يسمح لها بالعمل دون خطاب موافقة من وليِّ أمرها، وكثيراً ما يسبب هذا الأمر مشاكل عند المرأة، وخاصَّة بعد ان تحصل على هذه الموافقة من وليِّ أمرها ان كان زوجها اووالدها. فحين يقع ايِّ خلاف بينهما لسبب ما ينعكس هذا على استمراريتها في العمل. فيمكن ان نقول ان المرأة السعودية ما زالت تعيش تحت قيود المجتمع، وما زالت تعيش تحت ظلِّ وليِّ أمرها. وبرغم هذه الصعوبات يفتح العمل مجالاً لها لإثبات شخصيتها، وتحررها فكرياً ولاستقلاليتها الماديَّة.

«المستثمرة في سوق البورصة عن طريق التداول بالأسهم طويلة

المدى»

بدأت السيِّدة إلهام ميقاتي الحسيني التداول بالأسهم منذ خمس سنوات، بدأت بأسهم قليلة وبالتدريج بدأت تتوسع.

تقدّم السيّدة إلهام متابعتها للسوق من الفضائيّة «العربيّة» كل يوم ما عدا الخميس والجمعة. تقول: «أفتح الفضائيّة في الصباح، أستمع آخر أخبار سوق الأسهم في الخليج والسعودية، ويبدأ التداول بالأسهم السعودية الساعة ١١، ويستمرّ البرنامج حتى موعد إغلاق الإسهام مع تعليق من مستشارين/ت يقدمهن سيدات البرنامج، ولدى سيّدات البرنامج مهارة، وهن متخصصّات بعرض التحليل مع المستشارين.»

السيّدة إلهام ليست من الناس الراحين في سوق الأسهم، بالسابق رحبت، لكن ليس بتعادل «إيفين» بعد كما تخبر. أما الأسهم التي تداولت بها فقد عرضتها كالتالي: الراجحي، سابك، بنك البلاد، البنك العربي الوطني، الكهرباء السعودية، إعمار المدينة الاقتصاديّة (منذ سنتين). وركّزت على المدينة الأخيرة، وأهمية مبادرة الملك عبد الله بن عبد العزيز بإنشاء هذه المدينة، للسيّات والرجال، وذلك لأن أسهم هذه المدينة الاقتصاديّة في جدة «فعالاً واعدة»، وتحتوي على مدينة إسكان الموظّفين مع مدارسهم ومرافقهم.

تتابع السيّدة إلهام أحوال سوق الأسهم المالي السعودي أيضاً من جريدة الشرق الأوسط، ونصحت بقراءة جزء الاقتصاد، الذي يحتوي جدول أسعار سوق الأسهم السعوديّ اليومي. وفي السابق كانت تلاحق بنفسها السوق، بينما الآن تعطي توكيلها لستّ بينها وبينها. وأعطت رأياً في الوكيل الذي لا بدّ منه: «لما توفى والدي أمني وأخواتي وكلّوني للشيخ روح لأن والدي كان عندو أملاك، ووزعها على أخواتي وأمني. لكل حصر إرث بدي وكيل.»

تملك السيّدة إلهام الحاسوب (كومبيوتر) لكنها لا تتابع السوق من حاسوبها الخاص، فد «اللاب توب» «بيلو» بالبيت، بل تتابع من الفضائيّات، وتقرأ الجرائد، وتركّز أكثر على المستشارين الماليين والتحليلات.

ولدى السيّدة إلهام دراية وحكمة في التداول بحيث تعتبر النسبة المعينة التي وضعتها التداول حسب السيولة:

«بحيث أخذ ثلاثين بالمئة، وأوزّعها على عدّة أسهم، وأختار أسهم طويلة المدى. ما محبّب ضارب بأسهم الهشاش شركاتهم لا تعطي أرباحاً. أعطيك مثلاً «شركة ...» الزراعيّة، شركة كبيرة، حَسِرْتُ فيها كثير على أساس «هشاش»، لكن هبطت دفعة واحدة لأنها شركة كبيرة، والمساهم بيععرف، وبيوقع بالغلط ليحني أموالاً بسرعة.»

تساءلت كثيراً عن المخرج الديني وشرعية المضاربة بسوق البورصة من المنطلق الإسلامي، فقدّمت تفسيراً مفاده «ان الشيوخ أفتوا في المضاربة بالمال على أساس انها مثل التجارة، لأن البنوك بدها تشتري وتبيع».

بالرغم من تحوّل العمل نحو «شركات تداول الأسهم» الا ان السيّدة إلهام لا تزال تشتري السهم بواسطة «البنك»، خاصة بعد ان فتحوا فرع بنك السيدات، وسهّلوا أمر تداول السيّدات، وخصّصوا موظفة وظيفتها بيع وشراء الأسهم للسيّدات. أخبرت عن خسارات هائلة للناس في التداول مما دفع بعض السيّدات الى بيع بيوتها وزهبتها وبعضهن دخلن السجن. ومن ثلاث سنوات حدث هبوط كبير بالأسهم.

ولقد خسرت السيّدة إلهام في السوق بتاريخ ٦-٢٠٠٧، لكن إجمال التكلفة لا يزال ثابتاً. أما مجالات الاستثمار المالي بالنسبة للنساء والرجال، فترى ان مشاريع الاستثمار بالنسبة للرجال أكثرها في البناء.. وبالنسبة للسيّدات أكثرها يتعلّق بشراء عقارات، او بتأسيس شركات خدمات تخصّ المرأة مثل خياطة ومشاغل وحلاقة، ومكاتب تجارية واستثمار. وتضيف بان المرأة السعودية تعمل في الشركات الخاصة والوظائف العالية، لكن بأماكن مخصصة لهنّ ومنعزلة عن الرجال. وعدم الاختلاط في الماضي كان أقلّ منه في الحاضر، ثم ظهر التشدد في التقاليد والعادات والأعراف، هذا الى جانب التمسك بالدين الذي زاد بعد حرب الخليج الأولى، والخوف من العولمة.

قد نتساءل لماذا هذا الاهتمام بالاستثمار بسوق الأسهم، والسيّدة إلهام في سنّ التقاعد اي هذا السنّ الذي قد يشكّل أحياناً كابحاً طبيعياً للإنسان ضدّ المجازفة والمغامرة. فأجابت:

«اهتمامي ينمّي فكري، ويشكّل لي نوعاً من التحديّ، اشتغل بطريقة لا تؤثر على حياتي، ولا أتنازل عن شيء لأجل بيع وشراء أسهم. كل كم يوم يرسلون لي جردة حساب. بالصيف موجودة في عمان كل ثلثاء اتّصل بالبنك فيرسلون لي ملخصاً».

تنصح السيّدة إلهام المرأة بدخول هذا التحديّ «لأن السيّدات بفكرو، مع احترامي بالرجال، بفكرو أكثر من الرجال بقرارات رويّة. لكن أنصحهن يشترى أسهم طويلة المدى وشركات اقتصادها ثابت وجيدة ومتطورة دائماً».

IV. سيّدات الأعمال السعديّات في قطاعي التجارة والصناعة^(٢١)

١. الخلفيّة العائليّة والعلميّة والمهنيّة:

* صاحبة محل «ركن الشوكولاته»

نشأت السيّدة سلوى رضوان، صاحبة محل «ركن الشوكولاته» (جدّة)، في المدينة المنوّرة في بيت، الأم لا تقرأ ولا تكتب، لكن لدى الأم حماسة شديدة لتعليم ابنتها. تزوّجت في سن الخامسة عشرة، ثم انتقلت مع زوجها من المدينة الى لوس أنجلس في الولايات المتّحدة، حيث أنهت الدراسة الثنويّة (الهاي سكول). بعد عودة العائلة الى المملكة، وبتشجيع من زوجها، تابعت تعليمها الجامعي، فحازت على ليسانس علم الاجتماع في جامعة الملك عبد العزيز. السيّدة سلوى، وهي في العقد الخامس من العمر، أم لولدين وثلاث بنات، وجدّة لستة أولاد.

بدأت السيّدة سلوى حياتها العمليّة منذ عشرين سنة بافتتاح «صالون فرح» (كوافير)، دخلته كشريك ثمّ كمالك، وقامت على تطوير العمل به، وتدريب الموظّفات على الخدمة بمهنيّة عاليّة. تركت الشراكة وإدارة الصالون الذي يصنّف تحت باب «المشاغل» في وزارة العمل، والى الآن المحل موجود. ثم بادرت السيّدة سلوى كشريك مع فردين من أفراد العائلة (الابن وزوجة الأخ)، بافتتاح محل لبيع الشوكولاته، ومن ثمّ سحب الشريكان شراكتهم، وأصبحت السيّدة سلوى وحدها مالكة ومديرة للمحل. عمر محل «ركن الشوكولاته» خمس عشرة سنة، وأصبح للمحل اسم تتنافس محلات الشوكولاته معه على جودة ونوعية الشوكولاته. منذ خمس سنوات أسست السيّدة سلوى معملا لصناعة الشوكولاته محلياً بدل استيراد الشوكولاته من الخارج. وقامت باستيراد الآلات لتأثيث المعمل من بلجيكا، وتابعت كفيّة صناعة الشوكولاته في بيروت التي تعتبرها مدرستها الأولى في الشوكولاته.

السيّدة سلوى ناشطة في جمعيّة «صديقات الخير» وفي جمعيّة «حدائق» التي تقوم ببناء حدائق للأطفال وللعوائل.

(٢١) انظر تقرير البنك الدولي لبيئة النساء سيدات الأعمال في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا مما يعطي

خلفيّة جيّدة للمبادرات السعديّات ومشاريعهن في:

Nadereh Chamlou, "The Environment for Women's Entrepreneurship in the Middle East and North Africa," (The World Bank Washington D.C.)

* صاحبة محلات «لمسة» وهي «مؤسسة تجارية متخصصة بالألبسة والأزياء السعودية والعربية»

تعدّ سيدة الأعمال سعاد الدبّاغ رائدة في تصميم الأزياء السعودية والعربية المستلهمة من التراث. وأصبحت أهم منتج للأزياء التراثية القديمة في المملكة، وعُرف إنتاجها في المملكة وخارجها، والسبب يعود الى يقينها بأهمية ان يكون لكلّ مجتمع هويته الخاصة في ملبسه، ومن منطلق ان (الزّي) في الأساس جزء من التكوين الثقافي والاجتماعي لأيّ مجتمع. السيّدة سعاد اليوم صاحبة ستة فروع لمحلات لمسة التجارية التي تبيع الهدايا وجزء منها الملابس التراثية. والمحلات موزّعة بين الرياض وجدة ومكة والمدينة والخبر ودبي.

السيّدة سعاد (في الخمسينات من العمر) من مواليد الطائف، درست في المدارس الحكوميّة، مدرستها الأولى «معهد الكريّمات»، ومدرستها الثانية «دار الجنان» في جدّة. ثم تابعت دراستها الجامعيّة في جامعة الملك عبد العزيز، قسم التاريخ (١٩٧٥).

نشأت السيّدة سعاد في عائلة علم وثقافة، فأبوها عيسى الدبّاغ كان معلّم الملك وأولاده، علّم اللغة العربيّة لأولاد الملك عبد العزيز. وعمّها طاهر الدبّاغ من المؤسسين لنظام التعليم في المملكة، وهو الذي بدأ بإرسال بعثات الطلبة للدراسة خارج المملكة، وأول من شغلّ المرأة في مجال التدريس. وكان «سيدها» (جدّها) رجل دين يرسل الناس بناتهم ليعلّمن في البيت.

بدأت السيّدة سعاد الشروع بتجارتها عام ١٩٨٣، عندما فكّرت بافتتاح «مؤسسة لمسة للتجارة» بدعم كافٍ من زوجها. فقد اختارت بدل هدية العروس الذهبية ان تأخذ فلوساً للاستثمار بمشروع تجاري. فقدت السيّدة سعاد الدبّاغ زوجها في سنّ مبكرة وهي أم لأربعة صبيان.

V. لإدارة تجارتهم وصناعتهم تقديم

* صناعة «الشوكولاته»

بدأت السيّدة سلوى بإنشاء محل الشوكولاته منذ خمسة عشر عاماً برأسمال عائلي، وأسّمت المحل «ركن الشوكولاته». ثم فتحت معملاً للشوكولاته في المملكة منذ خمس سنوات، بعد ان شعرت بصعوبة استيراد الشوكولاته من أوروبا وشحنها

وإدخالها من الجمارك، والشوكولاته بضاعة حساسة وتخرب بسرعة. فدرست الموضوع، ومدينة بيروت ساعدتها كثيراً، إذ قدّم لها صناعيها خير المساعدة، وتعتبر بيروت المثال لها في هذه الصناعة. وقررت شراء الماكينات من بلجيكا، ومادة الكاكاو الخام متوفرة أصلاً في المملكة إذ يستوردها التجار المحليون من سويسرا وبلجيكا. وبدأت بتصنيع الشوكولاته في المملكة. وهذه الصناعة أعطتها فرصة تطوير الشوكولاته، وجعلها مميزة مقارنة بنفس الشوكولاته التي تعرض في محلات مماثلة في السوق. أما بالنسبة الى تمويل رأسمال المعمل فكما استثمرت في فتح المحل من مالها العائلي، فقد استثمرت بفتح معملها من مالها الخاص. وتشير الى مشكلة لدى السيّدات عموماً وهي انهن لا زلن غير خبيرات في الاستثمار من البنوك عن طريق القروض.

حجم المعمل، وهو يقع في منطقة الروضة بجدة، ليس بكبير، ومحصور بالتجزئة، وينتج ١٤ طناً من الشوكولاته في السنة. لدى السيّدة سلوى رضوان، وهي المالكة والمديرة للمعمل والمحل، عشرون موظفاً بين المحلّ والمعمل، أربع عشرة منهم نساء. وقد أثنّت على عمل المرأة في هذه الصناعة لأنها بتعبيرها «أشطر من الرجل في لفّ الشوكولاته». وهي ملتزمة بـ «التوطين» (السعودة)، أيّ بتشغيل المرأة السعودية التي تعاني من البطالة، والسيّدة سلوى ناشطة بلجنة التوطين التابعة للغرفة التجارية والصناعية بجدة.

تصف السيّدة سلوى الشوكولاته التي تبيعها بـ «انها طازجة وطيبّة لأنها مصنوعة في الوطن». و«الصناعة» حلوة برأي السيّدة سلوى «لأنك تكيف المادة على كيفك». والعمل الناجح يلزمه جهد وموهبة وحماس. وعملها ناجح لكن التحديات كثيرة منها التكاليف العالية التي تآكل المكسب. وقد ارتفعت أسعار العقارات فحين استأجرت محلّها منذ خمسة عشر عاماً كانت كلفته ٣٥٠٠٠ ألف ر.س. والآن تبلغ كلفته ١٦٠٠٠٠ ر.س. فالتكاليف والعمالة والبضاعة تآكل المكسب. ومع هذا فالشوكولاته بضاعة مربحة، وتستهلكها بنسبة ٨٠٪ السيّدات للأفراح والولادات والعيادات.

ترى السيّدة سلوى ان «أهم شيء في الشوكولاته، هي الحشوة والنوعيّة. فالمجتمع السعودي يحبّ البسكوت والمكسرات لا الكراميل في حشوة الشوكولاته». وطبعاً هذا بسبب مزاج الناس الذي له علاقة بالمناخ والحرّ.

تشدد السيِّدة سلوى على أهميَّة العمل الحرِّ للمرأة، فهو يزيدها ثقة، وتفرح المرأة بعملها ونجاحه:

«نحن الستات عندنا روح الطموح، بدأت أطور نفسي للدولة المتطورة. مثلاً أتعلّم من الدول الأوروبيَّة ومن بيروت التي اعترف انها مدرستي الكبرى في الشوكولاته. وان «غلت» أسعار الشوكولاته والتنافس عالي جداً، والأرباح صعبة، إنما يعوض عليّ الربح من أغلفة العلب وليس من الشوكولاته.»

تستثمر السيِّدة سلوى في صناعة وبيع الشوكولاته، وكل ذلك في الظروف الصعبة التي تواجهها المرأة صاحبة الأعمال:

«ممنوع السفر، شعور بعدم الحرّيَّة، فلأسافر أخذ الإذن من ابني الذي ربّيته. على المجتمع ان يغيّر نظرتة الى دخول المرأة العمل، لازم ينظر لها باحترام عائلياً واجتماعياً لتشارك بتطوره. وعلى فئة من السيِّدات اللاتي أعطتهن الحكومة الدعم لتطوير قوانين العمل، ان يتابعن في الواقع، وان يسألن «المرأة التي في السوق.»

هذه الإشارة من السيِّدة سلوى الى «المرأة التي في السوق» ايّ التي تعرف بالسوق والتجارة، تعطينا أفضل فكرة عن لغة التجارة العريقة في الجزيرة العربيَّة،^(٢٢) ومشاركة المرأة فيها الى اليوم. وقد سبق وذكرنا مركز خديجة بنت خويلد لسيدات الأعمال التابع للغرفة التجارية الصناعيّة في جدّة. وكيف استحضر هذا المركز شخصيّة خديجة زوجة الرسول (صلّى)، لشهرتها كتاجرة، وذلك للتأكيد على رسوخ حقوق المرأة سيِّدة الأعمال والتاجرة.

تضيف: «لا تزال تحتاج المرأة الى إذن زوجها لتعمل، والى وكيل لتؤسس شركتها، والى معقّب لتنهى معاملاتها في الدوائر الوزارية. ولا تزال المسمّيات بلا أسماء! فتدرج معظم أعمال السيِّدات تحت باب «المشاغل» (خياطة) حتى لا تسمّى الأسماء بمسمياتها، وهذا نوع من الإنكار.»

لكن بالنسبة الى العوائق والتحدّيات في التجارة والصناعة فهي متساوية بالنسبة الى الرجل والمرأة. ايّ مشاكل الشحن والتخليص من الجمارك وروتين

(٢٢) تجد أفضل مثل على عراقة التجارة في بيئة الجزيرة العربية في المصطلحات التجاريّة الغنيّة من بيع وشراء والتي تستخدم بكثرة في الخطاب القرآني.

متابعة المعقّب لإنهاء المعاملات هذه ليست متحيّزة لنوع إجتماعي (الجندر) دون آخر. (٢٣)

سلوى ناشطة في العمل البيئي مع «جمعية تطوير الحداثق» وتداولت بالأسهم وخسرت، وتنصح بتداول الأسهم الطويلة المدى، لا المضاربة مع عدم الخبرة التي لا تجلب الا الوبال. وبدأت تستثمر بالعقارات. وأهم ما قالته بالنسبة الى نهضة المرأة السعويّة، «تقام مشاريع كثيرة تخصّ النساء لكن لا تشارك المرأة في وضع السياسات العامة لهذه المشاريع للأسف».

* «صناعة الأزياء التقليديّة السعويّة والعربيّة»

بدأت السيّدة سعاد الدبّاغ تجربتها في التجارة، منذ خمس وعشرين سنة (١٩٨٣)، في فتح محل للهدايا والمشغولات الفضيّة والى جانبها الملابس التراثيّة. وكانت رغبتها الحقيقيّة هي في التراث. فأقامت بحثاً كاملاً عن تراث الأزياء التقليديّة للثوب العربي، بما في ذلك طريقة ارتداء وتزيين النساء لثيابهن، وللحلي البدويّة، واختلافها من منطقة لمنطقة.

بدأت مشروعها برأسمال ١٥٠٠٠٠ ألف ريال سعودي وهو هدية الزواج التي فضّلت ان توظّفها في العمل التجاري فاستأجرت المحل. والمحل لم يكن فقط للملابس التراثيّة، وإنما كان للهدايا والمشغولات الفضيّة، والى جانبها الملابس التراثيّة. وكانت الملابس التراثيّة تخسر معها لعدّة سنوات طويلة، فالملابس التراثيّة تكلف كثيراً، ومعظم النساء كن يتعاملن معها على انها ملابس مناسباتيّة، تستخدم بمناسبة معيّنة ثم تفقد قيمتها؛ وكانت بعضهن تطلب منها تأجيرها ليوم واحد مثلاً، من منطلق التوفير ومن انها لا تريد ان تدفع مبلغاً في فستان لن ترتديه سوى مرّة واحدة.

اليوم عند السيّدة سعاد ثلاثة فروع في الرياض (الفيصليّة والعقاريّة والمتحف الوطني) وفرعان في جدة (حراء وجريير) وفرع واحد في كل من مكة والمدينة والخبر ودبي. وأسست معملاً لصناعة الأثواب النسائيّة التقليديّة والحديثة. لديها في المعمل ثلاثة مدراء منهم محاسب، ومشرف على العمالة التي تبلغ فوق الستين

(٢٣) «التحيّز الجندي» هنا يقصد به التحيّز لمصلحة الرجل دون مصلحة المرأة لأسباب عنصريّة تتعلّق بكراهية رؤية المرأة كمشاركة في العمل وصنع القرارات .

موظفًا كلهم رجال (منهم فوق العشرين خياطاً)، وذلك لأن الاختلاط ممنوع، وتأسيس قسم خاص للرجال وقسم خاص للنساء مكلف جداً.

ورأسمال المعمل كالمحلات أيضاً استثمر من الأموال العائليّة، فالقروض من البنوك، كما تشير، غير متوفّرة للسيدات الا بوكيل. وكان عندها تحدّيات كبيرة للعمل خاصة بعد وفاة زوجها وهي أم لأربعة صبيان. تقول:

«كانت التحديّات بالنسبة لي كبيرة، لا أقدر إفتح سجل تجاري بدون زوجي، أيّ الوكيل الشرعي الذي يمثّلني وأنا أرملة. كل خطوة لازم الوكيل الشرعي، لأفتح حساب لازم الوكيل الشرعي، إمراة بدون رجل لا تعني شيئاً. الى أيّ مدى عندك قدرة تستحملي. وعندي أولادي ومسؤوليّة أتجاه بلدي. سوّيت اسم. لما مات زوجي كان عندي محل واحد، اليوم عندي عشر محلات. كنت محتاجة لأن أشتغل لأربي الأولاد. استمرّيت وتوسّعنا. أمنيّتي حققتها: الثوب العربي نشرته وربّيت الأولاد».

التحدّيات بالنسبة لمؤسّستها التجاريّة كثيرة منها قضية العمالة المحليّة غير المدربة التدريب الكافي، وأصلاً لا يوجد في المملكة معاهد لتعليم التصميم، وتدريب الخياطين على مستوى عال، وعلى مستوى الاتجاه العالمي، لذلك تقوم بسدّ هذا الفراغ بتدريب الموظفين على الخياطة والتطريز في معملها. تستخدم السيّدة سعاد المنسوجات والأقمشة المتوفرة في السوق من التجار الكبار، وهي تميل للمنتوجات القطنيّة والحيريّة، خاصة المصريّة والهنديّة.

الإنتاج السنوي بالنسبة للمحلات موسمي، وحسب طلب السوق، فلا تنتج مثل المعامل الكبيرة. فإذا كان السوق طالعاً تنتج مئة قطعة في الشهر، وإذا كان نازلاً السوق بالطبع تنخفض كميّة الطلبيّة. وبالتأكيد المعمل هو الذي يغذي المحلات بالأزياء النسائيّة التقليديّة والحديثة، وأحياناً تصنع «الدغلة» وهي من ملابس الرجال التي يلبسونها في رقصة «العرضة». وأكثر الزبونات السيّدات وبعض الرجال الذين يبتاعون لنسائهن. وكل الفروع تشتغل لكن بمواسم مختلفة مثلاً مكّة والمدينة تنشط أيام الحجّ، وأوّل رمضان ينشط سوق الرياض، والمنطقة الشرقيّة ممتازة لأنها قريبة من الكويت والبحرين.

قدّمت السيّدة سعاد عروضاً عامة قبل ان يبدأ احتفال الجنادرية السنوي الذي أسسه الملك عبد الله بن عبد العزيز، والذي تقدم به عروضاً متنوّعة. «ساوت» عرضاً حضرته مئتا سيّدة سنة ١٩٨٧. و«ساوت» عرضاً آخر في دبي منذ ١٢

سنة، وكذلك «تسوي» عروضاً سنويّاً للجاليّات الأجنبيّة الرسميّة، وهؤلاء يفرحون بالتعرّف على أثواب النساء التقليديّة وزينتها. قالت: «كنت أنسخ من القديم الى الجديد للحفاظ على التراث وخوفاً من ضياعه. حتى أخذ الثوب من البدو وألبسه في أحلى المناسبات.»

ترى السيّدة سعاد مقوّمات النجاح بالنسبة الى عمل المرأة بالتجارة في اختيار العمالة ذات المهنيّة العليا، وفي الأفكار الجديدة، والموهبة في الاختراع، وفي وضع الأفكار الجديدة، والبعد عن التقليد.

الاستنتاج

تعطي هذه المجموعة من سيّدات الأعمال السعويّات صورة واقعيّة عن عمل السيّدات في الشركات الاستشارية المالية والخدمات المصرفيّة، ومجالى التجارة والصناعة. ولا ندعي ان هذه الدراسة شملت كل القطاعات التي تنشط بها سيّدة الأعمال السعويّة (كسوق الأراضى والعقارات والذهب).

وقد وجدنا لدى هؤلاء السيّدات الكفاءة العلميّة والعمليّة العالية، فالمجموعة الأولى من المستشارية الماليّة للشركات (خلود الدخيل) الى مديرات بنوك فروع السيّدات (أمل الدويش وريم القوتلي) والمستثمرة في سوق البورصة السعويّة (إلهام ميقاتي الحسيني) وصاحبتي التجارة والصناعة (سلوى رضوان وسعاد الدباغ) جميعهن جامعيّات، تابعن تعليمهن الجامعي وتدربهن في الجامعات داخل المملكة وخارجها. اي ان التعليم العالي هو أساسى للمهنيّة المتخصّصة، والمثاقفة ضروريّة للتواصل مع التطوّرات التّقنيّة، ولاكتساب الخبرات. ولا ننسى ان هذا الجيل من السيّدات السعويّات هو الجيل الثاني من المتعلّمات، فالفتاة السعويّة، مقارنةً بالفتاة المصريّة، مثلاً (دخلت الفتاة المصريّة المدارس الأهلية منذ أواخر القرن التاسع عشر)، تأخّرت بدخول المدارس الأهليّة حتى عام ١٩٦٠. وهي دخلت سوق العمل حديثاً، وعملها عموماً يعتبر محدوداً قياساً بغيرها من البلاد العربيّة والإسلاميّة. وكما أشارت السيّدة سلوى: «على الجميع ان يغيّر نظرتّه الى دخول المرأة العمل فعليه ان ينظر لها باحترام عائليّاً واجتماعيّاً لتشارك بتطوّره.» خاصة ان السيّدات من مراكزهن في موقع القرار تمرّسن على القيادة والشخصيّة القويّة والرؤية الطويلة المدى. وميّرّن بين القيادة التي تعتبر موهبة والإدارة الناجحة التي

تكتسب بالمهارة والتدريب. وبل شاركن في نشاطات توعوية للمرأة السعودية وكيفية إدارتها للمال، وهي بداية مشاركة وواعية لأهمية العمل التطوعي والخيري.

وقد صادف ان بين هذه المجموعة سعوديتان من أصل شامي ولبناني (السيدة ريم القوتلي والسيدة إلهام ميقاتي الحسيني)، الأولى مستشارة مالية وإدارية، والثانية رائدة من رائدات تعليم البنات في المملكة، ومستثمرة في السوق المالي السعودي. وهذا يعطي صورة أيضاً عن مساهمة النساء العربيات في نهضة المرأة السعودية في المملكة، ويدل أيضاً على قبول المجتمع السعودي الوافدات من جميع البلاد العربية برحابة، وإعطائهن فرص العمل مع ان الاتجاه الحديث الحكومي ينحو نحو توطين القوى العاملة النسائية. وجميع هؤلاء السيدات كما بدا لنا رائدات في مجال المال والأعمال، بمعنى انهن من جيل الطليعة في هذه المجالات، لكن علينا ان نميز بين السيدات اللواتي يقدمن الاستشارة والخدمات المالية، وهن لسن بمستثمرات، وبين المستثمرة غير العاملة في القطاع المالي والاقتصادي.

وكما رأينا تستثمر جميع السيدات بالرأسمال العائلي، المالي والرمزي، فمعظمهن استثمر من مال العائلة او مال الزوج للتعليم او للشروع بإنشاء شركاتهن التجارية. ولكن وصلن بجهودهن ومثابرتهن على العمل الى موقع القرار في مجلس إدارة الشركة، وفي إدارة فروع البنوك للسيدات، وفي التصرف بمالهن الخاص للاستثمار ربحاً او خسارة. ومديرات البنوك (فرع النساء) ترقين في وظائفهن لكفاءتهن وخبرتهن المهنية، وكانت قضية إثبات الوجود عند الجميع قضية مصيرية خاصة للجيل الجديد، وللفاقدة الزوج (المطلقة)، وللأرملة. فمن بين المجموعة هناك من لم ينجح زواجها، فكان العمل بالنسبة اليها مخرجاً سليماً لرد الاعتبار، وإعادة بناء حياة جديدة، وهناك من ترملت ومسؤولية إعالة العائلة بأكملها وقعت على رأسها.

وقد رأينا كيف طوّرت صاحبتنا الأعمال بضاعتها من الشوكولاته والأزياء، بشكل يلائم المجتمع والسوق السعودي. بل امتلكتنا وعياً حقيقياً للمشاركة بتطور مجتمعهن للدولة الحديثة، وللمحافظة على شخصية المجتمع الثقافية بعيداً عن صورة «مجتمع النفط».

تتميز هذه المجموعة، الى جانب المهنية التي تصبو الى التطور باستمرار، بالوعي النسوي، اي هن واعيات لحقوقهن في العمل، وحاجتهن لإزالة القوانين التي

تعيق مبادراتهن، ولتغيير النظرة الدونيّة لعمل النساء. ويجتهدن للقيام بالمسؤوليّة تجاه جيل المستقبل من الفتيات. فقد رأينا، كيف ان النساء تعمل مع النساء، فتفضل كثير من النساء الحصول على الخدمات المصرفيّة والماليّة من البنوك فرع للسيّدات، وبل تحوز المرأة العاملة في البنوك على الاحترام والإعجاب. وهناك من تصر على توظيف النساء في محلها وصناعتها، لأنها مؤمنة بجدارتهن، وللتخفيف من بطالة المرأة العالية. لكن هناك أيضاً السيّدة التي لا تستطيع توظيف النساء في معملها لأن الاختلاط ممنوع، ولأن المرأة لا تملك الخبرة الكافية في مجالي التصميم والخياطة.

وهناك سيّدات الأعمال اللواتي ينشطن في الغرف التجاريّة والصناعيّة، في جميع أطراف المملكة، لإلغاء الضوابط القانونيّة والأنظمة الوزارية المعيقة لعمل المرأة في القطاع الخاص وإحداث تغيير ايجابي في مؤسسات القطاع العام تجاه صاحبات الأعمال. وهن اليوم منتخبات ومعيّنات في مجلس إدارة الغرف التجاريّة والصناعية، وهن ممثّلات في معظم اللجان التي تعدّ المجتمع المدني الوحيد المميّز في المملكة. الا ان الواقع كما أبدته السيّدات عبّر عن نفسه بصدق، فمشكلة الوكيل الذي يمثّل سيّدة الأعمال تعاني وتشتكي منه كل السيّدات، بل يتكلمن بأسى عن الإذن الذي يجب ان يؤخذ من الزوج او الأب او الوكيل للسماح للمرأة بالعمل، وكأنّها قاصرة، او تملك المواطنة من الدرجة الثانية.

تبقى مشكلة الفصل الحاد او ممانعة الاختلاط في العمل بين النساء والرجال، التي لا تزال حجرة عثرة في تطوير أداء المرأة السعديّة لعملها. وذلك ان الفصل بين النساء والرجال يخلق عالماً عنصرياً او عالماً كالسجون تكلمت عنه كل السيّدات. ويخلق عالماً ضعيفاً بتجاربه بسبب ان الرجال هم الأساتذة في المال والاقتصاد، خاصّة حين يكون عمل المرأة كالمرأة السعديّة لا يزال في بدايته، وله تجربته المحدودة. وإن بدأت ريح التغيير تشرع ابوابها، وسمعنا من السيّدات في مركز خديجة بنت خويلد لسيّدات أعمال، بأن الضوابط على عمل المرأة قد أزيل معظمها، الا ان الواقع الذي تكلمت عنه سيّدات الأعمال لا يبدو أنه تحرّر من هذه الضوابط وقيود الأعراف، وقد حرصت السيّدات جميعهن على الا تنتقد «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذين أشير اليهم بخوف، ووصفنه بالدولة الثانية.

وأخيراً قد نستطيع الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحت في البداية، وان كانت الإجابة مقيدة في حدود الدراسة وهذه النماذج من السيّدات:

فالرأي السائد عن صورة المرأة السعودية بأنها منسجمة مع بيئة تقيّد حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ليس بصحيح، على أقله بالنسبة لهؤلاء السيدات اللواتي أعتبرهن نماذج رائدة لسيدات الأعمال السعوديات. ثانياً، قد ترجع المفارقة بسبب بروز سيدات أعمال سعوديات في عالم المال والاقتصاد، بالرغم من وجود قوانين وضوابط معيقة لعمل المرأة، سواء من قبل الرجل أو الوزارة المختصة أو من قبل الأعراف المتوارثة، الى واقع مفاده ان الآباء والأمهات شجّعوا بناتهن للتعليم داخل وخارج المملكة، وشجّعوهن على إنشاء الشركات التجارية والصناعية، بل قدّموا لهن فرصة الاستثمار بالرأسمال العائلي المالي والرمزي. وهذا دليل على ان القيود التي تكلمنا عنها لا تشمل جميع البيئات الاجتماعية في المملكة، وهي ليست ثابتة (أي لا تتغير)، وليست حادّة (بالشكل الذي نظنّه). وتعمل الوزارات المعنية اليوم بجدية على تغيير القوانين وتعديل الأنظمة لتلائم أجواء دخول المرأة العمل وذلك لأسباب تنموية وضغوط دولية باتت ملحة وضرورية لمواجهة المملكة المجتمع الدولي. وهناك قرارات بصدد تسهيل عمل النساء في كافة النشاطات حتى التي كانت حكرًا على الرجال. اما بالنسبة الى تطبيق هذه القوانين المستحدثة فهنا يبقى على السيدات في الغرف التجارية والصناعية في كافة المناطق العمل على تطبيقها، والتشبيك قدر المستطاع لخلق ثقافة جديدة، تساعد حتى على مواجهة الجماعات المتسلطة والأعراف التي باتت لا تعبر عن روح التغيير الذي طرأ على المجتمع. وقد سهّل الأمر المبادرة التي قام بها الملك عبد الله بن عبد العزيز للحوار مع المرأة داخل المملكة، والتي قامت بها نخبة من الرجال والنساء المتنوّرين لإدماج المرأة الاقتصادي، ولتلعب دوراً في وضع السياسات الجديدة في الوزارات. أما بالنسبة الى التصوّر الشائع بان عمل المرأة يقتصر على المؤسسات الصغيرة الحجم، وتعمل في اقتصاد الظلّ، وأنّها أقلّ تطوراً، وهي مرتكزة في قطاعات معينة، فهذا ليس صحيحاً أصلاً بالنسبة للمجموعة التي اخترناها من المؤسسات المتوسطة والكبيرة الحجم.

هناك ملاحظة أخيرة يجب ان نلفت النظر اليها، وهي ان المرأة السعودية لا تلحق اسمها باسم زوجها، وهذه ميزة تتمتع بها النساء المسلمات في البلاد العربية. لذلك تعرّفنا فقط على أسماء عائلات هؤلاء السيدات ولم نتعرّف على أسماء عائلات أزواجهن. وكذلك علينا الاعتراف بان حق المرأة بالتصرف بمالها الشخصي هو حق

ديني استفادات منه السيّدات كحقّ شرعي دون التباس. أيّ هناك دائماً مجال ما يساعد المرأة على الحراك والعمل والنجاح، وهنا يبدو باب الاستثمار والمال. يبقى ان المرأة عموماً تعدّ آخر معقل للدفاع عن الهوية خاصة في عالم بات صغيراً ومنفتحاً، لذلك تقع على المرأة قبل الرجل مسؤوليّة تطوير المرأة، كما سمعنا من هذه النماذج الناجحة من سيّدات وصاحبات الأعمال السعديّات.

التوظيف في القطاع الخاص

جدول التوزيع النسبي للعمالة بالقطاع الخاص حسب النشاط الاقتصادي
والجنسية عام ١٤٢٥/١٤٢٦ هـ (٢٠٠٥)

المجموع	غير سعوديات	سعوديات	النشاط الاقتصادي
٠,٢	٠,١	٠,٢	الزراعة والغابات والصيد البري والأسماك
٣,٦	٤,٢	٢,١	المناجم واستخراج البترول والغاز والمحاجر
٨,٤	٩,٦	٥,٥	الصناعات التحويلية
٠,١	٠,١	٠,١	الكهرباء والغاز والمياه
٢٣,٣	٢٨,٢	١٣,٦	البناء والتشييد
٣٥,٦	٤١,٢	٢١,٥	مجموع القطاعات الانتاجية
٨,٩	٦,٥	١٤,٩	تجارة الجملة والتجزئة
٠,٢	٠,٢	٠,١	النقل والتخزين والمواصلات
٢	١	٤,٥	المال والتأمين وخدمات العقارات والأعمال
٥٢,٧	٥٠,٧	٥٧,٨	الخدمات الجماعية والإجتماعية والشخصية
٦٣,٨	٥٨,٤	٧٧,٣	مجمع القطاعات الخدمية
٠,٦	٠,٤	١,٢	أنشطة أخرى
١٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	الاجمالي
١١٢٢٦٤	٨٠٠٧٩	٣٢١٨٥	حجم العمالة (بالألف)

المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي لوزارة العمل ١٤٢٥/١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م

جدول السجلات التجارية النسائية حسب نوع النشاط
عام ١٤٢٩ هـ (٢٠٠٨ م)

(%)	العدد	النشاط
١	٣١١	الزراعة والصيد والغابات
٠,٢	٦٧	المناجم والبتروك
٢,٥	٨٤	الصناعة
١	٣٠٩	توليد الكهرباء واستخراج المياه
١٦,١	٥,٤٠٩	التشييد والبناء- المقاولات
٥٥,٢	١٨,٦٠٥	تجارة الجملة والتجزئة والخدمات التجارية
٠,١	٢٦	خدمات المال والعمال
٠	٢٦٦	النقل والتخزين والتبريد
٣,٩	١٣٢٢	خدمات اجتماعية وشخصية
١٩,٢	٦,٤٦٥	أخرى
١٠٠	٣٣,٦٢	المجموع

تجربة النجاح المهني والمالي لدى الشابات اللبنانيات^(١)

هجرت اللبنانيات دولتهن، لأنها تباطأت في إعطائهن الحقوق كاملة، وفوضت شؤونهن الأسرية إلى طوائفهن، وغيبن عملياً عن السياسة. هجرنها ولم يراهن عليها، بل تعلمن الاستناد إلى أنفسهن والاهتمام ببناء قدراتهن، داومن على فرديتهن ورعينها حتى صرن بارزات علمياً وثقافياً ومهنيّاً كأفراد وليس كجماعات ضغط^(٢) إلا فيما ندر. في هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى أن الحرب أحدثت تغييرات ثقافية اجتماعية اقتصادية، كان من نتائجها تشدد الأهل المتعلمين في تأمين أوضاع بناتهن من اهتزازات الوضع الأمني والاقتصادي في لبنان عن طريق التعلم في أفضل المدارس والجامعات الخاصة. وفي إطار معلوم اقتصادي، بدأت حياة الشابات تدور حول سؤال مركزي يتعلق بالمهنة والمال، فلاحظنا بروز ظاهرة جديدة من الشابات اللبنانيات المتمكنات مهنيّاً ومالياً، لعل دراسة دوافعهن وأسباب نجاحهن تكشف لنا تغير التصورات الذاتية للنساء عن أنفسهن وتغير التصورات الثقافية عنهن.

نهى بيومي

(١) انجزت هذه الدراسة الميدانية بمنحة مشكورة من المجلس الوطني للبحوث العلمية في لبنان، ونقدم هنا موجزاً عنها بسبب شروط النشر.

(٢) نهى بيومي، النساء والتحويلات السياسية في البحرين: السياسة وحجاب الواقع، مجلة حوار العرب بيروت ٢٠٠٥.

بينت تقارير التنمية البشرية والإنسانية التي طالت الوضع الاقتصادي في لبنان، ان نسبة الإناث الناشطات اقتصادياً هي بمعدل ٣٠,٧ بمقابل ٤٠ للذكور^(٣) وتستنتج اللامساواة الجندرية في النشاطات الاقتصادية، وان نسبة الدخل التقديري للإناث إلى الدخل التقديري للذكور هو ٣١,٠^(٤). ويربط التقرير بين انتشار الفقر وإضعاف النساء إذ يؤدي فقر الدخل إلى إضعاف التمثيل السياسي والسيطرة على الموارد الاقتصادية، كما يفضي إلى إضعاف النساء في مجال شغل الوظائف العليا التشريعية والإدارية والتنظيمية.^(٥) ويرجع السبب أيضاً إلى الثقافة الذكورية السائدة في المؤسسات التي تميز بين الجنسين في مستوى التشغيل والأجور. وتعتبر القوانين المتعلقة بالعمل أو الأحوال الشخصية من المعوقات أيضاً.^(٦)

دفعتنا هذه المعطيات للتساؤل: ألهذه الأسباب انحازت الشابات إلى الأعمال الحرة، فأسسن مؤسساتهن الصغيرة كي يتحررن من هذه المعوقات وخصوصاً من ذكورية المؤسسات؟ ألهذه الأسباب اخترن العمل في مؤسسات دولية أو خاصة أكثر مراعاة لعدم التمييز الجندري؟

بيّن التقرير الرسمي الثالث حول اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، أن نسبة القوى العاملة للإناث هي ٢٣,٢٪ وحسب الفئات العمرية (٢٠ سنة إلى ٣٩ سنة) تتراوح ما بين ١٢,٥٪ إلى ١٤,١٪، وان صاحبات الأعمال والنساء اللواتي يعملن لحسابهن يمثلن ١١,٢٪ من القوى العاملة النسائية.^(٧) من المهم التوقف عند هذه الفئة من الشابات المبادرات إلى الاستقلالية، ومحاولة تشخيص المحددات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ومفاعيلها عليهن، خصوصاً وان الضغوط الاقتصادية التي تعاني منها الأسرة اللبنانية، والإدراك المتزايد لدى اللبنانيات لقدراتهن الاقتصادية، عاملان محفزان أكثر فأكثر لمشاركة النساء في مختلف القطاعات الاقتصادية.^(٨) من وجهة نظرنا، هناك فئة جديدة من الشابات

(٣) تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٥، ص. ٢٨٨.

(٤) المصدر نفسه، ص. ٢٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص. ٩.

(٦) المصدر نفسه، ص. ٨.

(٧) على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، بيروت ٢٠٠٦، ص. ٦٣. التقرير الرسمي الثالث حول اتفاقية القضاء.

(٨) المصدر نفسه، ص. ٦٨.

الجامعيات^(٩) اللواتي كلما ازدادت كفاءتهن المعرفية تزايد توجههن إلى الأعمال الحرة وإلى المؤسسات التي تشكل مصدراً لزيادة أموالهن، متجاوزات الاعتماد على الأهل والزوج.^(١٠)

ومع أن النساء سيطرن على بعض القطاعات الاقتصادية مثل التربية والتمريض إلا أنهن لم يصلن إلى قيادتها ولم يحصلن على الأجر المساوي للرجال^(١١)، وتعود الأسباب إلى الديناميكيات الثقافية والتنظيمية وتنميطات الأدوار الجنسية والجندرية الثقافية.^(١٢) ويعتبر لبنان أكثر انفتاحاً من البلدان العربية في إتاحتها فرص عمل للنساء، خاصة بعد الحرب (١٩٩٠) بسبب التغيرات الاقتصادية التي أجبرت النساء على المساهمة في التنمية، فالكثير من البيوت لا يمكنها الصمود دون عمل الزوجين، ذلك أفضى إلى دخول النساء في قطاعات جديدة. كما أن هجرة الرجال أجبرت النساء على ارتياد أعمال غير تقليدية، ومع انه ازداد اعتبار النساء شريكات كاملات في اقتصاد العائلة لكن مواقع اتخاذ القرار في المؤسسات ما زالت حكراً على الرجال.^(١٣) ويمكن القول أن الحرب في الوقت نفسه، أفرزت قيماً جديدة تخفض من قيمة العلم والعمل وتعلي من شأن الكسب السريع، فتعاظمت قيمة المال والاستهلاك والتبذير. وامتازت فترة ما بعد الحرب ولغاية اليوم بجملة من التناقضات التي

(٩) أظهرت دراسة المرأة العاملة، ان نسبة النساء العاملات المستقلات الجامعيات لا تتجاوز ١٥,٥٠٪ منهن واستنتجت ان الريف ومعه المدن غير بيروت، يشكلان بقدر ما يحضر فيهما التعاضد العائلي في التمويل إلى جانب المخزون الذاتي، مرتعا محتملا لترسخ أقدام فئة صاحبات المشاغل. انظر: المرأة العاملة في لبنان، نتائج ميدانية وتحليلية، التجمع النسائي الديمقراطي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٩٧، ص. ٣٥٩-٣٦٧.

تندرج هذه الظاهرة في الاطار العربي حيث نجد ان ضعف الاقتصاد العربي اخل بالتوازن بين مستويات الدخل والاسعار وتفضيل الشباب العمل الحر او في القطاع الخاص. انظر: (١٠) الشباب العربي ورؤى المستقبل، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦، ص. ٦٤.

(١١) نهى بيومي، نساء مساويات ورجال مسيطرون، التحول العالمي في رؤية الافراد للنوع الاجتماعي، الملف الثقافي جسور، جريدة الوطن البحرينية، ديسمبر ٢٠٠٥.

(١٢) Women in Management Review Vol. 20 No. 8, 2005, Constraints facing working in Lebanon: an insider view, Dima Jamali, Yusuf Sidani, Assem Safieddine, American University of Beirut, Emerald Group Publishing Limited, 0964-9425, p. 582.

(١٣) المصدر نفسه، ص. ٥٨٤.

تتزامن في وجودها^(١٤)، فحين نخضع للعولمة الاقتصادية والتكنولوجية والى تنامي الشركات وتحفيز الأفراد للانخراط فيها^(١٥)، فإننا نخضع في الوقت نفسه، للتنافس الطائفي والتعصب الديني والمناطقى والوطني، وللتمييز الجندري^(١٦).

منهجية البحث ومواصفات العينة

تهتم هذه الدراسة بالإحاطة بأسباب نجاح الشباب المهني والمالي ودخولهن في مهن حرة حديثة وبناء مشاريع فردية أو العمل في مؤسسات خاصة مرتفعة الأجور. كما تهتم بالتعرف إلى دوافعهن الذاتية والعائلية والمجتمعية التي ساهمت بشكل أو بآخر في تحقيق أهدافهن المهنية والمالية، وتدرسها كمؤشرات على تغير التصورات الذاتية للنساء عن أنفسهن وتغير التصورات الثقافية عنهن، وذلك عبر دراسة موقع المال في مسارهن العلمي والمهني والحياتي وكيفيات إنفاقه. وتعتمد هذه الدراسة على مقابلات ميدانية وعلى مقارنة نوعية مع خمس عشرة شابة لبنانية من اختصاصات ومهن ومواقع مختلفة، تتراوح أعمارهن بين العشرينات والثلاثينات متزوجات (٤٥٪) وعازبات (٥٥٪). ودعمت هذه المقابلات بأخرى أجريت مع ست سيدات من اختصاصات ومواقع مختلفة وأعمارهن تتراوح بين الأربعينات والخمسينات متزوجات بينهن مطلقتين، تنتمي العينة إلى الفئة المتوسطة بدرجاتها المتعددة. وقصدنا من العودة إلى جيل أكبر من اللبانيات الناجحات، موضوعة الدراسة عملياً في إطار زمني متسلسل، كي نفتح مروحة فهم وتأويل المتغيرات الثقافية والاجتماعية والمالية. ينتمين إلى مناطق وطوائف مختلفة لكن الجامع بينهن سكنهن في بيروت وعملهن بها، ما عدا ثلاثاً يعملن في دبي. وأجريت هذه المقابلات في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني ٢٠٠٨ وكانون الثاني ٢٠٠٩^(١٧).

(١٤) انظر: ملحم شاوول، الافتراق والجمع، دراسات في المجتمع اللبناني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٦، ص. ١٥٢.

(١٥) Manière de voir, La fabrication du conformisme, n.96, Janvier 2008.

مع تنامي الشركات خلق تخصص جديد في علم النفس وهو علم النفس التحفيزي.

(١٦) العولمة والنوع الاجتماعي: المشاركة الاقتصادية للمرأة العربية، مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث، كوتر، تونس ٢٠٠١.

(١٧) فيما يخص توصيف اهل الشباب، وجدنا ان نصف امهاتهن مستوى تعليمهن ثانوي ونصفهن الاخر جامعي ودراسات عليا، ثلثي الآباء مستوى تعليمهم جامعي ودراسات عليا والثلث الباقي ثانوية عامة، وجميع الابناء والبنات جامعيون-جامعيات. ثلث الامهات عاملات في التعليم الثانوي والجامعي وإدارة

درسن في مدارس وجامعات خاصة في لبنان وخارجه مصنفة فئة أولى بين اللبنانيين. وتنوعت اختصاصاتهن ما بين هندسة معمارية، هندسة كمبيوتر، اقتصاد، إدارة أعمال، إدارة مالية وحسابات، شؤون دولية وعلوم سياسية، إخراج سمعي بصري، فنون الاتصال، فلسفة، علوم سياسية، نحت، وعلوم صحية وتغذية. غالبيتهن حزن على الماجستير ما عدا واحدة نالت الدكتوراه؛ ومزج بعضهن اختصاصاته.

وبسبب ضيق المساحة المخصصة لهذا البحث فاننا نكتفي بعرض سريع لعوامل النجاح المهني والمالي ثم نتوقف عند علاقتهن بالمال وسلوكهن المالي، وناقش نتائج البحث. تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على علاقة الشابات بالمال ومسوغاتها، واستكشاف دور المال في حياة الشابات ومتغيراته وآفاقه، وصولاً إلى ملامسة التغيرات الثقافية/الاجتماعية التي تطال فئة محدودة من الشابات والتي تكشف التغيرات في الدور والوظيفة والتصور. وتركز هذه الدراسة على تبيان حالات تمثل خروجاً عن التنميط الجندري كما نفترض، من حيث تمتعهن بفرص أو ابتكارها من أجل الترقى الوظيفي والتمكين المالي.

لم يكن المال دافعاً من دوافع النساء الأكثر أهمية، بل هو لا يأتي في سلم أولويات الأجيال السابقة التي كانت تبحث عن العلم والانخراط في القضايا الحقوقية في الحياة العامة مع المحافظة على أهمية دورهن الأسري. لكننا نفترض أن هذا الجيل من الشابات أقل خضوعاً للتنميط الجندري وأكثر طموحاً للحصول على الثروات. كما نفترض صعود قيمة المال لديه ومحاولته التمكن المالي بعد العلمي تحقيقاً لطموحات ذاتية ومهنية مع سيادة العولمة الاقتصادية وبثها الترويجي لنماذج النجاح المالي. سوف نحاول رصد تصاعد قيمة المال وسوف نرى الروابط بين تحسن صورتهم مجتمعياً وذاتياً وبين تطلعاتهن المالية. وسنحاول التوقف عند الرابط بين تراجع القمع الثقافي/الاجتماعي في النظام الأبوي التمييزي وتغير المشهد المالي للنساء لدى فئة منهن.

تفترض هذه الدراسة أننا نواجه تحولات في الممارسات ونظام التمثلات للإنثا تشارك في إزالة تركيب وإعادة تركيب منظومة أخرى، حيث يتفرد الفرد عن

الجماعة دون قطع الروابط بينهما. هؤلاء الشابات صغن طلب المشاركة في نظام وطني وعالمي، نظام لا يستوعبهن ولا يدخلهن فيه. فكيف فعلمن ليصرن جزءاً منه؟

حاولنا تقصي أسباب نجاح الشابات المهني والمالي ودوافعه، وجدنا أنها تعود إلى مؤسسات ثلاث، الأسرة والمؤسسات التعليمية ومؤسسات العمل. شكلت أسرهن إطاراً للأمان وللثقة، ورفعت لواء العلم والعمل والاجتهاد والتكوين الذاتي. معطيات أساسية انعكست على الشابات في خياراتهن المهنية والحياتية وعلاقتهن بالعمل. وتميزت غالباً، علاقتهن بالأب بارتباط وثيق ومميز، فابتعدن عن إحلال الآباء بأضداد الآباء أو البحث عن النضج على هامش علاقتهن بالأب. ارتباط دافع إلى الاستقلالية الفردية مبني على موقف الأب والأم الايجابي من بناتهن وميل الأمهات إلى تقدم بناتهن عليهن، وهذا تغير في سمات الأسرة والسلطة الأبوية فيها، بغض النظر عن مدى انسجام العلاقة بين الأب والأم، وكأنه ينتقل إليهن أفضل ما في والديهما من قيم ورؤى وتطلعات.

وساهمت المؤسسات التعليمية في تكوينهن وتنمية قدراتهن الشخصية والمهنية والمالية، وشكلت مفتاحاً مهماً لإيجاد فرص عمل جيدة، كما أن تفوقهن أهلهن لإجراء دراسات عليا في جامعات تخصصية^(١٨). يبقى أن الجامعات المرموقة تلعب دوراً محدثياً في المجتمع في تبنيها قيم الاجتهاد والالتزام والمثابرة، فتغير سلوكيات ووضعيات الشابات، عن طريق إعادة صياغة تمثلاتهن تجاه الهوية الثقافية والاجتماعية للمجتمع. بين التعلم في جامعات مميزة وبين دور الأهل الايجابي وعدم عيشهن تمييزاً بين الذكور والإناث لا في البيت ولا خارجه، ارتفعت وتيرة طموحن فحظن تجارب مهنية مهمة. أفسحت المؤسسات التي عملن فيها^(١٩) المجال لبلورة طاقاتهم وتجسيدها في ميادين الإنتاج، وغاب عنها عموماً التمييز بحقهن^(٢٠). هذا

(١٨) تقول «منذ تخرجي انفتحت أمامي كل الأبواب، لأن هذه الجامعة تعتبر مرجعاً أوروبا وعالمياً، فشهادتها ليس من السهل نيلها».

(١٩) تعمل الشابات في مؤسسات حديثة متنوعة: شركة اعلان وتسويق دولية، مؤسسات مالية خليجية، شركة برمجة ومعلوماتية اجنبية، وزارة الخارجية، مجلة نسائية، محطة تلفزيونية، شركة بترو، جمعية شبابية اهلية، اما الاعمال الخاصة فهي: شركة مطاعم واستشارات، شركة مواقع الكترونية وبرمجة، محل تصنيع وبيع مجوهرات، محل تصنيع وبيع البسة واكسسوارات، الخ.

(٢٠) تقول «ليس هناك وظيفة للرجل ووظيفة للمرأة، هناك وظيفة، إما أن يعرف الموظف كيف يقوم بها أو لا يعرف، سواء كان امرأة أم رجلاً».

الجيل ممتلئ عافية وقوة وجاذبية واندفاعاً لا تسيره تصورات تمييزية، بعد أن تمكن علمياً وتسليح بالمعرفة ونزل بقوة إلى ساحة العمل. احتضنهن رئيس المؤسسة لجديتهن وذكائهن وطموحهن^(٢١). ووجدن في العمل مع الإناث كمديرة أو كفريق عمل فضائله عكس ما يشاع عن صراع النساء^(٢٢). كما أن العمل في مؤسسات أجنبية أتاح فرص الترقى وخوض التجارب المهنية المختلفة التي تنمي القدرات وتقوي الشخصية.

كما وجدنا أن علاقتهن بالسلطة عامل من عوامل نجاحهن المهني والمالي إذ ليس لديهن مشكل مع السلطة عموماً ويتعاملن مع رموزها براحة دون قلق على مركزهن ومالهن وموقعهن، ولا تشكل تحدياً لكفاءتهن. ففي المؤسسة العائلية نرى توازناً في السلطة بين الأم والأب غالباً وعلاماته علاقتهن المتوازنة بهما وتقديرهما المشترك لكليهما^(٢٣). في حالتين اختل التوازن بينهما بسبب تفرد الأب، كان من نتيجته اصرارهن على التوازن في السلطة في جميع مناحي حياتهن. وفي زواجهن نرى بوضوح علاقة زوجية متساوية، فالزوجان يعملان ويتشاركان المسؤولية. ذلك يقودنا إلى القول أن أمهاتهن -ثلثيهما لا يعملن لكنهن متعلمات نسبياً- لم تعد إنتاج نموذج الأم الموروثة كلية^(٢٤). وتعاملت الشابات مع السلطة العائلية أو سلطة الزوج بشكل عملي ومرن لأن استثمارهن هو في عملهن وفي الحب. ربما باستطاعتنا القول إن جيل أمهاتهن لديه مشكلة مع السلطة الذكورية بسبب معاناته من الاعتراف به، بينما تتعامل الشابات براحة أكثر مع الأب والزوج وبمفهوم براغماتي، إذ يتمتعن بسلطة العلم والمهنة والمال ويتمتعن بالاعتراف بهن وبقدرتهن وقيمة عملهن. وفي المؤسسة المهنية لا نجد اختلافاً في رؤية السلطة وعيشها في حالتها كموظفة في شركة أو في إدارة مؤسساتهن الخاصة. السلطة حق يمارسها بشكل عملائي لا

(٢١) تقول «يكبرني بأربعين عاما وكان يسلمني التقرير الذي أعده ويطلب مني أن أضيف إليه ما أراه مناسباً. لا بل كان يعرفني إلى الزبائن كأنني زميلته وليس كأنني أعمل لديه».

(٢٢) يبدو أن عدد النساء في المؤسسات الحديثة الخاصة مرتفع في لبنان، بينما في وزارة الخارجية لا يتجاوز ٢٠٪. أما في دبي فإنه يتفاوت من ٥٪ ليصل إلى ما يعادل النصف في شركة استثمارات حيث أنها مراقبة دولياً وتلتزم بحقوق الإنسان.

(٢٣) تقول «في البيت ليس لدينا مفهوم السلطة الديكتاتورية. البابا هو بابا لكني قريبة منه جداً ولا يوجد في بيتنا نظام الفرض».

(٢٤) ونقص ذلك دور الطاعة لسلطة الأب، ودورها المانع في قرارات العائلة.

يحمل موروثاً رافضاً لدلالاتها لأنهن زودنها بالدلالات المناسبة لها كتعبير عن المسؤولية والالتزام انطلاقاً من الثقة بالنفس.

نجاحهن المالي وتداعياته الثقافية والسلوكية

١- دلالات المال

يتناولن المال في حياتهن اليومية بشكل «عادي جداً وعملي وواضح»، لا يترددن في ولوجه ولا يتلعثن في تناوله ولا حرج منه. ارتبطت دلالات المال برؤية شمولية تربطه بالمهنة وتحقيق الذات. لذلك هو «وسيلة لحياة أفضل» ويدل على «الاستقلالية والأمان» ولا يمثل هدفاً بحد ذاته. والدلالة الرئيسية تبقى الاستقلالية التي شددن عليها «يوفر لي متعة الصرف على نفسي وعدم حاجتي لأحد، أستطيع أن آخذ قراراتي، أن أسافر حيث أريد، أستطيع أن أشتري ما أريد، كما أساعد غيري»، ويحسن المال المستوى المعيشي، ولا يمكن إنكار أن الوفرة تؤمن راحة البال وفرص أن تري العالم وان تعيشي حياة مريحة. وهو يخلق أيضاً الأمان الداخلي والاستقرار النفسي ويشكل مصدراً للحرية. وأثارت بعضهن خطورة تحويل المال إلى هدف، لأنه يؤثر سلباً على العائلة^(٢٥)، أما اللواتي يعملن في مجال الاستثمار فيتعلمن بالتجربة إمكانية زهاب المال بسرعة، لذلك هو ليس هدفاً بل وسيلة. ويمثل مكافأة لقاء الجهد المبذول في العمل والتعب. وهو مصدر قوة في بلد يفتقر إلى الاستقرار في العمل، فالمال معادل للاعتماد على الذات. كما يرتبط المال كقيمة بالجهد المبذول، وبما أنهن يبذلن جهوداً كبيرة فإن متطلباتهن من الأجر تقتضي الموازنة بينهما ويتوجها مفهوم الحق ويكللها مفهوم الرضا. جميعهن راضيات ماعدا رئيسة تحرير مجلة يملكها والدها لان أجرها لا يساوي جهدها، ويشعرن بالسعادة حين ينلن أجرهن لقاء عملهن^(٢٦). ربطن غالباً بين تحصيل المال ونوعية الحياة، لذا تمتنع بعضهن عن العمل في مكان لا يعني لهن.

(٢٥) تقول «إن المهووس لا يرى غير المال، فلا يتمتع بعمله، ويمكن أن يصبح غير أخلاقي حتى يصل إلى هذا الهدف»

(٢٦) تقول «ذلك يعني ان المشروع انتهى فأشعر بالسعادة لأنني قمت بخلق شيء-موقع الكتروني- والمال عندها جميل لأنه يعني أنني أنجزت العمل بطريقة جيدة». إنها تعمل لحسابها من بيتها.

٢- المال والسعادة

أجمعن على أن المال ليس مصدراً وحيداً للسعادة وإنما يمثل احد روافدها. انطلقن من الشكر والامتنان لما حققنه، دون أن يحد ذلك من سعيهن لتحصيل المزيد^(٢٧). وأكدن أن استخدام المال بالطريقة الصحيحة يؤدي إلى السعادة وأن غيابها يزيد التعاسة. ويرين فيه سعادة «مؤقتة» وأنية لأنهن تربين على الاكتفاء والرضى. فإذا كانت السعادة لحظات صغيرة فان المال في هذه الأنية يمتلك دوراً بسيطاً «فشة خلق»^(٢٨). وإذا كانت السعادة ترتبط بالحبيب-الزوج والتواجد معه في مكان جميل فذلك لا يتحقق إلا عن طريق السفر والمال^(٢٩). أبرزن أن الرفاهية عامل إسعاد وتعويض عن تفرغهن الكامل للعمل والتعب في انجازه^(٣٠). وإذا لم يكن المال مصدراً وحيداً للسعادة يبقى «وسيلة انجاز طموحات حلوة، والذي يعتبر أن المال مصدر سعادة ويعيش في سعي دائم وراءه فانه لن يحققها»، يحل المال المشاكل الرئيسية في الحياة «بالمقابل هناك مليون مشكلة لا يحلها». وحين يستغرقن في انجاز مشروع لا يفكرن بالسعادة الذاتية بل بتحقيق المشروع، وأهم مصدر للسعادة عدم اللجوء إلى الدين^(٣١) والكرم^(٣٢).

٣- المال والسلطة

لا يشكل المال سلطة بحد ذاته بل أحد عواملها، فأبرزن مقوماتها تكمن في الشخصية القوية^(٣٣)، وهو مصدر قوة في حال الثروات الطائلة فقط. انتقدن الثقافة السائدة في المجتمع اللبناني التي تقيّم مالك المال بمعزل عن علمه وثقافته، من

(٢٧) تقول «دائماً أقول الحمد لله الذي لدي كفييني، أولادي مبسوطين، يدرسون في أفضل المدارس، لا ينقصنا شيئاً، لا أريد أكثر. يعني إذا صار في أكثر لن أرفض».

(٢٨) شبهت إحداهن هذه العملية بشرب فنجان قهوة حين نشعر بالنعاس، نستفيق بفعله لمدة ساعتين ثم نعود إلى الشعور بالنعاس من جديد.

(٢٩) تقول «أهلي يتهمونني بأنني أحب المال! لا أنكر ذلك، لكن من منطلق انه يؤمن لي أسلوب حياة مريحة، ولا أعني بتاتا «الفخخة» لكن أعيش بطريقة مريحة وأسافر بدون ضغط».

(٣٠) تقول «أريد السفر كما أشاء وأريد هذه الحقيبة التي تعجبني وهذه الساعة التي أُرغب في اقتنائها».

(٣١) تقول «أهم شيء لدي ان لا يكون أحد يريد مني ليرة، لذلك لا أعمل بتمويل من البنوك».

(٣٢) تقول وصية جدتها لها «كوني كريمة، لا تجعللي المال يقف حائلاً بينك وبين الناس فالمال يذهب ويأتي».

(٣٣) تؤكد قائلة «الكثير من الناس يملكون المال لكنهم لم يصلوا إلى مراكز السلطة في مواقع عديدة».

جهتهن يرفضن هذا المنظور ولا يتعاملن من موقعهن على أساسه، ولا يشعرن بتسلط صاحب المال عليهن، إذ ثقتهن بأنفسهن عالية^(٣٤). ليس المال إذاً، رمزاً للقوة بل أداة للعيش، فالسلطة يستمدنها من مواقع القرار والتنفيذ في عملهن ومن شخصيتهن القيادية. لا يربطن بين المال والسلطة بل يربطن السلطة بالحق ويعتبرن ربط السلطة بالمال يدل على شرائها^(٣٥). ومع أن موقفهن من العمل نافياً للسلطة عبر المال فإنهن يعتبرن أن المرأة حين تصبح مستقلة مالياً ومتقدمة في عملها، فذلك يكسبها حرية وقوة للتقرير في حياتها الخاصة ويعطيها الضمان لسلامة قرارها ولعدم هدر حقوقها. لا يشكل المال سلطة للمتزوجات في علاقتهن الزوجية «لأنك تصبحين وكأنك تشتريين العلاقة أكثر مما تبينينها».

٤- المال والعمل

جزمت غالبيتهن أن العمل هو الأهم، ولأسباب مختلفة، أولها الشعور بالرضى «أنا أعمل وأقبض هذا ما يشعرنني بالرضى». والسبب الثاني هو دقة العمل وصعوبته ومرئيته «المكافأة الكبيرة تأتي على قدر أقتاني عملي، خاصة أن تقاريرنا المالية التحليلية يقرأها العالم، الأهم أن لا ينتقد أحد عملي». ثالثاً، السند المالي من الزوج ويسر أحواله «لو كان عمل زوجي ليس جيداً عندها يصبح المال هدفاً أكبر». رابعاً، أهمية «الخلق» «اشعر بالسعادة حين أحقق مشروعاً ويصبح المال ثانوياً». خامساً، عند تحقيق الطموح المهني تتراجع صدارة المال.^(٣٦) وذهب بعضهن إلى إقرار الترابط بينهما مع ترجيح كفة العمل^(٣٧)، وظهرت

(٣٤) يتمتعن بكفاءات علمية ولديهن مواقع مهمة في المؤسسات ويحصلن على بدل مالي جيد جداً.
(٣٥) تقول «لم أفكر يوماً ولم أطمح أن أمتلك المال كي أكون صاحبة قرار وصاحبة سلطة في العمل. لم يكن المال في حياتي مصدر للسلطة، على العكس تماماً، فكل واحد يأتي في العمل معتبراً أنه يستطيع فرض شروطه علي لأنه يمتلك المال، لن يأخذ مني حقه. ولو كان طموحي إثبات نفسي عن طريق المال لكنت فشلت».

(٣٦) تقول «حين نلت ما أردته أي أن أصبح مديرة القسم في شركتي، سعدت لدرجة أنني لم أسأل إذا كان الراتب سيغير، أحياناً نختار عملاً ومنصباً لكسب الخبرة وليس المال فقط».

(٣٧) تقول «مهنتي مرتبطة بالمال مع أنني حين اخترتها لم أفكر بمردودها المالي مطلقاً ولا بامتيازاتها. نحن كدبلوماسيين بدون مال يصعب عملنا، لأنه لدينا تمثيل مهم في الخارج نريد إتمامه. لكن لا أتصور أن المال كان مصدراً أساسياً لي، واكبر دليل على ذلك أنه بدل أن أعيش سنتين في بيروت بقيت خمس سنوات ونقبض هنا ١٪ مما نقبضه في الخارج! بالنسبة لي فليكن، إذ لدي أولويات أخرى» وتقصّد عائلياً.

تمايزات حتى في الموقف الترابطي نفسه، إذ ربطن أيضاً بين العمل والمتعة فالمال لا يمثل كل شيء في الحياة.^(٣٨)

وأخيراً، يشكل الارتباط بينهما مصدر إعجاب الشباب بالبنات من أجل الزواج، إذ يعجب الرجل بالمرأة العاملة والذكية والمستقلة مادياً. وساوت بينهما كلية صاحبة شركة وأكدت انتفاء إمكانية الفصل بينهما لان في تساويهما مقياس نجاح مؤسستها «لا يمكن أن تكوني ناجحة أنت وعم تخسري». وتؤشر المساواة بينهما على احترام المؤسسة للكفاءة المهنية للموظف «إذا كنت تعمل ولا أتقاضى معاشاً مساوياً لعملي، ذلك يعني أنهم لا يحترمونني ولا يحترمون عملي»^(٣٩)، فالمسألة ليست فقط تحصيل المال من العمل بل الاعتراف بالجهد وبالفتاني فيه.

٥- التخطيط المالي والادخار والاستثمار

تباينت مواقفهن من التخطيط المالي وذلك بمعزل عن العزوبة أو الزواج أو عامل السن^(٤٠). والأمر يعود كما تبينا إلى بنية الشخصية والى الثقيف البيتي الأسري والمدرسي. فالأكثر تخطيطاً هن أصحاب المؤسسات، لأن هناك تمازجاً بين هدفهن الذاتي وهدفهن المؤسسي، إذ يولين أهمية لتطوير مؤسساتهن فيتطورن مالياً مع تطور مؤسساتهن، والادخار عندها يثمر في الاستثمار في توسعة أعمال الشركة^(٤١). الأكثر تدبراً هن اللواتي تعلمن من المدرسة روح المبادرة وكسب المال وتوظيفه وادخاره بتشجيع من الأهل^(٤٢)، كما أن المشاركة المبكرة في أعمال الأب ساهم في تنمية مواهبهن التنظيمية. أدركن أيضاً أن تنظيم أموالهن يؤدي إلى

(٣٨) تقول «أنت تعلمين لتحصلين على المال فهما مترابطان، لكني لن أمارس عملاً لا أحبه فقط من أجل كسب المال، افترض ان اشتغل شيئاً أحبه كي أتقبل فكرة العمل ليلاً نهاراً. حرام ان تضيعي وقتك في شيء لا تحبينه. أحياناً قومين بأشياء لا تكسبك الكثير من المال ولكنك تكوني مرتاحة ومبسوطة بانجازها. اعرف صديقة تركت عملها الجيد والآن تعمل في شيء بسيط جداً لكنها في غاية السعادة، انها وجدت نفسها ووجدت ما تحبه. ليس كل شيء المال. إذا كنت تحبين عملك ومردوده جيد لك فانه شيء عظيم لكن أحياناً لا يتحقق ذلك».

(٣٩) تنتقد أمها الأستاذة الجامعية في الجامعة اللبنانية التي تعمل كثيراً وتتقاضى قليلاً.

(٤٠) ونقصد إذا ما كن في العشرينات أم في الثلاثينات.

(٤١) تقول «أحب أن اعرف الليرة خاصتي أين تذهب وان احسبها جيداً لأنني تعبت فيها ولا أحب أن أرميها».

(٤٢) اقترحت إحداهن في هذا الصدد ضرورة تدريس مادة التربية المالية في جميع المدارس كي يدرك الأولاد معنى المال وادخاره وبناء مستقبلهم.

شعورهن بالأمان ويحميهن من المفاجآت، وللاستمتاع بحياتهن مقابل الغربية، والتمتع بالأسفار^(٤٣). التخطيط هو أيضاً للمزيد من استثمار شبابهن والاستمتاع به «نحن لا نحرم أنفسنا، لأننا نتعب في العمل ولأنه ليس بإمكاننا الاستمرار في هذه الوتيرة إلا إذا رفهنا عن أنفسنا». يعبر التخطيط إذن عن حمل مسؤولية الذات والحفاظ على استقلاليتها ومن أجل بناء مشاريع عمل مستقبلية - إنشاء شركة خاصة وشراء بيت - ومن أجل السفر والشراء، ذلك بمعزل عن تسكن من العازبات عند أهلها أو وحدها في الخارج.

تتفق بعض المتزوجات مع أزواجهن على خطوط ميزانية الأسرة العريضة، ويتركن للزوج الحسابات اليومية^(٤٤)، وفضل زوج أن يحمل مسؤولية تنظيم المصاريف والادخار لأن الزوجة تهتم بالحاضر فقط «أعيش كل يوم بيومه». ورفض بعضهن الاهتمام بمالية الأسرة وتنظيمها لان ذلك لا يشكل أولوية مع أنها تحمل هذه المسؤولية في عملها^(٤٥). وتشاركهن الرأي عازبة فلا تفكر بمستقبلها المالي بل بحاضرها «التخطيط الوحيد الذي أقوم به هو عندما يكون لدي مشروع في العمل»^(٤٦). تتميز العازبة والمتزوجة اللتان تعملان في دبي باعتماد الادخار والتخطيط المالي، وتبحثان عن التوازن بين المدخول والمصروف.

يبدو لنا أن هؤلاء الشبابات عموماً سواء خططن على المدى البعيد أو القريب تربين في وضع آمن غير مستقر جعل الحياة الاقتصادية غير مستقرة. ذلك حفزهن على البحث عن الاستقرار المالي والمتعة. لذلك وبشكل عام، هن غير مهووسات بالتنظيم بل يتركن اليوميات في حالة استرخاء. لم تعش بعضهن بسبب ظروف

(٤٣) تقول «أنا منظمة ماليا لأنني شخص محافظ، لا أحب المخاطرة العمياء تحسبا للأيام الصعبة. لكن في الوقت نفسه أحب أنا وزوجي الاستمتاع بحياتنا. أساهم في المدخرات الخاصة بالعائلة ككل. لست مهووسة بالتنظيم المالي، لكني احرص على ادخار مبلغ لتخطيط مستقبلي مع زوجي ومستقبل أولادنا الذين سنرزق بهم. نحن الآن نتعب ونعيش حياة صعبة قليلا لأنني أراه فقط في نهاية الأسبوع، ذلك لأننا بنينا مستقبلا ونخطط لحياة أكثر راحة لنا، أقله ان نعيش سويا في البلد نفسه».

(٤٤) تقول «بالنسبة لي اعرف ان كل شيء معي هو لي ولأسرتي وأصرف دون أن احسب. زوجي لديه منطقتي مختلف تماما والحمد لله. هذه هي المسؤولية الوحيدة التي لا اعرف حملها ولا أحبها».

(٤٥) تقول «لا اكترث بالغد، هدفي دائما أن أتطور وأطور عملي فلم أضع مرة واحدة في حياتي هدفا وقلت لنفسني سوف أحققه في فترة محددة. أعيش يومي بكل بساطة».

(٤٦) تقول «أحب أن أصرف، أن أعيش، لا أفكر، لا أدخر، هذا سبب أساسي يجعل زوجي «يجن»!! ليس لدي مشكلة أن أصرف كل ما معي وان أعطي الآخرين. لكن بالنهاية ستعيشين مرة واحدة».

الحرب في تنظيم فكل شيء رهن ساعته، هؤلاء يجدن صعوبة في الادخار إذ تعودن على المفاجآت التي تقلب التنظيم والذي ينجم عنه الإحباط المعنوي والمادي^(٤٧). أمهات اليوم غالباً ما يخططن لمستقبل أولادهن ويقلقن بشأنه، ذلك على عكس أمهات الشابات اللواتي تربين في الحرب^(٤٨). يعود التخطيط إلى التربية الأسرية والمدرسية وقيم التنظيم التي تؤكد عليها والدخول المبكر إلى عالم العمل الذي يعرف معنى المال ومعنى الادخار ودوافعه وتأمين الاستقرار النفسي والاستقلالية وتأمين المستقبل والإحساس بالمسؤولية تجاه الذات والعائلة وتنفيذ أحلامهن المهنية والزوجية. أما أسباب غياب التخطيط فهي تعود إلى التربية العائلية في ظروف الحرب وعدم الاستقرار وتهديد الحياة، ودوافعه الاستمتاع بالحاضر والعيش في إطار اللحظة.

فيما يخص الاستثمار، وجدنا مجموعة لا بأس بها من العينة تستثمر أموالها الفائضة بطرق متعددة، منها توسعة أعمال شركتهن وفتح فروع لها خارج لبنان، وابتكار مشاريع جديدة للمؤسسة نفسها أو إنشاء مؤسسة جديدة، وشراء بيت. أما اللواتي يعملن في قطاع الاستثمار المالي والتسويق، فإنهن حريصات على الاستثمار الآمن لأنهن يلامسن الخسارة والربح السريعين في عملهن^(٤٩). ومن عاداتهن استشارة المختصين والمطلعين من الأصدقاء.

(٤٧) تقول «لا أحب أن أعيش حياة منظمة بمعنى انتظر كل شيء بوقته. إذا انتظرت كل شيء في وقته، لا يأتي شيء بلذته. لا أحب أن انتظر، لكن ليس جميلاً أن تكوني مخططة ومنتظرة لكل شيء. أولاً عشنا في الحرب، كنا ننزل إلى الجامعة من الجبل تحت القصف من يعرف إذا كنا سنصل أم لا. وكنا ندرس على الشمعة ونقدم امتحان في اليوم التالي، لأن نصف التلاميذ ليس لديهم الحرب التي نعيشها نحن في منطقتنا. فلم يكن هناك شيء منطقي حتى أعيش بالمنطق. نحن جيل الحرب، لا يمكن أن نقول أنه كان لدينا ترف التخطيط، كنت احسد كثيراً الناس في أوروبا حين أجدهم يخططون للعشر سنوات القادمة، فهذا دليل استقرار ودليل أن لديهم بلد يعرفون إلى أين سيصلون فيه. نحن لدينا حياتنا اليومية فيها لذة طبعاً وفيها مفاجآت كثيرة. فإذا نظمتي كثيراً لا شيء يتحقق منه، بل تحبطني».

(٤٨) تقول «أهلنا لم يقلقوا علينا ولم يخططوا لحياتنا كما نخطط نحن اليوم لأولادنا، ولم يدخروا باسمنا. كنا نقول مع الأيام الله بيفرجها وهكذا حصل. أؤمن بأنه على الأولاد أن يعملوا ويحصلوا على المال ولا يتكلوا على الأهل كي يصرفون عليهم».

(٤٩) تقول «لدي استراتيجية في الاستثمار أنا لا أستثمر غير المال الفائض عن المال الذي اعرف أنني غير مستعدة لخسارته. مجال الاستثمار خطر جداً حتى بعد الدراسة والتخطيط. فالأسواق المالية لا تبني فقط على العقل بل على العاطفة أيضاً وهي متصلة ببعضها البعض، فالمشاكل التي تحصل في مكان آخر تؤثر عليك».

- الاستهلاك ومتعته:

لا تتناقض جديتهن في العمل مع متعتهن في الاهتمام بأنفسهن، فأنوثنتهن واضحة في أناقتهن وفي اعتنائهن بمظهرهن. حين تناولت موضوع الشراء وحاولت معرفة نقاط ضعفهن حيال بعض مقتضيات الأناقة والى أي حد يستهلكن ويضبطن أنفسهن، أشرقت وجوههن وابتسمن كما لو إني تطرقت إلى موضوع أثير ومحبيب ومصدر متعة. لمست التوافق والانسجام في الشخصية، فالأمور المهنية والمالية والاهتمام بالذات تنصهر ببعضها البعض. وتختصر الموقف أصغرهن سنا «ستضحكين الآن. أنا امرأة بالنهاية ولا أحب أن أنسى هذا الشيء مع أنه في العمل أحب أن أكون مثل الرجل، ولكن أحب أن أحافظ على أنوثتي كثيراً، فأنا أصرف كثيراً على ملابسي وحقائبي «والكريمات»، أحب أن أكون دائماً طالعة حلوة ومرتبة».

يلعب المزاج دوره القوي في الشراء صعوداً وهبوطاً^(٥٠) «أحياناً نضبط أنفسنا، وأحياناً كلا، لكن لا مبالغة لأنه لدينا مسؤوليات». وتقر إحداهن بحبها للموضة «ولأني في المجال الاقتصادي، أجرب أن أحرص على شراء الأشياء الحلوة وعلى الموضة، والباهظة الثمن، لكن بأسعار مخفضة». وتعترف واحدة أنها بحكم عملها في تسويق الماركات لا تشتري إلا الماركات المعروفة «انظر إلى شخصية هذه الماركة وقيمتها ولا أشتري التقليد بتاتا». وتستخدم أخرى تعابير الحب لتوصيف رغبتها في الصرف على ثيابها «أصرف بشغف وحب أي بجنون دون أن أتأفف، اتبع إحساسي وقلبي كثيراً». بعضهن اعتبر الأناقة عدة مهنية «الأناقة جزء من عملنا والصرف على الأناقة هو أيضاً استثمار في مركز». انه يفضي إلى ارتياح الزبائن «لا أحب أن أذهب إلى العمل بعقلية أنني ذاهبة فقط لأشتغل، أحب أن أكون مرتبة، خصوصاً عندما أذهب إلى اجتماع، كي يرتاح الذين يتعاملوا معي، فعندما يجدون أمامهم شخص مرتب تتغير نظرتهم». كما يفضي إلى الراحة النفسية الذاتية «لا أستطيع الذهاب إلى العمل إلا إذا كنت طالعة حلوة لأن نفسياتي تتعب. أحس أنني أستطيع أن أعطي أكثر».

(٥٠) تقول « إذا كان مزاجك سعيداً تريدين عندها التعبير بالشراء، وإذا كنت متضايقة وتريدين شيئاً تفرجين فيه عن نفسك تشتريين أيضاً، لكن علينا أن نضبط أنفسنا». وتؤكد على هذا الأمر شابة أخرى في قولها «لدي «فنعات» كثيرة أشتري شيئاً لست بحاجة إليه لأنني اليوم في مزاج حلو وعلى بالي أو وقعت عقداً على مشروع فيبدأ الصرف أو أكون مضغوطة فيأتي على بالي الشراء».

ثم اعترف بنقاط ضعفهن، الأحذية وحقائب اليد^(٥١) ومن بعدها الثياب والماكياج، وبعضهن وسع نطاق الشراء دون تحديد «لست متعلقة بشيء، الحلو أشتريه»^(٥٢). وبعضهن على العكس تماماً عبرن عن الاتزان في الاستهلاك «أتعب عندما يبالغ أحدهم. لا يعود الإنسان لديه قيمة للأشياء».

هن في معمعة الاستهلاك الذي يطغى على عيشنا، لا يمكنهن الابتعاد عنه إنما التحكم به، إذ يعتبرنه مكافأة على جهودهن^(٥٣) «أريد دخلاً وأريد أن أبسط نفسي». الصفة الغالبة في الشراء هي المتعة الذاتية والتمتع بنتائج عملهن، إذ سرعان ما يستدركن ويلجمن الميل إلى الإسراف ويضعن حدوداً له عن طريق الادخار وتأمين بيت ومستقبل الأولاد والاستثمار في المهنة^(٥٤). هن مسؤولات عن أسرهن لذلك من أولويات المتزوجات الأولاد^(٥٥) وهن على وفاق مع الأزواج حول الصرف.

٦- المال وحياتهن الخاصة

أردنا التعرف إلى أوجه العلاقة والروابط بين تحصيلهن المال وحياتهن الشخصية على مستوى علاقتهن بالأسرة والرجل، وعلى موقعهن في هذه العلاقات ودورهن. وتبين مدى تأثير النجاح المهني والمالي على موقعهن ودورهن.

لا تختلف قواعد اختيار الشريك عند المتزوجات والعازبات، ترى العازبات أن اختيار الشريك لا يتم على أساس ما يملكه من مال. حين يشح المال بين المتزوجين يتسبب بالمشاكل بينهما، لذلك اخترن التحصيل الكافي للمال كي يعشن في وئام. وان لم يملك المال الكافي فلن يتوقفن عند ذلك، لامتلاكهن له^(٥٦). إذا، شرط الزواج

(٥١) هذا الجيل معلق بحقيبته ومغروم بطرازها وجمالها وماركتها غالباً، مع انه لا ينظر خلال عمله لمحتواها المالي، بل يطمئن الى وجودها الى جانبه واحتوائها لمذاته وخصوصياته، وكانها عنوان الأناقة المكثف.

(٥٢) تضيف قائلة «في لحظات أسير في الشارع لا انوي الشراء، لكني أعود بكياس كثيرة، أقوم أحياناً ببعض الجنون وحتى امنع نفسي عنه لا اخرج بتاتا إلى السوق».

(٥٣) تقول «أنا دائماً اكافيء نفسي بسفرة مثلاً أو بشراء حقيبة يد جميلة فأسخر على نفسي لكن بوعي».

(٥٤) توقفت احداهن عن السفر وشراء حقيبة شانيل لمدة عام من اجل تأثيث بيتها الذي اشترته.

(٥٥) أي تأمين التعليم والسفر والأنشطة الرياضية والفنية والتثقيفية وشراء الكتب، الخ.

(٥٦) تقول «من الممكن ان يكون فنانا ولا يقدر ان يحصل المال ولكنه يعجبني وأحبه. المهم أن يكون مستقلاً عن أهله».

الحب والإعجاب واستقلالية الرجل واخلاقه ونجاحه المهني وان يكون من مستواها الوظيفي أو أعلى.

أما بالنسبة إلى الدور المالي للمتزوجات في أسرهن، فتراوحت الأجوبة بين مشاركة عفوية دون تخطيط مع تبادل الشعور بالأمان، وتقاسم المهام. مصاريف البيت على الزوج وعليها الادخار لمدارس وجامعات الأولاد أو يتشاركان كاملاً وبتنظيم. الملفت للنظر أنهم في سعيهن المهني والمالي والزوجي انطلقن من قاعدة أخلاقية صلبة، فكانت معاييرها المرشد في مسارهن المهني والمالي وفي حياتهن الخاصة، وتتمثل ملامحها بتبنيهن مقاييس اختيار الشريك واختيار نوعية الأعمال ونوعية العلاقات. بنين زواجهن على أسس صلبة والعازبات لا تقل صلابتهن عنهن في اختيار الشريك وبناء الأسرة - غالبيتهن يردن الإنجاب - يضعن في الصدارة العناية بالأطفال والتفرغ لتربيتهم، حتى لو كان ذلك على حساب المهنة وتحصيل المال. إن شعورهن بهويتهن الجندرية قوي دون تصادم مع الرجل أو الأهل، بل يعتبرن أن المهنة وتحصيل المال عاملان يدعمان قوة المرأة في إثبات نفسها وحرية مواقفها واستقلاليتها واحترام الرجل لها كمنتجة واحترام حدودها «أنا قريبة جداً من زوجي ومتفقيين جداً وفي الوقت نفسه لدي استقلاليتي في كل شيء بما فيها الرأي وحرية الاختلاف».

أما سمات علاقتهم بالعائلة فإنها اتخذت طابعاً عاطفياً مبنياً على الاحترام والاستشارة والثقة برأي الأهل، لكن استقلاليتهن المالية علمتهن الاتكال على أنفسهن في اتخاذ القرارات المهنية والمالية والزوجية، فلا تكتسب هويتهن طابعاً سكنوياً. وتقوم دينامية التحول على الاستقلال المالي^(٥٧) «بت أشعر أن محلي بالعائلة اكبر، صرنا مثل الأصحاب نتشارك أكثر». ان دينامية العلاقة العائلية تذهب بالاتجاهين وتتطور مع تطور وضع الشابات، فما لم يكن مقبولاً بالنسبة إلى الابنة البكر صار مقبولاً للوسطى أو الصغرى. يركز الأهل على زواج بناتهن بينما الشابات لا يعشن قلق أهلهن «هذا هو جيلهن في النهاية يبحثون عن الأمان ولا ألومهم». إذن غير الاستقلال المالي في نوعية العلاقات الأسرية، فيتشارك الشابات والأزواج مالياً،

(٥٧) «كنا أستاذير أبي في كل شيء حين كنت تابعة له. الآن اخبر أهلي أنني مسافرة أو قررت تغيير عملي. موقفني صار أقوى. والآن بعد ان تقاعد أبي صار يستشيرني لأنني في السوق ولدي معارف واتصالات». تقول.

ويستدرج ذلك المشاركة في جميع المسؤوليات والخطط الادخارية للأسرة وتسيير أعمالها. الأزواج سعداء بمواقع زوجاتهم المهنية ونجاحاتهن. كما أن النجاح المهني والمالي عزز قدراتهن العملية والتنظيمية وزاد من إقدامهن والمستفيد من ذلك إلى جانب الشابات عائلاتهن «لا اعتقد أن هناك أحدا في لبنان في عمري لديه مطاعم فتحها دون أن يرثها». أما بخصوص دورهن في المجتمع فإن المنفعة متبادلة، طالت التغييرات المهمة منظورهن إلى أنفسهن وإلى مجتمعهن، حيث ان تجاربهن الميدانية علمتهن ضرورة التجرؤ على الاستقلال بكل مضامينه: النضج، تنمية الشخصية، أهمية المهنة والمنصب، الثقة بالنفس وبالقيم.^(٥٨)

إن التعليم العالي والمال يساعدان على تقوية شخصية المرأة وعلى استقلالها «لا يجب أن تشعر أنها مجبورة أن تتزوج فقط لتموّل نفسها». يكرمن وظيفتهن ومهنتهن ويحترمنها، غير تقليديات في إدارتهن وغير متحيزات جندرياً، للمراتب والمناصب والمال. ان الصيغ الجديدة المرتبطة بتحديث دور النساء المهني والمالي تقحم علاقات اجتماعية جديدة مع تمسك بالقيم الأخلاقية ومحافظة على دفاء العلاقات الأسرية والعائلية.

٧ - المال ومساعدة الآخر

أمام هذه التحولات العميقة التي تندرج فيها هذه النخبة من الشابات في مسار التحديث، فإنهن حافظن على خاصية يتميز بها اللبنانيون وهي أخلاقيات العناية بالآخرين، فلولا هذه الميزة لما صمدن خلال الحرب وما بعدها. ساعدن معنوياً ومادياً في تحسين نوعية حياة المحيطين بهن وبطرق مختلفة^(٥٩)، لا مجال لذكرها هنا^(٦٠). وتبين أن حجم تأثير هذا المنحى كبير على شخصياتهن فهو شعور

(٥٨) أما نظرة المجتمع إلى ذلك لا تكون دائماً صائبة إذ تقول «للأسف أسمع لغاية اليوم ناس يقولون لي لما لم تتزوجي ولماذا تفعلين هكذا بنفسك؟ هم لا يدركون ماذا أفعل. لا يسألوني ماذا أعمل ويعتبرون أنني أضيع وقتي في الخليج. لا ألومهم لكني أحب تشجيع البنات ان لا تخشين الغربة لأن البنت التي لديها مبادئ وتربية جيدة في بيت عائلتها لا خوف عليها. وكل قرار تأخذينه بعد تكوين الخبرة والاستقلالية يكون صائباً»

(٥٩) تضيف «كنت أذهب إلى مناطق فقيرة وأساعد المحتاجين، ويشعر الإنسان بالرضى حين يعطي محتاجاً شهادة أو ماكينة ليعمل عليها».

(٦٠) تقول «كنت كلما مررت بجانب المستشفى أقول لا أستطيع الدخول اليه قويت قلبي ونزلت. تكلمت مع المسؤولة وعبرت لها عن رغبتني في التطوع وأنني شاطرة باللغة الفرنسية يمكنني تعليم الأولاد.

بالوجود النافع للغير والمفيد، ومصدر سعادة متبادلة مع الآخر، ومصدر راحة نفسية لأن المساعدة مهما صغر حجمها تشكل ضرورة عند المحتاج، فالعطاء من طبائعهن. يعود هذا الاندفاع في مساعدة الغير إلى التربية الأسرية والتربوية المدرسية التي تحت الطلاب على خدمة المجتمع، وبفعل الأمومة أيضاً «عندما أصبح لدي أولاد كل شي تغير في». وأردنا التوقف عند الجانب الإنساني من سلوكهن لتبين أساس هويتهم وقوامها الصامت، فالآخر هو المرأة التي تستشعر فيها الذات الفردية نفسها وهويتها شعوراً واعياً. تبين لنا أن نجاحهن المهني والمالي مبني على قواعد أخلاقية رصينة لا يحدن عن أخلاق العناية ولا يسترسن في نرجسيتهم. فرافق حدثهن تبنياً للجانب المشرق من ثقافتهم المحلية وتميزن بالوضوح الفكري وعدم الخلط بين المستويات المهنية والأخلاقية، بل جسدن توازنهما.

نتائج الدراسة ونقاشها

١- انه جيل جديد لديه إدراك خاص لحياته ولدوره وإنتاجه، نابع من بيئته الثقافية الاجتماعية الاقتصادية ومن وضعيات وميول خاصة. جيل الشباب لا يعيش الخوف والتردد من هويته الأنثوية^(٦١)، قادر بدعم كبير من أهله على إثبات ميوله وقدراته. إدراك نابع من عوامل عديدة، أهمها التغيرات الاجتماعية الاقتصادية التي واجهها المجتمع اللبناني اثر الحروب والنزاعات السياسية، والتي تجسدت بأزمة اقتصادية خانقة مما دفع الشباب إلى الهجرة بعد هجرة العائلات، وحديثاً وفي

صرت أرتاد المستشفى يوميا وأصرف بين ساعتين وثلاثة لأعلمهم الفرنسية. إنها تجربة قاسية أحيانا تشعرين انك غير سعيدة بحياتك مع انه لديك كل شيء وصحتك جيدة وأولادك بخير، فما الذي ينقصني؟ حين ذهبت إلى هناك أحسست إنني جبارة فقلت لنفسني كيف أؤتمر وأنا أعيش هذه النعم؟ هذا ساعدني كثيرا كما ساعدت الأولاد وتعلقت بهم.»

(٦١) عدنا في هذا الإطار الى دراسة الزميلة عزة شرارة بيضون، الرجولة وتغير احوال النساء، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٧، ووجدنا ان افتراضها من ان «الرجال الملزمين بالأدوار النمطية التي رسمها لهم المجتمع، هم أكثر ميلا لتبني موقف تقليدي من أدوار النساء ومن قضاياهن من أولئك الذين تجاوزوا هذه المنمطات. وافترضنا أيضا، انه كلما تماهى هؤلاء بأدوار الرجال النمطية، واستبعدوا «الأنوثة» من صورتهم لذواتهم، ازداد احتمال البحث عن شريكة لهم أشبه بالمرأة التقليدية، والعكس بالعكس» فوجدنا في عينتنا التي لا يمكن التعميم من خلالها للدراسة حدود واضحة، ان هذا الافتراض يصح الى حد كبير على آباء وازواج وأصدقاء وزملاء العمل لهؤلاء الشباب. وهذه سمة من سمات التغيير في المجتمع اللبناني التي تطال النخبة المتعلمة والمتقفة والتي تنتمي الى الطبقة الوسطى بمختلف تدرجاتها.

الألفية الثانية بدأت هجرة الشابات، فازداد الطلب على عمل النساء في عالم غير مستقر عموماً. أتت التغيرات على شكل تجارب معيشة وليس على شكل تشريعات وقوانين تحبذ عمل النساء وتشجعه أو تضع استراتيجيات تحقيقه. بل إن الأزمات الأمنية والاقتصادية أفضت إليه، إضافة إلى تشجيع أسرهن على التعليم والعمل.

٢ - تنتمي الشابات إلى عائلات متعلمة وأمهاتهن متعلمات وبعضهن عاملات ومحبات لتعليم الإناث ومجتهدات لتحقيقه. أمهات كَوْنٌ أسراً غير تمييزية، فحققت التوازن الجندري في تربية البنات. تنتمي الشابات إذن إلى أسر حديثة، وتعملن في مؤسسات حديثة لها علاقة بالعلومة الاقتصادية والتكنولوجية. وهن لا يحملن موروثاً تمييزياً بحقهن على كاهلهن على مستوى التعليم والعمل والسفر، بل منخرطات في التقاطعات بين القوى الاجتماعية والاقتصادية في إطار العولمة، لديهن فرص لم تتح لجيل النساء السابق عليهن «هذا جيل متطور عنا، جيل محظوظ، فالثورة في مجال المعلوماتية والاتصال لم تكن متاحة لنا. انه جيل قوي ولديه العدة»^(٦٢).

هكذا كان دخولهن في الحركة الاقتصادية دون احتجاج بل بشكل ناعم وتدرجي - يركز الانتباه على عدم انخراطهن السياسي ومقاومة هذا الميدان لوجودهن^(٦٣) - ويبدو ان الشركات والأعمال الخاصة في لبنان والبلدان الخليجية تفتح أبوابها لهن لينخرطن في خدماتها أو لإنشاء شركاتهن الخاصة، فيتموضعن في الحركة الاقتصادية. لكن دخولهن إليها ولغاية اليوم لم يقلب بعد أبوية الأعمال. المؤسسات التي يعملن في إطارها أو تلك التي أنشأنها لحسابهن الخاص هي مؤسسات حديثة^(٦٤) لا تملك ميراثاً تمييزياً بحق النساء. لذلك لا يضعنها موضع

(٦٢) خبيرة في الاستثمار في دبي ولبنان تنتمي إلى عينة الأكبر سناً وسنها ٤٧ سنة. إن أقوالها تظهر تسارع وتيرة التغيير بالنسبة إلى عينتنا.

(٦٣) Maniere de voir. p.35.

هذا ما يحدث أيضا في بلدان أخرى مثل فرنسا.

(٦٤) تنبه صاحبة شركة سلسلة مقاهٍ وسندويشات لها فروع في العالم تتجاوز ٢٥٠ فرعاً، إلى افتقار لبنان إلى مؤسسات حديثة إضافية، كي تدخل الشابات في إطارها فتتغير عقليتهن ويتعلمن ممارسة المهنة وفق قواعد مؤسساتية، «فالمؤسسات ضرورة للتدريب والتطور وهذا ما نفتقده في لبنان». وتشير من ناحية ثانية إلى ان التربية في البيت تعطي القيم والنظر إلى الحياة من زاوية معينة، لكن المؤسسة يعول على النساء دخولها كي يتطورن في الأعمال ويتدربن على الإتقان والانفتاح والعمل الجماعي.

التساؤل بل جلّ همهن النجاح في الانخراط فيها وتطوير أعمالها وتطوير قدراتهن فيها، وجعل حياتهن وحياة أسرهن أفضل، وتحقيق كفاءاتهن وإبرازها دون استبطان تصورات ومواقف تمييزية بحقهن فثقتهن بأنفسهن عالية. لا نرى تفاوضاً بين منحيين تقليدي وحديث، ولا يواجهن تفاوضاً كجيل جديد، لمعنى نواتهن أي هويتهن في هذه الظروف المستجدة. انه جيل متوازن غير منخرط بالحادثة بشكل أعمى، تسلح بالعلم والمهنة والوعي الثقافي الذي جعله إلى حد كبير يتقن التوازن، لكنه توازن من نوع جديد: عمل ومال وتكوين أسرة، وعلى ذلك يصعب تصنيفهن محافظات أو متحررات ليبراليات! فإدراكهن ومنطلقاتهن هجينة. المؤسسات الجديدة في تربيتها المميّزة للبنات، وإعطائهن حريات اجتماعية في بيوتهن قبل مغادرتها للعمل وللزواج جعلهن بمنأى عن التناقضات التي تميز بها جيل أمهاتهن أو الجيل الذي سبقهن في الأعمال. ابتكرن هوية متوازنة، لا يشكين من القلقلّة وعدم توقع مستقبلهن فهن مستعدات لصروف الدهر لأن تطلعاتهن غير مضمونة إلى حد كبير. استدخلن حقوق النساء والديمقراطية في التعامل معهن، فعدم التمييز الجندي ينظرن إليه كحق مكتسب وليس للتفاوض. تعرف الزوج إليهن وهن محققات أنفسهن علمياً ومنخرطات في المهنة وتحصيل المال و مستقلات اقتصادياً. إذن الأسرة والجامعة والمدرسة الخاصة والسفر للعلم والعمل والتثقف، عوامل جعلتهن في منأى عن الصراع حول الهوية الأنثوية والعيش في موضع قلق بين الحداثة والتقليد. فمع انفتاحهن على الحركة الاقتصادية العربية والعالمية ومع عدم الثبات والقوة الاقتصادية في لبنان فان علمهن وعملهن والثقة بالنفس والقيم المهنية التي حصلنها والإطار الأسري الذي وازن في تربيتهن، كان ذلك بمثابة الضمانة لهن كي يخضن مغامرات العمل والأسواق. غيرت المؤسسات الحديثة والممارسات حياتهن بشكل بيّن، ولم يكن التغيير صدامياً بل أتى متسلسلاً دون صدمات. يمثلن شعلة نخبوية سوف تفتح الباب إلى المزيد من نمطهن.

٣- لم تسر على خطى الأمان المالي للأهل ولم تعتبره نموذجاً للاحتذاء، بل رحن صوب تطلعات أخرى، فتجاوزنه نحو آفاق أكثر انفتاحاً على طموحاتهن.^(٦٥) ذلك لان طموحهن يتقدم على طموحات أهلهن، ولأنهن عشن في عدم استقرار مالي

(٦٥) هذه النتيجة أتت معاكسة لما وجدته يمانى في دراستها الميدانية حول الشباب السعودي من حيث كونه معجب بالأمان المالي لأسرهن، ص. ٥٠.

وامني خلال الحرب الأهلية وما بعدها. لذلك رحن نحو الامتحان الرفيع والمتقدم والحديث لتأمين استقرارهن المالي. فكان التعليم المميز والمهنة الحديثة هما مفتاحا تأمين الاستقرار المالي. دفع الأهل بناتهن الى الاستفادة القصوى من التعليم والتدريب المهني، ومن المعروف ان التعليم يؤدي إلى وجهات نظر مختلفة ربما تكون مقلقة للأهل، لكننا نجد ان المؤسسة العائلية تبقى مفتاح المرجعية الأخلاقية. اعترفت الشابات بدور الأهل الأساسي والأولي في تكوين شخصياتهن وبلورة طموحاتهن. لكن الأسرة على أهمية دورها لم تبقى المصدر الأساسي لتحديد تخصصاتهن وميادين عملهن. والفجوة بين الأهل وأولادهن ليست على مستوى القيم إنما هي على مستوى التكنولوجيا وتطورها والتخصص بها والاستثمار المالي. الشابات واعيات لمتطلبات أسواق العمل ويعملن على التوافق معها دون إلغاء رغباتهن وتطلعاتهن. تتقاطع رغبات الأهل وتطلعاتهم مع رغبات بناتهن ويتشاركون في الحراك الاجتماعي الذي يؤمن الاستقرار. ونرى ان الهرمية في الأسرة قد تغيرت ان كان على مستوى دور الأمهات والآباء، أو على مستوى الخيارات وبسبب التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية وفرص البنات للاطلاع على مستجدات العولمة أكثر من الأهل. نرى أنهن تجاوزن التعلم للتقني الاجتماعي وذهبن ابعد إلى الترقى المالي، فالدخل في المنافسة المعرفية هو من اجل الدخول في المنافسة المالية. إذن التربية والمهنة رفعا من وضعية النخبة التي تجاوزت المتعارف عليه سابقاً من ان النخبة تتشكل من إطار اسري متمكن علمياً واقتصادياً واجتماعياً عبر الوراثة والممتلكات.

٤- بينت المقابلات ان أشكالاً جديدة من التفكير تتعلق بالجنود ودور النساء في لبنان تظهر بين الشابات وأقرانهن وزملائهن من الرجال. فالمتوقع والممارس نابع من الفكرة نفسها وهي حق النساء في العلم والعمل وتحصيل المال وعلى الكفاءة والسوية نفسها. نادراً ما تبين لهن تمييزاً بحقهن في التعليم والعمل أو في الأسرة حتى مع ان بعض أمهاتهن ربات منزل إلا أن هؤلاء دفعن بناتهن ليكن مختلفات عنهن. فلا المهن التي اخترنها ولا الأعمال التي خضن فيها كانت محدودة بجنسهن كأشغال ملائمة للنساء تقليدياً. هن واقعيات في خياراتهن وذلك يشير إلى ان الواقع هو على هذه الصورة. أي انه لا مجتمع بطرقي يحد من طاقات الشابات ولا نذكر يناهضون حقوقهن في العمل وجني المال عموماً. والسبب برأينا يعود إلى التغيرات الاقتصادية محلياً وعالمياً التي أتاحت فرص الخوض في تخصصات حديثة

والعمل في مؤسسات حديثة. في هذا المناخ المتغير لا بد أن هناك حدوداً جندرية جديدة سوف تتولد. لا يوجد تنافر بين تعلمهن وتربيتهن وعملهن أي بين ما يردنه والمتوقع منهن. فالتحسن المالي الملحوظ للشابات هو مصدر اطمئنان للأهل أو للزوج ومصدر مهم لتقوية مالية الأسرة وتأمين استقرارها ورفاهيتها. حيث نلاحظ الاهتمام العام بنوعية الحياة والتي لم يعد بإمكان الرجال وحدهم تأمينها، فالمطلوب التشارك المالي لتحقيقها. هكذا بدأت من مكان مستقر لا يحمل قلقاً على هويتهم ودورهن الاجتماعي والأسري ولا يفاوضن عليه. عامل آخر ساعد في ذلك هو ضعف الدولة وضعف جهازها ووضعها الاقتصادي ذلك ابعد الشابات عن العمل في إظهارها الذي يحد من الطموحات ويديني سقف الاستقلال المالي عن الأهل أو الزوج. النساء هجرن الدولة واعتمدن على أنفسهن وبدفع من ألهن. لذلك فان دينامية العلاقة بين الشابات والشباب اتخذت أشكالاً جديدة، وتغيرت السلوكات فنحن لا نجد في عينة الشابات الناجحات، امرأة تعمل في لبنان وزوجها يعمل خارجه—كما كان الحال سابقاً، بل نجد زوجين يعملان في بلدين خليجيين مختلفين ويلتقيان في نهاية الأسبوع. لقد غيرت الشابة في وسائل تحقيق دورها في البيت كأم مسؤولة عن الأولاد أو كزوجة يحتم عليها دورها التقليدي إدارة البيت والزوج. فأبقت على هذا المقياس إلا أنها ابتدعت وسائل تعويضية لانجازه.

٥- جميعهن تعلمن بهدف اكتساب مهارات وتحصيل مهنة محترمة تمكنهن من الاستقلال المالي. حتى اللواتي عملن لفترة في مؤسسة العائلة التجارية فإنهن سرعان ما حققن انفصالهن وأسسن أعمالهن الخاصة. وتبنين مفهوم الخيار الذاتي بعد تعرضهن الثقافي لعوامل مختلفة وقيم ثقافية مختلفة عبر الدراسة في مدارس وجامعات أجنبية، حيث تسلحن بأدوات تحليلية وأسس فكرية نقدية تمكنهن من تحقيق ما يصبون إليه. تغيرت إذا، المعيارية الثقافية والاجتماعية اثر التحولات المحلية والعالمية التي تحدثنا عنها سابقاً، فلم تعان هذه النخبة من إجبارها على تأطير تطلعاتها وخياراتها في إطار معايير مربكة لا تتماشى مع تحصيلهن العلمي والثقافي، بل اتسمت بالمرونة ورسمت توقعات وانتظارات منهن جديدة، ورفعت مستوى متطلباتها العلمية والمهنية والمالية منهن.

٦- أرست العولمة سلطة المال، لكن دلالات المال عديدة حسب علماء النفس أهمها الإحساس بالأمن، الشعور بالقوة، الحب، الإحساس بالحرية. كثيراً ما يكون

الإحساس بالأمن النفسي الانفعالي نتيجة للشعور بالأمن المادي الاقتصادي، إذ يمثل المال رمزاً للوقاية والحماية من تقلبات الزمن ومعادلاً للأمن والإحساس بالثقة والكفاءة وان «قوة المال لا بد ان تستند إلى ركيزة تكمن في صميم بناء الشخصية وتدفع بالفرد في كل لحظة إلى إعادة تنظيم توازنه النفسي بحيث لا يدع لقوة المال أن تسيطر على سلوكياته وأفعاله».^(٦٦) لكن هذه النخبة من الشباب أدركت ان المال قوة ليس بمعنى التسلط على الآخرين لإخضاعهم، وإنما بمعنى التمكين الذاتي وتمكين أسرهم وعائلاتهن والمحيطين بهن. وأدركن أنهن على قدر هذه القوة وبإمكانهن تحقيقها بإمكانياتهن العلمية وقدراتهن الشخصية وبمؤازرة أهلهن وصدقاتهن. إنها دينامية اجتماعية متواصلة دون انقطاع تعمل على تبديل الدلالات وتكييف المعايير ومراجعة بعضها. أعطاهن المال حرية تنظيم حياتهن المهنية والاجتماعية وجملة علاقاتهن، لكنهن لم يستخدمنه كإرادة مطلقة، إنما خفف وطأة الضغوط والقيود التي تمارس عليهن في العمل والمنزل أو في العلاقات مع الآخرين، وأعطاهن الدافعية والتصميم. فالمال يمثل قوة دافعية كبيرة لارتباطه بالعديد من الوسائل والأدوات والخدمات والبضائع وقدرته على احتوائها وشراؤها. فالمال قد يكون وسيلة لإرضاء عدد من الدوافع الفطرية والمكتسبة معا.^(٦٧)

٧- إن العوامل الثقافية والدلالات الرمزية تؤدي دوراً كبيراً في تحديد الاتجاهات النفسية نحو المال، ودور المال في التعبير عن القيمة وكذلك أساليب الأفراد في التعامل معه. ليس المال مجرد أداة اقتصادية لشراء السلع، أو معياراً للقيم المادية بقدر ما هو أيضاً قيمة انفعالية نفسية واجتماعية. وعلى هذا الأساس فإنه يزيد من فعالية الذات في مجال إنتاج الدوال وتوجيه المدلولات. هكذا وجدن نزعتهن إلى العمل الإنساني فلم يبعهن المال عن الإحساس بالآخر وببؤسه بل على العكس تماماً، جعلن المال يقرب المسافات بينهن وبين المحتاجين مادياً ومعنوياً وقربهن إلى المساهمة في إزالة بعض آثاره. حكم سلوكهن المالي هنا العادات والتقاليد والمعايير الاجتماعية التي تعلي من شأن التآزر الاجتماعي والتعاقد المالي وفق صيغ تقليدية مثل الزكاة أو حديثه مثل التبرع بنسبة معينة من الأرباح لصالح جمعيات.

٨- شكل انحيازهن إلى استقلاليتهن المالية منحى عقلانياً يتصدى لتخلف

(٦٦) سيكولوجية المال ص. ٥٧.

(٦٧) المرجع نفسه، ص. ٤٩.

القوانين الوضعية العائلية والزوجية في لبنان، وهو دليل نضج وخبرة كسبها من مصادر متعددة كما أسلفنا الذكر. إن كسب المال بالجهد والتعب والحق صنع منهن شخصيات متزنة نفسياً تؤمن أن الأولوية تعود إلى الاجتهاد والمثابرة والمسؤولية وحرية القرار والوعي الخلاق لما يدور في العالم والتقاط المستجدات، ثم العودة إلى الذات كي تقرن كفاءتها وجهدها بتحقيق سعادتها الداخلية وسعادتها باللقاء مع الشريك. صنعن المال وجعلنه حرزاً للوقاية من صروف الدهر ولتسهيل متطلبات العيش والزواج. فلم يتحول المال إلى معادل للبضائع، بل شكل رمزاً لبناء منصة انطلاق نحو تحقيق طموحاتهن المهنية والمؤسسية والإنسانية. وهي بمجملها تدور في فلك البحث عن السعادة والمتعة. وتبين أن شعورهن بالسعادة لا يدور في محور بعينه حتى لو كان المال. بل إن السعادة حاصل جمع الأحداث الحياتية الايجابية في الأسرة والزواج والأبناء والأصدقاء وشتى العلاقات الاجتماعية وفي الصحة والتعليم والعمل ووسائل الراحة والرفاهية وكذلك في الشعور بالاستقلالية وتحقيق الذات. والحق إنهن عملن على تنمية الجوانب الايجابية مثل الإحساس بالرضى العام وتحقيق الذات واتخاذ القرارات الملائمة والشعور بالأمن النفسي والتفاؤل والتوافق الزوجي. يحقق المال قدراً من السعادة^(٦٨) لكنه لا يمثل السعادة المطلقة لأنهن ينشدن الحب والانجاز والثقافة والحرية والنجاح. أما الملاحظة الثانية فهي علاقة السعادة بالمال والتعليم^(٦٩). إن خبرة التعليم ومزايا الوظيفة لدى خريجي الجامعة تحررهم نسبياً من المطالب والحاجات المادية، وتجعلهم يركزون أكثر اهتماماتهم نحو العلاقات الاجتماعية وقيمة الذات. فكلما كان الأجر مرتفعاً كان الفرد أكثر شعوراً بالرضى عن العمل وأكثر تقديراً للذات وأكثر شعوراً بالسعادة.

٩- إن تفضيل الأهل أولادهم على أنفسهم انتج هذه النماذج من الشباب الناجحات، لذلك نرى ان دور الأخلاق كبير في نجاحهن. فحين يكون الأهل إلى جانب أولادهم ودافعين لهم للتقدم والخوض في الحياة من مختلف جوانبها العلمية والمهنية

(٦٨) المرجع نفسه، ص. ١٨٩.

«تبيين دراسة ان ارتفاع الدخل يرتبط بالمشاعر الايجابية وان المال قد تكون له القدرة في بعض الأحيان على تخفيف حدة بعض المشاعر السلبية مثل الخوف والقلق والتوتر واليأس والعناء. كذلك يمكن للمال ان يؤدي إلى ارتفاع الشعور بالسعادة بفضل ما يوفره من إمكانيات للإنفاق على وسائل التسلية والترفيه والراحة.»

(٦٩) المرجع نفسه، ص. ١٩١-١٩٣.

والمالية، فان الأولاد ينسجون قيمهم على منوال الأهل، لان هذه القيم حاضرة في حياتهم ومحملة بمشاعر ومشحونة بالانفعالات التي تسهل نقل المعايير. ويبدو أن التغيير بوتيرة سريعة يطال القيم المحملة بالمشاعر، إذ يبدو ان الأهل يعولون حالياً على المساواة الجندرية بين أبنائهم وبناتهم، بالطبع عند هؤلاء الأهل الذين اعتمدوا على قيم الجدارة والمسؤولية في تحصيل المال ولا ينتمون إلى فئة الأغنياء الجدد. فنرى أن الأهل يحبذون نجاح بناتهم المهني والمالي كما يحبذون زواجهن.

١٠- إن التحولات المشار إليها تفيد أن مستقبلهن مفتوح على مزيد من التطورات والطموحات المستجدة، فمنهن من تخطط لمشاريع تحبها مثل فتح مدارس طبخ وآداب المائدة وإنتاج أفلام حول الطبخ «لا شيء مستحيل ولا شيء ينتهي عندي». وواحدة تريد تطوير شركتها وتكبيرها وزيادة رأس مالها، أو التوسع خارج لبنان. وواحدة تراجع تجربتها ولا تدري ان كانت ستبقى في المجال نفسه، الخ. الباب مفتوح على التغييرات بسبب التطور المعرفي والتمكين الذاتي الذي يتم خلال تجربة العمل والذي بدوره يفتح آفاقاً جديدة^(٧٠). إن فتح الأطر يتم عبر الاتصال والوصول إلى المعلومات التي تدفع حدود العالم المتخيل للشابات ويتدخل في إعادة تشكيل التمثيلات التي يصنعنها عن أنفسهن وعن مجتمعهن وأعمالهن، وكذلك في توليد الانتظار والقيم الجديدة. لاحظنا أن أكثرهن طموحاً أكثرهن ادخاراً واستثماراً.

١١- إن نظام القيم الموروثة يتعرض للتحولات في لبنان وهو ما زال بعيداً عن التشكل النهائي، بل هو في مرحلة التوتر والتراوح والتجديد في الوقت نفسه حيث أن الانتماءات المتعددة حاضرة: الهوية الاجتماعية والتفاوض على الفردانية. فالشابات يردن المشاركة في مجتمع استهلاكي وقيمين الجديد ويبحثن عن الانطلاق الفردي وعيش حياتهن. ومع ان مفهوم المال يعود إلى الاقتصاد والمالية لكنه على صلة أيضاً بعلم النفس والثقافة. المال هو أهم عنصر من عناصر النظام الاجتماعي الذي يفرض أهمية التنظيم الجماعي حول الحقوق وهوامات الفرد. المال ليس إلا حجاباً يجب رفعه كي نجد وقائع الغنى والفقر وإشكالية توزيع الثروات

(٧٠) تقول «على الإنسان ان يعمل على نفسه كل حياته، عليه التجريب واكتشاف الذات، إذ من الممكن ان تصلي إلى عمر الأربعين أو الخمسين وأنت لا تعرفين نفسك بشكل جيد ان لم تواظبي على التعرف إليها والى قدراتك. أنا أعمل كثيراً على نفسي، ليس لأثبت نفسي في المجتمع إنما لأمر شخصي بيني وبين نفسي».

والمدخل وديالكتيك الحاجات والرغبات والاحباطات، وعدم التساوي بين الجهد والمال وتأثيرات السيطرة التي تبني الذهنيات والمجتمعات ومصادرتها من قبل الأقوياء وتهميش الضعفاء.

١٢- هن على صورة دولتهن حدودها مفتوحة وفضاؤها مفتوح أي قابلة للجديد ومستوعبة في الوقت عينه لكل الموروث، فالجماعة تهيمن على الأفراد والأفراد ينفرون أحياناً ويستوطنون أجنحتها مرة أخرى. لذلك فان الفردانية متضخمة في غياب مؤسسات فاعلة تدرب على التوازن بين الفرد والجماعة، هذا الوسيط نفتقده في لبنان. يعود نجاحهن إلى فرديتهن ومثابرتهن ولا يعود إلى التدرج في المؤسسات، لذلك فان عملهن النقابي الجديد - تأسيس جمعية تهتم بصاحبات المشاريع المستقلة- يعد عنصراً مهماً في تمكينهن من النجاح. ولأن موضوعنا ركز على نجاحاتهن فان ذلك لا يعني ان التعاملات في لبنان هن على أفضل حال وان الطريق مفتوح لهن للعمل^(٧١)، ولا يوجد تمييز جندي بحقهن في المؤسسات. لكن يبقى أن المجهود الفردي هو محرك التغيير الاجتماعي. يبدو لنا أنهم اخترن المهن الحرة وإنشاء مؤسساتهن الخاصة وطموح بعضهن لتحقيق ذلك، يكمن وراءه أسباب عدة أهمها التمييز الجندي في المؤسسات الخاصة والعامة وتمركز الذكور في المواقع العليا وحصولهم على الرواتب العليا. وهذا يرتبط بتحقيق شروط المواطنة وتحويل الفرد إلى مواطن^(٧٢). اثبتت معادلة جديدة في إطار الظروف المحيطة بهن تتمثل في أن العدالة تتحقق أي الحصول على الوظيفة والمال المناسب لقدراتهن وجدارتهن العلمية والاتصالية والخلقية عن طريق الانتماء إلى أسرة تقدم الحب والاهتمام لبناتها ولا تميز بالتربية بينهن وبين الذكور. وان ارتباط الشابات بأهلهن لم يحل دون استقلاليتهن في الرأي والانفصال عن نفوذهم. ربما علينا تغيير منظورنا إلى فكرة التعلق بالأهل كمرادف لعدم المساواة وان الانفصال هو باب لقوة النساء وحضورهن واستقلالهن^(٧٣). إنها نظرة تبسيطية تجعل التطوير مرادفاً للاستقلال والتعلق عقبة في وجهه، بينما عرفت الشابات عن أنفسهن عبر ربحهن بعداً مهماً وهو الاتصال الغني بأسرهن إضافة إلى تجربة الارتباط والالتزام بالآخرين.

(٧١) انظر دراسة صيداني وآخرين عن المعوقات...

(٧٢) زيدان ص. ٢٨٤.

(٧٣) Zinardi, pp. 483-490.

ملحق

لائحة بموضوعات المقابلة: تجربة النجاح المهني والمالي للشابات اللبنانيات

تمحورت المقابلة النصف موجهة حول ثلاثة مفاصل:

١- بروفييل شخصي:

- الاسم والسن والمنطقة
- الدرجات العلمية والمؤسسات التعليمية التي درست فيها
- مكان الإقامة: في الوطن وخارجه
- مهنة الوالد وشهاداته وعمله
- مهنة الوالدة وشهاداتها وعملها
- ما هو دور الأسرة في إطلاق طاقاتها العلمية والمهنية؟ كيف؟
- من هو الزوج وما دوره في انطلاقتها المهنية؟

٢- المهنة والعمل:

- التخصص
- كيف اختارت هذا التخصص ولماذا؟
- المهنة
- كيف اختارت هذه المهنة؟ ما هي الدوافع؟
- ما هو دور المؤسسات التعليمية في كفاءتها الشخصية والمهنية وفي ايجاد فرص العمل؟
- على المستوى المدرسي
- على المستوى الجامعي
- فرص العمل
- المؤسسة التي تعمل فيها حاليا: مناخاتها وآليات عملها ومدى افساحها المجال لعمل النساء فيها.

- ما هي هذه المؤسسة؟
- هل هناك تمييز بحق النساء في هذه المؤسسة؟
- ما هو حجم النساء فيها؟
- ما هي صعوبات العمل فيها؟ كامرأة؟
- ما هي التسهيلات التي وجدتها في هذه المؤسسة كامرأة؟ العوامل المشجعة؟
- المؤسسة التي أنشأتها لحسابها الخاص: التحديات والصعوبات وفرص النجاح المهني
- كيف هي علاقتها بالسلطة؟
- على مستوى المؤسسة العائلية
- على مستوى المؤسسة المهنية
- هل تحب السلطة؟
- ما هي مواصفات شخصيتها في المهنة؟ الثقة في النفس؟ الجرأة؟ اقتحامية؟ صدامية؟ نظامية؟ الخ.
- كيف تنظر إلى مستقبلها؟ ما هو أكثر ما يهملها في مستقبلها الشخصي:
- النجاح المهني؟
- فرص العمل؟

٣- النجاح المالي:

- ماذا يعني لك المال؟ ما هي دلالاته؟ ما هي قيمته؟
- هل المال بالنسبة إليك هدف بحد ذاته؟ الأولوية للمال أم للعمل؟ كيف تعيشين وتفهمين الارتباط بينهما؟
- هل تريدين جني الثروة؟
- هل تتدخرين؟
- هل تنظرين صباحا في حقيبة يدك لتعرفي كم معك من المال؟
- هل تضعين خططا للصرف؟
- كيف تصرفين المال؟ على أي مواضيع/أشياء؟
- ماذا تشعرين حين تحصلين على المال؟

- ماذا تشعرين حين تصرفينه؟
 - هل أنت حريصة عليه؟ مبذرة؟
 - هل تستثمرين أموالك؟
 - هل تخططين مالياً وحدك؟ هل لديك من تستشيرينه؟
 - هل المال وسيلة للتغيير؟ أي تغيير نمط حياتك وحياة الآخرين؟
 - ما هي أهمية مشروعك الخاص مالياً، لك ولعائلتك؟
 - ما هي خططك من أجل الحصول على المال؟
 - علاقتك بالمال وارتباطها بالرجل والشريك
 - هل التمكين المالي والمهني يجعل المرأة أكثر قوة وحرية؟
 - هل المال سلطة؟
 - هل تقومين بأعمال مالية خيرية أو ما يماثلها؟ لماذا؟
- = تقييم الأكبر سنّاً لتجربة النجاح المهني والمالي للأصغر سنّاً.

المحور الرابع
نساء ومال في الفنون



الحقيبة النسائية

تاريخ ودلالات

كنت لا أزال شابة في ستينيات القرن الماضي، عندما قادني فضولي إلى دخول مسرح الأوديون في باريس لحضور مسرحية صاموئيل بيكيت: «أه أيتها الأيام السعيدة!..»
“Oh! Les beaux jours”

كانت الممثلة الرائعة مادلين رينو، وطوال المسرحية، تبعثر محتوى حقيبة يدها على المسرح لتستخرج منها قصة حياتها. وبينما كانت تغرق أكثر وأكثر في رمال الذكريات وغبار الأيام ووحشة العمر، كانت الحقيبة تطفو وكأنها المحاور الوحيد، وموقع البداية والنهاية في مسار كل المسرحية كما في حياة البطلة ويني.

عندما خرجت من المسرح، رمقت حقيبتني - وكانت مجرد كيس مزخرف بهيبيبة الستينيات - بتعجب الصبا المتعجل وقلت لنفسني: «أكلّ هذا في الحقيبة؟».

وبعدما مرت السنوات وتراكمت في ذاكرتي - كما على مدى أيامي - ذكرى كل الحقائق التي حملتها والتي رافقت أحداث حياتي، طفت على ذهني استغاثات مادلين رينو، واستوعبت عمق العلاقة التي تربط النساء بحقائبهن، آخر حديقة سرية لهن في هذا العصر.

فما الذي يعطي الحقيبة صفة التطابق مع حياة النساء في تمثالاتها الواقعية والرمزية، البائسة والجميلة؟

١- تاريخ حديث:

ان حقيبة اليد هي بالتأكيد امتداد عملي لذراع النساء وأجسادهن. فهي البيت المتنقل للنساء العاملات، هي البطن الذي يخبئ، هي الغرفة الخاصة بأدوات التجميل واشياء النساء الحميمة، هي مخبأ الرسائل والأوراق العابرة، هي بالتحديد المال الخاص، وإمكانية حرية أنفاقه.

فتاريخ الحقيبة النسائية كما نعرفها اليوم، إنما هو تاريخ استقلال المرأة وعلاقتها بالعالم المعاصر، لا بل تاريخها المعاصر في ملكية المال وفي حرية استخدامه، ولذا فهو وإن يعود في بعض مظاهره إلى العصور القديمة، إنما هو تاريخ حديث تجلّى مع خروج النساء إلى الحياة العامة، ودخولهن مجال العمل، وتعاملهن مع مال العصر الذي تحوّل مع تحوّل الأزمنة من ليرات ذهب إلى بطاقات تأمين.

٢- معضلة الأسماء:

ان التسميات تجعل من كتابة تاريخ الحقيبة، كتابة متوزعة، مشتتة ومتفرعة، في اقصاها المختلف عن مهمات هذا «الكيس» ومحتوياته ودوره وطريقة حمله.

وتتنوع دلالات الأسماء بتنوّع وظائف هذا «الكيس» وطرق حمله، وأوقات حمله، ونوعية محتواه، وأماكن حفظه. وتختلف في الغرب عنها في المشرق والمغرب وآسيا وافريقيا، لكنها تتشارك في هوية واحدة: هي تحتوي دوماً على ما نعتبره أساسياً للحياة أو للعمل، على ما نعتبره نادراً وثميناً، أو على ما نعتبره سلطة وسحراً.

في الشرق نجد الصرة، والقفة، والسلة والجراب، والكيس والصندوق والبججة والشقبان، والكشه، والجيب، والحزام والضبوة، والشنطة والجزدان والمحفظة، كما نجد «أكياساً» خاصة للماء مثل القربة والراوي وللزبد مثل الأوكا والدبّا، وللحبوب مثل الميزوده، ولظهر الجمل مثل المزوال والعدل والخرج وغيرها.

وفي المغرب نجد الزبور والعقرب والشكاره. وفي الجزائر نجد الجبيرة والهجر عند الطوارق.. وغيرها من «الأكياس» التي رافقت الإنسان في خروجه وترحاله.

في الغرب، نجد الجيب وكيس الاحسان Aumônière وكيس المعصم Ballantine وكيس الرحالة Baluchon، وكيس الكتف المزدوج Besace والبورصة Bourse للمال والأختام والنذور ونجد الكيس الكبير Cabas وكيس الزنار escarcelle والكيس المخرّم Réticule، وكيس التطريز sac de broderie وكيس الماكياج minaudière وكيس البخيل لصعوبة فتحه Bourse d'avare. والكيس العربي sarrasin المستوحى من الحملات الصليبية على الشرق.

كما نجد حقائب السفر، وحقائب مهن الارتحال، كمهن البحار والراعي والجندي والتاجر وغيرها.. وتوفّر المراجع الغربية للباحث مادة غنيّة بسبب وفرة الدراسات، وغزارة المتاحف، والمجموعات الخاصة التي حفظت «الأكياس» القديمة.

في اليابان نجد بقجة الهدايا Furoshikis، وفي أفريقيا نجد أكياس السحر وأكياس الكلام والأكياس الملونة التي تحملها النساء على رؤوسهن متدلّية حتى الظهر والشبيهة بأكياس المكسيك المقدّسة baluchon التي تحمل على قمة الرأس. وحتى أكياس آلهة اليونان التي تحوي الريح تحمل أيضاً أسماءها فهي Sakkos التي يحملها الإله Eole وهي Besace التي يحملها الإله هرمس Hermes حامى المسافرين والتجار الذي يشفع حتى بالسارقين.

ان هذا الاجتياز السريع لأسماء «أكياس» العالم يؤكد على أهميتها كشواهد انثروبولوجية واجتماعية هامة، تنبئ من خلال اسمها، وشكلها، ووظيفتها عن بيئتها كما عن التطور الاجتماعي والاقتصادي لكل هذه المجتمعات، وبالتحديد من خلال المقاربة والمقارنة في التطابق أو في الاختلاف.

٣- تاريخ «الكيس»:

إذا استنطقنا تاريخ الإنسانية القديم لوجدنا أن تاريخ الحقيقية إنما هو تاريخ انتقالها من أيدي الرجال إلى أيدي النساء، وتاريخ تحوّلها من داخل الثياب إلى خارجها، تاريخ انتقالها من أيدي العمال والفقراء والرحالة إلى أيدي الموسرين، قبل انتشارها و«دمقرطتها» في القرن العشرين، واستتثار النساء بها، واكتنازها للتمثلات النفسية والدلالات الاجتماعية.

سنحاول بسرعة رصد هذا التاريخ من خلال مرحلتين:

مرحلة العصور القديمة، حيث نتعرّف إلى ما تقدمه لنا الحفريات الأثرية

والمتاحف وتاريخ الفنون والحضارات.

مرحلة العصور الحديثة، حيث نتعرّف إلى ما يقدمه لنا التاريخ والتراث والرسوم والصور الفوتوغرافية والروايات والأفلام ومشهد شوارع العالم المعاصر، وشهادات النساء في علاقتهم بالحقيبة.

أ- مرحلة العصور القديمة:

بدأت الحقيبة، مع بدايات الملكية، على شكل كيس يشبه الصرة المشدودة المصنوعة من الجلد أو من القماش. يحملها الرجال وتحتوي على ما يشكّل ثروة إنسان ما قبل التاريخ وسبل بقائه: أحجار الصوان وبعض المأكّل، وربما بعض التعاويذ والحصى.

وإذا استنتقنا الحفريات الأثرية والمتاحف والمراجع القديمة لوجدنا في ما بين النهرين وفي محفورات جدارية في قصر آشور نازربال الثاني، وفي قصر سرجون الثاني صوراً لأشخاص مجنحين يحملون بأيديهم شكلاً يشبه حقيبة النساء الصغيرة المعاصرة، وبينما نجد فقط تمثالاً في تل حلف لإلهة - امرأة تحمل حقيبة، فإن التماثيل التي كانت توضع في أساس المعابد في أور، كانت تحمل سلة على الرأس. أما إلهة الخصب في ماري، فهي امرأة تحمل جرّة يتفجر منها الماء.

وستستعاد تاريخياً - وبكثرة - صورة الرجل حامل صرة الثروة، وبالمقابل صورة المرأة حاملة السلة أو حاملة الجرّة في الشرق، قبل أن تعرف المرأة حقيبة اليد المعاصرة.

في مصر، نجد مزارعاً في رسم جداري من الأمبراطورية القديمة وهو يحمل كيساً معلّقاً برقبته، بينما تحمل امرأة على رأسها سلة القرابين، في مرحلة الأمبراطورية الحديثة.

وبينما يتقدم هرمس عند اليونان حاملاً على طية كوعه كيساً يحتوي رسالة زوس إلى العالم نجد بقايا أكياس وصرر من الجلد حفظت منذ القرن الرابع ق.م. تحت جليد روسيا، من حضارة الشيت.

أما في الحضارة الرومانية، فإننا نجد في محفوره جدارية من القرن الأول م. صورة امرأة تحمل حقيبة تشبه حقائب اليد المعاصرة، ونجد في الموزايك من القرن الثاني م. رسوماً لنساء ترمز إلى الربيع وتحمل سلة، أو تحمل جرّة. ومن

القرن الثالث م. نجد لوحة تمثّل خادماً يتقدّم في خضم احتفال لمصارعة الحيوانات وهو يحمل صينية كبيرة، مدّت عليها صرر المال لمكافأة المنتصرين، وقد كتب عليها رقم المبالغ المالية التي تحتويها.

أما إذا توجهنا إلى الآثار العربية الإسلامية وإلى المخطوطات القديمة، فإننا سنجد بالتحديد في قصير عمره الأموي - من القرن الثامن - رسماً جدارياً لامرأة تحمل سلة وفي قصر الحير الغربي - من القرن الثامن - رسماً لامرأة تحمل منديلاً وكأنه سلة تحوي ثمار الأرض.

وتبدأ الصور الإنسانية بالإنحسار عن الفنون الإسلامية بسبب تأويل النص الديني، ولذا نجد زخرفة خشبية فاطمية من القرن الثاني عشر تمثل رجلاً يحمل سلة على كتفه. وفي مخطوطات مقامات الحريري - من القرن الثالث عشر - نجد صورة فريدة لكان يقف على بابه تاجر مع حمّال يحمل بقجة على الكتف وقد كتب اسمها بقربها وصورة لحمالين ينقلان سلاً على الكتف، وصورة لأبي الحارث في الحج وهو يحمل حقيبة على ذراعه.

وبالرغم من تطوّر العملة الإسلامية وانتشارها، وبالرغم من قصص التجار والخانات في التاريخ العربي، وبالرغم من كتب التاريخ التي تزخر بالأقوال: «فأمر له الحاكم بمئة دينار»، فإن النماذج البصرية للصرّة التي كانت تحتوي على المال والثروة نادرة جداً.

ولو تصفّحنا بتأن كل صور المنمنات الفارسية، فإن «الكيس» الوحيد الواضح إنما هو «جراب» سهام الفارس على متن الحصان.

ثم تنوّع تاريخ الحقيبة انطلاقاً من تنوّع الحضارات والقارات والبلدان، وتحت تأثير الظروف البيئية والاقتصادية والاجتماعية، والدائقة الجمالية.

وعندما افتقدنا في الشرق النماذج التاريخية الباقية تجلّى لنا أن مفهوم الحفاظ على التراث اليوم هو وللمفارقة مفهوم حديث عندنا. ولعدم اهتمام المجتمع العربي بالأدوات اليومية العادية واستنطاقها لكتابة التاريخ، تندر المتاحف التي تحفظها والدراسات التي تهتم بوصفها وتحليلها. فنحن مع رياح الحداثة ومنذ بداية القرن الماضي، رمينا غالباً كل ما كان يذكّر في البيوت، بعيش الماضي وتقاليده. ولم تحفظ إلا الأشياء الثمينة أو الأواني والأدوات التي وعت قيمتها التراثية بعض العائلات.

ب- «الكيس» في الغرب:

لقد طغى التاريخ الأوروبي على النماذج التي حفظتها المتاحف، وأرخ لمراحل تطوّر الحقيبة كما أثر على نشر نماذجها في القرن العشرين.

لذا سنذكر سريعاً في البدء مراحل المتعددة قبل أن نتوقف مع ما توفر لنا من مراجع وصور لرسم تاريخ الحقيبة في الشرق.

من المال المخبأ في طيات الثياب والأكمام، إلى الجيب المخفي داخل الثياب، إلى الجيب الواضح الذي كان يعلّق بالزنار مع المقص والمفتاح، تحول «الكيس» في القرن الثاني عشر إلى ما يسمى كيس الاحسان المطرّز الذي يضيف على حمل المال معنى المساعدة والخير. وكان صغر الكيس مع دقة تطريزه يؤكّدان على انتماء حاملته إلى الطبقات العليا بينما يشير كبر الكيس وطريقة حمله إلى انتماء حاملته إلى الطبقات العاملة.

ثم تنوّعت طرق الحمل، حسب الحجم، والطبقة، والوظيفة، وانقسم تاريخ الحقيبة منذ القرن السابع عشر بين الجنسين، فوضع الرجال أموالهم في جيب ملصق بالثوب لتحرير اليد، بينما وجدت النساء الحل في جيب يشبه الاجاصة ويعلّق على كل ورك تحت التنانير الواسعة المقوّسة.

ولكن مع ظهور موضة ثياب الأمبير في معرض باريس ١٧٩٠، وهي ثياب تنسدل مستوية من تحت الصدر حتى الأورك، ظهرت الحاجة إلى «كيس» من نوع آخر، فظهرت الحقيبة النسائية المحمولة باليد والمسمّاة Réticule. سخرت منها الصحافة وأسماها Ridicule أي المثيرة للسخرية وعلّقت احدى الصحف الإنكليزية على هذا التحوّل: «بينما تغرق أيدي الرجال في جيوبهم، تحمل النساء جيوبها».

ثم تسلمتها الموضة، فطوّرت في موادها وقبضاتها، وطرق فتحها واغلاقها. وفي سنة ١٨٠٥ كانت كل امرأة تخرج من بيتها تحمل حقيبة يد خاصة وقد استوحى شكلها من حقائب السفر المتينة، مع قفل ومفتاح ومقطع داخلي لحفظ الأموال الورقية.

في القرن العشرين أصبحت ماركة الحقيبة وعراقتها، وموضتها، توحى بثروة صاحبها، أكثر مما تفصح عنها، وتحوّلت الحقيبة من اكسسوار إلى حاجة، وظهرت الايقونات الكلاسيكية للموضة عند مصممين كبار مثل فويتون Vuitton الذي كان يصنع حقائب سفر نابليون الثالث، وهرمس Hermes صانع السروح الارستقراطية

الذي استوحى أحجام حقائبه، من الحاجة العملية إليها على الخيل أو في السيارة، وبرادا Prada وغوتشي Gucci وفندي Fendi مع حقائبهم المتقنة التي ازدهرت بسبب قدرتها على التطور والتطابق المرن مع تحولات العالم الحديث.

فبعد الحرب العالمية الثانية، عندما تعذّر الحصول على الجلد، استخدم غوتشي Gucci القماش القطني وأخرجت شانيل Chanel السلاسل الذهبية من تايوراتها، لصنع قبضات حقيبتها الشهيرة في الخمسينات.

كما ظهرت حقائب خاصة للسهرات، كائنات الليل المزخرفة، والحقائب العبثية، والحقائب الأميركية الكلاسيكية المتوافقة مع حركة المرأة العاملة والعصر الاستهلاكي السريع.

وتأثرت أحجام الحقائب وطريقة حملها بحركات تحرر النساء منذ بداية القرن العشرين، مع الحقيبة المعلّقة بين الكتف والورك لتحرير اليد على الدراجة أو في العمل. كما أثرت حروب القرن العشرين وظهور المواد البلاستيكية منذ الثلاثينات وثورات الشباب منذ الستينات، وميل الثوب إلى البساطة منذ السبعينات، على أحجام الحقائب وموادها وأنواعها.

ولقد ارتبطت بعض حقائب القرن العشرين التي تجمع بين النوعية والندرة وعراقة التقنية بأسماء شخصيات نسائية جعلتها من رموز السلطة كما مع مرغريت تاتشر، أو من رموز الجاذبية، مع اللايدي ديانا وحقيبة ديور، وجاكلين أوناسيس وغريس كيلي وحقائب هرمس.

وترددت أسماء وأنواع الحقائب وألوانها ورمزيتها في العديد من الروايات الأدبية في القرن التاسع عشر عند بطلة تولستوي أنا كارنينا، وعند بطلات فلوبيير وجورج صاند. وظهرت الحقائب في لوحات فنية عديدة للدلالة على الثروة، أو الفضيلة، أو العلاقة المريبة بين المرأة والمال والرجال، أو للخيانة مع كيس يهوذا. واستخدمت سينما القرن العشرين في أوروبا المعنى الرمزي والنفسي والواقعي للحقيبة في الأفلام السينمائية. ونجد أمثالاً لذلك عند المودوفوار في حقيبة الموضة في فيلم الكعوب الرفيعة Talons aiguilles وعند ستيفنسون في الحقيبة العجائبية لماري بوبنز Mary Poppins، وعند آنييس فاردا في حقيبة التشرّد في فيلم «لا سقف ولا قانون» Ni toit ni loi وعند هيتشكوك في حقيبة المكتب في فيلم «لا ربيع لمارني» Pas de de printemps pour Marnie.

ج- «الكيس» في الشرق:

العَبَّ: قد يكون المثل الشعبي المتداول «خلي مخزنك عبك» أصدق تعبير عن الموقع الذي كانت تحمل فيه النساء أموالها. وقد أخبرتني سيدة لبنانية مسنة من جبل لبنان أنها كانت حتى خمسينيات القرن العشرين، تخبئ نقودها، حين تخرج للتسوق، في حمالة صدرها، مثلها مثل العديدات من سيدات جيلها، وكانت لا تجد حرجاً في ادخال يدها في عبها لدفع قيمة مشترياتها والتي كانت غالباً من الأقمشة أو مستلزمات الأنوثة من تجار الحيّ الذين يعرفونها.

وقد يكون المثل الشعبي الآخر: «من العبّ للجبية» دلالة على بقاء المال في يد واحدة، ودلالة على موقع أمين ثان لحفظ المال هو الجيب. ويشكل تعليق كيس المال بالرقبة أو تعليقه بالزنار استعادة لموقعي الصدر والخصر في الحماية والخصوصية.

في المقابل، كان الرجل يخبئ أمواله في كيس صغير من الكتان داخل طيات حزامه العريض. هذا الزنار الذي كانت تجارته سائدة ومتبادلة بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين وقد تيسّر لي في بداية ستينيات القرن الماضي أن ألتقي تاجراً من الأشرفية كان لا يزال يورّد هذه الأحزمة إلى الأردن والضفة. وهي عبارة عن قماشة طويلة يصل طولها أحياناً إلى ثلاثة أمتار ويزيد عرضها عن المتر، نسيجها قماش دمشقي مقمّ وملون، يلفها التاجر على خصره وهو يدور يساعده شخص آخر على طيها بعناية وتدرّج، ليخفي في عمق طياتها كيس نقوده البسيط والمكتنز بالمال. وفي مرحلة لاحقة عندما أزال الحداثة ثوب الرجال التقليدي، وبالتالي استخدام هذه الزنانير، أخذت النساء تستفيد من اتساع هذه القماشة التي فقدت وظيفتها، لتخيطها كعباءات واسعة. وربما كان الحزام هو الوسيلة الآمنة لحفظ المال، لالتصاقه بالجسم، عند تنقل التجار في خانات المدن البعيدة. ولذا فإن تعبير «أيدي بزنارك» قد يحمل معنى الاعتماد المادي والمعنوي وحميمية المعاملة.

يظهر هذا الزنار العريض في العديد من محفورات القرن التاسع عشر، حيث نجده فوق الشروال الواسع على خصر أمير من لبنان يعود لسنة ١٨٥٤ وقد علّق به جيب صغير مزخرف، قد يكون علبة للعطوس أو للخردق، أو على خصر الحارس وقد اعتم في خنجر أو على خصر رجل من أحياء بيروت من بداية القرن العشرين وقد لفّه على قنبازه أو على خصر مكاري وهو الوحيد الذي علق بوضوح كيس نقوده.

في العَبِّ، أو في الجيب، أو في الزنار، كان التصاق الملكية أو الثروة أو النقود، بالجسد، عند ملاقاته غرباء في الخارج، ضماناً للحماية والسرّ، وكانت أيدي الرجال والنساء حرّة، غير مجبرة على إظهار الثروة أو الامساك الظاهري بها.

البقجة: وهي غالباً قطعة قماش مربعة، تربط من زواياها الأربع المتعارضة، وتحمل باليد عند موقع العقدة. هي «كيس» عرفته بالضرورة الشعوب في مراحل تطورها، وسيلة سهلة وعفوية وفي متناول الجميع لنقل الحبوب أو الطعام أو الثياب أو الممتلكات الثمينة.

ولكن البقجة عرفت ثلاثة أنواع من التاريخ في العالم العربي، تاريخاً سلطانياً باذخاً في المناسبات، وتاريخاً شعبياً متنوعاً في الحياة اليومية، وتاريخاً متقشفاً عشوائياً في التنقل والهجرات.

فالبقجة العثمانية، المصنوعة من الحرير أو الساتان الثمين، والمطرزة بخيوط الذهب والفضة المسماة «صرما» وبموتيفات بالغة الدقة والجمال، وبكتابات وخطوط فنية، كانت بقج السلطانات والمحظيات والنساء الثريات وهي الوحيدة التي حفظتها العائلات والمتاحف. كانت أساسية في جهاز العروس، وتستخدم لنقل الثياب أو الجواهر وكل ما هو دقيق وهام وقيم. كانت ثمينة لتحتوي الثمين.

أما بقجة النساء العاديات والتي يبدو أن أهم عنصر فيها هو متانة قماشها، فكانت تحملها النساء الشرقيات في الذهاب إلى الحمام أو تحملها الخادمة أو التابعة أو تحملها النساء المرتحلات والمهجرات، كيساً عملياً، خفيفاً، إنما ينوء بثقل محتوياته.

الشقبان: أو الكيس الذي يُحمل على الظهر، وأحياناً على الرأس، وقد ألصقت به صفة الفقر، وصفة الشحاذة عند النساء «شقبان النوري» وصفة التجارة الصغيرة المتنقلة على الظهر عند الرجال «الكشة».

والشقبان عبارة عن كيس مستطيل من القماش العادي نراه في رسوم المستشرقين حيث تحمل النساء ثيابها للغسيل على ضفاف النهر، أو نراه على الرأس في صورة أخرى لشوارع بيت لحم.

وقد عرفت الكشه ازدهاراً كبيراً على أكتاف الرجل مع هجرات اللبنانيين إلى أميركا في بداية القرن العشرين، حيث شكّلت الكشه شعاراً للمهاجر اللبناني في

جهده المستميت للبقاء والعيش الكريم، ونرى نموذجاً عنها في التمثال القائم على مدخل مدينة بيروت لتكريم المهاجر الأول.

ولكننا نفاجاً، عند استقرائنا المنمنات الإسلامية، ومحفورات «غرافور» القرن التاسع عشر، والتمعن في لوحات المستشرقين، وحتى في كتاب «وصف مصر» لحملة نابليون، نفاجاً بالوقوع على العديد والمستفيض من تفاصيل الحياة اليومية، ونادراً جداً ما نقع على رسوم لأكياس أو لحقائب نسائية شخصية.

إنما إذا توقفنا عند تقاليد المجتمع الشرقي وعاداته، وطبيعة ثياب النساء، ووضع المرأة الإقتصادي والإجتماعي، لوجدنا أولاً أن صورة الشارع كانت دوماً ذكورية، والمرأة المحصنة لا تخرج من البيوت إلا نادراً، وان خرجت فإن اتساع ثوبها وغطاءه يخفيان طبيعياً وجود أي جيب أو أي صرّة مال. وان توجهت المرأة إلى الحمّام، فالخادمة هي التي تحمل عنها الصرّة.

وغالباً ما رسمت المرأة وصوّرت داخل البيوت. إذن هي في الداخل لا تحتاج إلى حمل صرّة المال، وقد تكون ثروتها في ملكيتها القائمة وغالباً في الجواهر التي تتزيّن بها وأحياناً داخل الصندوق الشرقي المطعم والمزخرف.

ومن المستغرب أننا لا نجد في المنمنات الإسلامية، وحتى في القاجارية الفائقة التزيين والتلوين، أي صورة لكيس أو لحقيبة نسائية. كما انه ومن المستغرب أيضاً ألا نجد في لوحات المستشرقين التي عنت بنقل كل تفاصيل الحياة المترفة والعادية، وكل تفاصيل ثياب واكسسوارات النساء في الشرق أي شكل لكيس أو لحقيبة.

فالمرأة الثرية المدللة داخل البيوت والمرأة المحظية و«الأوداليسك»، تؤطر طبيعياً بين الاركيّة، والمروحة، والقهوة، والخادمة السوداء المطيعة، وتتمدد مظاهر ثروتها على ثيابها وفي جواهرها الثمينة، وفي البعض القليل من اللوحات نجد قربها الصندوق الخاص الصغير الذي يمكن أن يمثل للمرأة داخل الأسوار ما تمثله الحقيبة للمرأة في الخارج.

لكننا في اللوحات الاستشراقية كما في المحفورات، نجد أيضاً نساء خارج البيوت، لكنهن النساء العاملات، الفقيرات، الكادحات، الناسجات، بائعات الخبز أو الماء والأمهات المثقلات بهنّ أولادهن.

ونلاحظ بالتالي أن نساء العمل والفقير لا يحملن كيساً للمال، انهن يحملن القفّة

أو السلة أو جرار الماء أو الاثنتين معاً كما نرى في صور فوتوغرافية من القرن التاسع عشر.

والجرّة نموذج تاريخي متكرر يحمل دلالة الحياة العادية، وانتقال النساء المقبول والمبارك خارج البيت لتوفير الماء للعائلة، كما يمثل خروجها الوظيفي و«الأخلاقي» الوحيد. لقد رافقت الجرّة أيدي النساء، في الرسوم الأثرية القديمة ومنذ أسطوره باندورا حتى نساء القرى على العين ومن محفورات المستشرقين حتى لوحات الفنان عمر الأنسي بقيت هذه الصورة تتردد كلازمة في كل الأغاني اللبنانية والشعبية حتى القسم الأول من القرن العشرين.

٤- مجتمع «أكياس» متنقلة:

حيال هذا المجتمع الحضري والريفي، كان هناك المجتمع البدوي المتنقل المترحل الذي يعتمد أساساً على حقايبه وأكياسه والتي تتمحور حولها موارده الاقتصادية وعاداته الاجتماعية وجماليات حياته.

وحسب التقاليد، فالرجال والنساء، يحملون أو ينقلون أكياساً لكل منها وظيفته الخاصة. فهناك أكياس خاصة لحمل المصحف ونقل البخور، وللأعشاب الطبية والشاي والقهوة والبلح والرّزّ والعملات وخاصة الملح كما وجدنا أكياساً من الجلد بدون خياطة تسمى كبريت لأنها تحوي أعواد الثقاب أو أحجار الصوان.

ونلاحظ أن العديد من الأكياس مستطيل الشكل، بشرائط طويلة تسهل حمله، وقد صنعت من جلد الجمال أو نسجت كما ينسج السجاد، وكأنها سجادة صغيرة منمنمة. ولا يفوتنا أن حرفة الحياكة كانت غالباً من عمل النساء، ولذا فإن ذوق النساء وابداعهن وحفظهن للزخرفة التقليدية هو الذي زيّن هذه الأكياس.

ان حرفة السدو مثلاً في الكويت، وهي حياكة ملوّنة مزخرفة، تقوم بها النساء سواء في نسج الخيمة أو في نسج العدول، وهي أكياس لحفظ الطعام، أو في نسج المزاد وهي أكياس لحفظ الثياب.

ونتوقف عند كيس يظهر لنا أسلوب النسج البدوي المتداول والمتميز بالمثلثات المتلاقية، وعند كيس آخر صنع من جلد الجمل المصبوغ باللون النيلي وزين بإضافات قطنية ودوائر حريرية وحلى فضية وشراريب القماش الملون، وقد طرزت عليه المثلثات الثلاثة التي تشبه ما نجده على ثياب عسير المطرزة.

ونجد نموذجاً لكيس قبيلة بني سالم في الحجاز وقد زين بأزرار قمصان بيضاء وبإضافات من قماش أحمر وبصفوف من الحلى الفضية وشراريب الصوف، وهو كيس بالغ الزخرفة يستخدم أيضاً إضافة لصفته الوظيفية، بتعليقه على عمود أمام الخيمة لإعلان مناسبة أو حدث.

عدا الأكياس التي كانت توضع على ظهر الحيوان عند الانتقال والترحّل، فحضارة البدو والقبائل، حضارة «أكياس» وحقائب يحملها الرجال والنساء معاً على السواء، وهي تحمل ثروة الجميع وشروط بقاء القبيلة متحالفة مجتمعة.

في المغرب، نجد فوق الثياب التراثية للرجال، «الزبور» المطعم بزخارف من الجلد الملون المقصوص والمطرّز ونجد «العقرب» وهو كيس مستطيل واسع الانتشار عند القبائل و«الشكارة» وهي كيس بشرائط طويلة يعلّق على الكتف، ويرافق الثوب المغربي التقليدي، ونجد الآن منه نماذج فائقة الثمن.

٥- حقيبة اليد، تاريخ جديد، تاريخ آخر:

كانت حقيبة اليد النسائية الخاصة، قد عرفت باكراً في أوروبا وتنوّعت أشكالها ووظائفها.

لكننا في الشرق لا نستطيع أن نتكلم عن حقيبة نساء حديثة إلا مع هبوب رياح الغرب التي تأثر بها لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر والتي تجذّر تأثيرها طوال القرن العشرين.

يذكر سمير قصير في كتابه «تاريخ بيروت»، ان معالم الحداثة ارتسمت في بيروت نتيجة الاتصال بأوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وتجسّدت في أساليب الهندسة المعمارية وأثاث البيوت والسلوكيات الجديدة، وخاصة في تبدّل اللباس، فحققت الموضة الأوروبية وخاصة الفرنسية تقدماً حثيثاً بالتزامن مع صعود البورجوازية التجارية، وتجذّر تأثيرها في مرحلة الانتداب الفرنسي.

فمنذ بداية القرن العشرين ظهرت في الصحف اللبنانية اعلانات لمحلات Au petit bon Marché في سوق إياس التي استحضرت من المعامل الأوروبية بضائع جديدة ومنها كما تذكر بالإسم «جزادين وشنّات».

ولكن إذا عدنا إلى التأريخ الفوتوغرافي لهذه المرحلة، فإن صور النساء في الخارج لا تظهرهن مع «الجزادين» في الصورة الرسمية لعائلة غي بارا بالثياب

الطويلة الرائجة في بداية العصر سنة ١٩٠٦ أو في صورته لأوائل الجامعات المتخرجات من الجامعة الأميركية سنة ١٩٢٧ أو في ما وضح في صورة النساء الأنيقات بالقبعات الأوروبية في سباق الخيل في بيروت سنة ١٩٣٣.

يبدأ ظهور الحقائق النسائية اليدوية بوضوح في الصور الفوتوغرافية في لبنان، في أيدي نساء أجنبيات. ففي صورة من ١٩٢٣ نجد سيدة ترافق المندوب السامي الجنرال فيغان وبيار بنوا، وهي تضع على رأسها قبعة وتحمل بيدها حقيبة مستطيلة الشكل بشكل بوشيت Pochette الرائجة في العشرينيات. وفي صورة من سنة ١٩٣٩ نجد مدام بيو زوجة المندوب السامي مع حقيبتها في زيارة للست نظيرة جنبلاط، وفي صورة من سنة ١٩٥٢ نجد السيدة اليانور روزفلت تتفقد أوضاع الصناعة اللبنانية وهي تحمل بيدها حقيبة كبيرة ذات مقبض قصير.

نعود في الثلاثينات إلى صورة المؤتمر النسائي الرابع سنة ١٩٣٠ في مدرسة الصنائع وقد ظهرت فيه بعض النساء تضع على رأسها القبعة الرائجة بشكل جرس وتحمل حقيبة اليد العصرية التي تظهر أيضاً في أيدي النساء في اجتماع نسائي آخر سنة ١٩٣٥.

من الأربعينيات نتوقف سنة ١٩٤٧ عند صورة للرئيس شارل حلو سفيراً لدى الفاتيكان برفقة زوجته التي تحمل حقيبة تؤرخ لطرز تلك المرحلة.

في الخمسينيات، ومع تأسيس مهرجانات بعلبك، ظهرت الأنيقات اللبنانية في صور عديدة برفقة الرئيس كميل شمعون وزوجته، يمسكن بالحقيبة الأنيقة، ويلقبن بالشال على الذراع، أو يحملنها على الحزن في الجلوس أو يعلقنها بالكتف والذراع في زيارة سياحية نهارية لقلعة بعلبك.

في الستينيات وما بعد، ازداد التأثير الأوروبي وازداد استيراد الحقائق التي تنوّعت أشكالها فتلوّنت مع موضة الهيبية، وتكرّست بعد ذلك في أيقونات الموضة الكلاسيكية. فكانت شوارع بيروت تشابه شوارع باريس في الأناقة والجمال وكانت بداية خروج العديد من النساء للعمل الذي كان امتيازاً لمن توفر لهنّ التعليم.

مع ازدياد حضور حقائق النساء في شوارع المدينة في السبعينيات وهي تحمل آخر صيحات الموضة العالمية، حصل الانكسار الكبير، إذ بدأت الحرب الأهلية، فكنت ترى أمام الأفران الشعبية صفوف النساء، تحمل الهّم على جبينها وتحمل على ذراعها آخر موديلات حقائق باريس، وكنت ترى أمام البيوت المهذّمة، عجوزاً

متجلبية بالأسود تعان الخراب وتحمل بيدها حقيبة جلدية عصرية ثمينة، كما كنت ترى على خطوط التماس سنة ١٩٨٨، في صورة واحدة نساء يحملن حقيبة يد نسائية عصرية مع أكياس من النايلون، ورجالاً يحملون حقيبة سامسونايت يدوية ويجرون حقيبة سفر مع عائلة هاربة من القصف.

فلنلق نظرة اليوم على الشارع في لبنان، كما على كل شوارع العالم. لن نجد امرأة بدون حقيبة يد، وبالتحديد يرافق هذه الحقيبة كيس من النايلون أو من الورق يحوي ثياباً أو كتباً أو مؤناً، وكأنه المرادف أو المرافق الطبيعي لحقيبة المدينة.

ومع تطوّر صناعة الحقائب وانتشارها الكاسح، تنوّعت طرق صناعتها وطرق تقليدها، خاصة في البلدان التي تتقن تاريخياً صناعة الجلد كالمغرب ومصر، والتي تمتلك مهارة مهنية كمنطقة برج حمود في لبنان، فنمت صناعة متقنة وموازية، تبتدع، تنقل، أو تزيّف وتؤمن لكل النساء، مهما كانت قدراتها الاقتصادية، اقتناء حقيبة تحمل روح العصر، أو تشابه حقائب شانيل وديور وفويتون وغوتشي بثمن متهاود ومقبول.

ومما طوّر في هذه الامكانات ازدهار صناعة النسيج والمواد البلاستيكية التي أنتجت الجلد والفرو والنسيج الاصطناعي الأقل ثمناً والأكثر رواجاً والأكثر اغراء في تسارع الموضة وتبدلها المستمر...

لنلق من جديد نظرة على الشارع في لبنان! لن نجد امرأة بدون حقيبة يد، وبالتحديد نكاد نجد بصعوبة موديلاً واحداً في كل الأيدي النسائية التي «تشخصن» حقيبتها انطلاقاً من شخصيتها.

ولكن ما يمنع القراءة المتتالية لتاريخ الحقيبة النسائية في لبنان وفي العالم العربي، فقدان حقائب جداتنا القديمة إلا ما حفظه الحنين، وغياب المتاحف التراثية وندرة المجموعات الخاصة، وغالباً ما نقع بالصدفة على نماذج كحقيبة قماش زهرية صنعتها بيدها امرأة جنوبية لعرضها حوالي سنة ١٩١٠ وحفظتها حفيدتها كذكرى عائلية، أو لحقائب جلدية ثمينة حفظتها الصدفة والخزائن القديمة العائلية.

ولم تستخدم السينما العربية بعد رمزية الحقائب النسائية في الأفلام والمسلسلات ولم تظهر سوى حقائب السفر والهجرة في الروايات العربية المعاصرة.

ان انتشار الحقيبة النسائية الخاصة في القرن العشرين في كل شوارع العالم، إنما ترافق مع خروج المرأة من البيت، وتعليمها، وعملها، وتحررها، وامتلاكها للمال

الخاص الذي تنفقه أو تحجبه حسب إرداتها، حيال العالم الخارجي المستثار بالسرّ الذي تحويه حقائب النساء من جهة وبحرمة هذا «الكيس» من جهة أخرى. ولم تعد الحقيبة للمناسبات، بل أصبحت حاجة يومية، للعمل، للتسوّق، للأناقة، وبالرغم من رواج موضة حقائب الرجال المعلّقة بالكثف في السبعينات، أو حقائب السامسونيات الوظيفية، فقد أصبحت اليوم حقيبة اليد صفة نسائية، تحملها أيدي النساء فقط وتبدّلها مع تبدّل موضة كل مرحلة.

٦- مقابلات ونساء وحقائب:

في محاولة لرصد مواقف النساء من حقائبهن، وردود أفعالهن، أجريت أربعين مقابلة مع أربعين امرأة لبنانية ينتمين إلى طبقات اجتماعية، وأجيال، ومناطق ومهن مختلفة. ركّزت المقابلة على مقاييس شراء الحقيبة، وعدد الحقائب، والألوان المفضلة، وترتيب الحقيبة أو عفويتها، ومحتوى الحقيبة، ومال الحقيبة، والموقف والشعور والتعلّق والتخلي.

وشكّلت الأجوبة مروحة كاملة من امكانات التأويل واستقراء الدلالات، ولفرادة بعضها أتوقف عند أهم الاجابات:

في اختيار الحقيبة:

- عندما اشترى حقيبة، أتردد طويلاً وأفتش طويلاً، وعندما أجد غايتي أقول: هذه أنا!

- كثيراً ما تنهار مقاومتي أمام حقيبة فانتازي. لن أحملها إلا في مناسبات قليلة، فأحفظها - للتعويض - طويلاً في خزانتي حتى بعد زوال موضتها.

في الموقف من الحقيبة:

- حقيبتني تعطيني الأمان أمام سرعة الأحداث. عندما أمسك بها أحس انها تكلمني، ولا أتخيل نفسي خارج البيت بدونها.

- حقيبتني الواسعة هي بيتي المتنقل والتي تعلّمني بأننا في الحياة نستطيع الاكتفاء بالأساسي والاستغناء عن أشياء كثيرة.

- أحبها كثيراً.. أعتقد انني أضعتها في حضني وأغمرها بذراعي خلال النهار أكثر مما أغمر زوجي وأولادي.

- حقيبتني؟ المهم أن تكون واسعة، بسيطة، تناسب كل وقت، لا تهمني الموضة ولا المناسبات، فلا أضطر لتبديلها مع كل ظرف.

- أنا كالحيوان الأليف، أعرف حقيبتني وأنا مغمضة العينين، من رائحتها.. آه.. رائحة الحقائق.. وخليط محتواها..

- أنا الآن في الستين من عمري ولكنني لا أزال أحتفظ بحقيبة يد من خمسينيات القرن الماضي، كانت في جهاز عرسي... أنظري، انها من الجلد الحقيقي العريق، وقد حملت مثلها ممثلات السينما في ذلك الوقت.

- أخاف عليها كثيراً من السرقة، لا بسبب محتواها، بل بسبب سعرها المرتفع الذي دفعته لأشترتها. أحياناً كي لا أثير شهية النشالين، أضعها في كيس نايلون من التعاونية وأمشي على الطريق وأنا أحمل كنزي في كيس النايلون الرخيص.

وتستفيض النساء في الحديث عن محتوى الحقيبة:

- ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ عندما أبدل حقيبتني لتتناسب مع حذائي، أنسى نصف أغراضي.

- أضع فيها كل شيء.. كل شيء.. طبعاً المال، ولكن ربطة الشعر، فواتير السوبرماركت، ورقة موقف السيارة، حلق صغير اشتريته للتو.. كل من ينظر داخل حقيبتني يعتقد انني متشردة أنام دوماً خارج بيتي أو أنني قلقة ومستنفرة أمام كل طارئ.

- كل شيء.. كل شيء.. وأسميها بقجة النورية وأحياناً جراب الكردي.

- سأفتحها أمامك وأعدد لك محتواها: نظارات شمس، نظارات للقراءة، أجندة، قلم، تلفون خليوي، دفتر صغير، مفاتيح البيت، مفاتيح السيارة، مشط، أدوية لوجع الرأس، أدوات ماكياج، مرآة صغيرة، بطاقة هوية، بطاقة الضمان الصحي، محارم ورقية، بالطبع، دفتر شيكات، بطاقات مصرفية ومحفظة تحمل صورة أحفادي ونقوداً قليلة.

- أحياناً أستعيد حقيبة قديمة كنت قد تركتها جانباً بسبب بعض البقع على أطرافها.. أذكر انني كنت قد قررت اعطاءها لشقيقتي ثم عدلت عن الفكرة. أستعيد هذه الحقيبة، أطلب منها أن تغفر لي تجاهلي، أنسى ما تعاني منه من تشقق على جلدها بسبب رطوبة خزانتي، أحبها من جديد، أفتحها أجد فيها بطاقة سينما لدخول

فيلم في صالة أقفلت الآن في الحمراء، تذكرني بصديق قديم، وحبتي دواء لم أعد أعرف أسمهما، وبطاقة شخصية تحمل اسماً وعنواناً لشخص لم أتصل به أبداً، وورقة خمس ليرات قديمة، عفا الدهر عنها وأصبحت صالحة للمتاحف.

- أذكر حقائب مرحلة الحرب.. كل شيء حتى القطن والسبيرتو وطلاء الأظافر ودواء السعلة، وجوارب وألبسة داخلية صغيرة، وقنينة الماء والباسبور وبطاقات توصية، واحتياطاً حبوباً مهدئة للأعصاب، وخاصة كمشة من الليرات والدولارات.

٧- الدلالات:

ان استقراء هذا التاريخ الموجز وهذه الشهادات المعبرة، تقودنا إلى التوقف عند الدلالات التالية:

أ- انتقال النساء من زمن الحيز الخاص إلى زمن الحيز العام:

يؤرخ ظهور حقيبة اليد النسائية في القرن العشرين وانتشارها في أيدي كل الطبقات والأعمار، لزمن استقلالية النساء، وخروجهن من حيز المنزل إلى حيز الشارع والمدينة، كما يؤرخ لخروج النساء إلى العمل ولحيازة المال الخاص، وبالتالي لحرية التصرف بهذا المال. وقد تكون صورة المرأة التي دخلت مجال العمل قسراً خلال الحرب العالمية الأولى والتي حملت حقيبتها معلّقة بالكثف لضرورات عملية ووظيفية، بداية انطلاق لمفاهيم الاستقلالية وكسب المال الخاص والتفرد باستخدامه.

الآن تشكّل حقيبة اليد النسائية دلالة استقلالية معاصرة، بعد دمقرطتها وانتشارها في كل شوارع العالم حيث فقدت الكثير من علائم انتمائها المحلي وتشابهت غرباً وشرقاً في أحجامها وألوانها وزخارفها ومواد صنعها.

ب- قماش، قش، جلد، نايلون، عراقة وتزييف:

لقد امتحن تاريخ الحقيبة المواد المتينة المتاحة في كل زمن، لاحتواء كل ما اعتبره الإنسان ثميناً. فمن جيب القماش، إلى القش المضفور، إلى الجلد، إلى كل المنتجات البلاستيكية، ترافق تطور الاكتشافات التقنية مع تطوّر مواد الحقيبة وأحجامها وألوانها وزخارفها وأقفالها.

وعندما أدركت بيوتات الأزياء، بأن هذا «الكيس» أساسي بالنسبة إلى النساء،

انتزعت من أيدي عمال الجلد وطوّرت جمالياً في أحجامه وموضته وطرق إقفاله. احتفظت الحقيبة الجلدية ذات الانتماء إلى دار أزياء شهيرة بمكانتها وثمرتها الباهظ، مما أفسح في المجال لسوق عالمي للتزييف استطاع أن يؤمن حلم الامساک والتماهي بحقيبة شهيرة لدى كل نساء العالم.

ج- بين العبّ والجيب.. والصندوق والحقيبة:

نستطيع اعتبار الحقيبة النسائية اليوم، سليفة العبّ والجيب والصندوق، إذا اعتبرناهم معاً امتداداً لملكية النساء الشخصية لكل ما هو ثمين.

فالعبّ هو الوسيلة البدائية الأولى ونكاد نقول الغريزية عند النساء لحفظ ما هو ثمين بالقرب من موقع الصدر بما يحمله هذا الموقع من دلالات الخصوصية والتحریم. وما يُحفظ في العبّ يلتصق بالجسم لا يفارقه إلا بإرادة اليد التي وضعتة.

والجيب الذي شكّل قسماً من الثوب النسائي، هو كيس مخفي، غير ظاهر للخارج، يحوي ما تحتاجه النساء في حياتها اليومية، هو لين، طريّ يتحرك مع حركتها، والأهم من ذلك انه لا يفارقتها حتى مع انشغالها بأي عمل. «واصرّف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب» من أمثالنا المتداولة.

أما الصندوق، وان حفظ في البيت في موقع لا تصل إليه دوماً الأنظار، فهو يحوي الكنوز الدائمة التي لا تحتاجها المرأة يومياً ومنها الحلوى والمال المقتصد، ولكن الصندوق جامد لا ينتقل ولا يرافق تنقلات النساء.

أما الحقيبة، فهي العبّ والجيب والصندوق معاً، تحمل من الصندوق الصلابة والكتمان، ومن العبّ والجيب سهولة الانتقال، دون أن تحمل من الصندوق جمود المقام ومن العبّ هشاشة الحفظ ومن الجيب حركة الجسد.

أما الاختلاف الكبير فهو أن الحقيبة معروضة للنظر ومستجلبة له. فنحن قد يخفي علينا محتوى العبّ، وقد نتكهن بوجود الجيب، وقد نعتقد بوجود الصندوق، ولكننا نعاين الحقيبة. فالجيب والصندوق كما يصفهما باشلار هما داخل - داخل، أما الحقيبة فهي خارج - داخل أي انها شكل يعرض للعين دون أن يقدّم محتواه إليها.

ولذا تحمل الحقيبة النسائية المعاصرة دلالات عبّ الفقيرات، وجيب العاملات، وصندوق الثريات، من خلال المفاهيم الحديثة لمعاني الملكية والفردية والاستقلال.

د- علاقة الداخل بالخارج، السريّ بالمباح:

تبدو الحقيبة النسائية بما تحمله من دلالات وكأنها في جدل الافصاح والاختفاء، فكل حقيبة امرأة في الشارع، دلالة على انها تملك شيئاً لا تريد الكشف عنه، حتى لو لم يكن هذا الشيء يحمل قيمة ما. فهذا الفراغ المخفي هو السرّ، هو المخيلة، هو الشيء الخاص والممنوع.

ان الحقيبة تعرض نفسها للعين كاختزان للثمين، موحية بمحتواها، أو موهمة بمحتواها، دون أن تكشف عنه، وفي هذا التضاد تقارب الحقيبة السرّ، والغواية، والسلطة.

ه- الحقيبة والجندر:

أن تكوني امرأة معاصرة - ولا فرق بين عاملة وطالبة وسيدة منزل - يعني أن ترافقك حقيبة يدك في كل حل وترحال.

لذا، تضعنا الحقيبة حيال التساؤل عن الجندر أو النوع، وجنسية الاشياء أو الأشياء الخاصة بكل جنس، والتي تمتلكها المرأة كصفة خاصة بها.

في هذا المجال، تبدو الحقيبة اليوم وكأنها صفة جنسية إضافية، صفة أخرى للنساء، علبة أنوثة تمتلك الجاذبية، وفي ذات الوقت تمتلك قدرة الدفاع عن النفس، حيث لا تجرؤ يد غريبة أو قريبة على فتح حقيبة امرأة إلا بإرادتها.

و- دينامية الحقيبة:

ليست الحقيبة اكسسوار زينة أو كيساً وظيفياً، أو قطعة ثابتة بمعزل عن اليد التي تحملها. فللحقيبة ديناميتها الخاصة والفريدة في التفاعل مع المرأة التي تحملها ومع الأشياء التي تحتويها.

ان الحقيبة سجل متواصل لدقائق حياة المرأة في عاداتها وفي مخيلتها، في واقعها وأحلامها، في صدقها وأوهامها، فهي التي تفرض على المرأة الاكتفاء بالأساسي، وتمتحنها دوماً بين الانتصار على بعثرة الأشياء أو الاسترخاء إلى بعثرتها في هذا المجال السريّ.

ان حقائب النساء هي مغارة آمال وأموا، وأوهام وأحلام، وبهذا المعنى فهي حقائب عميقة الغور بلا قعر.

ز- أخلاقيات «كيس» المال:

ان العلاقة بين «الكيس» ومحتواه، جعلت الحقيبة تكتسب معناها من المتخيل المرتبط بما يمكن أن تحتويه، أي المال.

إن كل كيس يحتوي على المال كان تاريخياً مجال تبرير أو شبهة. وإذا استعدنا بعض اللوحات الفنية، لوجدنا «صرّة» مال أخوة يوسف الذين باعوه للتجار، و«صرّة» مال يهوذا الذي باع المسيح و«صرّة» المال في رسوم كاريكاتورية منذ القرن السادس عشر للتعبير عن تداخل المال مع حروب الأديان.

وعندما يرتبط كيس المال بالنساء، تعطى لأول حقيبة تحملها النساء اسم Aumônier أو كيس الاحسان للتعويض بالتصدق على الفقراء تكفيراً عن «خطيئة المياهاة» بحمل المال.

ولا تخلو اللوحات الفنية من تجاور كيس المال والنساء مع الغواية والجنس، ومبادلة اللذة بالمال. لذا، كان حمل المرأة لحقيبة اليد الخاصة، وحتى عشرينات القرن العشرين، يحمل معنى الخروج على التقاليد، والحرية المريبة.

ح- علاقة الحاوي بالمحتوى:

كانت الحقيبة القديمة «كيساً» بسيطاً من القماش أو الجلد، يتميز بصفة المتانة وصحة الاغلاق وحفظ الملكية، ويحتوي على مجوهرات أو ليرات ذهبية أو أموال، تتعارض قيمتها الكبيرة مع تواضع هذا «الكيس». كان المحتوى أثمن بكثير من الحاوي.

ولكن الحقيبة المعاصرة التي تطوّرت في صناعة موادها وأشكالها، أصبحت غالية الثمن، وعلامة انتماء إلى طبقة، تحولت إلى رمز وموقع اجتماعيين، ويكاد ثمنها يتخطى قيمة المال الذي تحفظه. أصبح الآن الحاوي أثمن من المحتوى.

ولكن المال تبدّل في صورته المادية اليومية. فبعد ليرات الذهب الرنانة ووزنها الكبير، وبعد العملة الورقية والنقدية، وبعد دفاتر الشيكات الكبيرة، تحولت ملكية المال الآن داخل الحقائب إلى بطاقات ائتمان صغيرة، إلى مال افتراضي لا يثقل الحقيبة إنما ينبئ بثروة حاملتها.

ط- من يفتح الحقيبة؟

ان هذه الحقيبة المغلقة على أسرار أو ملكية أو أوهام النساء، أصبحت الآن

تفتح قسراً أمام عيون الغرباء، سواء في المطارات، أو في الشارع أمام المؤسسات الكبيرة وكأنها المخبأ المخيف الذي يمكن أن يحمل أكثر الأشياء رهافة وحميمية وأكثر الأشياء عنفاً.

وفي مراقبة لطريقة فتح كل امرأة لحقيبتها أمام حاجز تفتيش، نستطيع التقاط ردود أفعال صامتة ومواقف استنكار مضمّر حيال هذا النظر الطارئ والغريب والمستبجح للسّر. وكأن متطلبات الواقع والأمن، تكسر الأسطورة والحلم.

ي- أبعد من المال.. حقيبتني أنا وأنا حقيبتني:

أصبحت الحقيبة اليوم امتداداً طبيعياً ليد المرأة ولجسدها. ولذا فإن أصعب صرخة تطلقها المرأة برعب هي: أين حقيبتني؟ فالحقيبة اطمئنان واكتمال وكأنها البيت الثاني المتنقل الخفيف الحمل. فالحقيبة «بدوية» رحّالة ولو كانت بين أيدي نساء المدن، مصيرها الانتقال والخروج والعودة، لذا فهي دعوة حرية أو وهم حرية مدجّن. والحقيبة مخيال الأنوثة المعاصرة، لذا يتوازي التأكيد على تماهي شخصية المرأة بحقيبتها مع التكهن بوجود مالها في هذه الحقيبة.

ان المقاربة التاريخية والأثرية والانثروبولوجية والجمالية والتقنية والواقعية المعاصرة للحقيبة، وبالتحديد للحقيبة النسائية، من خلال تنوع الأشكال والمواد والزخارف والوظائف، تضع الحقيبة النسائية في مصاف «أشياء» القرن العشرين التي أرخت لاستقلالية النساء ولخروجهن بثقة إلى الحيز العام، بعدما تعولمت بأيدي نساء مدن العالم، وتحولت إلى علامة ثقافية وجمالية، إلى سلطة امتلاك، إلى حلم ارتحال، إلى سرّ انثوي، إلى وعد اطمئنان...

لقد بدأت بصورة وأختم بصورة..

لم يكن اجتياز القرن العشرين سهلاً على نساء الدول التي عانت من الحروب والهجرات المتواصلة، ولم تكن حقيبتها دوماً رفيقة عمل أو غوى. ولذا أتوقف عند صورة فوتوغرافية معاصرة لامرأة هاربة من القصف والعنف، تمسك بحقيبتها وتحميها وكأنها تمسك باحشائها، في حركة غريزية بعيدة كل البعد عن أناقة حمل الحقيبة في شوارع المدن، حركة تعبر عن معنى الحقيبة في مواجهة الخطر والترحيل، حركة نعرفها نحن نساء البلدان التي تعرّضت للحروب والهجرات... حركة احتضان الحقيبة كطفل عندما يضيع كل شيء!

المراجع

- جلاّد ادغار (اعداد)، اجد هوز ، مدارس لبنان من تحت السندبانة الى العالم، رعيدي، بيروت ٢٠٠٥.
- ساسين فارس وسلام نواف (اعداد)، لبنان، القرن في صور، دار النهار بيروت ١٩٩٩.
- يمّين محسن، لبنان الصورة، جروس برس ١٩٩٤.
- يمّين محسن، بريد الشرق، شمالي وشمالي، بيروت ٢٠٠٣.
- فاخوري عبد اللطيف مصطفى، منزل بيروت، بيروت ٢٠٠٣.
- فاخوري عبد اللطيف مصطفى وعيتاني مختار، بيروتنا، دار الانيس.
- قصير سمير، تاريخ بيروت، دار النهار، بيروت ٢٠٠٦.

BACHELARD, Gaston, *Poétique de l'espace*, PUF, Paris 1957.

BORELLI, Laird et STEELE, Valérie, *Sacs Langages du style*, traduit de l'anglais par Solange Roussat, Edition du collectionneur, Paris 1999.

CALAME-GRIOLE Geneviève et GOROG-KARADI, *Laalebasse et le fouet: Le thème des objets magiques en Afrique Occidentale*, Cahiers d'Etudes Africaines, 45, vol XII, 1er cahier 1972.

CHENOUNE, Farid (sous la direction), Le cas du sac. Hermès, Union Centrale des Arts Decoratifs, Le Passage, Paris, 2004.

DAGOGNET, François, Rematéraliser : *Matières et matérialisme*, Paris, Vrin, coll. Problèmes et controverses, 1985.

FRITSH, Julia, *Objets du voyage et du commerce au Moyen-âge*, Un mois une œuvre, Musée National du Moyen-âge, thermes et Hôtel de Cluny, janvier 2004.

GAY-PARA Jean-Prosper, *La traversée du siècle*, vol 1- 1840-1914, Presses Raidi, Beyrouth.

Les Orientalistes au Liban, vol 4, ed. RAC, Beyrouth.

PICOT Geneviève et Gérard, *Le sac à main, une histoire amusée et passionnée*, éditions du May, Paris 1993.

SEHNAOUI, Nada, *L'occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth, 1860-1914*, Dar an-Nahar, Beyrouth 2002.

SEYDOU, Christiane, *Une dialectique de l'ex et de l'in ou le motif du sac dans les contes de l'Enfant Terrible*, in Histoires d'enfants terribles : Afrique noire, étude et anthologie, G-P Maisonneuve et Larose, Paris 1980.

THORNTON, Lynn, *Les orientalistes, la femme dans la peinture*, ACR editions, Paris 1989.

اللوحة ١:

من اليسار: قصر أشورنازربال II، القرن الثامن - ملعقة مصرية خشبية، الإمبراطورية الحديثة - زوس وهرمس على آنية يونانية - موزاييك رومانية، القرن الثالث ب.م. - صرّة من الجلد، روسيا، القرن ٤ ق.م. - أكياس السحر في غينيا الجديدة، نهاية القرن ٢٠ - رسم في قصير عمرا الأموي، القرن ٨ - مقامات الحريري، القرن ١٣.

اللوحة ٢:

من اليسار: جيب قماش يربط بالزنار، بداية القرن ٢٠ - كيس يحمل على الذراع، القرن ١٩ - كيس الاحسان، القرن ١٩ - كيس البخيل، القرن ١٩ - مجموعة حقائب من القرن ١٧ حتى ٢٠ - من أيقونات الموضة: هرمس ١٩٣٠، شانيل ١٩٥٥، لايدي ديور ١٩٩٥ - طريقة حمل الحقيبة النسائية من ١٩٠٠ حتى ٢٠٠٠ - نساء أفريقيات في النيجر ١٩٧٨.

اللوحة ٣:

من اليسار: منمنمة فارسية، القرن ١٦ - حراس من لبنان، القرن ١٩ - جزائريات إلى الحمام، لوحة للمستشرق بيسبروك - بقجة عثمانية - الغسيل على النهر، لوحة للمستشرق جول توبان - بائعات الماء والبرتقال في مصر للمستشرق فيلكس كليمان، القرن ١٩ - راقصة في مقهى جزائري لوحة للمستشرق جيرادي - بيت مغربي، لوحة للمستشركة كلايس هرسيغ.

اللوحة ٤:

من اليسار: كيس يدوي من البادية السورية - أكياس بدوية للمال والزينة - اعلان لجزادين وشنط في سوق أياس - الرئيس شارل حلو وزوجته - الوقوف أمام الأفران خلال الحرب - تفتيش الحقائق - مادلين رينو في مسرحية أه أيتها الأيام الجميلة - امرأة مهجرة مع حقيبتها.

**في معاني الشراء
والاقتناء والأبعاد
الرمزية لتساوير
المرأة والحلى
(قراءة مقارنة)**

أصابعك الملساء كانت مناجماً
ألملم عنها لؤلؤاً وقرنفلاً..
يروّعني أن تصبجي عجريّةً
تنوء يداها بالأساور والحلى...

(نزار قباني)

تعتبر الحلى فنا بصريا (art visuel)،
بمعنى أنها تضيف شحنة رمزية قد يتعذر فهم
ابعادها. هي زينة للجسد والملابس والشعر،
صلتها بالجسد حميمية تصبغه بشيء من
الجازبية والشهوانية، ومسحة من التآلق
والتقدير أوحى الانتماء. إن تاريخ البشرية
مليء بنماذج من الحلى تختلف من ثقافة
لأخرى وتحمل دلالات متطورة وفقاً للمتغيرات.
هي دالٌ على هوية تخص مجموعة بشرية،
طبقة أو مرحلة عمرية أو حتى انتماء ديني
ورتبة خاصة أو حامل لمخارج طقوسية. قد
تكون في بعض الأحيان علامة متبادلة بين
عاشقين، أو تدل على رتبة اجتماعية... ولها
طابع عالمي متفاعل مع متحول ثقافي خاص
بكل جماعة.

لابس الحلى والزينة يرمي الى ان يتعرف
عليه الآخر. فغالباً ما تدل الحلى على الغنى

هند الصوفي

وعلى الثراء من حيث المواد النادرة التي تستعمل في صياغتها، أما الأحجار الثمينة والكريمة، فلها لغة خاصة سوف تكون جزءاً من قراءتنا. قد تكون تعاويذ واحجة للمعالجة، وقد تكون تعبيراً عن السلطة والقوة. أما لماذا انجذب اجدادنا إليها، فلا عجب، حين أن للون جاذباً خاصاً. الخضرة توحى بالخصوبة، خصوبة الطبيعة، والحمرة بشغف الحياة والزرقة بالسماء والروحانيات، أما الصفرة فهي الشمس والدفع والحياة. منذ البدء، أكدت الاحجار علاقتها بالماورائيات والقدرة الالهية. فحامل الماس في الهند يتقي السم والحرق والثعابين على سبيل المثال...

ما هي حقيقة الأبعاد الرمزية للحلى والجسد المزين في الصورة الفنية؟ ما هي المدلولات الكامنة وراء التفاصيل والتصاميم والتي هي نتيجة اختلافات ثقافية. وإلى أي من الاتجاهات يتكون انزلاق المعاني وفقاً لـ «كون» - Kuhn - بين عصر وآخر وثقافة واخرى؟

سوف يحاول هذا البحث إيجاد بعض الأجوبة على الأسئلة المطروحة والحفر في ما وراء الشكل واللون ليصل إلى مضامين قد تفيد الباحثين من حيث اشكالية العلاقة بين الحلى والمرأة. وننطلق من الفرضية التي تعتبر الحلى منتجا نادرا يتألف من مواد ثمينة تدل بشكل اساسي على ثراء صاحبها وتهدف الى التجميل والتزيين.

وبما أن الدراسات المتعلقة بالفنون المحلية غير متوفرة، سوف نتوسع في تحليل ايقونوغرافيا الحلى في الفن الشكلي الاسلامي أعني - Art Figuratif Musulman - في استعمالها أو في غياب استعمالها كعنصر تشكيلي مكون للعمل الفني، وذلك مقارنة مع المتشابهات في تاريخ الفن الغربي. هل عالجت المنمنمات الاسلامية الحلى كعناصر من البيئة المحلية؟ ولماذا الغيت من قاموس بعض المدارس الاسلامية التي اسرقت من ناحية أخرى في استعمال العناصر المزخرفة للهروب من عالم الواقع إلى عالم الروحانيات؟

يطرح هذا البحث أيضاً أسئلة من حيث العلاقة الجدلية المعروفة بين المرأة الشرقية وزينتها المسرفة بالحلى في حين تتمثل المرأة في الفن دون الحلى. في المقابل نرى الفن الغربي وتحديدًا فن الاستشراق يصور المرأة الشرقية ويبالغ في تزيين جسدها بغوى الحلى، حيث أن المتخيل العام الغربي مليء بصور الفحش

والثراء للمجتمعات الشرقية. فما هي فعليا الأبعاد الجمالية وما هي نظم المعاني لكل من هذه التساوير؟

الحلى والجسد في فن التصوير: مقدمة ايقونولوجية

منذ العصر البابليوتيكي، رافقت الحلى التزيينية النوع الانساني وزينت الجسد. كانت التعاويذ السحرية تلاصق الصيادين من أجل الحظ والتبرك وتفعيل الخصوبة. بكل أشكالها، أنجزت الحلى بمواد لها صفة الدوام، من العظام إلى قرون الغزلان والأسنان والأصداف، وقد وجدت العقود والخواتم، والأساور منذ ٨٠٠٠ ق.م...

الحضارات القديمة غنية بتمثيل الحلى في المشاهد الفنية. فالبوذيون يتحلون بالاحجار الثلاثة (الثيراتنا) للحماية الذاتية (صورة ١). فعليا هي إشارة إلى البعد التألمي والاستلهاص الصحيح (الماس يعبر عن بوذا، وعن العقل المتحرر بالمعرفة).

وفي زمن الأنتيك (Periode Antique)، ازدادت صور الفراغنة بألف لون: الزمرد الازرق لاتقاء العين الشريرة، (تصميم «عين الاله» ٣٠٠٠ ق.م، ما يزال رائجا). وفي بلاد ما بين النهرين، صورت الآلهة في الميثولوجيا الاشورية والأكادية والبابلية مع أشكال من الحلى على الأجساد العارية. «ايريشكيغال» ملكة العالم السفلي، لها تاج ذو قرون متعددة، تترزين بالعقود والأساور وتقدم رموز السلطة الى الملك (العصاة والعرش والتاج والحلى)، تجتاز ٧ ابواب، وعليها أن تتعري عند كل باب، إلى أن تصل إلى الباب السابع عارية، فقط كان العقد يزين صدرها (صورة ٢)...

أما الملكة شوب-أد في أور (٢٩٠٠ ق.م)، فقد جملت بسلاسل من الذهب المزين بأحجار اللابيس (Lapis-Lazuli)، وبطلق الازن المنسدل حتى الكتف، كرمز لشجرة الحياة...

طور الرومان وقبلهم الأتروسكيون تقنيات الصنعة التي تميزت بأناقة خاصة. وللتاج عندهم بعد ديني يبارك حامله. لذا اعتاد أساقفة بيزنطة بعدهم أن يقلدوا الملك التاج في احتفال رسمي عام، لتشريع سلطته. عرفت الحضارة البيزنطية اشكالا فاحشة من الثراء في تزيين الثياب وفي صياغة الروائع من القلادات التي احتكر اقتناؤها لصالح العائلة المالكة وبعض المقربين.

في القرون الوسطى، غدا الماس رمزا للمصالحة والسعادة بين الزوجين. أما

الزمرد فهو رمز للحياة الجديدة. لكن اللؤلؤ يبقى سيد الأحجار واثمنها، رموزه أساسية في محافل الزواج ويعبر عن دموع آدم وحواء، وعن العفة والبساطة (١). راج آنذاك تزيين الملابس بالجواهر والأحجار الكريمة. ومنع القانون الملكي أي مواطن عادي (بسيط) من ارتداء هذه الألبسة. ولكن بما ان الحلى كانت تستعمل كإشارات للزواج والحب، وجدت نماذج بديلة غير اصيلة تميزت بالجودة استعملها الفقراء كما البعض على ثياب الكفن.

لقد ارتأينا أن نخصص هذا المدخل التاريخي لفهم تطور الدلالات والرموز في بحثنا عن الحلى والمرأة في التصوير الفني، في الغرب والشرق.

رمزية الحلى في الفن الغربي

في استعراض لغرض الحلى في العمل الفني، لا بد من الرجوع إلى بعض الأعمال التي تفصح عن ذاتها وعن مخارج رموزها. وحيث أن عصر النهضة في المجال الفني يعتبر المحطة الإنسانية الأساسية في تكوين الفن الغربي، كان لا بد لنا من مساءلة بعض المشاهد واستنباط المعاني المبطنة حول الحلى وعلاقتها بالمرأة.

في هذه الفترة، قام الفن على قاعدة الانسجام بين مواضيع الدين والميثولوجيا الاغريقية. فلا مجال صريح لعرض الحلى في هذه المشاهد الا ما خصص لتتويج السيدة العذراء، لأن الكلاسيكية الإغريقية بجلتها المسيحية حافظت على خطوط الجسد الصافية، لا يعكر مزاجها زخارف وعناصر، فلا يتوه المشاهد عن القيم الأساسية الكامنة في مبادئ التجسيم والتاليف والانسجام بين الأحجام والكتل. وحين اهتمت السلطة الزمنية والطبقة الميسورة بالاقتناء الشخصي للأعمال الفنية، خاصة في المناطق الخاضعة للنفوذ البروتستانتي (لا مشاهد دينية في الكنائس)، صورت المواضيع الدينية بحلة اجتماعية وبشكل مجازي من أجل الاقتناء الخاص ومن خلال نقل الواقع للعديد من الشخصيات المعاصرة كما صورت (مثال بورتريه فان دير فايدن، صورة ٣).

كل شيء يدل على اليسر والبجوحة والمركز الاجتماعي المرموق لأبطال المشهد. الزينة والحلى اكبر دلالة على ذلك، اضافة الى خلفية العمل والاقمشة الغالية والزخارف المذهبة. في الحقيقة، إن وجود الحلى هنا ليس إلا تحذيراً للمؤمنين من

أجل نبذ القيم المادية، فالحياة فانية (المدلول الديني). وإذا كانت الحلى دالاً على ثراء وقوة صاحبها، نرى هنا أن المعنى الحقيقي الكامن وراء العمل لا يمجّد المرأة بتاتاً. يقول Tinagli (٢) «في ذلك الزمن (عصر النهضة)، كانت النساء مسلوبات القوة، ولو غنيات. وبالتالي فإن أي صورة فنية للمرأة مرتهلة لصالح المشاهد الرجل ورهن للتأمل الذكوري». إذن إن وجود الحلى وإن كانت تأكيداً جلياً ليسرة العائلة، لكنها حتماً استغلال للجسد الأنثوي في عرض ما يملكه الزوج من قوة وثروة. غالباً ما تكون هذه الحلى هدية من الزوج أو من عائلة المرأة، وعرضها هو دلالة على رفعة الجانبين وليس على سلطة صاحبها...

وفي «المدين وزوجته» لفان أيك (صورة رقم ٤)، يبدو المغزى دينياً مجازياً، إنه دعوة إلى الفضيلة. فالرموز المسيحية واضحة تنبذ البخل وتحيي الصدق والامانة (الميزان لوزن الخطايا يوم الدينونة)، يزن الرجل الحلى واللالي والذهب والعملات، امام أعين المرأة التي كانت تقرأ الكتاب المقدس (صورة العذراء والطفل على الكتاب)، فيتوه نظرها، وخلفها العديد من الرموز التي تذكرها بالخطيئة الأولى (الشمعة المنطفئة والفاكهة). من ناحية أخرى نرى الماء في الجرة والسبحة، وهما رمز لطهارة العذراء، أما العلبة الخشبية فهي مستوعب يتضمن أدوات ذات أبعاد قدسية. دائماً كانت المرأة تستعمل للملاحة وللتذكير بخطيئتها الأولى. بينما الرجل الذي يتعامل هنا مع المال والحلى ويدين بالربى لا يطوله أي ملامة. يهدف هذا العمل إلى فضح الرذيلة في الحياة الزائلة ونبذ حب المال والذهب والحلى.

وفي بورترية «مزدوج» لفيليبو ليبي (صورة رقم ٥)، تضع العروس حلية مشكولة على كتفها وعلى شعرها، وهي هدية تقليدية من العريس متبعة في إيطاليا. يقول ديل كانت "Deil Kent": «عندما يعطيها اللباس والحلى يدخلها في عشيرته، ويثبت بتلك الإشارات حقه المكتسب عليها» (٣). فعلامات الثراء هذه تخص الزوج، وحده يمكنه وهبها أو مصادرتها في حال العوز. أما اللؤلؤ الذي تترزين به، فهو يدل على هويتها الاجتماعية الراقية، على العفة والطهارة والعذرية. وتأكيداً، ذلك الكلب الصغير رمز لإخلاص المرأة. يذكر القديس برناردينو في فلورنسا أن «خيانة المرأة أسوأ من خيانة الزوج لأنه ليس لديها من فضيلة أخرى لتفقدتها» (٤)، «في حين يتمتع الرجال بالعديد من الفضائل». وللتأكيد على أهمية العفة، يقول غوين "Gwen" إن هذه المرأة النبيلة بثوبها الأحمر تدل أنها جاهزة للزواج، وقد نضيف أن الثوب

الأحمر دال ضروري، لكنه غير كاف، نظرا لأهمية الرموز الأخرى ومن بينها اللولو... رافايل في بورترية «السيدة فيلاتا» (صورة ٦)، يرسم ابنة الخبز، عشيقته. أهمية الحلى في ذلك الوقت انها تضيف كرامة ونبلاً على حاملها. هذا العقد الرائع الصنع، يدل على جمال العنق ويزيد الأناقة والجمال. كما أن السلاسل المذهبة هي رقي بالغ اجتماعيا للرجال والنساء، لكنها غالباً ما ترفق باللؤلؤ عند النساء (لدلالة اللولو).

حتى أواخر النهضة وإجمالاً في تاريخ الفن الغربي بشكل عام، لم تحظ سيدة بالتصوير كما الملكة اليزابيث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣). هذه الملكة الشابة جلست أمام عيون الفنانين حيث أكلت لهم مهمة وطنية لنقل أدق تفاصيل لباسها وحليها وقوتها ومجدها، ليستشرف الناظر علامات السلطة الكامنة ليس فيها كشخص، بل في نظام ملكها. الصور الأولى وصفتها امرأة صالحة حاملة للقيم والرموز التقليدية (واقفة بعد ان أصبحت ملكة، وباللون الاحمر بدلاً من الاسود حين كانت تصوغ زواجا لم يتحقق، والكتاب المقدس رمز للشطارة والجدية والتدين، والوردة الحمراء رمز عائلة التيودر، والورد الابيض رمز لبيت يورك وللبتول واللؤلؤ للعفة...). فيما بعد، أضيف لها ايقونوغرافيا الامبراطورية: الإضاءة، التاج، السيوف، الأعمدة، الكرة الأرضية، العصا، ولا معنى لكل ذلك دون الإشارة إلى عفتها وطهارتها المتجسدة من خلال اللؤلؤ والقمر الذي يعبر عن الماء الطاهر رمز العذراء. اكتسبت هذه الملكة حب الناس لها، ولتمجيدها، كانت صورها تهدي لملوك اوروبا، رسمها أكبر الفنانين بدءاً من تيتيان "Titien" الذي عبر عن الفخامة والعظمة بالزخرفة المسطحة، ترى أن سوليفان "Ann Sullivan" (٥) في دراسة لصور الملكة أنه ولو كانت عذرية الملكة أمراً خاصاً بها، لكن وضعها العام يجعل هذا الموضوع من الأمور العامة و«لا تخفيها الملكة»، كما أنها في دراستنا تدل على علاقة صور المرأة بالحلي وبمعانيها المبطنة والمتعلقة بالعفة والعذرية .

تكمن أهمية صور الملكة من حيث حقيقة المدلولات الكامنة وراء رموز الثراء لأغنى وأقوى امرأة في زمنها. اختارت السلطة أن تجعل منها ايقونة للعبادة، على غرار الطقوس التي كانت تقام للعذراء والقديسين. في آخر حياتها رسمت شابة وهي مسنة حفاظاً على العرش. وحيث يعيب تصوير المسنات، نرى أنه ليس من عيب في تصوير المسنين. استمدت الملكة البتول قوتها من عفتها، وأمست بجانب

الآلهة. ومن أهم رساميها الصائغ هيليارد "Heliard"، الذي أنجز بورتريهاً من الحجم الكبير بعنوان «بورتريه طائر الفينيق والبطريق ١٥٧٢-١٥٧٦» (نسبة للحلى التي تزينت بها والتي تصور هذه الطيور).

بينت الحفريات المثلوجية أن الطيور هنا هي وسيلة لابراز جمال الملكة من الداخل ومن الخارج. دائماً كان للطير علاقة بالدين، إنه الفضيلة. البطريق الذي قتل ذاته ليطعم أطفاله من دمه، يشير إلى صلب المسيح وإلى تضحية العذراء/ الأم وإلى جلد الذات. اما الفينيق، فهو رمز البعث وخصوبة العذراء لانه يحيا ويبعث من رماده دون فعل جنسي. وفي السياق الاجتماعي لعصر الملكة وما يفرضه من تطور وانزلاق (Displacement) في تكوين نظم المعاني، يدل البطريق على الرعاية والحماية للشعب، وبالتالي هو علامة وإشارة "Indice" دالة على الملكة (٦). أما الفينيق، فهو الحاكم، القادر ان يحيا دائماً، ويعبر ذلك عن الخوف ممن سيخلفه البتول. ولانه عاش وحيداً، يرمز الفينيق الى الوحدة (كما الملكة). ومع تفاعل اشكالية العلاقة بين البروتستنتية والبابا الذي طرد البتول من الكنيسة، أصبح البطريق يمثل الملكة لأنها الأم التي تطعم كنيستها، والفينيق يرمز لها لأنها أعادت للبروتستنت عزهم. لها الحكم، والشرع، تجمع في نظامها الملكي وهو أرقى نظام للحكم (صورة ٧).

عندما أصبحت اليزابيت امبراطورة البحار بعد هزمها الأرمادا، صورت مع التاج والعصا رمز السيادة والمجد والعظمة، وباللؤلؤ الذي جعلها سيدة البحار، والهة القمر التي تتحكم بالمياه، فأخذت الحلى تصاميم على شكل اقمار وهلال...

اوكل للرسمية «سوفونيزا انغيسولا» Sofonisa Anguisola الاسبانية، مهمة تصوير الملكة، فأسرفت في احاطتها بالميداليات والأعمدة (رمز القوة)، وانطلقت من اسطورة عرشها التي تربط أصول جدها الملك ارثور، مؤسس المملكة، ببروتس الذي أنشأ روما. وهي بالتمام كما كان جدها شيدت امبراطورية، وذلك بعصيانها على الزواج، وبانتصار العفة. فللعة قوتها ولغتها الخاصة في هذا الزمان. ورموز العفة متعددة من حيوان «القاقم» Hermine، ذو الفرو الابيض النظيف، والذي يأبى أن يتوسخ، فيموت؛ إلى «عقد الذهب مع التوبان». كل الرموز تحمل معاني الانتصار والثراء والقوة ولكن المقصود هو مثالية النظام الملكي بقانونه وعدالته (٧). فالسلطة والإسراف في الحلى والثراء حولاً جسد الملكة إلى جسد سياسي هدفه نصررة

بلدها. وكلما تفوقت الملكة في الحكم، وعى المشاهد أنه لا نظام أفضل ولا حاكم أعدل منها.

نستنتج هنا بشكل واضح، كيف أن جسد هذه الملكة الثرية بحلاها وموقعها قد استغل من خلال عفتها، ليتحول جسداً سياسياً، لا يدل على قوتها الشخصية إلا شكلياً، وإنما يدل فعلياً على قوة الامبراطورية. تقول "Susan Doran" (٨): «هذا الجسد السياسي عفيف ظاهر وقوي ومرجعه الانتصار الانكليزي». وقد نضيف أنه قوي ومزين برموز مرجعها انتصار النظام القائم.

... اما «لوكريسيا» (صورة رقم ٨)، وموضوعها فمستوحى من الميتولوجيا الرومانية، فكانت قضيتها متعددة الأبعاد، طالما استثمارها الفنانون مجازياً، دينياً وحتى شهوانياً. يشهد تاريخ الفن أكثر من خمسين عملاً لهذه المرأة المتزوجة التي اغتصبت من قبل ابن الملك. ولأن شرفها دنس، أقدمت على قتل ذاتها، فصورت تنتحر، متلذذة بهذا الفعل الذي من شأنه أن يعيد إليها عفافها المندس. هي عارية أو شبه عارية، ترتدي القماش الشفاف الابيض دليل الطهارة، وسلسلة في عنقها دليلاً للخضوع والاستسلام. تحمل لوكريسيا آلة حادة واخزة، وفي ذلك تعبير عن كل ما هو ذكوري وفقاً لديريدا (١٠)، وتدخل هذه الآلة في جوفها، وهي تبدو وكأنها تحت تأثير النشوة الجنسية.

في خلاصة ما سبق، نستنتج:

- أولاً أن علامات الغنى المتمثلة في الحلى والجواهر لا تعبر إطلاقاً عن اي قوة خاصة بالمرأة، على العكس من ذلك، المرأة هنا هي لأجل عرض ثروة الرجل وسلطته.

- تتمثل المرأة بزینتها وحلاها تأكيداً في عمر شابة، بينما لا يعيب الرجل المسن صوره ولا عرض فضائله. كما ترافق الحلى التي تحمل معاني الفضائل والعفة تحديداً المرأة في وضعيات محددة ولائقة (اليدین المكتفتين، عدم تبيان الأسنان، شد الشعر والنظر للأسفل، وغطاء للرأس في العديد من الأحيان: «على المرأة ان تغطي رأسها ... ، لأن الخطيئة بدأت من خلالها» (٩). إضافة إلى أن العفاف قد أشير إليه بأكثر من رمز وأهمه اللؤلؤ والتوبان، إلى جانب الكتاب المقدس.

لم يتغير المشهد الفني لقيم الثراء لاحقاً، بل أصبح أكثر توهجاً. فعصر الباروك (القرن ١٧)، تميز بتصوير المجاز والحلى والإشارات والعناصر الشرقية كعلامات جديدة وعناصر تجديدية (Innovatrice). في هذا الوقت، اعتادت النسوة على وضع حلق الأذن باستمرار. وقد استعمل الماس للسهرات والحفلات وكان متماشياً مع زينة الثوب المزين بالمصاغ، كالقلادة التي كانت تمتد من الصدر حتى الخصر وتثبت بحبكات تتردد على الكم والتنورة. بلغ اللؤلؤ أهمية قصوى حيث أنه هو الذي اعطى اسمه لهذا الطراز الفني الثوري، إذ ان معنى الباروك هو «اللؤلؤة الغربية وغير المتساوية» في اللغة البرتغالية.

مشاهد النوع (Scenes de genre) والأفكار المجازية ومنها الثراء والغنى هي مواضيع جديدة لعصر الباروك. وإذ كان ارتداء الحلى شأناً ذكورياً بامتياز كما بينت التساوير، وكما نرى في لوحة «التبصير» لفان ايك "Van Eyck" كيف أن المرأة تحاول سلب السلسال الذهبي لشاب غني يتنصت الى قارئة الحظ. أما لوحة «الغنى» لفوويت "Vouet"، فإنها مناسبة مجازية لموضوع ديني. فالغنى هو غنى الروح، والطفل يعني السماء، أسمى أشكال الغنى والمعرفة. هذا الفنان الفرنسي تأثر بالذوق الإيطالي من حيث وضعية المرأة وجسدها الملتوي، تحمل طفلاً ونظراً على الطفل الآخر الذي يمد اليها حفنة من المجوهرات، بينما الجو العام المحيط بها هو غنى بالأشكال المذهبة الثمينة... أما «الغشاش» لجورج دولاتور "G. De La Tour" (صورة رقم ٩)، فهو يبرز ثراء الشاب من خلال لباسه وحليه وجواهره. أما المرأة الغاوية، فهي تتباهى بحلية تثير الناظر إلى مفاتها. نحن أمام ثلاثي يتأمر من خلال الايدي والنظرات، يلعبون بالورق ويلتقطون عين المشاهد لضمه الى مؤامرتهم. كانت هذه اللقاءات هي مجال للمغامرات العاطفية، وتكمن اللغة المجازية في الأخذ بالعبير الدينية الداعية إلى اجتناب النساء والخمر واللعب...

مع طراز الروكوكو Rococco، راجت تصاوير أجواء السهرات التي صورت المرأة الباريسية بالحلى الأنيقة، حيث أصبح «الطقم» "Parure" يتضمن سلسلة ذهبية وقلادة للصدر واسوارتين وتاجاً صغيراً "diademe" و«شكلة» أو «بروش» (١١)، وكانت الحلى هنا رمزاً للتباهي والغوى، والتنافس في الإسراف...

وعندما توج نابوليون امبراطوراً، أعاد موضحة «الطقم الكامل من الحلى» أي "Parure" المؤلف من عقد ومشط الشعر وتاج وحزام الرأس واسوارتين ودبابيس

وخواتم وحلق بدمعة وحلق عادي وحزام. واهدى زوجه العديد منها، قد يذكرنا هذا الحدث بالملكة إليزابيت التي تحولت إلى «جسد أو وعاء سياسي» من حيث أن نابوليون أراد أن يعيد الى العرش عظمته.

الملكة فيكتوريا الرومنسية والقومية على حد سواء، تأثرت بالثورة الصناعية. إلا أن النساء في عهدها تمردن على صناعة المكينات وتمنعن من اقتناء الحلى، مكتفيات بالمصنوعات اليدوية. روجت فيكتوريا حلى الأحزان حيث وضعت مشطاً مزيناً بالأحجار السوداء بعد وفاة زوجها، وسجل التاريخ مجوهرات اوجيني "Eugenie" (زوجة نابليون ٣) الأسطورية، بهدف حفظ الذاكرة التاريخية. اما الملكة الكسندرا فقد درجت موضه ما سمي بـ«عقد الكلب»، لحجب علامة على رقبتها.

اختلف الأمر مع الرومنسية وفن الاستشراق من حيث العلاقة الملتبسة بين مفاهيم الغنى والغموض والغراية لهذا الشرق ونسائه المحجوبات. فاختلطت معاني التزين والتملك والثراء الخاص بهذه الحضارة، ولا بد من التوسع من خلال بعض الامثلة.

امراة الاستشراق: الثراء بين الحقيقة والهوام

الاستشراق كحركة أو كموضوع ألهم فناني القرن ١٩. ينطبق هذا المصطلح على المصورين الغربيين الذين اهتموا بالمواضيع الشرقية. ما يجمع هؤلاء الفنانين يدخل ضمن ايقونوغرافيا الملابس والحلى وتذواق العناصر الشرقية والعدادات وليس تقنيات التصوير ولا الطرز الموحدة على الإطلاق. كان المستشرق يتخيل ابطاله، يرسمهم ويضعهم في بيئة يفترضها أو يتعرف عليها من شهادات المخصيين أو بعض المستشرقات. لم يحظ فنان قط (إلا ما ندر) بمقابلة النساء في الحريم، لم يسمع عنهن، لم يتعرف على عاداتهن وعلى لباسهن مع التفاصيل الدقيقة التي كانت تشحن خياله الغربي بفانتازيا شرقية الإلهام. كان فقط يرى ما يريده، يخطط ما يتخيله ويرفض ما لا يستهويه. هل تجنى على هذا الشرق المدهش، أم فقط عبر بحرية عن رغباته المكبوتة دون قيود؟ ربما، فمن الذي سيحاسبه في رحلته الشرقية؟ وإذا حصل ذلك، سوف يكون فصيحاً بألوانه، بليغاً بأشكاله، لبقاً بتعبيره، إنه الفنان الموهوب والمقتدر في إثارة المشاهد، وفي حرية وفردية اكتسبها من خلال تطور حركة الفكر الأدبي والفلسفي والنقدي والإبداعي.

يتلّقى الفنان وراء شخصية الرجل الشرقي، يستعمله كوسيط لإباحة المحظورات الغربية ويهدف إلى إثارة المشاهد بحيث غدا «موضوع الفن» الاستشراقي وسيلة تحرر من خلال اتهام تعسف الآخر. مما يتيح للفنان حجة للتلاعب على الرقابة، ولعرض شهوانية وإباحية تفوق حدود عقيدته وقيمه.

في هذه الاجواء الشائكة، الزينة والحلى تتلاحم مع أجساد العاريات في أغلب الأحيان، وتوصف المرأة كمخلوق شهواني خاضع. فإن حبس النساء في الحريم لطالما ألهب الشهوات الجنسية والهومات الذكورية. ما دفع الفنان/الرجل إلى نزع النقاب الأسود وافتعال عملية اغتصاب لأغوار المرأة الشرقية بغية إخضاعها لهواجسه.

يتكلم فولنيه "Volney" عن الجمال الشرقي كما عرفه خلال رحلته (١٢)، «المهم ان تكون بيضاء، فتكون جميلة، وجه كالقمر، ردفان مليئان كالتكايات، ... خذ البيضاء للنظر، ولكن للاستمتاع، فخذ المصرية». وقد شبه رقصة العالمة بالطقوس المتبعة للأله باخوس. كما ان الفقيرات من نسوة فلسطين هن بشعات من كثرة المشاغل التي لم تترك لهن اي متاع".

في «خادمة الحريم» لتروبير (صورة ١٠)، دلالات على الخنوع: العري غير المشروع، الضوء على الصدر، الوجه المظلم، اللغز الشرقي، الثراء الفاحش في الأطار العام، الفتنة والهوام والاشياء الغربية والجواهر الأنيقة... يجعل منها مخلوقاً يتصرف الناظر.

في «موت ساردانابل» لدولاكروا "Delacroix" (صورة ١١)، تعبير صرف على رسم الضحايا وهن النساء اللواتي يعانين، يتوجعن أو ينازعن. عاريات (دون مسبب) بينما الملك الشرقي المستبد محتجب في ملابسه وحلاه وثروته. إنه المغتصب الأكبر الذي قرر قتل نساءه وخدمه وحيواناته قبل الانتحار رفضاً للاستسلام الى العدو. ومن خلال هذا العرض، يدل الفنان على المستمتع الأكبر ووراء المشاهد الغربي. طبعاً يعكس المشهد هوام فنان في مشكلته مع المرأة. يقول تالكوت بارسون "Talcot Parson" (١٣) إن القوة ليست فعلياً في شكل المظاهر، بل هي حالة قصوى من هذه المظاهر. وكل عرض لمظاهر القوة هو دليل لانزلاق رمزية القوة في أنموذج خاص. إنه حلم و«الأحلام هي في صنع القوة». إنه هوام القوة الذكورية للتمتع الى أقصى الحدود في مشاهدة هذه اللوحة وعرض الأجسام

الأنثوية فيها. فانتاسما سادية بامتياز تحت عنوان البعيد والغريب. النساء بالحلى هن رهينة هذه القوة وهذا الثراء. والفنان له الحرية التامة كي يستولي على هذه الاجساد المعروضة والمزينة برموز الثراء والغنى. بعبارة أخرى، هذا الهوام هو محق، أو مبني على واقع. فهو قادر على تحويل النزوات الجنسية للناظر ونقلها من مستوى التأمل والفكر إلى مستوى الحركة أو الفعل.

وفي علاقات القوى الجنسية للنظام البطرقي، نقرأ هذا المشهد بأنه اخضاع النساء من قبل الرجال بتحد واستفزاز. الفنان هنا هو الملك يتفرج ببرودة، يستمتع، يحقق ذاته ويحترق في لهب إبداعه وتدميره. والمشهد طلب للمتعة الجنسية بالمثل. وإذا أردنا ان ندرس «المحيط» وليس الشيء بذاته وفقاً لـ «ديدا» (١٤)، فان موقع المعاني المتباينة بين ما هو داخله وخارجه ينتمي إلى منظومة القيم التي تتحكم بالخبرة الجمالية وبالأطر الثقافية لعمل ما. اننا امام أجساد عارية نسائية لا يكسوها سوى الحلى، مفعول بها، على حد فاصل بين ما هو فني وما هو منحرف، منحدر وفاسق. تفضل «ليندا نيد» "Linda Nead" (١٥) استعمال مصطلح التحريف - Obscenity - وتقصد به كل ما هو مفسد، منحل، وكل ما يهدف إلى الإضلال والشر والتشويش للنظم المتعارف بها. فالعمل الإيروتيكي يربك ناظره الذي يتأمل ويتلذذ. هذه اللذة المسروقة هي، من وجهة نظر التحليل النفسي، إنحراف!.. أما الرفعة "Sublime" هنا فهي ذكورية وتتجلى في وضعية الملك المتأمل في ما يحدث أمامه دون أن يرف له جفن.

العري هو شكل، وهو المفهوم، وان وجود الحلى رغم التعري الكامل يتيح لنا أن نرى فيها إضافة إلى ثراء الملك، وهو فعل واضح، وليس ثراء للمرأة على اي حال، على العكس من ذلك، فهي مؤشر لإخضاعها الكامل، ولجعلها مخلوقا غاوريا رهنا برغبات الرجل.

في الاستشراق ايضا يمكن ان نرى في رموز الثراء والغنى اداة استعباد للحریم واخضاع لهن، وتزيين يعزز قيم الغوى، وبالتالي سلطة وثناء الرجل المتمثل بشخص ساردانابل. يقوم بهذا الفعل المشيب رجل شرقي ولو ان الغربي يتماهى معه، ويؤكد تفوقه عليه، علما أنه يشاركه فعليا في فعل الاغتصاب.

٢- المشهد الآخر: الحلى والمرأة في التصوير الاسلامي

من معاني استغلال الحلى والجسد الأنثوي لسلطة المال والسياسة والمتعة الجنسية، يقدم الفن الإسلامي رؤية مغايرة في استعمال هذه المفردات الجمالية ضمن مواضيعه التشكيلية.

من المعلوم أن الفن الاسلامي يعتمد على الزخارف والزينة التي تحرره من اشكالية التجسيم التي نهى عنها العلماء والفقهاء. طورت الزخارف محملة بفلسفة التوحيد التي تتحكم بكل مفاصل ومخارج الامور الدينية والدنيوية. فلدى استعراضنا للمنمنمات الإسلامية الموجودة في الكتب وعلى صفحات الانترنت وفي المجموعات العامة والخاصة وجدنا أمراً واقعاً أوقعنا في حيرة.

أولاً، تبدو النساء في المنمنمات بشكل محدود إذا ما قيست بنسبة للرجال. في دراسة لـ "Ettinghausen" عن المنمنمات العربية (Skira, 1977)، تضمنت الرسومات مجموعة من ٨٥ صورة، لا يتعدى وجود النساء في سبع منها. هذا الاستنتاج لا يقتصر على كتاب واحد، بل تعداه إلى معظم المنمنمات خاصة تلك التي كانت سائدة قبل القرن الخامس عشر. قد يعود السبب الى مواضيع هذه المنمنمات التي تأطرت في مضامين **علمية أو أدبية** وتكلمت عن الاكتشافات العلمية وعن سير الأبطال الشعبيين أو غيره من قصص الغرام.

إذا، وجدت المرأة حيث كان لوجودها ضرورة (خلافاً للفن الغربي كوريث الحضارة الكلاسيكية بمعنى أنه يركز على التجسيد والعري الأنثوي بامتياز بناءً على الدراسات الغربية، وخلافاً أيضاً لنظرة الاستشراق التي أبدعت صوراً لامرأة غربية الهوية بجسد شرقي الشكل). وعندما صورت المرأة غالباً ما كانت محتجبة، مكتسية، ملتزمة بالرؤية الدينية، فلا كشف عن المفاتن الجسدية إلا في الخاص وفقاً للآية الكريمة «لا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن...ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» (القرآن الكريم (٢٤، ٣١)). لقد كان التصوير العربي والاسلامي عامة موضع رقابة، لذا لم يتجاوز المحرمات، ولم يتطراً إلى مواضيع خلاعية. ونادراً ما بدت المرأة دون حجاب، ربما حين كانت الرواية تقتضي ذلك.

في عالم التوحيد هذا، قد يكون الرجل متزيناً بالحلى خاصة بالأحجار الكريمة والملونة، وليس بالضرورة بالذهب (بناءً على التحريم الديني، إذ لا يجوز التشبه

بالنساء). لقد صورت الفنون الشعبية وندرة من المنمنمات البراق المتوج، كما ترك لنا الإرث الفارسي صورة للرسول المتوج (صلعم)، لكنها بشكل عام من الاستثناءات في تاريخ التصوير الإسلامي.

ولكن، ما كان محرماً في العام، وجد له احتمالات مغايرة في الخاص. فقد اكتشفت مشاهد نادرة داخل البيوت منها جدارية لراقصتين مزينتين بحلق أذن، موجودة في غرفة الحريم (الخاص) في قصر الجوسق (سامراء العراق، القرن ٩) (صورة رقم ١٧). ولو أن التاريخ تضمن العديد من الروايات التي تكلمت عن مسح الجدران المصورة بين زمن وآخر...

من ناحية أخرى، في كتاب «صور الكواكب الثابتة» للصوفي (١٠٠٩)، يوجد صورة لصبية غير محجبة... وفقاً لـ "Ettinghausen"، هي صورة مقتبسة عن مثال يوناني قديم وعن نموذج نسائي يشبه إلى حد كبير تسريحة المرأة في "Palermé". لكن تفاصيل وثنيات الثياب ترجع للفن العراقي آنذاك، ناهيك عن الوضعية والحركة الراقصة والحلي، إنما ترمز إلى سمات أنثوية تعود تحديداً لخصائص «مدرسة سامراء» التي امتازت بالأشكال الثنائية الجنس "Bisexual"، تشبه إلى حد كبير صورة هرقل وهو يضع على شعره حلياً وسلاسل (صورة ١٨).

أما في مقامات الحريري، فقد وجدنا منمنمة واحدة برزت فيها المرأة مزينة ببعض الحلي. كان ذلك في مشهد الوضع. يصف الفنان هذا الحدث العظيم في منزل أحد الوجهاء. أولاً هذا الموضوع هو من المواضيع المحببة في المنمنمات، فهو من ضمن الأحداث العظيمة التي يحتفل بها الناس "كالأعياد، وطهور الصبي، والولادات: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا...». كل أفراد العائلة يشاركون في هذا الحدث العظيم. ولتسهيل حركة المرأة قد فرجت عن صدرها ليتبين لنا عقد من اللؤلؤ الكبير. قد يكون دليلاً على المستوى الاجتماعي للمرأة (صورة ١٢)، أو إلى العادات السائدة في اللباس النسائي...

فعلياً يمكننا استنباط إشكالية في عدم وجود الحلي كعنصر تشكيلي يتجانس مع ايقونوغرافيا الفن الإسلامي المرتكزة بشكل أساسي على الزخارف. إن عناصر المنمنمات تتكون من السجاد والأواني المزخرفة والثياب المزركشة والعناصر المعمارية... فكل ما في هذه الحضارة مزخرف. ومن ناحية أخرى، اعتادت المرأة

الشرقية أن تتحلى بالحلى، وبإفراط أحياناً، إنه الذوق الشرقي، ذوق «الكثرة» "Abondance" والكرم. ولعلاقة المرأة بالذهب والحلى بعد تاريخي يرجع إلى الاحداث المفصلية في حياتها، من الولادة إلى الزواج يقدم إليها المصاغ... درجت التقاليد الشرقية أن تحفظ مصاغها على جسدها، وغالباً ما تكون حرة التصرف به. ومن أهم الحلى الدالة على الثراء هي الـ«مبرومة»، أي الإسورة الدائرية الذهبية التي كانت تجمعها في يدها منذ الصغر ولا تنزعها مهما كبرت إلا للعوز. وحين يتعذر نزعها لأن مقاسها يضيق على الذراع مع الوقت، كانت تكسر لتخلع عن اليد. إذا، ثروتها في ذراعها. إلا أنه لم يكن من السهل ان نرى هذا التماظهر في الفن التشكيلي والتصوير التمثيلي الإسلامي.

تعشق الشرقيات التماظهر بالحلى، انها ثقافة وعادة، وحتى في بعض الفئات الشعبية، كانت الحلى (غير الثمينة) متاحة للفقيرات من أجل التزيين. كيف يمكننا تفسير هذه الظاهرة؟ وما هي المعاني الدالة التي نستنبطها من وراء هذا الخيار الجمالي؟ هل في ذلك مؤشر ثقافي؟ فكما هو معلوم أن العمل الفني هو «شيء من الثقافة» (١٦) وفقاً لفرانكاستيل "Francastel"، والموضوع الفني هو أيضاً علامة لثقافة ما في عصر ما شابيرو "Schapiro" (١٧). يمكننا أن نحاول ايجاد تفسيرات مقبولة في العودة الى منابع القيم الثقافية. فنجد مثلاً:

- المرأة محجبة عادة في العالم الشرقي وفي التصوير الشرقي إلا ما ندر. لذلك فإن زينتها مخفية داخل ثوبها، ولم يكن من مبرر لعرضها. تحض الآية «أن يضربن جلالهن على جيوبهن». وعندما يكون الكشف حاصلًا، فالتصوير يعالج التفاصيل باجتنااب التجسيم والحس الشهواني.

- الحلى من الزينة التي تجمل صاحبها، ولا يجوز التماظهر بها، ربما من هذا المنطلق كان بإمكاننا أن نرى سيداً مزيناً بالحلى وليس امرأة مزيّنة.

- ينبغي التوسع في الموقف الديني من مظاهر الحلى والزينة

في الموقف الديني من مظاهر الحلى والزينة

- بالحقيقة ليس من السهل ايجاد اي مبررات دون الرجوع الى فحوى الدين الذي يشكل الخلفية النظرية للفن الاسلامي. فما هو المفهوم الديني للحلى والذهب والفضة؟

هناك وجهة نظر دينية تتعاطى بازدراء مع «الزينة» والزخرف، فهي من القيم المادية، وزخرف القول هو سطحيته، ألم تدعُ الآية الكريمة «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، ...» (٧، ٣٢). كما تردد بعض الآيات «... إنه لا يحب المسرفين» (٧، ٣١). من ناحية أخرى، «ان المال والبنون زينة الحياة الدنيا...» (١٨، ٤٦)، و«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث، ... والله عنده حسن المثاب» (٣، ١٤). ف «الملك لله» وان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة... (٩، ١١١). كما هدد الذين يكنزون الذهب والفضة، ووعد الصابرين، ونبذ المفاخرين «فخر على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم» (٢٨، ٨٠). تبين هذه الآيات عن نبذ الدين للقيم المادية وتدعو المؤمنين إلى تجنب المعاصي التي تتمثل بالمفاهيم التالية:

- «الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد...» (٥٧، ٢٠). والويل ل...الذي جمع مالا وعدده، يحسب ان ماله اخذه، كلا لينبذن في الحطمة « (١٠٤، ١) ...»

- أما عندما نتكلم عن هذه الرؤية الصارمة التي شكلت مسلكاً للزاهدين أساسه نبذ الإسراف والتبذير، فلا نجد تناقضاً فعلياً مع الآية التي تقول «أما بنعمة ربك فحدث»، والتي نجد في معانيها ترشيداً للإنفاق وعدلاً واعتدالاً ونبذ الشح وايضا الواجب الالهم في الإنفاق على المعوزين من خلال الزكاة والصدقات والخمس...

وفي عدم جواز تحلي النساء بالذهب، فقد تكلم الفقهاء عن هذا الموضوع، وأكثرهم من أباحه، ومنهم من حرمه. إن التحلي بالحلى شأن نسائي، لذا شجب على الرجل التحلي بالذهب والحريير من باب التشبه بالنساء. وبشكل عام، أجمع على ذلك السلف والخلف. أما حجج تحريم الذهب على النساء فهي ضعيفة، وردت فقط في حق من تركت أداء زكاتها، أو أظهرته أمام من لا يحل لها أن تظهره أمامه، أو أرادت به الفخر والخيلاء (١٨). مما يتوافق مع ما ذكرناه سابقاً في تحاشي إبراز هذه المظاهر المادية والغاوية. في الواقع، يقع مبدأ دفع الزكاة على الأموال المكدسة والتي لا يعوزها صاحبها. من هذا الباب تحايلت النساء في اقتناء الذهب والمصاغ

الصوفي: في معاني الثراء والافتناء والأبعاد الرمزية لتساوير المرأة والحلى

الصوفي: في معاني الثراء والافتناء والأبعاد الرمزية لتساوير المرأة والحلى

الصوفي: في معاني الثراء والافتناء والأبعاد الرمزية لتساوير المرأة والحلى

لأنه يدخل في باب الوظيفي والاستهلاكي، وبالتالي لا يتوجب دفع الزكاة عنه، ولا يعتبر من المال المكس.

هل التصوير الاسلامي مناهض للحلى؟

في مراجعتنا للمنمنمات الفارسية «شيرين وخسرو» و «الشاهنامة»، اتضح لنا أن قلة منها رسمت النساء مصيغات (صورة رقم ١٣)، على سبيل المثال رسمت المغنيات مزينات بالعقود والقلادات، لكن هذه المشاهد الثنائية الأبعاد لا تدعو الى الشهوانية والإيروتيكية التي نشهدها في الفن الغربي. فيما بعد (القرن ١٧)، تأثر التصوير الفارسي بالفن الأوروبي وراجت تصاوير العاشقين. لكن روحية التصوير مختلفة تماماً من حيث المناخ العام والروحانية المتعالية والمتسامية، فالنسوة بالثياب اللماعة هن في أحلام ومتاهات الحب العذري والعشق الصوفي، والمكان جنينة هي رمز للجنة الموعودة والحب الخالد.

يبدو الحال «ايكونوكلاستيا» "Iconoclaste" (بمعنى أنه مناهض لرسم الحلى وتبنيانها كما بدا لنا في تعداد المنمنمات الاسلامية)، وذلك في المنمنمات التركية (صورة رقم ١٤) بشكل خاص. النساء هنا أكثر بساطة والتزاماً بالتشريع الديني. فإذا ما أخذنا موضوع «الولادة» مثلاً، نرى أننا (خلافاً لمنمنمة الواسطي الفريدة من نوعها في أداء هذا الحدث امام عين الناظر مباشرة) أمام حدث يكتمل تحت غطاء السرير وفي زاوية من العمل الفني، والحجاب كامل ولا شيء قد يستفز أو يلفت نظر المشاهد، رغماً من دقة الموضوع الأنثوي في شأنه.

لم يعالج الفن الغربي قط مواضيع الولادة. ولم يهتم بهذه المخارج إلا حديثاً مع بروز النسوية في المجال الفني. هذا لا يعني على الإطلاق أن الفن الاسلامي كان نسوياً، بل اقتصرت مواضيعه على الأحداث الروائية والعلمية بشكل عام.

وحدها المنمنمات الهندية كانت مسرفة في تمثيل الحلى كعناصر زخرفية تزيينية، وذلك للرجال والنساء على حد سواء (صورة رقم ١٥). يعود السبب ربما إلى عادات وتقاليد هذه الشعوب. في الكاماسوترا (وهي منمنمة عن علم التمتع الجنسي تدخل في نطاق المنمنمات الاسلامية من حيث طرازها وأبعادها الجمالية) إسراف في الحلى للجنسين، من حيث أبعاده المثيرة على الأجسام التي لم تكن عارية (١٩)...

من المثير أن ننتبه إلى المفارقات الأيقونوغرافية بين الحضارتين الغربية والإسلامية. فبينما ساد مبدأ المحاكاة في الغرب، وتأريخ النظم والعرش والملوك والرؤساء، لم يهتم الفن الإسلامي بالتاريخ إلا من باب المقاربات الأدبية والعلمية، ولم يجد ذاته في تصوير العري، وأما الحلى فحين وجدت دلت على ثراء صاحبها رجلاً كان أم امرأة (ربما نجد في ذلك أمراً طبيعياً حيث يعتمد في الإسلام مبدأ فصل الملكية بين الزوجين)، وعلى مؤشر لعادات وتقاليدها في الموضة السائدة.

رموز في تحول

بعد ان اكتشف ميكيموتو في اليابان تقنية زرع اللولو (القرن ١٩)، ارتفعت أسعار الحلى المقلدة مع شانيل ولاليك "Chanel et Lalique"، فلقت بحلى الكوكتيل أو حلى الفانتازيا. وتأثر الأوروبيون بأفلام هوليوود ولباس النجمات، خاصة في الزمن المعاصر مع مسلسلات «الغنى والقوة والسلطة» (دايناستي...). حيث الحلى ليست إشارة غنى وحسب، إنها بقايا من الحضارة والتراث والعادات السائدة. لقد روج الإنتاج الاستهلاكي ديمقراطية الموضة لكل الميزانيات. وطالت الزينة الرجال على حد سواء. فعادت السلاسل المذهبة، كما تصاميم الساعات والهواتف الخليوية، المسابح والأزرار وغيرها...

ولكن بحثنا المتمثل في تصاوير المرأة والحلى يلاقي قصوراً في الزمن المعاصر المتوجه نحو الفن التجريدي واللاشكلي (٢٠). يقول المصمم «بينتون» "Penton"، أن التصميم والفكر هما الأساس، وهما مترابطان في جميع الفنون كما ذكر سوريو "Souriau". لذا فإن مصممي الحلى يستلهمون أيضاً من الفن البصري، والمينيماليسم "Minimalism" بحيث يلعب مدلول الاحجار دوراً في تفسير الاشكال الخلاقة.

تحمل الحلى جمالية العصر الذي تنتمي اليه طبعاً (٢١). فقد أراد إرتي "Erte"، الفنان الروسي النبيل الأصل أن ينجز هدفين: تجميل المرأة من جهة وجعل الفن متاحاً أمام الجميع. اعتبر طليعياً في تصميم الحلى من طراز الأرت- ديكو "Art-Deco". «كل إنسان من شأنه أن يجمل ذاته قدر المستطاع»، هكذا فكر إرتي، الذي أضاف أن الملابس (والجواهر) لها «سحرها الذي يحول لابسها...». اجتهد هذا الفنان

في طموحه واحجاره وأبدع في تمرد، ورفض التأطيرغارفاً من المنمنمات الهندية والفارسية ومن الأواني الإغريقية...

أما دالي "Dali" فقد تفنن بتصميم الساعات السائحة في أعماله. الساعة ترمز للوقت والزمن، وليس للتزيين هنا. إلا أن ستيلا واين "Stelle Wein" ، رسمت الاميرة ديانا مصيغة في اكثر من ثلاثين عملاً، أهمها: «هاي بول، هل تأتي أنا خائفة» عام ٢٠٠٣ (صورة رقم ١٦). في كل أعمالها عن الاميرة، وضعت لها الحلى تعبيراً عن شخصيتها الأسطورية... لقد ربطت الفنانة بين موت الأميرة ووفاة والدتها المريضة. لكن النقد وجدوا أنها تعكس حال الذات، فهي لا تحترم بتاتاً ذاكرة الأميرة الحاملة، على هذا الحكم تجاوب الفنانة: «أرى نفسي فيها». تكون الاميرة مثالا... وحلماً لم يتحقق.

تبنى صورة المرأة انطلاقاً من عدة اصطلاحات من بينها اللباس والزينة. ما زالت المرأة العصرية تطور مواهبها ومخيلتها لتكون جميلة، ويتجسد المثال في بناء المستقبل المهني الناجح. بمعنى آخر، كل ما يناقض الشكل الفاتن والغاوي. فعلياً يساهم الرجل الى حد ما في إعادة إنتاج هذه الثقافة الأنثوية، وما باربي إلا دليل قاطع لهذا الاتجاه، فلم تتغير صورتها إلا بعد اصرار الجمعيات النسوية المستفزة من جوانبها المثيرة، مما أدى إلى تحجيم صدرها ومفاتها وكمالها.

ما زالت الحلى تشكل اناقة ووسيلة للغواء والإثارة. وهي ملاذ متاح لكل الميزانيات. وفي الزمن الراهن، لم تعد المرأة في الفن هي عارضة الحلى، على العكس من ذلك، تعاطى الفن مع العاملة والمنتجة وكرس لها مساحات مستحدثة من الألوان والخطوط...

لائحة بالصور

- ١- التريراتنا.
- ٢- الالهة ايريشكيغال، بلاد ما بين النهرين.
- ٣- فان دير فايدن، «بورتريه».
- ٤- ميتسيس، «المدين وزوجته».
- ٥- فيليبو ليبي، بورتريه «مزدوج».
- ٦- رافايل، بورتريه «السيدة فيلاتا». ١٥١٦ ، ٦٥×٥٠، فلورنسا، قصر بيتي
- ٧- (Elizabeth I and the Ermine Portrait)
- ٨- «لوكريسيا».
- ٩- جورج دولاتور، «الغشاش».
- ١٠- تروبيير، «خادمة الحريم».
- ١١- دولاكوا، «موت ساردانابل».
- ١٢- منمنمات الواسطي، الوضع.
- ١٣- منمنمة فارسية، احتفال.
- ١٤- منمنمة تركية، الوضع.
- ١٥- منمنمة هندية، عاشقان.
- ١٦- ستيلوا واين، «هاي بول، هل تأتي أنا خائفة»، ٢٠٠٣.
- ١٧- الراقصتان، قصر الجوسق، سامراء، ٨٣٦-٨٣٩
- ١٨- الصوفي، كتاب صور الكواكب الثابتة، ١٠٠٩، ٢٢٣×١٤٧، مكتبة بودلين، اوكسفورد.

المراجع والمصادر

- 1- Bible Quotes and References: **Dream Interpretation Dictionary**, "Jewels: Christian Dream Symbol".
- 2- Craig Harbison, **Symbols in Transformation**, Princeton, 1969
- 3- Mary Ann Sullivan, **Gender in the visual arts**, web page 2002. sullivanm@bluffton.edu, Paris IVD CRLV.
- 4- Gent, Lucy, and Nigel Llewellyn, **Renaissance Bodies: The Human Figure in English Culture, 1540-1660**, Eds Reaktion Books, 1990, ISBN 0-948462-08-6 Tinagli & Gwen
- 5- Whitney L, **Emblemes**, Wilson, 1987, pp. 238 & suite.
- 6- Ernst H. Kantorowicz, **The King's Two Bodies**, Princeton, 1997,
- 7- Jonathan Woolfson, 'Between Bruni and Hobbes: Aristotle's Politics in Tudor Intellectual Culture', Ed. Basingstoke, 2002, pp.197-222.
- 8- Doran, Susan **"Virginity, Divinity and Power: The Portraits of Elizabeth I"**. The Myth of Elizabeth. London: Palgrave Macmillan, 2003. ISBN: 9780333930847.
- 9- Frances, Astraea, **The Imperial Theme in the Sixteenth Century**, London and Boston: Routledge and Keegan Paul, 1975, ISBN 0710079710
- 10- J.Derrida, **"The truth in painting"**, Chicago and London: University of Chicago Press, 1987, p. 45.
- 11- Hermann Schadt, **Gold smiths' art: 5000 years of jewelry and holloware**. Arnoldische. Stuttgart 1996, 239 pages.
- 12- Volney, Œuvres : **Voyage en Syrie et en Egypte, 1799**, 3^e éd. Anne Deneys-Tunney, Henri Deneys, ed. Paris. Fayard, 1998, vol. III, p.p 16-83.
- Cahiers de la Méditerranée, vol. 66/2003: Irini Apostolou, **"L'autre et l'image de soi"**, L'apparence extérieure de l'Oriental et son rôle dans la formation de l'image de l'autre par les voyageurs français au XVIII^e siècle, Paris 2003.
- 13- Mary Douglas, **Purity and Danger**, an analysis of objects of pollution & taboo, Routledge & Kegan Paul , 1966, p.121.
- 14- Lynda Nead, **Female Nude**, Routledge, London 1993, 133 pages.
- 15- J.Derrida, ibid. pp. 90...
- 16 -P. Francastel, **Art et Societe**, Denoel, Paris 198
- 17- Schapiro, **Style, Artiste et Societe**, Denoel, Paris 1994.
- ١٨- إسماعيل بن محمد الأنصاري، **إباحة التحلي بالذهب المعلق للنساء**، ٩٦ صفحة.
- 19- Kama-Soutra, Peintre Inconnu, XVIII^eme S

- 20- Graziella Folchini Grassetto, **Contemporary jewelry**, The Padua School, Arnoldsche, Padova, 2005. 167 pages. (p.20)
- 21- H. W. Drutt English, P. Dormer, **Jewelry of our time: Art Ornament and Obsession**, N-Y, 1995, pages (pp. 29-30)
- 22- R. Ettinghausen, *Arab Painting*, Skira, Geneva, 1977. 209 pages.

Web Sites & Pages

- * Gaunt, William: *Court Painting in England from Tudor to Victorian Times*. London: Constable, 1980. ISBN 0094618704.
- * <http://cdlm.revues.org/document93.html>. Consulté le 06 janvier 2009. Auteur Irini Apostolou

المحور الخامس
وجهات نظر وشهادات



علاقة المرأة بالمال: مسألة تربية أم جينية؟

عندما طُلب مني أن أكتب في قسم الخواطر حول المرأة والمال، خطر على بالي حديث جرى، منذ زمن بعيد، في أثناء وجودي بين شلّة من الصديقات. حين انبرت إحداهن، بدلع البنات المدلّلات، لتقول إن والدها الثري قد حدّر زوجها حين كان لا زال خطيبها ونصحه بعدم توفير بطاقة ائتمان أو دفتر شيكات لزوجته (أي لها) في المستقبل، والاكتفاء بتوفير المال النقدي لها. فهي غير مكترثة ولا تعرف قواعد الحساب حين يتعلق الأمر بصرف المال.....

وفي أحد الإفطارات الرمضانية العديدة التي تقام في رمضان، لا سيما من قبل الجمعيات الخيرية، حاولت إحدى الصديقات أن تضفي على معرفتها بي بعض الأهمية. فعرّفتني إلى إحدى صديقاتها بأنني أعمل مديرة في مجال التدريب المصرفي. فما كان من السيدة الكريمة إلا أن علقت على الأمر بأنها لا تفقه شيئاً في قواعد الحساب والمال وأن ١ + ١ تساوي ١١ بالنسبة إليها. ولم أستطع أن أعرف إن كان ذلك إطرأً لي أو عدم اكتراث بعلمي واهتماماتي. فما كان مني إلا أن أنثيت

فدوى مردم بك منصور(*)

(*) مديرة التدريب في جمعية مصارف لبنان.

على سعة خيالها وعلى ضرورة وجود أشخاص يرون الاشياء بأشكال مختلفة. وفي مقابلة مع إحدى الصديقات في دمشق في الآونة الأخيرة، تذكرت موضوع كتابة هذه الخاطرة، وعندها قررت الكتابة. فلقد أسرّت إليّ هذه الصديقة بأنها ربحت مالاّ كثيراً في التوظيف الذي قامت به في الأسهم التفضيلية في مصرفين لبنانيين بينما خسرت كل ما وظّفته في مصرف «ليهمان بروزرن» الأمريكي في الأزمة المالية الأخيرة التي عصفت بالمؤسسات المصرفية في أمريكا. ولا أعرف كيف خطر في بال صديقتي الدمشقية أن تشتري أسهماً في هذا المصرف الأخير!

هذا هو سرّ الطبيعة. لكل من هؤلاء النسوة توجّه مختلف عن الأخرى. فأنا لا أعتقد أن ثلاثة رجال يتمّ اختيارهم من مجتمعات وبيئات واهتمامات مختلفة تكون نظرتهم إلى المال والاستثمار متشابهة. ولكن، من المؤكّد أن التربية وتوجيه الأشخاص منذ الصغر والبيئة المحيطة بالإنسان لها جميعها تأثير على اهتمامات الأشخاص، رجالاً ونساء.

فصديقتي غير المكترثة بالحساب تمّت تربيتها على أساس اللامبالاة بالمصروف ولا حتى بجني المال، باعتبار أنها سوف تجد من يعتني بها ويوفّر لها كلّ ما تطلبه وتحتاج إليه على الصعيد المالي. ولمّ التعب وشغل البال؟ أما صديقة صديقتي ذات الميول الفنية (حسب اعتقادي)، فلا حاجة بها إلى القيام بالعمليات الحسابية ولم يتمّ توجيهها نحوها، فليست لديها أصلاً أية ميول إليها.

أما صديقة عمري سيدة الأعمال الشامية، فأنا أذكر أن والدها، ومنذ نعومة أظافرها، أراد لها مثل هذا المسار. فهو كان يأخذها معه في سفراته إلى الصين والهند وأوروبا. وكنت أحسدها على أنها تعرّفت على كل هذه البلدان منذ صغرها. وكان أبوها يحفّزها على الاهتمام بتجارته. فهي الأخت الكبرى لأربعة صبيان. وأراد، لأسباب أجهلها وقليل مثيلها في مجتمعاتنا العربية، أن يحمّسها على ولوج عالم الأعمال وأن تتعرّف على أصول التجارة والاستثمار. وهكذا كان...

فهل التوجيه والتربية مهمّان إلى هذه الدرجة؟ أم أننا نحمل في تكويننا الداخلي البيولوجي جينات حسابية ومالية واستثمارية؟

قرش على قرش جهاز!

عجيب، عجيب منطق الأحلام. منطقتها؟ بل قل تفكَّهها ونهلها من كلِّ حذب وصوب وإدخالها صاحبها في حيرة مبتدؤها معروف، أمَّا خواتيمها فلا خواتيم وإنما شروحات وتفسيرات وتعبيرات يشترك في إنشائها العلماء والمشعوذون.

ما الذي جمع تلك الليلة، تحت أهداب بلال، ابن الثانية عشرة، في مشهد واحد، مقتطفاً من فيلم ذهب مع الريح وزيارة لمزرعة خنازير، وشخصية من شخصيات أبي عثمان بن بحر المعروف بالجاحظ؟ بالطبع، ليست الصدفة وحدها من جمع هذه الشوارد الثلاث في حلم واحد، بل ذلك القرار الحازم الذي اتخذته الغرّ بينه وبين نفسه فيما كان يستعدُّ لأن يضع بنفسه أوزار نهاره: «الأمر لي... إنه قراري ولن أرجع عنه. غداً أفرغ حصّالتي. هذا ما كتبته الصبي على دفتره الذي يستعمله رسمياً لدروس الرياضيات ويستودعه دون سائر دفاتره أسراره الصغيرة... كتب قراره على هامش صفحة خطِّ عليها ما حسبه خواطر تستحق التدوين، وسطرّ تحت لفظة «قراري» سطرين متتاليين كأن ليلزم نفسه، ومضى

رشا الأمير(*)

(*) روائية وناشرة.

حالماً بما سوف يكون من أمره في الغد متى ما انتهى من إحصاء ما يحتويه بيت ماله، أعني نجمته الخشبية.

هل يكفي ما تجمّع، بين لهو وجدّ، في جوف تلك النجمة الخشبية التي أهدته إياها إحدى صديقات والدته لإنجاز المرحلة الأولى من مشروعه الذي تحتاج مراحلها اللاحقة إلى المزيد والصبر، ومن التوفير ومن سخاء الآخرين؟ وإن لم يكف ما تجمّع في النجمة؟ إن تمخضت النجمة غداً - رغم محاولاته الدؤوبة في تغذيتها بشتى صنوف العملات - عن رأس مال هزيل؟ وإن؟ وإن؟ حينها، لكل حادث حديث. أفليس المال فكرة، لا بل أفكار ملحّة إلحاح وسوسة الشياطين ونهي الملائكة؟

ليس المال فكرة واحدة، بل أفكار، أبلغها لربّما، تلك التي التمعت من قديم الزمان في أفئدة الكيميائيين والكيميائيات: «لا علم يعلو على علم يهجمس بتحويل التراب ذهباً! تخيل تراب الأرض ذهباً. أليس بالذهب أيضاً تجترح الأعاجيب وتشاد المنائف؟». هذا بعض ما كان يدور في خلد بلال. وليس هذا فقط بل طاب له أن يستأنف على طريقته رسم شجرة للعائلة التي ينحدر منها، فأثبت في مكان ما تحت قمتهما بقليل جدّة له ساحرة، حاطت نفسها بعدد من المعاونين والمعاونات، وجعلت همّها إحالة القليل من كل شيء كثيراً، والوضيع شريفاً، وبنات الأفكار وأبنائها أشخاصاً ذوي ملمس ورائحة! من أين أتى بلال بفكرته هذه؟ أمن قراءاته المثابرة لقصص الفرسان والسحرة؟ أم من اندهاشه المتصل من قدرة النساء، من يعرف من نساء، أمه وعماته وخالاته، على التدبير؟ لسبب ما، غالباً ما تمثل هؤلاء النسوة على مثال قباطنة أشداء يُجرين الرياح كما يشتهين، وغالباً ما ذهب به الظن إلى تفسير تفوقهن لما قرأه يوماً من قصة شمشون ودليّة: شمشون حاكي النساء بإسدال شعره، وما فعلته دليّة لم يعد حرمانه من قوته النسوية...

يوم أهدته صديقة أمه تلك النجمة التي يكلها ثقب يتسع لشتى العملات المعدنية والورقية، سألت الاثنين، أمه والصديقة، هل كان منهما أن تعاطتا الادخار على نحو ما تدعوانه أن يفعل فأجابته بالإيجاب، واستفاضتا في وصف حصّالات طفولتهما الفخارية وتبارتا في وصف ما تهيّبه كل منهما يوم قررت، لسبب ما، أن تكسر حصّالتها. لم يبد حماساً كبيرة لحديثهما الذي لم يزد في واقع الحال على علمه شيئاً. فالحصّالات لا تتشابه: أخته مثلاً تدخر في أنية على هيئة تفّاحة، أمّا صديقه ففي أنية

على هيئة خنزير. ثم إنه، في تهويماته، لم يستبعد أصلاً أن يقع يوماً ما على حصالة على هيئة نملة عملاقة تيمناً بتلك النملة الدؤوبة النشيطة التي جمعت قوت شتائها، على ما يرد في قصيدة استظهرها عن ظهر قلب، أو على هيئة بقرة كريمة لحماً وحبلياً، تيمناً بإعلان متلفز، أو على هيئة دجاجة طالما أن بعض الدجاج من فصيلة الكيمياءيين وتريد القصص أنه يبيض بيضاً من ذهب. أما التهيب فلا حول ولا قوة. مما يتدنى عن كسر حصالة فخارية يتهيب المرء صغيراً كان أم كبيراً. فأَيُّ جديد في ما يستشعره ويقلقه؟ ثم إنهما، أمه وصديقتها، لم تجيباه عن سؤاله.

* * *

غداً إذاً، يوم الخميس، غداً يفتح بلال بيت ماله، يعدّ ما تجمّع فيه ويشترى ما يحلم به منذ شهور طويلة. أمّا الآن، وقد شارفت الساعة منتصف الليل، فراح، استدراجاً للنوم يعدّ افتراضياً كل الخنازير. الخزانات التي شاهدها يوماً معروضة على رفّ أحد المخازن. وإذ ضجر من الخنازير تحول عنها إلى رعاة متوهّمين يعبرون وسادته كما مرج شاسع ثم إلى نجوم لا تقل توهماً. عبثاً. أخيراً، وبعد أن حطّم رقماً قياسياً في التقلب يمنة ويسرة إذ به يجد نفسه، بين الغفوة والصحوة، متربعاً على ذلك الحصير المقصّب المعلق في صدر البهو من بيتهم، والذي لطالما حلم بانتزاعه من إطاره الذهبي السميك لاتخاذ سفينة بساط ربح.

لم يفته بين الغفوة والصحوة أن يحدث نفسه بشيء من قبيل: «لو رأيتني أمّي على متن حصيرها، بقجتها المقصّبة الثمينة، لغضبت حتماً ولقرّعتني مذكرةً إيّاي بالقصة الكاملة لاقتنائه من مخزن لبيع الأثریات، خلال زيارتها الثانية إلى تركيا صحبة الوالد». إلى آخر القصة التي من كثرة ما سمعها بات يحسن روايتها بمزيد ترتيب عن والدته الناظرة إلى البقج المطرّزة والحمامات الأثرية كمستعربة تزور الشرق للمرّة الأولى!

طار به الحصير المقصّب وهبط به أول ما هبط في مزرعة تعجّ بالحيوانات الأليفة، تجول في أرجائها إلى أن استوقفه حديث بين خنزيرة مكتنزة، وخنّوص رجّح أن يكون وليدها: «أسيادنا الشقر ذوو العيون الملونة، ألا يطعموننا نوافلهم وبقايا أكلهم يوماً بعد يوم؟ معنى ذلك أن فتات قروشهم هو ما يسمّنا، وأن اكتنازنا وما سيجنونه بعد حين من لحمنا يزيدهم ثراء. أعرفت الآن لم اختارونا رمزاً للاذخار؟ يطعموننا الفتات فنأكله بنهم ونمتلئ لحماً وشحماً يبيعونه بسعر باهظ!

أفهمت فلسفتهم يا بني؟ أفهمت كيف يثرون من بطوننا؟ كل يا بني، كل وسر إلى مصيرك كي تلون أمرجتهم بلوننا الزهري، لون الأمل . على ما تقول كلمات أغنية فرنسية ذائعة . والأزهار الربيعية التي يتهاداها الناس وصلاً لحبل كلام أو لنظرة سنحت أو ابتسامة ارتسمت» .

همهم بلال وابتسم . ها قد فهم سرّ الحصّالة الغربية ، كما فهم مقاصد رأس المال الذي اختار جوف الخنزير رمزاً لمراكمة «استثمارية» ذكية لفضلاته التي يسميها تزكية لها «فواض» . جوف الخنزير إذاً هو المفاعل السري الذي تتحول فيه الفضلات إلى عكسها... كيمياء... الأزهار تزهرو... أليس كذلك؟ المال أيضاً، إلا أن زهره من شحم ولحم حيوان مكروه في حضارتنا، أليف ومحبّب في كنف حضارات أخرى . يزهر ويبهج متجلبباً بلون وردة!

بلا رابط منطقي، ومن مزرعة حلمه الأوروبية، طار الحصير وحطّ ببلال في قاعة سينما . «أين أنا»؟ لا وقت للأسئلة... في حضرة الأفلام لا محلّ إلا للمشاهدة . لم يحتج الفتى إلى كثير مراجعة ليتأكد أنه يشاهد مقطعاً من **ذهب مع الريح** . «البطلة» سكارليت أوهارا - وقد لعبت الدور فيفيان لي - تنزع بعنف ستارة خضراء اللون وتحولها، بسحر ساحر، في اللقطة التالية إلى فستان أنيق تلبسه على شرف الرجل الذي سوف يعينها على إنقاذ مزرعتها الراضحة تحت الديون . سكارليت! كم تليق بها البطولة!

أحبّ بلال شخصيتها ومنافحتها، في عزّ الحرب الأهلية، عن تارا، مزرعتها الواقعة في الجنوب الأميركي .

يوم قرأ الصبي رواية مارغريت ميتشل لم ينحفر هذا المشهد في ذاكرته؛ أما الآن، وهو يشاهد هذه اللقطة المدهشة في حلمه، كيف له أن ينسى سندس القماش المخملي محتضناً رشاقتها! كيف التمعت فكرة تحويل الستارة إلى ثوب في عقل المرأة العاشقة لمزرعتها؟ كيف اتّخذت، من جارت عليها الدنيا بعد عزّ، هذا القرار الكيميائي؟ هذه امرأة أنيقة تريد أن تبهر من سوف ينقذ أعزّ ما عندها . هذه امرأة لا تملك مالاً لشراء فستان جديد . كل ما تحت يدها ستارة مخملية وبها ستتنوسل لنيل ما تريد . يا لها من ساحرة هذه البطلة !

توقف الفيلم فجأة، وطار الحصير ببلال فوق مدن تشعّ بالأضواء إلى أن

حطت به جوار كتاب عملاق غلافه المجلد بجلد سميك أشبه ببوابة نصف مشرعة. ولج بلال الغلاف البوابة فألقى نفسه متنزهاً في حديقة من كلمات: «أين أنا؟ في أي كتاب يقيض لي أن أسيح يا ترى؟». كما في الكتب، ما هي إلا أن طلعت عليه حورية أشبه بالمضيفات الجميلات اللواتي يتفرس في صورهن في المجلات، وبادرته بالسلام: «أهلاً بك وسهلاً في بستان عثمان بن بحر، المعروف بالجاحظ. أنا مريم الصنّاع بطلة واحدة من قصص كتابه المعروف بالخلاء. لست بخيلة يا صديقي ولا تفسير منطقياً عندي لما حدا بالأستاذ الكاتب أن يعدني بين أعيانه. كل ما في الأمر أنني، من يوم أن ولدت ابنتي إلى أن زوّجتها، - أنني كنت أرفع من دقيق كل عجة حفة. وكما تعرف، كنّا نخبز في كل يوم مرّة، وكنت كلما اجتمع مما ادخرت مكوك بعته. ولمّا حان يوم تزويجها حلّيتها بالذهب والفضّة وكسوتها بالقز والخز ودققت لها الطيب فأدهشت زوجي وعائلة العريس». وانطلقت مضيفته في قهقهة طويلة: «لا تنس اسمي. أنا مريم، مريم الصنّاع من دخيلات كتاب السيد الجاحظ. جاحظ، وضنين كأبطاله على الأرجح، بيد أنّه أكرمني وخلدني! ابحث عني، ستجدني حتماً؛ وكما جمعت قليلاً على قليل وصيّرتة كثيراً، انكرني بالخير». واختفت مريم الضاحكة، وغفا بلال على أصداء ضحكتها حتّى الصباح.

لم يكن نوماً عادياً ما ذاقه صاحب الأحلام تلك الليلة، بل كان دروساً مكثفة في الأدب والفن والاقتصاد! تيقن صاحبنا أن التدبير أنثى، أنثى غاوية كسكارلت أوهارا، وفطنة كمريم الصنّاع وأن المال يستعير من قوس قزح ما يطلو له من ألوان. لم يغيّر حلم بلال من قراره شيئاً بل زاده إصراراً على المضيّ في إنفاذ خطّته البيضاء بياض رفاقه الجدد.

في الصباح، بلا تردّد، فتح حصّالته وعدّ ما فيها وياشر ما نوى: استحصل على ما يلزم من أدونات عائلية وابتنى في جانب من حديقة منزلهم قفصاً يليق بأرنبه الأبيضين وصار يطعمهما ويسهر عليهما حتى أنجبا.

لم ينجبا كرمي عينية فقط، بيد أنه أقنع نفسه بأن واحدة من جدّاته الكيميائيات المدبّرات هي التي همست لهما أن يصيرا قوماً ملوناً ومشاكساً تحتاج رعايته إلى حصّالات عامرة، وأحلام متشعبة بأسقة رآها تورف وتبدل عاماً بعد عام مغادرة رفاه أرنبه وبنيهما...

المرأة تُخيط سترتها (شهادة)

أنا زوجي متوفي عندي بنتين وصبي
الصبي تزوج عندو ولدين

بنتي رهِف عيتاني علّمتا كوفيرا للشعر
جيذا تعلّمت «بالواي»،^(١) وزارة الشؤون
علمولي ياها «بالواي»، وهلق عمتشغل بدار
الأيتام الإسلامية (الغاردي العمريّة اللي براس
النبع).

خالي مدير بنك لبنان والمهجر. أني
زوجي متوفي سنة التسعين.

بتشغلي؟

إذا إجيني شراشف بدرز هالشرشف
هالبلوزة رزقتي قد ما إجيني قد ما أعطوني

يعني بالخيطة؟

ما بخيط لللي ما بيعرفوني. بشتغل أيام.
بشتغل شراشف مخدّات.

بساعد هالدخل؟

حدن بيتذكرني برمضان، ورهِف بتشغل
الشعر بالبيوت، بتعطيني مصروف البيت ألفين
ليرة لبنانية (بتساوي شعر بالبيوت ب ٥ آلاف)

رؤية عيتاني (*)

(*) خياطة.

(١) «الواي» هي مختصر اسم «جمعية الشابات المسيحيات» حيث تدرّبت جيذا على مصلحة تصفيف

الشعر. YWCA

ابني زياد خبّاز بيعطيني ٢٠٠٠٠٠٠ ليرة بالشهر لأن صار قسط مدرسة بنتو
ثلاث ملايين.

ومشرياتك؟

بيشتري على قديّ (بالأول بيجيني رمضان) هلق جايبي كارت للتلفون أني
بدبرّ حالي. أخواتي ما بخلوني دقّ بعلمولي عالتلفون.^(٢)

ومصرفك؟

مصروفي تلفون وكهرباء وأكل وشرب والأدوية عليّ. دواء الضغط ٥٠٠٠٠
وأدوية تانية ٢٠٠٠٠ ١٠٠٠٠٠ وللكولسترول ٣٥٠٠٠ (لازم ضلني عيش عليها) تبع
الحساسية ما بغفا الا لترخيلي أعصابي للنوم. الحكيم قلّي ما بتضر. لما مات
«جوزي»^(٣) كنت على «الصنوبرة» بعدين نقلنا على «عيشا بكّار» خلف دار الفتوة،^(٤)
صار معي أعصاب أربع سنين. تجيني كآبة لا ساير حدن تجي لعندي ماما والغرض
لما ما بقدر أعملو تعملو ماما الله يرحم ترابها.

رهف بتاخذ

١٠٠٠٠ ليرة للشعر بتعطيني ٥٠٠٠ ليرة

زياد بيعطيني ٢٠٠٠٠٠

أنّي بيجيني قرشين برمضان هولي سندي. أدويتي

رحت عند الحريري قالولي الصور وعملات ما بساعدو.

بنتي جيذا خلقت بشقّة الأرنبة يجي رمضان صمّدها وأعملها العملية (أعطاني
الحريري ١٠٠٠ دولار من تكلفة ٣٥٠٠ دولار).

ما إلي قدرة. هلق إجا نصيبها هلق انخطبت ابن الريحاني. بلشت تصمّد، بدي
أعملها كُفّرلي التخت وبرادي الصالون، لأن هو عاقدو بيقبض ٦٠٠ دولار عند معمل
الصابون. مصمّد ٦٠٠٠ دولار عمبصلح بيتو عقار قديم أمو اعطتوياه من ورتتها.
قلت لأمو بساعدك وهلق جيذا عامبتصمّد. بدي استرها ضبّها. مانها مرغوبي.

بالأساس جوزي كهربي عند ابو عبد السمّان، توفي أجاه هايديك المرض.

(٢) «بعلمولي» إشارة الى إرسال الرسالة عبر الخلوي مهمة جدا للشعور بان الإنسان عصري ويمتلك
أدوات عصره وسلطتها المعنوية.

(٣) «جوزي» يعني «زوجي» تلفظ بالعامية «الجيم» بدل «الزال».

(٤) «الصنوبرة» و«عائشة بكّار» هي أحياء سكنية في رأس بيروت.

دخلي ٢٠٠٠٠٠٠ ورهف ١٠٠٠٠٠٠ بستعين بمُصريات رمضان. لو ما رمضان ما بقضيّني المصروف.

على سلامتها الحجّة يا حبيبة قلبي.

بتساعدك الجمعيات الخيريّة؟

صندوق الزكاة لأ. عناية بالطفل والأم بس برمضان، بيعطوني ورقة مونة بشتري فيها من التعاونية غراض.

عندي سهى نورالدين بدبرلي ورقة من بيت الدبس ٧٠٠٠٠٠ ورقة مونة من التعاونية. من عند «شوبرن». واذا حدن تذكّرني برمضان. رمضان كريم بحط هون بيجيني هون، ما بحسب! عايشة بالله تعالى.

ودخل الخياطة؟

لو عشرة تألاف او عشرين ألف بيعطوني أكثر ما بستاهل. باعتلي ولاد حلال. لكن جمعية بيت العيتاني كل ٣ أشهر ببيعتولي ٧٥٠٠٠٠

ولادك حناين؟

رهف معها حساسية الربو. علمتها هالكار. بتشتري طساسة. قضينا فيها كثير لرهف. بتاخذ موتيليون.

جيذا خلقت معها ميوبي درجة ٨ ونصف وتسعة، وكل ساعة بدا تروح عند دكتور خوان، خوان بيشفيلها نظرها وبيطبيلي الزجاجة وبتكلفني ٥٠ دولار والكادر ٣٥ دولار وأجرة إيدو ١٠٠ دولار. أني ما بقا عام روح.

الحمد لله ساترها.

الله كريم متل رمضان. وجيذا عامتشتغل. بتاخذ ٥٠٠٠٠٠٠ ألف بروح ٨٠٠٠٠٠ للشوفير اللي بياخذها عبكرا وعشبي لشغلا.

المهم عامبتصمد للتزوج.

حاتعمليلها عرس؟

أنّي بستمّنّا. بقلولي ما ألك قدرة عرس.

وماما لو موجودي كانت تحنّ قلب أخوتي عليّ. ماتت فجأة ما أشبها شي.

العافية تكون منيحة بتعيشي با٤٠٠,٠٠٠ الله يبعد عنا الحكيم وكل شي منيح.

الناس للناس...

مع كتابة هذه السطور تكون جمعية أهلنا
قد أتمت عامها الثامن؛

وحين ننظر اليوم الى ابنة الثامنة نرى في
ملامحها نضجاً لا يتوافق عادة مع عمرها
القصير؛

ما سرُّ هذا النجاح؟

وكيف استطاعت هذه الجمعية وفي فترة
قياسية أن تتحوّل من جمعية صغيرة في شقة
صغيرة متواضعة إلى مؤسسة تملأ المدينة
وتشغل الناس؟...

وللإجابة عن هذا السؤال لا بُدّ من العودة
الى البدايات؛

فأهلنا في الحقيقة بدأت عملها على
الأرض قبل أن تتسجّل رسمياً، إذ إنّ السيدات
اللواتي أسّسن جمعية أهلنا عام (٢٠٠١) شكّرن
قبل ذلك بأربع سنوات (عام ١٩٩٧) «لجنة
دعم صندوق الزكاة في صيدا». هذه اللجنة
وكما يبدو من اسمها عملت الى جانب صندوق
الزكاة الذي كان قد تأسّس حديثاً في ذلك
الوقت، ويقوم عمله على جمع أموال الزكاة من

سحر جلال الدين الجبيلي(*)

(*) عضوة مؤسسة ورئيسة جمعية أهلنا حالياً.

المقتدرين لتوزيعها على أصحاب الحاجة وفق أحكام الشريعة الإسلامية. وقد عملت اللجنة النسائية التي تشكلت كرديف للصندوق عن طريق حث السيدات في مدينة صيدا على دعم صندوق الزكاة لزيادة إيراداته وتالياً زيادة عدد المستفيدين.

وقد رفعت اللجنة شعاراً معبراً: «القليل الدائم خير من الكثير المنقطع»، وكان المبلغ المطلوب من كل سيدة مشتركة تأمينه شهرياً زهيداً (٢٠,٠٠٠ ل.ل) (\$١٣)، شرط الاستمرارية لضمان استمرار المساعدة.

إنّ المبلغ الزهيد المطلوب في تمويل هذا المشروع أسهم في إشراك شرائح واسعة من المجتمع فيه، فالعمل الخيري كما نفهمه هو تكافل الجميع، وعمل الخير لا يعني المقتدرين الذين يفيض الكثير عن حاجتهم بل يمكن لمتوسطي الدخل أيضاً أن يساهموا في هذا العمل ويشاركوا في التخفيف من وطأة الحاجة على من يعجزون عن تلبية حاجاتهم الأساسية، وتبقى الفرصة أمام المقتدرين لدفع مبالغ أكبر من القيمة المحددة.

وقد لبّت مئات السيدات في المدينة الدعوات التي كُنّا نوجهها لنشرح مشروعنا وتجاوبن بعد تلبية الدعوات مع الشعار المرفوع، واستطعنا بفضل ذلك تأمين عشرات الآلاف من الدولارات سنوياً كانت تُحوّل الى صندوق الزكاة ليقوم بدوره بتوزيعها على المحتاجين وفق الأنصبة الشرعية.

إنّ الثقة الغالية التي منحنا إياها المجتمع المحلي كانت السبب الأول في نجاح هذا المشروع بالاضافة الى الحماس الكبير والاندفاع الى العمل الخير دون أن يكون في بالنا أي هدف آخر سوى خدمة الناس.

ولم تكن الثقة عاملاً في تمويل هذا المشروع فحسب بل دفعتنا الى مزيد من العمل والى التفكير في تطوير الخدمة المقدّمة؛

فمما لا شكّ فيه أن توزيع المال وفق مبدأ الزكاة وهو من أركان الإسلام، يُسهم في تنشيط الدورة الاقتصادية عن طريق ضخ المال لدى شريحة واسعة من العاجزين. إلا أن ما لفت نظرنا خلال متابعتنا لتنفيذ المشروع عبر زيارة العائلات المُسعفة هو سوء تنظيم الأولويات لدى بعض هؤلاء، مما ينعكس سلباً على وضع

العائلة، بالإضافة الى الكسل الذي يُصيب البعض نتيجة اتكاله على مبلغ مضمون في نهاية الشهر، فيُحجم عن السعي للبحث عن عمل حتى ولو كان قادراً، وهذا يؤدي إلى حرمان سوق العمل من يد عاملة منتجة، ويؤثر سلباً على الدورة الاقتصادية.

علاوة على ذلك فقد انتبهنا الى شريحة من المحتاجين تسعى الى العمل دون أن تجد فرصة لأنّها لا تملك الخبرات والمهارات والكفاءات المطلوبة في سوق العمل، ولا تقبل أو لا تُفضّل الحصول على المال عن طريق الإحسان.

من هنا بدأنا التفكير بتعديل خطة عملنا بناءً على اتجاهين أساسيين:

١. تقديم خدمة للمسعفين لا مالياً نقدياً لنضمن حسن استخدام الأموال في إطار ينمي وضع العائلة، وفي هذا المجال لا بدّ من الانتباه إلى الشق الرعائي الوقائي.

٢. تأمين فرص عمل للسيدات اللواتي لا يمكن أن يجدن هذه الفرص في المؤسسات غير الاجتماعية.

هذا الانعطاف المفصلي في العمل هو الذي بلور فكرة أهلنا بعد أربع سنوات من العمل الميداني مع الناس.

وقد انطلقت جمعية أهلنا انطلاقة متواضعة في شقة صغيرة تقع في صيدا القديمة، قدّمها لنا أحد الأصدقاء، وبدأ العمل في هذه الشقة على تأسيس ما اصطلحنا على تسميته بـ (معمل الانتاج) وبتجهيزات من منازل الأعضاء: فرن من هنا، قدر من هناك، طاولة من هنالك... وبدأت المغامرة مع عدد من السيدات المستعدات للعمل... ولأنّ النية صادقة، والعزيمة قويّة كبر العمل فانتقلنا الى شقة أكبر على مدخل صيدا الشمالي قدّمها لنا أحد الأصدقاء على سبيل الإعارة...

مجال آخر فتحنا فيه مجالاً للعمل يُسهّم في دفع الدورة الاقتصادية بشكل مميّز: إنّه شق الخدمات المنزلية حيث فتحنا الباب أمام عمالة محلية تعمل ضمن شروط إنسانية وبأجر عادل. وقد لعبنا في هذا المشروع ولا نزال دور الوسيط بين أصحاب البيوت والمؤسسات الذين يطلبون الخدمة من تنظيف وطبخ وضيافة وبين السيدات العاملات اللواتي يقدّمن الخدمة.

ومن أهدافنا في هذا المشروع مصالحة مجتمعنا مع المهن التي تُصنّف للأسف على أنّها وضيعة، ويتمّ التعامل معها على هذا الأساس، بينما هي حاجة ملحة ومطلوبة في المجتمع لا للمقتدرين فقط بل لمتوسّطي الدخل من الموظفين حيث تعمل المرأة والرجل دون القدرة على الاستعانة بعمالة أجنبية. وفي هذا الإطار نحاول وضع أسس تدريب للسيدات العاملات للتمكين الذاتي، وإدارة الدخل وتنظيم الوقت، وغير ذلك...

في الوقت نفسه كُنّا نعمل بمساعدة المختصين على وضع خطة للوقوف ميدانياً على حاجة العائلات المسجّلة في صندوق الزكاة أو التي نحصل على معلومات عنها عبر الأصدقاء، من خلال استمارة تُفصّل كل المعلومات الضرورية لتقديم مساعدة تكون في مكانها الصحيح، تُنمّي ولا تُخدر.

وفي هذا المجال لم ننسَ أن الرعاية الى جانب الخدمة بل هي قبل الخدمة. ومن خلال العمل مع العائلات ودراسة الحاجات طوّرنا عملنا، فأنشأنا قسم توزيع الملابس الذي يقبل التبرعات من الملابس الجديدة والمستعملة ويعيد توزيعها لقاء مساهمات رمزيّة.

كما لاحظنا مشكلة التسرّب المدرسي فأنشأنا مشروع التعلّم الناشط الذي يتابع أبناء العائلات الذين يعانون من مشاكل في دراستهم تحصيناً لهم من الرسوب ولمنع دخولهم المبكّر إلى سوق العمل.

وأنشأنا مشروع رعاية اليتيم في بيته حيث تقدّم له كلّ الضروريات بوساطة بين الكافل والمكفول وبحرص على كرامة اليتيم وعائلته.

ولم نغفل التعليم الجامعي حيث بدأنا قبل سنتين ببرنامج القروض والمنح للطلاب الجامعيين وحتى للتلامذة قبل المرحلة الجامعيّة.

مشاريعنا كثيرة وتحتاج إلى صفحات طويلة للحديث عنها:

- فنحن اليوم في مبنى مؤلّف من خمس طبقات أربع منها منجزة كلياً.
- معملنا يؤمّن العمل لـ ٧٠ سيّدة.
- مشروع الخدمات المنزليّة يؤمّن العمل لـ ١٠٠ سيّدة.

- المشروع الاجتماعي يتابع ١٨٠٠ عائلة محتاجة، فيقدّم لبعضها المؤن شهرياً ويساعد في الأدوية والاستشفاء ويقدم الحفاضات لأصحاب الحاجات الإضافية، كما يقدم للجميع حصصاً تموينية كل أربعة أشهر.

- مشروع التعلّم النشط يتابع ٢٠٠ تلميذ للعام الدراسي الحالي ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

- مشروع المنح والقروض يساعد ٩٠ طالباً للعام الدراسي الحالي ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

- مشروع الملابس يساعد ما لا يقلّ عن ٥٠٠ عائلة.

كل هذا العمل في جمعية لا تتوحى الربح... فكيف تأمن المال اللازم؟

١. استمر العمل في مشروع (القليل الدائم خيرٌ من الكثير المنقطع).

٢. شبكة العلاقات التي أقامتها السيدات عضوات الجمعية أمّنت التبرعات اللازمة وبينها قطعة الأرض التي بنينا عليها مركز الجمعية الرئيسي بالإضافة الى شقتين حُصصت واحدة منهما للمشروع التربوي والثانية لمشروع توزيع الملابس.

٣. المؤسسات المانحة الدولية التي ساهمت في ترميم الشقة الخاصة بالمشروع التربوي وفي بناء مركز الجمعية الى جانب متبرعين كبار من الممولين وأصحاب المؤسسات، وأفراد.

٤. الدول الصديقة التي تقدّم الدعم عن طريق سفاراتها في لبنان.

٥. ريع معمل الانتاج، ومساهمات مشروع الملابس.

كنّا مجموعة من السيدات، بدأنا بعمل عفوي وهدفنا أن نساهم في تنمية المجتمع، فساعدنا البعض، ولتتمكّن من ذلك ساعدنا البعض، وهكذا تكتمل الحلقة وفق قول الشاعر:

الناس للناس من بدوٍ وحاضرةٍ بعضٌ لبعضٍ - وإن لم يشعروا - خدمٌ

في تجربة مديرة مصرف

مشواري مع المال وصناعته بدأ منذ
قررت الالتحاق باحدى وظائف المصرف أي
منذ خمسة وثلاثون عاما.

كنت آنذاك حاصلة على دبلوم برمجة
الالكترونية في عصر لم تكن فيه المعلوماتية
منتشرة مثلما هي حاصلة الآن.

لذلك لم أعمل في مجال تخصصي لأن
المصرف الذي عملت فيه لم تكن أعماله ممكنة
آنذاك.

طموحي منذ البداية كان واضحا وهو
التقدمي الى منصب المسؤولية. وقد عملت
جاهدة للحصول على هذا المنصب فعدت الى
الجامعة من جديد وقد بلغت الأربعين من العمر.
حصلت بعدها على شهادة ماجستير في علم
التنمية الاقتصادية وكان موضوع رسالتي:

«المصارف اللاربيوية في الاسلام
(بين النظرية والتطبيق)»

هذه الشهادة لم تضاف الى خبرتي
المصرفية الكثير، كانت فقط جواز مرور
للحصول على ترقية كنت أطمح لها منذ زمن.

أحيانا تراودني أسئلة كثيرة حول وضعي
الوظيفي وماذا اكتسبت خلال هذه الرحلة

ناريما الساحلي(*)

(*) مديرة مصرف.

الطويلة. وللإجابة عليها كنت أحتاج الى فترات تأمل أمارسها عادة عند قيامي برياضتي اليومية (وهي المشي) عند الغروب على كورنيش المنارة. أحياناً كنت أجد لها جواباً، وأحياناً أخرى أفشل بالإجابة عليها بما يتوافق مع أحاسيسي. فأنظر الى البحر وأدخل في غيبوبة من المتعة ألتني لم أحاول يوماً أن أفسر سببها سوى الخروج من الروتين بفضل الطبيعة التي كانت يوماً تتبدل فيها اللوحات كما يبذل الشجر أوراقه في فصل الخريف.

أما الأسئلة التي كانت تراودني فهي:

- هل إن رتبة مدير التي حصلت عليها خلال عملي في المصرف هي مقياس نجاح؟
- كيف يكون شكل النجاح ومضمونه؟
- هل يكفي أن يكون الإحساس بالنجاح ذاتياً أم أن المحيط له تأثير في خلق هذا الإحساس؟

- ما هي نظرتي الى العملاء الأثرياء، هل تتكون من درجة ثرائهم ام من خلال خصالهم الانسانية؟

- هل المال يصبح أرقاماً تتكدس في حسابات العملاء في المصرف أم حاجة يومية لتوفير المأكل والملبس والطبابة وبعض «الفرفشة»؟

ليس كل مدير ناجح، على الأقل بالنسبة لي.

فالنجاح له مقومات ذاتية وموضوعية. لذلك فان اجتماع الاثنين معا يعطينا الأمان للقيام بعمل يستاهل «التصفيق» بالمعنى المجازي للكلمة.

الأمان بتأمين مستقبل زاهر، لأن الرؤية تكون واضحة، وعملنا يعلمنا برمجة الأولويات وهذا يساعدنا على الادخار. فيكون الشريك «شريك حياتك» طبعاً هذا على الأقل ما هو حاصل معي على يقين بأن المستقبل مضمون، ما يضيفي الأمان والاستقرار على الحياة العائلية.

ولكن هل جمعت مقومتي النجاح الاثنتين، الذاتية والموضوعية؟ لا أستطيع الاجابة بشكل موضوعي على هذا السؤال لأن الانسان بطبعه ميال الى اعتبار ما يقوم به صحيح لا يحتمل الخطأ.

كل ما بوسعي قوله ان تربيتي وظروفي العائلية قد أثرتا كثيراً على نمط تفكيري وسلوكي المالي، فقد ترعرعت في بيئة كان لها نصيبها من الثراء المتوارث عن الأجداد وكل من حولي كان يهتم لأمرنا لأننا أصحاب نفوذ ومال وعندما تقع الكارثة بفقدان هذه الثروة يتبخر هؤلاء المحيطون بنا ولا يبقى الا أصحاب المشاعر الصادقة.

اقترضت المرأة مالا فاغتنت ، وتدافعت مشاريعها

لم تكن، في يوم من الايام، علاقتي بالمال علاقة تفوق حاجتي اليه أو تشغل هاجس امتلاك الكثير منه، كنت اتبع مبدأ «أصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب»، وعندما كان هذا الآتي من الغيب يتأخر، أبدأ بالتفكير بالاستدانة، وسرعان ما كنت استبعد هذه الفكرة، لأنني كنت أخاف من الوقوع في فخها، واقلق من هاجس السداد، وأشعر بالخجل والحرص من دائني في حال الاستدانة، فصرفت النظر عن هذه الفكرة كي اجنب نفسي هذا الاحراج والخوف والحرص.

إلى أن جاء ذلك اليوم، وقادني الى بلاد تألف القرض والتسليف لا بل تغري بكل منهما، وكنت كلما اتصلت بالمصرف للاستفسار عن راتبي، يبدأ الموظف المختص بالقروض بتقديم التسهيلات والشرح والتفسير وحجج الاقتناع، حتى تمكن من إقناعي، فوافقت على تقديم طلب قرض، وذلك وفقاً لشروط القرض التي يتفق عليها بين المقرض والمقترض لإعادة المال في فترة لاحقة، ولم يعد الامر يقتصر على اقتراض المال وتحقيق الاحلام والمشاريع وربط المسألة بألية السداد، طالما ان الامر قد حسم

وظفاء حمادي(*)

(*) أستاذة جامعية وباحثة في المسرح.

منذ البداية أي منذ التوقيع على شروط القرض، عندها أصبح المال المحسوم من الراتب أمراً عادياً، فبدل ان يفوق مقدار الراتب الالف دولار مثلاً، لا بأس في ان ينخفض الى السبعمائة مثلاً، وبدل ان تكون قيمة القرض عشرين الف دولار مثلاً، لا مشكلة في ان تصير ثلاثين الف مثلاً، وهكذا يصبح الدخول في اللعبة الاقتصادية أمراً خطيراً، ولكنه يحقق الاحلام ويضاعف المشاريع ويؤثر على الأفراد والأسر.

وهكذا تم اغرائي لأنني سأحصل على مال تتحقق به أحلامي، دون أن أخجل أو أخرج من دائني، بل شعرت بحرية القرار والفخر والاعتزاز بالنفس كامرأة تتقاضى راتباً يمكنها من السداد، وتتحدى به مقولة إن الحصول على القروض من البنوك المصارف أو من مؤسسات التمويل، يتطلب مخاطرة بالنسبة للمرأة والرجل، ولكنها تكون أكبر عندما يتعلق الأمر بالمرأة لأنها تفتقد في غالب الأحيان الضمانات الأساسية نظراً لصعوبة توفير وثائق الملكية في ظل المنظومة الاجتماعية التقليدية القائمة ..

وبالنسبة الي فالأمر بات ميسراً، فهو يعتمد على الضمانات الشخصية وشهادة الراتب بدلاً من فرض تقديم التأمينات العينية التقليدية؛ والاستثمارات والوثائق المكتوبة، فاجتزت هذا الشرط بسهولة، ولم لا فأنا استطيع أن أضمن نفسي، وأن أتغلب على العوائق القانونية وكتب التوصية بالصفات الحميدة، أو الاعتماد على العلاقات الشخصية وغيرها، فراتبتي كفيل بتوفير كل هذه الشروط واستيفائها .

أنا والقرض واستهلاكه

عندما حصلت على القرض، لم أكن ادرك أن هناك قضايا أخرى يستدعيها التعامل مع مال القرض او المال بشكل عام، لذلك وقعت في فخ لم أكن احسب له حساباً هو انه لم يتح لي ان اتعلم كيفية التصرف كمستهلكة جيّدة للقروض، فبدأت بإنفاق المال وفق ما تشتهييه اهوائي، ووفق ما تفرضه حاجات الاولاد، لأنني جل ما كنت اعلمه انني لا أجيد الادخار، بل أشكو من ضعف المدخرات المالية نتيجة اتجاهاً واتجاه المرأة العاملة عامة أكثر لتعهد مصاريف الأسرة، وهذا ما أثبتته كل الدراسات المنجزة بأن المرأة لم يتم إعدادها منذ مراحل طفولتها المبكرة للدور الاجتماعي والدور الاقتصادي بصفة متكاملة مع أدوار الرجل ضمن الشراكة والتكامل، بل كرسست التحيز للرجل وللمفاهيم الرجولية، وكرست الوصاية المالية

الدائمة على المرأة، مما أخرج منح المرأة قروضا مالية، فتعاملت مؤسسات القرض مع المرأة باعتبارها كائنا اقتصاديا ضعيفا من الصعب حصولها على التمويلات، ولكن فيما بعد حدث تثوير لهذا الواقع فبدأت القروض تقدم للمرأة، وفي خلال ثلاثة عقود، دلت سلسلة من الاختراقات على أن المرأة، وعلى الأخص المرأة الفقيرة، جديرة بالحصول على التسليفات وأنها مستهلكة ممتازة للمنتجات المالية، وأسهم ذلك في جعل القدرات الذاتية للمرأة بشكل عام تتطور بصفة كبيرة لتتكيف مع المتطلبات الاقتصادية الجديدة، وفي جعل قدراتي الذاتية تتفتح وتنضج لدى توظيفي لهذا القرض واستثماره .

ولكني فيما بعد استدركت وحافظت على ما تبقى من المال من أجل تنفيذ مشروع اقتصادي، ولكن توجهي نحو الاقتراض لتنفيذه نأى منذ البداية عن إقامة مشروع تجاري او استثماري، واتجه نحو شراء شقة سكنية، وإن كان شراء شقة بالمفهوم المالي والعقاري ربما يصب في هذه الخانة عمليا واستثماريا، وفي كلا الحالين، أي عندما قررت تقديم طلب القرض، كان همي هو ان امتلك شيئا في هذه الحياة .

لكني لم اکتف بذلك، اذ انني عندما اطلعت على اسلوب آخر من القروض، وهو أسلوب للإقراض غير المكفول بضمان معين، أي السماح للمقترض بالاقتراض بصفة مستمرة دون إجباره على سداد القروض السابقة. ولذا يتحول القرض قصير الأجل إلى قرض طويل الأجل شرط ألا يتعدى إجمالي القرض الحد الأقصى المتفق عليه بين الطرفين (بوابة كنانة)، أغراني الأمر، فاقترضت مبلغا آخر، وتدافعت مشاريعي .

الى ذلك صرت أفكر باستثمار هذا المال في مشاريع اخرى غير امتلاك شقة أو سيارة، فانصب اهتمامي على الاستثمار في فرص لزيادة الدخل والنمو، واتخاذ إجراءات وقائية تحميني عند وقوع الطوارئ ومن خلال التخطيط لأحداث مثل تعليم الأولاد، وساقني الى ذلك ما تربيت عليه بان المرأة تميل لأن تكون أكثر حذراً من الرجال في ما يتعلق بالاستثمار، ولم انتبه في البداية الى ان هذا القرض وامتلاك شيء ما عقار او ما شابه لا تتوقف فوائده عند تعزيز التمكين لدي كامرأة، ولكني بعد الاقتراض ادركت أن تأمين الخدمات المالية للمرأة ينتج عنه «تأثير مضاعف» لأن النساء، بكل بساطة، ينفقن مزيداً من دخلهن على عائلاتهن، مما يقود إلى ظروف سكن أفضل، وتغذية وعناية صحية وتعليم أفضل للأطفال، وعلى الأخص

البنات. وأكدت وجهة النظر هذه سيلفيا تشانت، الأستاذة في كلية لندن للاقتصاد (لندن سكول أوف إيكونوميكس)، في دراسات أجريت في أميركا اللاتينية، وأجريت دراسات مماثلة لها في إفريقيا وآسيا، وفيها ودلت على أن الرجال يساهمون عادة بنسبة ٥٠ إلى ٦٨ بالمئة من رواتبهم في النفقات الجماعية للأسرة في حين «تميل النساء عادة إلى عدم الاحتفاظ بشيء لهن».

المرأة والقرض صورة غير مكتملة الفائدة

عادت القروض على المرأة بفائدة غير مكتملة، على الصعيدين المادي والنفسي/اجتماعي. هناك أدلة أيضاً على تغيّرات في كيفية نظرة النساء إلى أنفسهن، وفي كيفية نظر الآخرين إليهن ضمن مجتمعاتهن المحلية. وقد أدت هذه التغيرات إلى مساهمة متزايدة للنساء في قيادة الدفة الاقتصادية في المنزل. وتذهب بعض الدراسات إلى أبعد من ذلك حين تتناول قضية العنف المنزلي، فتجد ان بعض النساء قد تمكن حتى من وقف العنف المنزلي. فقد وجدت ندوة المرأة العاملة (WWF)، وهي اتحاد/تعاونية تضم النساء الفقيرات في الهند، أن ٤١ بالمئة من عضواتها اللواتي عرفن العنف المنزلي استطعن إيقافه بفضل التمكين الشخصي، وأن ٢٩ بالمئة نجحن في وقف العنف بفضل العمل من خلال أعمال قامت بها المجموعات. كذلك زادت مشاركة النساء في اتخاذ القرارات. ويأتي أحد الأمثلة على ذلك من «مشروع تعزيز تمكين المرأة» (WEP)، وهو برنامج في نيبال يتضمن الادخار، والقروض، وتعليم القراءة والكتابة. فقد أظهر المشروع أن ٦٨ بالمئة من النساء أصبحن يتمتعن بسلطة أكبر في تحديد عدد أفراد الأسرة، وترتيب زواج أولادهن، وشراء وبيع الممتلكات، وإرسال بناتهن إلى المدارس حسب قدراتها (النساء وتمويل المشاريع الصغيرة جدا فتح الأسواق وتوسعة المدارك، بقلم سوزي تشستون، نائبة الرئيس الأولى للسياسة والأبحاث، أوبوتيونيتي إنترناشنال)

أما بالنسبة إلي فقد أحسست أن امتلاك العقار او المال عن طريق القرض، أمر حقق لي حلما يعجز مقدار راتبي عن تحقيقه، ولا أبالغ إذا بحث بمكونات النفس الفرحة والسعيدة، أنني عندما امتلكت شيئاً، شعرت بالامان واطمأن قلبي.

القرض ووجهه المنقلب

وللقروض مخاطرها وانعكاسها السلبي على المرأة ضمن الاسرة، إذ نجد انه

في بعض الحالات، بقدر ما كان يزداد دخل النساء، بقدر ما كانت تتدنى مساهمة الرجال في نفقات الأسرة. كما تتعرض بعض النساء للضغوط لاعطاء قروضهن لأزواجهن أو لقريب ذكر آخر، الأمر الذي يزيد من أعبائهن دون أي يزيد دوماً من استفادتهن. وتتحدث بعض تقارير مؤسسات تمويل المشاريع الصغيرة جداً عن زيادة في العنف المنزلي عندما تصبح النساء من زبائن مؤسسات تمويل هذه المشاريع. وقد صرحت لي إحدى الزميلات الكويتيات انها تعرضت لحالة من العنف المنزلي، عندما اجبرها زوجها على الاقتراض، ومن ثم تحويل القرض وتجييره الى حسابها، فتورطت هي بالدفع، واستأثر هو بالمال، ثم طلقها .

تعتبر هذه الزميلة ان القرض بدل أن يسهم في تعزيز علاقتها بزوجها، وتأمين الاستقرار المادي للأسرة انقلب الى سيف ذي حدين، حده الاول حقق امنيتها بالحصول على قرض لتحقيق الحلم، والحده الثاني كشف مطامح شخصية الزوج واستغلاله لعلاقته بزوجه، وأدى الى حدوث الانفصال، من هنا أرى ان علاقة المرأة بالمال، سواء أكان مصدره القرض ام الميراث أم الراتب الشهري، ينبغي ان تدرس بدقة ودراية ومعرفة، لكي تبلغ المرأة مبتغاهما ولكي لا ينقلب القرض المالي عليها وبالا .

موجة الاختراقات الجديدة القادمة

لقد قيل إن الخطوة الأولى باتجاه التغيير هي الاقتناع بأنه ممكن. وقد شاهدنا، خلال العقود القليلة الماضية، أن من الممكن وصول النساء بمن فيهن النساء الفقيرات جداً، وإحداث تحولات اقتصادية، واجتماعية، وروحية، وسياسية للنساء الزبائن ولعائلاتهن ومجتمعاتهن. وهكذا تبين أن فكرة تأمين الخدمات المالية للنساء، كتأمين القروض مثلاً فكرة ممتازة، ولعل أفضل ما يمكن لها أن تقدمه وتحثه من نتائج ما زال يرتبط بشروط التجدد الذاتي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي داخل المجتمع، ويؤدي إلى مساهمتها في أخذ القرار داخل الأسرة والقرية والمدينة والوطن والاقليم والعالم، ما يضمن رؤية جديدة للتوازن المجتمعي مبنية على التكامل والشراكة.

تجربة امرأة في قيادة شركة عائلية

كانت الشركات العائلية دوماً محور اهتمامي، فقد تربيت في بيت كل أفراده يعمل في مجال التجارة والمقاولات. جدي خليفة الجاسم هو مؤسس مجموعة خليفة الجاسم، وهي مدرسة متكاملة في عالم الأعمال تشمل العديد من القطاعات منها قطاع التجارة والمقاولات والخلط الجاهز وقطاع النقل والمناولة، وهي من كبرى الشركات التي لها خبرة تزيد عن ستين عاماً. بعد إنهاء دراستي انضمت أولاً إلى فريق العمل العائلي كموظفة صغيرة تعمل في المخازن بين مواد البناء والتشييد لا يتعدى راتبها راتب أقل موظف في الشركة. ومن ثم تدرجت بالسلم الوظيفي وصولاً إلى نائب الرئيس، وهذا عكس الاعتقاد السائد بأن الإنسان الذي يعمل مع العائلة لا بد أن يكون مديراً. وصلت بعدها إلى مرحلة الاقتراحات والقرارات وإبداء الرأي، وهنا بدأ الاصطدام بمزيج من القرارات العاطفية بصيغة إدارية تخلو من أي مهنية، حتى تيقنت أن الشركات العائلية، ومن منظوري الشخصي، محفوفة بالعديد من المخاطر وأصبح يراودني

سارة الجاسم(*)

(*) رئيسة مجلس الإدارة والعضو المنتدب لشركة كيانا انترناشونال في الكويت. شهادة القيت في منتدى المرأة العربية والمستقبل بيروت أكتوبر ٢٠٠٨.

السؤال التالي: هل سيبقى للشركات العائلية مكانة أمام التحديات الكبيرة؟ وهل ستحافظ على الوجود ومن ثم على الاستمرارية؟

إن الشركات العائلية تبدأ بمجهود فردي أو من عائلة معتمدة على فرد. ونموها يعتمد على قدرة ذلك الفرد في الإدارة، ومن ثم تحويل النشاط والإمكانيات المتاحة إلى منظومة عمل متكاملة يدخل فيها أفراد من العائلة معه أو بعده، ويطلق على تلك المنظومة الشركات العائلية.

فهذه الشركات لعبت ولا تزال دوراً مهماً في النهضة الحديثة كما ساهمت في تحقيق التوجهات الاقتصادية الهادفة لتطوير كافة القطاعات غير التقليدية. ويبرز دورها في تنويع مصادر الدخل في الصناعات غير النفطية مثل التجارة والبناء والتشييد والخدمات بمختلف أنواعها. فالشركات العائلية هي المؤشر العام لتحديد ووضع الخطط الائتمانية للاقتصاد، واضعين بعين الاعتبار ما تمتاز به هذه الشركات من قدرة كبيرة في التصرف الإداري والمالي، وسرعة في اتخاذ القرار وتقوية مركز العائلة المالي من خلال العائدات واقتصار أرباحها على أفراد الأسرة، ومحاولة التغلب على التحديات من أجل الاستمرار والبقاء. فبناءً على نتائج بعض الدراسات التي أجريت على الشركات العائلية تبين أنها تمثل في الاتحاد الأوروبي ٧٠٪ من الناتج القومي، أما في الولايات المتحدة الأميركية فتتمثل ٤٩٪ من الناتج القومي. رغم أن هذه النسب كبيرة ومؤثرة في اقتصاد العالم إلا أن كيان هذه الشركات العائلية محفوف بالعديد من المخاطر من واقع تجربة شخصية. فمخاطرها مقسمة إلى الداخلية والخارجية: فالخارجية أهمها ما يعرف بقطار العولمة الذي بات يهدد مستقبل جميع الشركات المحلية سواء العائلية أو غير العائلية لما يشهده العالم من دخول شركات ضخمة متعددة الجنسيات تتمتع بقدرة على إزاحة تلك الشركات بالكامل من طريقها وهذه الشركات العملاقة والمدعومة بقوة المال والسياسة قادرة كل القدرة على تملك العديد من المقومات وعلى رأسها التقدم التكنولوجي والإدارة الحديثة وضخامة رؤوس الأموال إضافة إلى امتلاك القدرة الهائلة على التسويق فهي إلى حد كبير قادرة على القضاء لمن يقف في طريقها مسيطرة على الأسواق المحلية.

أما الداخلية منها فهي شقان: الأول، يتمثل بصراع الأجيال، والثاني، مشكلة الوكالة. أبدأها بالشق الأول، وهو صراع الأجيال الذي يكمن بتباين العلم والمعرفة

والعمر والخبرة، وتفاوت المؤهلات والفترات الزمنية ما بين الأجيال، وصعوبة تقبل الجيل السابق لحماس وأفكار وأساليب الجيل اللاحق، خاصة مع غياب الرؤية والتفكير الاستراتيجي الموحد. وهي الناتج الطبيعي لزيادة عدد المالكين، واختلاف الاهتمامات بين أفراد الأسرة، وبالتالي صعوبة اتخاذ القرارات المناسبة التي عادة ما تتخذ بصيغة السلطة الأبوية والتفرد في اتخاذها الذي يؤدي إلى النزاع على القيادة وإدارة الشركة وتداخل الذمم المالية بين الشركة وبين أفراد العائلة. منتهية بعدم تحكم الفرد في أمواله وحصته من الإرث واضعين بعين الاعتبار ما تعكسه تلك الخلافات العاطفية على أداء الشركة ونموها وضعف فرصها الاستثمارية والحد من مصادر تمويلها.

أما الشق الثاني، وهو ما يسمى بمشكلة الوكالة والتي عادة ما تظهر بدخول الجيل الثاني والثالث لابتعاد بعض الورثة عن العمل، والذين قد أوكلوا مهمة الإدارة أو أحد الأقارب لتصبح إدارة الشركة وكيلة عن الملاك. أما إذا أصبحت أهداف ومصالح الملاك لا تتفق مع أهداف ومصالح الإدارة، فتبدأ الخلافات المعقدة والتي قد تسبب في تفتيت الأواصر الأسرية إضافة إلى انهيار إمبراطورية العمل العائلي.

وأرى، من منظوري الخاص، أن الحل الأمثل للشركات أن تكون الأهداف والسياسة المالية والنقدية واضحة وتمثل رغبة الملاك واضعين بعين الاعتبار أن أي تنازلات تقدم لأي اعتبارات عائلية من حقوق الملاك لأقاربهم هي دائماً تأتي بثمن أكبر في المستقبل.

أما المشكلة التي يغض النظر عنها دائماً متعمدين تجاهلها وعدم الخوض حتى في نقاشها وهو وجود المرأة كوريث، وانضمامها إلى مجلس الإدارة كأحد الملاك. فقد كشفت العديد من الدراسات أن الوراثة للشركات العائلية يغلب عليها العدد الأكبر من الإناث والقليل من الذكور وهذا من شأنه أن يعزز دور المرأة. فالمرأة لديها العديد من الصفات لتكون قيادية وناجحة فهي قد وصلت لدرجات من العلم والخبرة في معظم المجالات فأصبحنا الآن نرى الوزيرة والرئيسة وأصبحت المرأة في هذا الوقت لا تعمل في شركاتها العائلية فقط ولكنها تؤسس وتمتلك شركات بالكامل وتؤدي دورها العملي بنجاح وهناك سيدات يملكن كبرى الشركات التي تتمتع برؤوس أموال ضخمة ونجمن في إدارتها بنجاح يشاد به.

إلا أن دخولها مجلس الإدارة بالشركات العائلية يمثل ناقوس الخطر لبعض

أفراد العائلة الذين لا يتقبلون حتى فكرة وجود امرأة في مجلس الإدارة. فبعض المجتمعات تحكمها العديد من العادات التي من شأنها أن تقف عائقاً دون إدارة الابنة للشركة. فنجد بعض العائلات تعتمد على أبنائها الذكور في استلام أعمالها وإلغاء الابنة من المشاركة العملية أو حتى إعطائها حقها أو أبسطها المطالبة بها.

وأنوه إلى أن الحل الأمثل لمشاكل هذه الشركات يكون من خلال عدة محاور: كالتخطيط المستقبلي لضمان الوجود، ومن ثم الاستثمارية. وذلك بتطوير أعمالها وسن القوانين التي تقوم بحمايتها سواء من مخاطرها الداخلية أم الخارجية، وتدريب أبنائها وبناتها منذ الصغر لكي يؤهلوا لإدارة شركاتهم في المستقبل تفادياً لأي حرج ووضع هيكلية شاملة للشركات، بصيغ مناسبة سواء بالاندماج مع شركات أخرى لخلق تحالفات استراتيجية مع مجموعات محلية دولية أو التحول الى شركات مساهمة أو غير ذلك من الصيغ القانونية. والاستعانة بشركات الاستشارات التي قد تضع بعض الحلول لمساعدة بقاء هذا الكيان وتطويره تحسباً لصراعات الأجيال، على أن تمتاز تلك الخيارات بالشفافية، وتراعى احتياجات الملاك وأهدافهم، وإيجاد الطريق السهل للراغبين في التخرج دون الحاجة إلى الدخول في صراعات ناتجة عن خلافات شخصية وقرارات عاطفية. بل يجب الاستفادة من هذه الشركات في تطوير قدرتها التنافسية على كافة الفرص التي تتيحها سياسة الانفتاح والعولمة.

وهناك تثقيف أفراد الشركات العائلية وتعريفهم بطبيعة أهداف شركاتهم وتقديم البحوث والدراسات لمواجهة الاحتمالات المستقبلية من انتقال السلطة الإدارية عبر الأجيال وانتقاء القيادات الشابة من بين أفراد العائلة طبقاً لمعايير الكفاءة الإدارية والاستعداد القيادي وليس على أساس العضوية التلقائية في العائلة. مع ضرورة الاهتمام بالشفافية وإيجاد أطراف قانونية وإدارية ومالية لضمان سلامة الأداء في هذه الشركات، وإعطاء الأولوية للتخطيط طويل المدى فيما يتعلق بأهدافها المستقبلية، بالإضافة الى الاهتمام بالتعليم والتطوير الشخصي لدى أفراد العائلة وتوثيق الصلة بينهم وبين اكتساب الخبرات للمحافظة على ثروة العائلة وتنميتها وتنمية روح المحبة والترابط والاحترام والتشاور فيما بينهم. واستخدام الآليات المالية الحديثة مثل الصناديق الاستثمارية وتطوير أساليب إدارتها وعملها بما يتوافق والمستجدات الاقتصادية.

المرأة والمال من منظور إسلامي: مداخل متعددة

المسألة الأولى التي يطرحها موضوع المرأة والمال من منظور إسلامي تتعلق بكون التفكير بلغات متعددة يعطي أحياناً معاني مختلفة للمفهوم الواحد. إن المال كما ورد في الورقة المرجعية لهذا الكتاب وترجمته الإنكليزية يحيل إلى النقود Money في حين أن المال في الثقافة الإسلامية هو أوسع من النقود. والسؤال هو عمّ يفترض التكلم عنه إذن: المال أو رأس المال Capital أو الثروة Wealth أو النقود Money؟ ذلك أن الحقل الدلالي لكل من هذه المفاهيم سوف يقودنا لرسم خريطة مختلفة للمواضيع. الأرجح، أن الكلام يجري على المال بالمعنى الواسع، أو ما أضحي عليه استخدام مفهوم رأس المال بالمعنى الجاري في الدراسات الاجتماعية ويدخل فيه رأس المال الاجتماعي ورأس المال الأخلاقي والمادي العيني. في التصور الإسلامي تتضافر كل هذه المعاني من أجل تحقيق الحياة الطيبة كما يصفها القرآن، فلا استغناء عن الثروة المادية والموارد المالية و«القناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث»

هبة رؤوف عزت(*)

(*) أستاذة العلوم السياسية في جامعة القاهرة ومحاضرة في الفكر السياسي في الجامعة الأميركية في القاهرة وعضو مؤسس لشبكة إسلام أون لاين وناشطة في العمل السياسي.

التي هي زينة الحياة الدنيا، لكن لها بعدها الاجتماعي أخذاً وعطاءً كما في مقصد الزكاة، ولها دورها المسؤول في الروابط الأسرية من مسؤوليات النفقات الواجبة، ولها بعدها التنموي والتعميري في المجتمع، ولها استخدامها الزمني الأبعد في الوقف ولها دورها في الكماليات والجماليات من إقامة وتشبيد الصروح الفنية التي تغدو آثاراً للأجيال القادمة. لذا فإن الحديث عن المرأة والمال يتعلق بما لها من أرصدة معنوية تحل محل الأرصدة المادية أو تقتزن بها في مقصد التشريع وفي مفهوم الحقوق المالية كما تتناوله الرؤى الفقهية.

المسألة الثانية تتعلق بالمرأة. فهذا المفهوم جامع شامل، لكن القرآن له مفردات متنوعة يستخدمها، فهناك النساء وهو مفهوم متعدد المعاني قد يقصد به المرأة بالمعنى المجرد وقد يقصد به المرأة في إطار عقد الزواج. أما لفظ المؤمنات فهو أقرب لمفهوم المواطنة بالمعنى الحديث، وهناك دوائر قد تتقاطع وقد تفترق، فالرجال قوامون على النساء لكن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وهنا فالأحكام المتعلقة بالأهلية بالمال قد تنطلق من فلسفة الوحدة الاجتماعية أو طبيعة الرابطة التي تدخل فيها المرأة. وهناك ترتيبات حين تتعارض أو تتقاطع هذه الدوائر والوظائف. ومن هنا التساؤل عن القاعدة التي استخدمها الفقيه (وأحياناً واجب مراجعتها) في منحه أو منعه أو إطلاقه أو تقييده لحق المرأة أو الرجل، فالمسائل ديناميكية وليست ثابتة، ومن هنا أهمية التركيز على مقاصد الشرع من ناحية وأدوات التجديد من ناحية (التي ترتهن بمعرفة المستجدات ابتداءً)، كي نفهم ما الذي نعنيه بالشرعية. فهل المطلوب قراءة الفقه وتقديم موضوع حق المرأة بالتصرف بمالها في المذاهب الفقهية الأربعة بشكل رصدي؟ أم البحث في «منطق» كل رأي فقهي وتتبع مصدره من أجل التفكيك والتحليل والفهم، والأهم: باتجاه إعادة البناء والتجديد وفقاً لعلوم الشرع التي تتيح ذلك بدون عناء، فقط نحتاج العقل الموسوعي والاجتهاد الجماعي الرصين؟ وهذا يتطلب جهداً لا بأس به، فالمذاهب الفقهية متعددة المشارب الحضرية ومتنوعة المناهج، والجدل الواسع داخل كل مذهب، جدل شديد الثراء. وكثيراً ما نجد آراء فقهية متنوعة ومتعارضة ومرتبكة في مسألة النظر إلى علاقة المرأة بالمال، والسؤال هو من أين يتأتى هذا الارتباك؟ ما هو منطق الداخلي؟ ثم أن الشرعية ليست هي الفقه، ولا بد من العودة إلى بناء تصور إسلامي بشكل متجدد يبني على السابق ويجدد. من هنا فإنه من الأفضل أن

يكون مدخلنا هو «نحو بناء رؤية إسلامية...» أي أشبه برؤية معمارية ننتقل فيها من نص الكتاب والسنة ثم قراءة الفقهاء بعد أن نضعهم في سياق الزمان والمكان وتغيرهما. ثم نضع الاجتهاد في إطار مصالح زمانه ومكانه في تفاعلها مع المقاصد الكلية للشرع. فمن المعروف أن بعض الفقهاء (الشافعي مثلاً) قد غيروا في فقههم عندما انتقلوا من مكان إلى آخر (من العراق إلى مصر). وفي هذا السياق نحتاج إلى التمييز بين منابع ومصادر بناء رؤيتنا التجديدية: بين الأحكام والإفتاء والقضاء، في تاريخيتها وفي الواقع، فالفتاوي كانت تركز على حالات معينة مخصوصة، وأيضاً القضاء لأنه يتضمن بعضاً من وظيفة تسكين الحالة في سياقها وهو من الإفتاء.

الأمر الثالث أن الحديث عن المرأة يجب أن يأخذ في الحسبان إطار المؤسسة المركزية وهي الأسرة، فهي مهمة جداً في الفقه الإسلامي ولكنه لا يتعامل معه بشكل جامد، فهناك وضع وحقوق المرأة قبل الزواج في أسرتها الممتدة، وأثناء بناء علاقة الزواج - خطبة وعقد - ثم انتقال المرأة لتأسيس أسرتها الجديدة، وهناك نساء من خلفيات عمرية واجتماعية مختلفة كانت لهن حقوق متفاوتة تاريخياً ومختلفة بين البلدان والحوضر والريف والقبائل. وكل ذلك يجعل المسألة شديدة التعقيد. وفي ظل هذا هناك مثال المهر، فهل هو ثمن يدفع مقابل التمتع بجسد المرأة؟ أم ثروة تضمنها المرأة في إطار خلق ذمة مالية مستقلة لها لحظة العقد؟ وفي هذه الحالة علينا أن ننظر في معنى مفاهيم الطاعة والنشوز وتحوله من تأزم العلاقة بين الزوجين إلى تصوير المرأة في الثقافة الذكورية الجاهلية واستمرار بعض عناصر تلك الثقافة في ظل الإسلام. هل يمكن النظر إلى المهر باعتباره نوعاً من التأمين وتعويض اللاعادلة التي يمكن أن تعاني منها المرأة في الزواج، خصوصاً في حال كانت فقيرة؟ فالمهر يعطي المرأة قدرة على مقايضة الزواج بالثروة التي امتلكتها في حال لم تكن راضية، وشروط العقد التي تكفل النفقة الإضافية أو حق العمل أو مشاركة المرأة في نفقات المنزل من عدمه. ومراجعة فكرة استئذان المرأة زوجها في العمل أم هو حق؟ ومراجعة مفهوم الاحتباس الذي قد يمنع المرأة من العمل وبالتالي من الكسب وبناء الثروة، وما هو الثمن الاجتماعي لعمل المرأة؟ وكيف يتحملة المجتمع من خلال تأمين المرأة وبناء شبكات دعم لها وترتيبات حقوق مهنية وفردية؟ إنها مداخل متعددة للدراسة. وهناك فقهاء تحدثوا عن المرأة الممتنعة أي صاحبة المهنة، والمرأة التي قبلت بأن تتفرغ، ولكل منهما أحكام في أهلية مباشرة العقود، وهكذا. فهناك فكرة المصلحة العامة أو common good التي

تبدو جلية من خلال فقه الزكاة لكن هي مبنوثة في الفقه الذي تحدث عن واجب الرجل تجاه المرأة التي قررت بناء رأس مال اجتماعي بالتفرغ للتربية وواجب أن يعوضها برأس مال مادي تعويضاً. ومن المعلوم أن النساء لا يختلفن عن الرجال في تأدية فرائض الإسلام.

والتحقق من علاقة المرأة بالمال لا تنفصل عن تطورات تاريخية تدلنا على هذا المسار في التاريخ، وفي هذا الصدد بيّنت الأبحاث (عفاف لطفي السيد) أن النساء كن يملكن ٤٠ بالمئة من الثروة العقارية ولكنهن اليوم لا يملكن أكثر من ١٠ بالمئة منها. ويعود ذلك إلى نظام توثيق الملكية العقارية الحديث الذي فرض على المالك التسجيل والتعامل القانوني فوكلت النساء الرجال أو تم التوثيق باسم من يملك التصرف القانوني.

ومن المفيد هنا أن ندرس سلوك النساء في صرف الأموال، فالأمر ليس فقط اكتساب المال بل أيضاً السلوك الاستهلاكي. ولدينا مجتمعات تغلب فيها مشاركة المرأة في الأوقاف والإنفاق على المرافق العامة والمصالح العامة أكثر من الرجال (مؤشرات لأخلاقيات الرعاية أو أردنا استخدام المفهوم النسوي المعروف)، والمجالات التي يصرفن فيها أموالهن.

في مصر كان هناك نسق اجتماعي للثقة يوفر المال للمرأة للقيام بمشروعاتها أو للوفاء باحتياجات أسرته من خلال «الجمعيات»، أي الاقتراض من بعضهن البعض بناء على الثقة الاجتماعية وفكرة السمعة الطيبة. ولقد ضعف هذا السلوك نتيجة حركة التمدن.

أخيراً هناك الكثير مما يمكن أن ندرسه من حيث رأس المال الاجتماعي وعلاقته بتمكين النساء في ظل الفقر، فالاهتمام بالمرأة والمال يتضمن تحيزاً كامناً للمرأة التي تملك المال، فماذا عن المرأة التي لا تملك شيئاً؟ من تأتي مصادر قوتها؟ وهل لها حقوق معنوية تغنيها عن امتلاك المال؟ وما هي الشروط؟ وما هو الثمن؟

لقد بدأت العلوم الاجتماعية الغربية تهتم بمفهوم التنمية الإنسانية ورأس المال الاجتماعي والبشري. ومن المهم عندما نفكر في قضايا المرأة والمال في المجتمع العربي أن ندخل تضافر الاقتصادي مع الاجتماعي في حرمان المرأة من التمكين. وكيف يمكن أن يكون تجديد الخطاب الديني عنصر تقدم لكفالة حقوق النساء ورفاهية المجتمع في آن واحد.

Suzanne Abou Rjeili

« Les clientes des banques au Liban : leurs caractéristiques et leurs comportements financiers et bancaires »

Cet article analyse les résultats d'une enquête par questionnaire financée par l'Association des Banques du Liban, et réalisée auprès de 364 femmes volontaires, clientes d'un échantillon des banques. Il révèle ainsi que ces clientes sont plutôt jeunes, sont en majorité de niveau universitaire et actives sur le marché d'emploi. S'agissant de leurs comportements bancaires, ces femmes semblent exploiter leurs économies pour améliorer leurs conditions de vie personnelles et familiales actuelles et futures, en évitant les investissements risqués, voire même les projets financiers. Dès lors, leurs comptes sont plutôt créditeurs que débiteurs. Elles choisissent leurs banques pour des motifs interpersonnels ou imposés par leurs employeurs plutôt que pour la qualité des services rendus, mais elles sont généralement satisfaites à ce dernier niveau.

Ahmad Zayed

A Space for Power or a Space for Living: Egyptian Working Women...

This research try to verify the following hypothesis: Do the process of winning money, bring Egyptian working women to build power, or does it help them to make a living & reinforce the cohesion of their families? To answer this question, twenty in depth interviews have been conducted with married working women. A qualitative analysis studied their relation to money, their ways of spending it & the role of money in their life. The field results are presented in many pictures, each one illustrating one case. The research reveals that the power money brings to women, enable them to accumulate a social capital that contribute to stabilize their life & secure their future.

Maud Stephan

Femmes, écriture et propriété intellectuelle

Les femmes ayant investi le domaine de l'écriture romanesque, l'article se propose d'aborder leur attitude par rapport à la profession d'écrivain, la manière dont elles gèrent leur relation aux éditeurs et leurs droits patrimoniaux, ainsi que la perception de leur œuvre transformée en bien marchand. Des entretiens avec 3 romanciers et 3 romancières ont montré qu'hommes et femmes font face aux mêmes difficultés liées aux problèmes de la distribution sur les marchés arabes, qui font de l'écriture une activité peu lucrative. Ecrire des romans ne pouvant devenir une profession à part entière, ils ont tendance à adopter une attitude de désintéressement, spécifique des artistes et écrivains du sous champ de la production restreinte. La reconnaissance des pairs et la constitution d'un capital symbolique leur assure une présence internationale qui est prioritaire par rapport aux gains matériels issus de la vente de leur œuvre sur le marché arabe. Les romancières perçoivent pourtant l'argent gagné comme un symbole de leur indépendance et s'expriment avec plus d'enthousiasme sur leur écriture, vécue comme une transgression.

Aicha Harb

Le bien, l'argent et le conflit conjugal

Personne ne nie l'importance du bien (l'argent) dans notre vie quotidienne en général et dans la vie conjugale en particulier. L'argent d'une part est considéré comme moyen pour améliorer, perfectionner notre vie, mais d'autre il est considéré comme moyen de dispute et de conflit entre les époux ce qui perturbe la vie conjugale, et mène quelque fois au divorce.

Une enquête concernant le sujet appliquée sur 1000 femmes (500 femmes travailleuses et 500 non travailleuses) nous indique que 38% des femmes travailleuses se disputent beaucoup et d'une façon insupportable avec leurs maris à cause de l'argent, face à 13% des femmes non travailleuses (le premier equivaut à 3 fois le second).

Des entretiens collectifs (focus groupe) et individuels appliqués sur 24 femmes divorcées (17 travailleuses et 7 non travailleuses) nous montrent que l'argent contribue et facilite le divorce chez les femmes travailleuses tandis que les femmes non travailleuses ne l'ont pas.

Adnan Hobballah

Womwn's Relation to Money: a Psychoanalytical Approach

There are three forms of power: social power, which includes the political, intellectual power and the power of money. These three issues are part of

women's perceptions and have an attraction and seduction not void of excitement. This study concentrates only on the subject of money because of its many meanings, from securing the basics of life up to wealth which becomes a sole desire and a promise of happiness by realizing a person's fantasms. The study is divided into two main parts: woman's relation to money as an object of desire, and woman's relation to a consumer market, with clinical examples of each. From which it will deduce that woman seeks money in order to change the perception of her as a deficient being, this she does either by earning her own income, or by attracting a rich man.

Mohammed Khachani:

المرأة المغربية المهاجرة في المجال الاقتصادي لدول الاستقبال

التطورات الحالية للهجرة المغربية أبرزت المرأة كفاعل نشيط في هذه الحركية، فالمرأة كالرجل أصبحت تلج المجال الاقتصادي لدول الاستقبال بحثا عن ظروف عيش أفضل. اعتبارا لذلك، فعلاقة المرأة بالمال تصبح هنا علاقة مباشرة لانه نظرا للطابع الاستقلالي المتزايد لهجرة المرأة، أصبحت العلاقة سببية. فالظروف الدونية التي أصبحت تعاني منها المرأة هي التي تدفع بها الى تبني مشروع الهجرة. هذا البحث ينطلق في اشكاليته من تساؤلات عدة، كيف غزت المرأة المهاجرة المجال الاقتصادي لدول الاستقبال؟ أي الحجم التاريخي لهذه الهجرة، ما هو نموذج المرأة المهاجرة في هذا المجال؟ ما هو حجم الظاهرة؟ ما هي القطاعات المستوعبة للمرأة المهاجرة وما هو وضعها في سوق الشغل (أجيرات، مستقلات، مقاولات،...)? ما هو تأثير هذا الاستقلال الاقتصادي على وضعية المرأة المغربية المهاجرة وكيف انتقل دور المرأة من فاعل ثقافي في ظل التجمع الأسري الى فاعل اقتصادي؟

Meriem Bou Zeid

Les biens des aïeules et leur impact sur les comportements financiers des femmes Touarègues

Pour comprendre le rapport des femmes touarègues à l'argent, il faut voir de près, la nature de la propriété de ces femmes, qui se transmet à la totalité du groupe par voie matrilineaire, et qu'on nomme *al khebes* .

Cette notion de *khebes* est très ambigu et complexe et qui ne peut être, en

aucune manière, confondue avec la notion de *habous* islamique, vue la distinction qui est de rigueur entre les deux notions et plus encore, les Touaregs en question (ceux de Djanet) font la distinction entre *al khebes* en tant que propriété indivise et l'héritage comme il est prescrit dans le Coran.

Ces biens de femmes, des aïeules plus précisément, se sont transmis par écrit, d'une génération à l'autre et se perpétuent par voie orale, vu l'importance et la gravité de l'écrit qui était pour la première fois gravé sur la peau d'une gazelle.

D'après le manuscrit étudié, on a pu constater qu'il s'agit bien d'un appareil juridique très élaboré : le manuscrit est bien structuré et précis ; il débute par la citation des premières femmes propriétaires de ces biens et leurs descendances, cite leurs noms et leur appartenance tribale, puis, à l'intérieur du document, il y a une énumération des biens d' *al khebes*, d'une manière générale (sources d'eau, terres,,,), citation détaillée et précise des palmiers dattiers, essentiellement : son nom vernaculaire, le nom de la personne qu'il a planté, l'endroit où se trouve le palmier, ...le document se termine par une mise en garde de toute personne qui transgresserait cette loi ancestrale car elle sera maudite. Le manuscrit ne laisse rien au hasard, en montrant le devenir de cette propriété dans le cas de la disparition des premières femmes et leur descendance utérine, et en désignant le nom des femmes qui seront les gardiennes de ces biens et veilleront à leur perpétuation.

A Djanet (Oasis située à l'extrême sud est d'Algérie), pays des Touaregs sédentaires, les femmes actuellement, se donnent toutes entières au travail salarié, ce dernier étant devenu de plus en plus primordial pour les universitaires et autres femmes, vu les changements qu'a connus la société en général, et les femmes en particulier et cela grâce à l'enseignement, y compris l'enseignement supérieur.

A travers ces activités énumérées, des femmes veulent changer certaines habitudes, comme l'indépendance matérielle pour s'adapter avec les nouvelles formes de consommation, certaines sont en quête permanente d'un corps idéal pour plaire aux autres, alors que d'autres préfèrent économiser leur argent pour garantir leur avenir.

L'enquête nous a fait découvrir d'autres rapports que les femmes tissent avec le travail et l'argent : l'autosuffisance grâce à l'emploi et l'ouverture de nouveaux horizons purement professionnels, l'entretien de la grande maison familiale, qui est l'apanage des femmes, la rénover, l'équiper de tous les matériaux nécessaires et de luxe. A plus forte raison, que cette maison est un réel abri en cas de divorce, de veuvage ou vieillesse.

Tout cela est un ensemble de nouveaux indices qui ont été introduit dans différentes institutions traditionnelles, y compris celle d' *al khebes* , qui veut resurgir de nouveau, comme un trait de modernité que revendiquent les femmes.

Dalal Elbizri

Emigrées célibataires et argent.

Le sujet de cette contribution: les jeunes émigrées célibataires libanaises , et le rapport qu'elles ont établi avec l'argent depuis cette émigration. Elle est basée sur une enquête-questionnaire traçant leur concept de l'argent , depuis leur adolescence jusqu'à leur indépendance économique acquise , grâce à cette même émigration. Ainsi que la projection de ce nouveau concept sur leur rapport avec le partenaire, ou l'imagination de ce rapport.

Elles sont 11 jeunes, cadres et célibataires à avoir choisi des destinations diverses: le Golfe, l'Europe et le Canada. Un résultat général: l'écrasante majorité des interviewées ne perçoivent plus l'argent, ni son rapport à l'imagination amoureuse tel qu'elles le percevaient autrefois.

Aicha Al Tayeb

Arab Business Women: A Sociological Reading

The present paper seeks to explore how businesses are set up and managed by women. It also seeks to classify business women according to the socio-historical context related to globalisation and its social and economic impact and according to the Arab socio-cultural context. This paper considers "the owner of the firm" a term used to refer to those women who own small, middle and big sized firms in various sectors. The term is also used to refer to those women starting very small economic activities in "the second market" whether earning their living by keeping shops or selling clothes kept in their bags or following other strategies to make money. Arab women, irrespective of the money they invest or place in their small or big projects, have peculiarities which become apparent in the importance of their social investment and in the ways to highlight the cultural, symbolic and historical legitimacy of their economic activities. Field work shows how business women are skilled in making very functional a social and symbolic capital based on a network of strong social relations in their fields.

Widad Abdel Rahmman

Sudanese Business Women in Small Enterprises

This paper has focused on the expenditure patterns of women who own micro-small enterprise (MSEs) and home-based production units, and the decision making powers that these women have on their income .

The significance of this study arises from two major aspects: first, the fact that women's work and their decision making capacity within their families is influenced by the patriarchal ideology, gender division of roles and the overall

status of women. Second, in the context of poverty women's income becomes an important resource to the family and it is important to know how women make the balance in their income disposal. Also it is aimed to explore to what extent these women have their autonomy and ability to control their income.

The study focused on women within urban settings in Khartoum State. A purposively selected sample was interviewed to gain more understanding about their processes and strategies in the intended issue.

The results revealed that family well-being , especially children's health and education were with consensus, the most prominent aspects of women's income expenditure decisions. All the participants rightly perceive education (as a component of human capital) a top priority in their decision making scale. Also these women have shown high levels of altruistic behavior in expending their money to delight and care for other family members, and were found good contributors to the welfare of the family and the development of human capital.

Hosn Abboud

Saudi Business Women

Through interviews with businesswomen in Jeddah and Riyadh, we examine the investment climate and barriers for Saudi business women. Six business women were chosen from among private investment companies, women banks, the stock market and female-owned firms for this qualitative case study. An outline of family background, education, and work experience is provided along with the career position, history, and successful stories of these women. In her business domain, each woman is a pioneer and is considered a model for the young generation.

Saudi women's active role in the finance and business sector, moreover, is a valuable tool for helping the government achieve the ninth development goal, of removing investment climate barriers and helping women promote gender equality.

Noha Bayoumi

Lebanese Young Women: A Case of Professional & Financial Success

The purpose of this paper is to know the reasons behind young women's professional and financial success, why they pursue new free professions, start individual projects or work in private institutions for high wages. We were interested in knowing the private, familial and social incentives that participated in one way or another in realizing their professional and financial aims. This we did by studying the role of money in their educational, professional and private lives and the way they spend it. The study is a result of a specific approach and

interviews and with fifteen young Lebanese women who have diverse specialties, professions and positions, their ages varying between twenty and thirty years, married (45%) and single (55%), besides six ladies with different specialties and positions whose ages are between forty and fifty and who are married, with two divorcees among them. All those women belong to the many different levels of the middle class.

Elham Kallab

Le sac à main. Histoire, signe et symbole.

Cette recherche se propose de sonder à travers les périodes historiques, la présence perpétuelle du sac, cet objet « inventé pour en transporter d'autres ».

Au fil d'une profusion d'exemples et d'illustrations, elle traite de son universalité et des ses variantes riches entre Orient et Occident, citadins et nomades, ches et vagabonds, gens de métier et femmes du monde.

Elle s'enquête sur la relation de la femme contemporaine avec son sac à main et s'interroge sur la relation du sac avec l'interdit, l'imaginaire, le contenant-contenu, l'argent, la fortune, l'indépendance et le pouvoir, depuis que les femmes possèdent cet objet précieux et secret, leur propre sac à main.

Hind Al Soufi

Symboliques dans la représentation des femmes et des parures

Quelle symbolique les bijoux induisent dans l'art? Par principe. Les bijoux reflètent la richesse de celles qui les portent. Mais la femme parée n'est pas riche en elle-même, elle exhibe plutôt la richesse de l'homme, ou de l'autorité qu'elle représente (comme dans le cas des portraits de la reine Elizabeth 1...). D'autre part le bijou prend une dimension nouvelle avec les Orientalistes qui parent les femmes nues de mille pierres. L'idée est d'exprimer l'érotisme et de plaire aux exigences et fantasmes des hommes. Alors que dans l'art figuratif Islamique, les miniatures, arabes spécifiquement ne montrent qu'exceptionnellement les parures des femmes. Nous avons poussé notre recherche afin de trouver une explication dans la culture et le texte Coranique qui répugne richesse et accumulation de l'or et de l'argent. Toutefois, ce sont les miniatures turques qui se sont révélées les plus iconoclastes envers les bijoux sans mentionner que les femmes sont tenues voilées. Ce qui fatalement cache des parures qu'elles sont obligées par la loi à ne montrer qu'aux maris.

Dans le temps moderne, c'est Stella Wine qui dans ses portraits de Lady D, entame des portraits de Lady D exhibant ses parures. Alors que le modernisme est paradoxalement lié aux tendances abstraites, l'idéal de la femme moderne va en direction de la femme qui fait carrière et qui, des lors est moins sophistiquée que la séductrice et de ses accessoires...

السيرة الذاتية

سوزان عبد الرضا أبو رجيلي:

دكتوراه في علوم التربية من جامعة ليون الثانية- ١٩٩٦. وأستاذ مشارك في كلية العلوم التربوية في جامعة القديس يوسف ومديرة مساعدة لبنانية في اللبسيه الفرنسية اللبنانية الكبرى- الأشرافية. من منشوراتها: سلسلة دراسات حول النظام التربوي في لبنان، مكتب البحوث التربوية، المركز التربوي للبحوث والإنماء.سلسلة مقالات حول تقييم المناهج الجديدة في لبنان. دراسات حول «التعليم العالي وسوق العمل في لبنان»، وحول «حاجات المدارس الخاصة في لبنان». بحث إجرائي حول التسرب المدرسي، كلية العلوم التربوية والحركة الاجتماعية. ودراسة حول أثر اللبسيه على خريجيهها.

أحمد عبد الله زايد

أستاذ علم الاجتماع وعميد كلية الآداب جامعة القاهرة، ونائب رئيس الجمعية العربية لعلم الاجتماع حصل على جائزة الدولة للتفوق عام ٢٠٠٤ وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٧، عضو لجان الشفافية والنزاهة بوزارة التنمية الإدارية، وعضو اللجنة القومية للقراءة للجميع.

من أهم مؤلفاته:

- تناقضات الحداثة في مصر. صور من الخطاب الديني المعاصر. الدولة بين نظريتي التحديث والتبعية. خطاب الحياة واليومية في المجتمع المصري. العنف في الحياة اليومية للمجتمع المصري. العنف بين طلاب المدارس. البناء السياسي في الريف المصري. علم الاجتماع: النظريات الكلاسيكية والنقدية. مقدمة في علم الاجتماع السياسي.

مود اسطفان-هاشم

استاذة في علم المعلومات والمكتبات في الجامعة اللبنانية، كلية الاعلام والتوثيق. عملت في وزارة الثقافة حيث أشرفت على مشروع اعادة احياء المكتبة الوطنية وتأسيس شبكة المكتبات العامة (١٩٩٩-٢٠٠٣). ومنذ ٢٠٠٦ عضو في اللجنة العلمية للنهوض بالمكتبة الوطنية ولجنة سياسة الكتاب والمطالعة في وزارة الثقافة.

دكتوراه في العلوم الانسانية جامعة القديس يوسف، ودبلوم عالٍ في علوم المعلومات، باريس، وماستر في الفلسفة، جامعة القديس يوسف.
ميادين اهتمامها: المعلومات والنشر، السياسات الثقافية ولا سيما سياسة الكتاب والمطالعة.

عائشة حرب

أستاذة «العلوم التربوية ومنهجية البحث العلمي» والإشراف على أبحاث طلاب كلية الصحة العامة الفرع الأول- الجامعة اللبنانية. أستاذة «الادارة التربوية» والإشراف على أبحاث طلاب الدكتوراه في كلية الفلسفة والأدب والعلوم الانسانية في جامعة الروح القدس - الكسليك. مديرة فرع العلوم التمريضية في كلية الصحة العامة سابقاً- الجامعة اللبنانية. رئيسة قسم القبالة القانونية في كلية الصحة العامة سابقاً. رئيسة قسم الاشراف الصحي الاجتماعي - كلية الصحة العامة. عضو اللجنة العلمية في كلية الصحة العامة سابقاً. عضو الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية. عضو لجنة المرأة في جمعية تنظيم الأسرة في لبنان.

لها مؤلفات عديدة منها: «العلاقة المالية بين الزوجين» (٢٠٠٧) الدار العربية للعلوم، بيروت. «التنشئة المدنية كيف نتعاطى معها؟» (٢٠٠٢) الدار العربية للعلوم، بيروت. «انعكاسات الحرب على التحصيل الجامعي للمرأة» (١٩٩٢) منشورات تنظيم الأسرة، بيروت. «انعكاسات الحرب على الواقع التربوي في لبنان» (١٩٩٢) منشورات تنظيم الأسرة، بيروت. «اللامفكر فيه في الفكر التربوي الاسلامي دراسة مقارنة بين التربية المعاصرة والتربية الاسلامية».

البروفسور عدنان حب الله:

طبيب اختصاصي بالامراض النفسية وأمراض الأعصاب، ومحلل نفسي وعضو مؤسس في الجمعية الأوروبية للتحليل النفسي. مؤسس للمركز العربي للأبحاث النفسية و التحليلية. له أبحاث عديدة في اللغة الفرنسية منها: Le virus de la violence و Destin du traumatisme وباللغة العربية منها: التحليل النفسي للرجولة و الانوثة، الحدث السياسي- قراءة نفس تحليلية، مقدمة في الطب النفسي العربي، العنف الأهلي.

محمد الخشاني

دكتوراه الدولة: جامعة الأنوار- ليون - فرنسا - ١٩٩٢

أستاذ التعليم العالي بكلية الحقوق -أكدال- الرباط، عضو المجلس العلمي للكلية، تأطير حلقات دراسية في بعض الجامعات الأوروبية في ايطاليا و اسبانيا ، عضو اللجنة الجامعية المشتركة المغربية الاسبانية ، رئيس الجمعية المغربية للدراسات و الأبحاث حول الهجرة ،

خبير في الهجرة لدى عدة مؤسسات وطنية و دولية، عضو المكتب التنفيذي للجمعية الدولية للديموغرافيين الناطقين بالفرنسية. عدة بحوث ومؤلفات منها: مغاربة خارج الحدود: إشكالية الهجرة في العلاقات الأورومتوسطية (٢٠٠٤). هجرة الأفرقة جنوب الصحراء: المغرب كبلد للعبور (٢٠٠٦). المغاربة في الدول العربية البترولية (٢٠٠٧). بشراكة مع الاستاذ انريكي ميندو: الأمن و الهجرة في الحوض المتوسطي (٢٠٠٦).

مريم بوزيد سبابو

حصلت العام ٢٠٠٩ على دكتوراة دولة من جامعة الجزائر، حول: دور الغناء والموسيقى في تشكيل الهويات الاجتماعية عند توار؟ الأجزر. وهي أستاذة بحث تصنيف أ. وتدرس بالمركز الجامعي العربي التبسي(تبسة) (طلبة ماستر تخصص أنثروبولوجيا) ٢٠٠٨-٢٠٠٩. لديها العديد من المقالات المنشورة آخرها إحتفالات عاشوراء في بلاد الطوارق ٢٠٠٨، الشبقيّة: المفهوم والممارسة في الجزائري وأسطورته(٢٠٠٣). ولديها كتابان: سببية تللين. عيد عاشوراء لدى «كيل جانت». دار خطاب ٢٠٠٧. سيدات الجلالة، خوض في تاريخ المنسيات. دار خطاب ٢٠٠٧.

دلال البزري

لبنانية. مقيمة في القاهرة. ١٩٨٥-١٩٩٠ أستاذة مساعدة في معهد العلوم الاجتماعية. الجامعة اللبنانية. ١٩٩٩ وحتى الآن باحثة في علم الاجتماع وكاتبة عمود في الحياة اللندنية. منشوراتها بالعربية: نيا الدين و الدولة. دار النهار. بيروت. ١٩٩٤. غرامشي في الديوانية. دار الجديد. بيروت. ١٩٩٥. اخوات الظل و اليقين. دار النهار. بيروت. ١٩٩٥. السياسة اقوى من الحداثة. دارميريت. القاهرة. ٢٠٠٣. المرأة في العمل الاجتماعي. بالاشتراك مع عزة بيضون. دار الجديد. بيروت. لبنان. ١٩٩٨.

منشوراتها بالفرنسية: L'ombre et son double. Centre d'étude et de recherche sur le Moyen-Orient contemporain. Cermoc. Beirut, Lebanon 1995. Islamistes, Parlementaires et Libanais. Cermoc. Beirut, Lebanon. 1999

ساهمت في العديد من المؤلفات المشتركة باللغتين العربية والفرنسية. فضلا عن اوراق بحثية في ندوات ومؤتمرات عربية وعالمية. حررت عددا من المؤلفات بالعربية. وهي عضو مؤسس وعامل في تجمع الباحثات اللبنانيات.

عائشة التايب

من مواليد سنة ١٩٦٧ بالجنوب التونسي تعمل أستاذة علم الاجتماع بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، جامعة تونس المنار. حاصلة على دكتوراه في علم الاجتماع سنة

١٩٩٨ من جامعة تونس الأولى حول موضوع الهجرة السرية والتجارة الموازية والتهريب عبر الحدود التونسية الليبية. عملت كخبيرة بإدارة التخطيط والبرامج بمنظمة المرأة العربيّة بالقاهرة وكخبيرة مستشارة في مجال تنمية المجتمعات الريفيّة لدى عدد من الهيئات الدولية كالبنك الدولي والبنك الألماني للتنمية والبنك الياباني للتعاون.

لها عدد من الكتب والدراسات والبحوث العلميّة المنشورة باللغتين العربية والفرنسيّة في تونس وفرنسا وفي عدد من الدول العربيّة حول مسائل المرأة والنوع الاجتماعي وقضايا الهجرة والعمل الموازي وسوسيولوجيا الإقصاء والتهميش.

وداد عبد الرحمن:

دكتورة في دراسات الجندر والتنمية. أستاذة في جامعة الأحفاد في السودان بالإضافة إلى عملها في الجامعة في أنشطة التدريب ورسم البرامج وتنفيذها والبحوث في مجال الجندر والصحة الانجابية والتنمية. قدمت أوراق في مؤتمرات عديدة منها ورقة حول بحث الجندر والدراسات النسائية في جامعة هامبولدت في برلين، وورقة حول دور مشاريع القروض الصغيرة للنساء في قطاع الغذاء وتطوير الرأسمال الاجتماعي في المؤتمر الاقليمي للمجلس العربي للبحوث العلمية. من منشورتها: دليل دراسي لمقرر الدراسات النسائية في جامعة الأحفاد (مشترك) ودليلان تدريبيان، واحد حول الجندر وتمكين المرأة، والثاني حول الجندر والصحة الانجابية والحقوق (مشترك).

حُسن عبّود

دكتورة في الدراسات والفلسفة الإسلاميّة من جامعة تورنتو (كندا) مع التركيز على قضايا المرأة والجندر. ستُنشر أطروحتها حول «السيدة مريم في القرآن الكريم: مقارنة أدبيّة» عن دار الساقبي (خريف ٢٠٠٩). نشرت أبحاثاً في أدب التفاسير القرآنيّة وفي النقد الأدبي النسوي، وحاضرت في أحرام جامعيّة (في كندا وألمانيا ولبنان) وفي معاهد دينيّة ومراكز حضاريّة (في لبنان والبلاد العربيّة). لها عدّة مراجعات كتب ومقالات حول النسوية والإسلام والكتابات النسويّة العربيّة، وأدب الرحلة. وهي عضو في «تجمّع الباحثات اللبنانيّات»، وعضو مؤسس في حركة «درب مريم» الناشطة للحوار المسيحي الإسلامي.

نهى البيومي

أستاذة الأدب الفرنسي في الجامعة اللبنانية، متخصصة بالنقد الأدبي والثقافي ودراسات المرأة. عضوة في تجمع الباحثات اللبنانيات وجمعية السير الذاتية الفرنسية ومركز الأبحاث السريالية الفرنسي.

ساهمت في تنسيق مشاريع بحثية جماعية في إطار الباحثات، كما ساهمت في إعداد

عدة مؤتمرات دولية وعربية في اطار التجمع وخارجه ، آخرها مؤتمر النسوية العربية: رؤية نقدية، الذي سيعقد بتاريخ ٤-٧ أكتوبر ٢٠٠٩ في بيروت.

كما شاركت في إعداد تقارير دولية وعربية تعنى بالمرأة، منها تقرير أنصاف النساء (كوثر تونس ٢٠٠٦-٢٠٠٧) وتقرير التنمية الإنسانية حول «نهوض المرأة العربية» ٢٠٠٦-٢٠٠٥ وأعدت برامج أكاديمية في جامعة البحرين ٢٠٠٢-٢٠٠٦.

ومن أبحاثها: الباحثة والبحث النسوي، البحرين الثقافية، عدد يوليو ٤٥، البحرين ٢٠٠٦. سيرة أمومة عبر الحدود (رسائل أم لابنها)، باحاثات ١١، ٢٠٠٦-٢٠٠٧. النساء والتحولت السياسية في البحرين: السياسة وحجاب الواقع، حوار العرب، بيروت يوليو ٢٠٠٥. ذكورة/ أنوثة وقلق الهوية: قراءة في سيرة إدوارد سعيد، باحاثات ٩، ٢٠٠٣-٢٠٠٤.

الهام كلاب

دكتورة في تاريخ الفن والآثار من جامعة السوربون في باريس.

أستاذة في الجامعة اللبنانية - معهد الفنون. وفي جامعة القديس يوسف في بيروت - معهد الدراسات الإسلامية المسيحية. مديرة سابقة لمركز علوم الإنسان للأونيسكو في جبيل. ناشطة في مجال المجتمع المدني ومشاركة في العديد من المؤتمرات. لها دراسات عن صورة المرأة في الكتب المدرسية وتاريخ الأشياء اليومية وتاريخ الفنون والحضارات والتربية والاجتماع. وهي عضو مؤسس وعامل في «تجمع الباحثات اللبنانيات»، وفي الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية.

هند الصوفي:

استاذة في كلية الفنون والتربية/الجامعة اللبنانية وباحثة في قضايا الفن العربي الحديث والمعاصر وفي دراسات الجندر. أهم أبحاثها المنشورة: «أيقونية الذكورة بين الثبات والتحولت» باحاثات ١٢. «تمثلات الجنس في النص التشكيلي»، مجلة الفن والعمارة ، العدد ٢. جائزة النقد الفني: «الريادة في الفنون التشكيلية العربية»، الشارقة، ٢٠٠٨. «بين تجربة السذاجة وسذاجة التجربة»، داره الفنون/وزارة الثقافة، الشارقة. «أم كلثوم: أسطورة أم فعل إرادة»، (باحثات ١٠). «الصورة: من الخلود إلى جمالية الزوال» (باحثات ١١) «أيقونوغرافيا الحب والجنس: جمالية المكشوف والمستور» (باحثات ٨) «نظرة فن الحدأة العربي إلى الغرب»، (باحثات ٦).

صدر من باحثات

باحثات I (1994)

المرأة والسلطات

باحثات II (1995)

المرأة والكتابة

باحثات III (1996 - 1997)

البحث والباحث في العلوم الإنسانية في العالم العربي

باحثات IV (1997 - 1998)

موقع المرأة في السياسة: في لبنان والعالم العربي

باحثات V (1998 - 1999)

الغرب في المجتمعات العربية: تمثلات وتفاعلات

باحثات VI (1999 - 2000)

الإعلام والاتصال في مجتمعاتنا

باحثات VII (2000 - 2001)

الجامعات في لبنان والعالم العربي: نساء - رؤى - قضايا

باحثات VIII (2002 - 2003)

مسارات الحب بين المُتخيل والمُعاش: أبحاث وشهادات

باحثات IX (2003 - 2004)

النساء في الخطاب العربي المعاصر

باحثات X (2004 - 2005)

الصورة وتجلياتها البصرية في الثقافة العربية

باحثات XI (2005 - 2006)

حفريات وتحريات: حيوات نساء عربيات

باحثات XII (2006 - 2007)

الرجولة والأبوة اليوم

PAST VOLUMES OF BAHITHAT

BAHITHAT VOL. I (1994)

WOMEN AND AUTHORITY

BAHITHAT VOL. II (1995-1996)

WOMEN AND WRITING

BAHITHAT VOL. III (1996-1997)

RESEARCH AND THE RESEARCHER IN HUMAN
SCIENCES IN THE ARAB WORLD

BAHITHAT VOL. IV (1997-1998)

THE STATUS OF WOMEN IN POLITICS IN LEBANON
AND THE ARAB WORLD

BAHITHAT VOL. V (1998-1999)

THE WEST IN ARAB SOCIETIES: REPRESENTATION
AND INTERACTION

BAHITHAT VOL. VI (1999-2000)

MEDIA & COMMUNICATION IN OUR SOCIETY

BAHITHAT VOL. VII (2000-2001)

THE UNIVERSITIES IN LEBANON AND THE ARAB
WORLD (WOMEN, VISIONS AND ISSUES)

BAHITHAT VOL. VIII (2002-2003)

PATHS OF LOVE

BETWEEN IMAGINATION & EXPERIENCE

BAHITHAT VOL. IX (2003-2004)

DISCOURSE ON WOMEN IN THE CONTEMPORARY
ARAB WORLD

BAHITHAT VOL. X (2004-2005)

THE IMAGE AND ITS VISUAL REPRESENTATIONS IN
ARAB CULTURE

BAHITHAT VOL. XI (2005-2006)

OUT OF THE SHADOWS:

INVESTIGATING THE LIVES OF ARAB WOMEN

BAHITHAT VOL. XII (2006-2007)

MASULINITY AND PATRIARCHY IN THE
CONTEMPORARY SOCIETY

Women, Wealth & Money in Arts

- The Lady Handbag: History & Connotations Elham Kallab 3069
- Meanings & Symbols of Women Wealth in Pictorial Art
..... Hind El Soufi 337

Testimonies & Points of View

- Women Relation to Wealth: an Educational or Genetical Issue
..... Fadwa Mardam Bey Mansour 368
- Penny by Penny..... Racha El Ameer 370
- A Woman Sewing Her *Sitra*..... Rayya El Itani 375
- People Are There for Each Other..... Dahar Jalal Eddine Jubaili 378
- About the Experience of a Bank Director..... Narrimane El Sahily 383
- She Borrowed Money & Became "Rich"... Watfa Hamadeh 385
- A Woman Leadership in a Family Business..... Daah Al Jassem 390

الرجاء ترجمة عنوان مقالة هبة رؤوف عزت + الاسم

^*****

Appendices

- 1: Abstracts of Papers 398
- 2: Contributors to this volume 405

- Contents in English 413

CONTENTS

Contents (in Arabic).....	4
Introduction.....The coordination committee	6

The Core Study:

- Female Bank Customers in Lebanon: Characteristics of their Financial Behavior Suzanne Abou Rjeili 15

Financial Behavior of Women: its Psychological, Social & Economic Impact

- A Space for Power or a Space for Living: Egyptian Working Women and Money Ahmad Zayed 40
- Women Writers & Author's Copyright in Lebanon... Maud Stephan 77
- Marital Conflicts over Money Aicha Harb 104
- Women's Relation to Money: a Psychoanalytical Approach Adnan Houballah 134

Economic Situation of Women between Immigration & Settlement

- Economical Situation of Moroccan Immigrant Women Mohamed Khachani 167
- Women's Land Property among Tawareq Meriem Bouzid 168
- Economic Immigration of Young Lebanese Women .. Dalal El Bizri 184

Arab Business Women

- Arab Business Women: A Sociological Reading ... Aicha Al Tayeb 200
- Sudanese Business Women in Small Entreprises Widad abdel Rahman 228
- Saudi Business Women..... Hosn Abboud 245
- Lebanese Young Women: A Case of Professional & Financial Success..... Noha Bayoumi 275